



جامعة أم درمان الإسلامية

كلية الدراسات العليا

كلية اللغة العربية

الدراسات الأدبية والنقدية

شعراء ومفكرون حول سيف الدولة الحمداني

بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه

**إشراف أ. د:
صالح آدم بيلو**

**إعداد:
إحسان محمود سليمان**

١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾

صدق الله العظيم
سورة الإسراء الآية "٨٥"

الإهداء

إلى روح والدي عليه رحمة الله
إلى روح شقيقي الشهيد (الذير)
تقبله الله مع الصديقين والشهداء
إلى روح صديقتي إقبال رحمها الله
وإلى:

أساتذتي الأجلاء وأفراد أسرتي الأعزاء
وكل الصديقات والزملاء حباً وعرفاناً وخير ولاء
وبذلاً وامتناناً ووفاء وانتماء بلا حدود ولا انتهاء

الباحثة

الشكر والعرفان

الشكر في البدء والمنتهى لله العلي القدير، الذي يسّر لي الكتابة في هذا الموضوع، وهياً لي من سبل إعدادة، وهذه نعمة والنعم تستوجب أن نشكر الله عليها، ألم يكن هو القائل: (لئن شكرتم لأزيدنكم)^(١).

وجزيل شكري، وعظيم امتناني، لجامعة أمدرمان الإسلامية منارة النور والمعرفة، ومصدر الإشعاع الفكري والحضاري، التي تشرفت بإبلاغ أشرف رسالة من: علوم الدين، واللغة العربية، وغيرها من العلوم، وشرفتي بالانتماء إليها والانتساب لها.

والشكر والتقدير لأبي البروفيسور: صالح آدم بيلو العالم الجليل، الذي كان وما يزال بحر علم لا ينضب معينه.

ويعترف كل طلابه الذين تفضل بالإشراف على بحوثهم، بأن اسمه كان قلادة فخر على أولى صفحات رسائلهم؛ لأنه علّمنا أن البحث العلمي لم يكن مجرد نقل من صفحات المصادر والمراجع والكتب، وإنما هو إحساسنا بأننا نقدم رسالة سامية خلفها ثمره مرجوة، وأنه لا يتم ذلك إلا بالجدّ والاجتهاد والاطّلاع، والتأمل والتفكير، والتدقيق والتحصيص، والحرص والروية، وحسن الاختيار والمفاضلة والموازنة، والثقة والصبر والمثابرة.

ولإرشاداته الرشيدة، وتوجيهاته الدقيقة، وحسه الأدبي الرفيع، بصمات واضحة على هذا البحث، جزاه الله عني خير الجزاء، ومتمّعه بالصحة والعافية.

والشكر الجزيل أيضاً للأستاذين الجليلين: عبد العزيز محمد حبيب الله، المدير الفني للتعليم الثانوي بمحلية أمبدة وحسن رابع موجه اللغة الإنجليزية بالمرحلة الثانوية، والأستاذة/ نادية طه مديرة مدرسة الشهيد/ إبراهيم شمس الدين الثانوية النموذجية بأمبدة، والدكتور/ نور الدين عوض الكريم نائب عميد كلية الدعوة والثقافة الإسلامية بجامعة أم درمان الإسلامية.

وأخيراً أشكر أفراد أسرتي الأجلاء، وزوجي العزيز، وصديقاتي الأوفياء، والشكر موصول للأخ/ سعد عبد السخي الذي قام بطباعة هذا البحث.

فلهؤلاء جميعاً خالص شكري وفائق تقديري،،،

(١) سورة إبراهيم، الآية ٧.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين؛ والصلاة والسلام على أشرف خلق الله أجمعين،
محمد بن عبد الله الصادق الأمين، وعلى آله، وصحبه، ومن تبع هداه إلى يوم
الدين.

أما بعد: فقد أدى الشعر والفكر دوراً حيوياً مهماً في تصوير الحياة
بمختلف جوانبها في بلاط الأمير سيف الدولة الحمداني، وفي عكس روح الحياة
في العصر العباسي الثاني، وقد فعلت الأقلام ما تفعله السهام في توطيد دعائم
الدويلات، وفي تحقيق الأهداف والغايات، ونجدها عند شعراء الأمير قد أصابت
جودة نادرة في التعبير، وغاية سافرة في التصوير، وروعة ساحرة في التأثير،
وعكف العلماء على دراسة اللغة العربية وفنونها، فكشفوا أسرارها، وتعمقوا في
سير أغوارها، وصانوها من اللحن، كما كانت الجهود العلمية، والفكرية في ذلك
العصر الأساس الذي أُقيم عليه بنیان الحضارات العريقة التي امتدت شرقاً
وغرباً، وقد اخترت أن يكون عنوان هذه الدراسة:

(شعراء ومفكرون حول سيف الدولة الحمداني)، وذلك لعدد من الأسباب

أهمها:

- أن الموضوع لم يوفَ حقه في الدراسة والتناول.
- أردت أن تكون دراستي في هذه الحقبة من تاريخ الدولة العباسية؛ لأنها
حقبة ثرة بإنتاج الفكر، وثمرات القرائح، وقد أعطت من الشعراء أمثال
المتنبي، أبا فراس، والنامي، والبيغاء، والصنوبري، وكشاجم، والسري
الرفاء، والخالديين، وابن نباتة السعدي، والوأواء دمشقي وغيرهم، ومن
المفكرين أمثال: الفارابي وأبا الفرج الأصبهاني، وابن جنّي، وابن خالويه،
وعبد العزيز الخوارزمي، وابن نباتة الفارقي، وغيرهم.
- أردت -كذلك- أن أقف وقفة وفاء لأولئك العظماء الذين أحاطوا ببلاط
الأمير سيف الدولة؛ لأنهم أبلوا بلاءً حسناً في بناء الفكر الإنساني،
وساهموا مساهمة فعّالة في بناء صرح التراث اللغويّ والإسلامي، وهم في

سبيل ذلك ضحوا بأعمارهم، ووهبوا أنفسهم للجهاد في سبيل طلب العلم والمعرفة، وقد كلفهم ذلك العمل جهداً لا يعرف الكلل، واجتهاداً لم يخالطه سأم، وتضحية جديرة بالإعجاب، والتقدير، والوفاء. أرجو أن نجعلهم المثال الذي به يُحتذى، والقذوة التي بها يُقتدى، والشمس التي بها يُهتدى.

■ أن تراثنا العربي والإسلامي يحتاج إلى قراءة جديدة تتناسب وروح هذا العصر.

وتتلخص أهم هذه أهداف هذه الدراسة فيما يلي:

■ إبراز جانب مضيئ من الدور الذي لعبته شخصية "سيف الدولة" في الميدانين الأدبي والسياسي، فقد كان بلاطه ملاذاً آمناً للمفكرين والشعراء؛ لأنه قدّم لهم ما يكفيهم شرّ المؤونة والفقر، فقدموا للأمة ثمرات عقولهم.

■ إن انقسام الدولة العباسية إلى مجموعة من الدول نافست العاصمة الزمنية والروحية، لم يكن سبباً في ضعف الفكر والأدب.

■ إيضاح أن المنافسة بين الأمراء والحكام في اجتذاب أميز رجال العلم والأدب، أحدثت ثورة علمية عامّة، ونهضة فكرية شاملة وحركة أدبية مزدهرة.

■ أن الشعر -على وجه الخصوص- الوسيلة الإعلامية الأهم، في إذاعة مناقب الأمراء والحكام، ونشر مآثرهم وتحقيق شهرتهم وتوطيد دعائم حكمهم كما أدت المنافسة بين الشعراء إلى تجديد وتجويد أغراض الشعراء، ودعتهم إلى الإبداع والابتكار.

■ تبين أن المنافسة بين الشعراء أدت إلى تجديد وتجويد أغراض الشعر، ودعت إلى الإبداع والابتكار.

■ الحق أن المفكرين، والشعراء، والأدباء، والأمير سيف الدولة قد أثروا وأثروا في حركة الفكر والأدب والنقد. وأني آمل في أن أخلص إلى نتائج أضمنها تقرير البحث.

■ ومن الأهداف التي أرمي إليها -أيضاً- أن أضيف إلى محصلة معلوماتي الكثير مما كنت أجهله عن تاريخ تلك الحقبة، وعن أولئك العلماء الأفاضل، وعن الأدباء والشعراء الذين عاصروا أدباء وشعراء لا يشق لهم غبار مثل: المتنبي، وأبي فراس، مما جعل الكثيرون منا يجهلون عظمة أمرهم وهم أهل للشهرة والسمو.

أهمية الموضوع:

تتمثل أهميته في أن التاريخ كاد أن يعيد نفسه في بعض جوانبه، فالأمة العربية المسلمة عندما اتصلت بالفكر الوافد والثقافات الأجنبية، تمزقت تمزقاً امتد ليشمل كل شيء: السياسة، الفكر، الأدب، المجتمع، أساليب الحياة اليومية^(١)، فهي أمتنا الآن -تستبدل الشعبية بالامبريالية "الغزو الفكري الغربي"، وما أكثر وسائل أولئك وهؤلاء في تحقيق أهدافهم، فالعلم الذي وفد إليهم من سخره باسم الحضارة والرقي لمحاربتنا في كل شيء، ولإفساد أخلاق شبابنا عبر الفضائيات، وغيرها.

ما ينتظر من علمائنا وأدبائنا استثمار طاقاتهم الفكرية، وملكاتهم الخيالية، ومواهبهم الفنية؛ لهدم تلك المبادئ الفكرية الخبيثة المستوردة من أعداء العرب والمسلمين، وسدّ الباب أمام دعائها، كما يجب تنبيه النشء والشباب للتمييز بين خيرها وشرّها.

ولإحساسنا المرير بالهزيمة في كل شيء كان من المنطقي دراسة تلك التجربة، والوقوف على إيجابياتها وسلبياتها، علّنا نأخذ من ماضي الأمة العبرة والزاد، ليومها المائل، وغدها المأمول.

الحق أن تراثنا العربي والإسلامي ثروة عظيمة وإرث نادر، إلا أنّ قيمته عرفها الغرب قبل أن يعرفها المسلمون والعرب، وظللنا نحن أغنياء فقراء، وعلماء جهلاء، وصدق القائل:

كنا أساتذة الدنيا وقادتها * والغرب يخضع أن قمنا نناديه

(١) الثقافات الأجنبية في العصر العباسي، ١٣٢هـ، ٣٣٤هـ، وصادها في الأدب، لصالح آدم بيلو، مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ص ٥ بتصرف.

واليوم تقنا لعزّ فرّ من يدنا * فهل يعود لنا ماضيّ نناجيه؟؟
فهذا التراث قد شمل كل فنّ، وألمّ بكل علم، وبرع في كل ضرب،
ومازالت الأقلام تسنّفه ولا تنقصه، ولكن الذي ينقصه الفهم، والصقل، والتبويب،
والبحث.

إن أهمية ما خلفه العلماء والشعراء في بلاط الأمير، جعلهم يتخطون
حدود الأمكنة والأزمنة، بالرغم من أنّ الذي بين أيدينا مما خلفوه قليل من كثير
ذهبت به أيدي النائبات، إلا أن ما بقي ظل شاهداً على عظمتهم، وعظمته
ودليلاً على قيمتهم، وبرهاناً على تميزهم وتفردهم.

وحقيقة أنني عندما طالبَ بحثي في الاطلاع على مظان هذا البحث
أحسستُ بأنني يحضرنى قول المتنبي:

أهم بشيء والليالي كأنها * تطاردني عن كونه وأطارد^(١)

ومن بعد بحث طويل، وصبر جميل، وجهد متواصل، وقراءة متأنية
تفتحت أمامي أبواب واسعة وتكشّفت لي أسرار رائعة، ولا أستطيع أن أنكر أن
هذه الدراسة المترامية الأطراف قد أفادتني كثيراً وبها عرفت سبيل الدربة على
البحوث العظيمة.

وقد اعتمدت في ترتيب مادة البحث، وتنظيم المعلومات على المنهج
الاستقرائي والوصفي والتحليلي. كما اعتمدت في توثيق مادة البحث على
المصادر التي تعدّ من أوثق المصادر، وأكثرها دقة، وأحرصها تحريماً في الرواية،
وبعد أن قرأتها مرات ومرات اتخذتها أساساً لبحثي، دون الميل إلى هوى أو
التعصب إلى رأي.

وقد كنت صديقة وفيّة لدواوين الشعراء، ومن المصادر والمراجع التي
استعنت بها غير تلك الدواوين:

■ يتيمة الدهر للثعالبي، ووفيات الأعيان لابن خلكان، والكامل لابن الأثير،
والفهرست لابن النديم، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي.

(١) ديوان المتنبي، شرح وتحقيق عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، ط٣، بيروت، ج١، ص٣٩٢

- معجم الأدباء لياقوت، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي.
- طبقات الحكماء لابن أبي أصيبعة، تاريخ الفلسفة الإسلامية لدى يور ترجمة أبي ريدة العلماء العرب والمسلمين لعائدة مفلح وفاطمة العويدي.
- فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين لمصطفى الشكعة، الشعر في رحاب سيف الدولة لسعود محمود عبد الجابر الشعر في ظل سيف الدولة لدرويش الجندي.
- هذا بالإضافة إلى مجموعة من كتب تاريخ الأدب العربي، والنقد وغيره. ويتألف هيكل هذا البحث من مقدمة، وستة فصول، وخاتمة وهيكله الذي رأيتُه وافياً بموضوعه يبدو على النحو الآتي:-

الفصل الأول: صورة الحياة في العصر العباسي، وفي دولة بني حمدان:

- المبحث الأول: الحياة السياسية والاقتصادية.
- المبحث الثاني: الحياة الاجتماعية.
- المبحث الثالث: الحياة العقلية والثقافية.
- المبحث الرابع: الأسباب التي أسهمت في ارتقاء الأدب والشعر وازدهار العلوم والفكر في بلاط الأمير سيف الدولة.

الفصل الثاني: أعلام الشعراء في بلاط الأمير سيف الدولة:

- المبحث الأول: المتنبي، وأبو فراس.
- المبحث الثاني: النامي، والبيغاء.
- المبحث الثالث: السريّ السري الرفاء والخالديان.
- المبحث الرابع: الصنوبري وكشاجم.
- المبحث الخامس: ابن نباتة السعدي، والوأواء الدمشقي.

الفصل الثالث: أغراض الشعر وفنونه في ظل الأمير سيف الدولة:

- المبحث الأول: الأغراض التقليدية "المديح، الفخر، الرثاء".
- المبحث الثاني: الأغراض التقليدية المتطورة: الهجاء، الغزل، الخمر، التشييع والأخوانيات، والشكوى والصيد والطرْد.

- المبحث الثالث: الأغراض المستحدثة: وصف الطبيعة، وصف مظاهر الحياة الاجتماعية، شعر الجهاد والحرب.
- المبحث الرابع: الخصائص الفنية للشعر (الموضوعية والأسلوبية) في ظلال الأمير سيف الدلة.

الفصل الرابع: أهم المفكرين في بلاط الأمير سيف الدولة:

- المبحث الأول: الفارابي.
- المبحث الثاني: ابن جنّي، وابن خالويه وأبو علي الفارسي.
- المبحث الثالث: أبو بكر الخوارزمي وأبو الفرج الأصبهاني.
- المبحث الرابع: ابن نباته الفارقي.
- المبحث الخامس: مفكرون آخرون (ابن كشرابيا- أبو الطيب اللغوي- كشاجم).

الفصل الخامس: ملامح الإنتاج الفكري والجهود العلمية عند العلماء في بلاط الأمير سيف الدولة، وأهم خصائصه:

- المبحث الأول: ملامح الإنتاج الفكري والجهود العلمية في فلسفة وفكر الفارابي.
- المبحث الثاني: ملامح الإنتاج الفكري والجهود العلمية عند ابن جنّي، وابن خالويه وأبو علي الفارسي من خلال كتبهم (الخصائص، والمحتسب، وإعراب ثلاثين سورة من القرآن، والإيضاح والتكملة).
- المبحث الثالث: ملامح الإنتاج الفكري والجهود العلمية عند: عبد العزيز الخوارزمي من خلال كتاب رسائله وأبي الفرج الأصبهاني من خلال كتابه الأغاني.
- المبحث الرابع: ملامح الإنتاج الفكري (النثر الخطابي) عند ابن نباته الفارقي.
- المبحث الخامس: الخصائص الفنية للنثر التأليفي والنثر الإنشائي في ظلال الأمير سيف الدولة.

وأخيراً ختمت بحثي بخاتمة، تبين ما استخلصته من هذه الدراسة من نتائج وملاحظات، وتوصيات، وتلت ذلك قائمة المصادر والمراجع، والفهرست.

الباحثة

الفصل الاول

المبحث الأول

الحياة السياسية والاقتصادية

يبتدئ العصر العباسي في التاريخ السياسي سنة ١٣٢هـ وينتهي سنة ٦٥٦هـ^(١).

كانت الدولة العباسية الأولى عنواناً للقوة والمنعة والعزة والشرف. اعتمد خلفاء الدولة العباسية الأوائل في تنفيذ سياساتهم على الفرس اعتماداً كبيراً؛ لكنهم عندما أحسوا بسوء نواياهم ويخطرهم على سيادتهم، عملوا على كبح جماحهم، ففضى المنصور على أبي مسلم، وفتك الرشيد بالبرامكة، واحتال المأمون على الفضل^(٢)، وعندما فقد المعتصم الثقة بالفرس كانت الطامة الأخرى؛ لأنه مال إلى الترك وكانت أمة تركية - فميزهم وبنى لهم "سامراء"^(٣)، ووضعهم في أكبر مناصب الدولة، فقوى سلطانهم، واستولوا على الخلفاء، وصاروا يولون ويعزلون، ويتصرفون في شؤون الدولة كما يشاؤون، وقد ظهر شرهم أول ما ظهر في قتلهم المتوكل، ثم قتلوا المعتز، والقاهر، والمستكفي^(٤). وبعد أن كان القواد يحلفون للخليفة بالطاعة والولاء صار الخليفة يحلف لهم^(٥).

ثم ما لبثت بغداد عاصمة الدولة العباسية أن سقطت تحت سلطان الديلم، الذين صار بأيديهم القطع والوصل، والولاية والعزل، فمثلوا بالخلفاء

(١) الكامل في التاريخ، لابن الأثير، دار صادر، بيروت ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، ج ٥، ص ٤٠٨.
(٢) تاريخ الإسلام الديني، والثقافي والاجتماعي، لحسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، ط ٢، ١٩٧٩م، ص ٢٨، ص ٤٦ وما بعدها.
(٣) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لابن تغري بردي، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، مصر، ج ٢، ص ٢٣٣، ومروج الذهب ومعادن الجوهر، للمسعودي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، ج ٢، ص ٣٦٦.
(٤) الكامل، لابن الأثير، ص ١٧٣، ١٧٧.
(٥) المرجع السابق، ج ٨، ص ١٧٦.

وبالغوا في إهانتهم^(١). وقد بلغ الخلفاء من الضعف ما لا يتصوره عقل ولا تصدّقه أُن. تصدّقه أُن.

والقارئ لصفحات التاريخ السياسي في تلك الفترة، يبكي من أعماقه على ما آلت إليه الخلافة من ذُل وهوان؛ ويدرك أنّ الحال منذرة بغياب شمس الخلافة، ومثذنة بأقول نجمها.

ولم تدع الثورات الداخلية والمظاهرات، لم تدع مجالاً للهدوء في العراق عامة وفي بغداد خاصة، فلا يكاد يمر يوم دون فتنة تقع، أو وقعة تحدث، سواء أكان صراعاً سياسياً بين الترك والديلم، أم خلافاً مذهبياً بين السُنّة والشيعة^(٢). والجدير بالذكر أن السلاطين الأعاجم^(٣) كانوا يعمقون من أسباب الخلاف بين السُنّة والشيعة، ويؤججون نيران الفتنة بينهم؛ ليشغلوا الشعب عن جرائمهم؛ وليصلوا إلى أهدافهم ومآربهم.

أما القرامطة فقد عاثوا في الأرض فساداً، فتارة يغيرون على الشام، وتارة أخرى يغيرون على العراق، وأخيراً لم يتورعوا عن قتل الحجاج حول بيت الله الحرام، واغتصاب الحجر الأسود ونقله إلى عاصمتهم هجر^(٤).

وقد كان الصراع محتدماً في شمال العراق ومنطقة الخيرية والفرات بين القبائل العربية والأكراد، وتتصدر القوى العربية قبيلة بني حمدان^(٥). وتمكن البريديون من امتلاك واسط والبصرة، وأخذوا يشنون غاراتهم على بغداد بين حين وآخر^(٦).

وفي ظل هذه الفوضى السياسية، انقسمت الدولة العباسية إلى مجموعة من الدول والإمارات والتي منها:

(١) البداية والنهاية، لابن كثير، مطبعة دار المعارف، ط٢، ١٩٦٦م، ج١، ص ٢١٢ وما بعدها. الكامل، ج٨، ص ٤٥٠ وما بعدها.

(٢) تاريخ ابن خلدون، دار الفكر، ط١، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، ج٤، ص ٤٤٨.

(٣) المصدر السابق، ج٤، ص ٤٤٢، والكامل، ج٨، ص ٥٤٢، ٥٤٣.

(٤) المختصر من أخبار البشر، لأبي الفداء، المطبعة الحسينية المصرية، ط١، ج٢، ص ٧٤.

(٥) الكامل، لابن الأثير، ج٨، ص ٣٨٢، والبداية والنهاية، ج١١، ص ٢١١.

(٦) المختصر من أخبار البشر، ج٢، ص ٧٢، ٧٣.

دولة بني بويه في العراق وفارس، ودولة الإخشيديين في مصر، وسوريا،
ودولة الفاطميين في أفريقيا، ودولة الأمويين في إسبانيا، ودولة القرامطة في
البحرين، ودولة الديلم في جرجان، ودولة البريديين في البصرة وواسط، ودولة
الحمدانيين في الموصل وحلب وديار ربيعة.
الحمدانيون:

ينتمي الحمدانيون إلى قبيلة تغلب^(١)، وهي أعظم قبائل ربيعة شأناً في
بلاد العرب، وقد أكد ذلك عدد من الشعراء الذين عاصروا الدولة الحمدانية،
ومنهم أبو فراس الحمدانيّ، والسريّ الرّفاء، والمتنبي، قال المتنبي مادحاً سيف
الدولة^(٢):

مَنْ تَغَلَّبَ الْغَالِبِينَ النَّاسَ مَنْصِبُهُ * وَمِنْ عَدِيٍّ أَعَادِي الْجُبْنِ وَالْبَخْلِ
وقال السري الرفاء مادحاً ناصر الدولة الحمداني^(٣):

وغدوت رُكناً في الخطوبِ لتغلبِ وبدأ لها في المكرماتِ وساعدا
يرتبط اسم قبيلة تغلب في الجاهلية بجارتها قبيلة بكر، التي دخلت
معها في حرب طويلة الأمد، وهي: حرب البسوس المشهورة^(٤).
وعرفت هذه القبيلة بكثرة عددها؛ وبأنها في الحروب ما لا نت لها
عزيمة، وما انكسرت لها قناة، وما قصر بها ساعد، وكانت لها عزّة ومنعة
وسيادة على القبائل. وقد قيل فيها: "لو أبطأ الإسلام قليلاً لأكلت بنو تغلب
الناس"^(٥).

(١) راجع العقد الفريد، لأحمد بن محمد عبد ربه، تحقيق محمد سعيد العريان، طبعة دار الفكر، د. ت،
ج ٣، ص ٢٧٦، ونهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، لأبي العباس أحمد القلقشندي، ت إبراهيم الأنباري، دار
الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط ٣، ١٤١١هـ - ١٩٩١م، ص ٢٣٦.

(٢) ديوان المتنبي، شرح وتحقيق عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، ط ٣، بيروت، ج ٣، ص ٢٠٤.

(٣) ديوان السري الرفاء، عن نسختي تيمور باشا والبارودي، دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٤١١هـ،
١٩٩١م، ص ٨١.

(٤) معجم قبائل العرب، لعمر رضا كحالة، دار العلم، ط ٢، ١٩٦٨م، ج ١، ص ٩٣.

(٥) معجم قبائل العرب، لعمر رضا كحالة، ج ١، ص ٩٣.

من صفحات تغلب الماجدة في سجلات التاريخ، قصة عمرو بن كلثوم
مع عمر بن هند ملك الحيرة^(١).

وقال الأخطل مفتخراً^(٢):

أَبْنِي كُلَيْبٍ إِنَّ عَمِّيَ اللَّذَا * قَتَلَا الْمُلُوكَ وَفَكَّكَ الْأَغْلَالَ

ويعني بعميه عمراً ومرةً ابني كلثوم، ويقال: إن مرة بن كلثوم هو
قاتل المنذر بن النعمان بن المنذر.

كانت قبيلة تغلب تقيم في جزيرة العرب، رحلت منها إلى بلاد الروم،
ثم عادت إليها في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، ففرض عليهم جزية،
رفضوا دفعها قائلين له: "يا أمير المؤمنين لا تذلنا بين العرب باسم الجزية،
واجعلها صدقة مضاعفة، ففعل"^(٣). وهذا يثبت أنفة هذه القبيلة وعزتها.

يقول ابن خلدون: "تغلب في الإسلام ثلاثة بيوت: آل عمر بن الخطاب
العدوي، وآل هارون بن المغزم، وآل حمدون ابن الحارث"^(٤).
وحمدان جد الأسرة الحمدانية انتقل أجداده التغلبيين من تهامة إلى نجد،
ومنها إلى ضفاف الفرات في سهل الرقة^(٥).

(١) الشعر والشعراء، لابن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٦٦م، ص ١١٨.

قال عمرو بن كلثوم:

أَبَا هِنْدٍ فَلَا تَعَجَلْ عَلَيْنَا وَأَنْظِرْنَا نُخَبِّرَكَ الْيَقِينَا
بِأَنَّ نَوْرِدُ الرَّيَابِ بِيضاً وَنُصْدِرُهُنَّ حُمْراً قَدْ رَوِينَا
وَأَيَّامٍ لَنَا عُرٌّ طَوَالٍ عَصَيْنَا الْمَلِكَ فِيهَا أَنْ نَدِينَا
وَسَيِّدٍ مَعَشَرَ قَدْ تَوَجَّوهُ بِتَاجِ الْمَلِكِ يَحْمِي الْمُحَجِّرِينَا
تَرَكْنَا الْخَيْلَ عَاكِفَةً عَلَيْهِ مُقَلَّدَةً أَعْنَتَهَا صُفُونَا

شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، للأنباري، ت عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، مصر،
ط٥، ص ٣٨٧ وما بعدها.

(٢) الشعر والشعراء، لابن قتيبة، ص ٢٣٦.

(٣) العبر وديوان المبتدأ والخبر، لابن خلدون، طبع بولاق، ج ٤، ص ٢٢٧، ومقدمة ابن خلدون، طبع دار
الكتاب اللبناني، ١٩٥٨م، القسم الثالث، ج ٤، ص ٢٨٨.

(٤) مقدمة ابن خلدون، ج ٤، ص ٢٧٧، وفن الحرب الإسلامي في العصر العباسي، لبسام العسلي، دار
الفكر للطباعة والنشر، ط ١، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م، ص ٢٨٨.

(٥) المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٢٧، ومعجم قبائل العرب، ج ١، ص ١٢٠.

كان حمدان ذا مكانة عالية بين أفراد قومه، كما كان فارساً شجاعاً، ومحارباً مقدماً، وفي عهده بدأ الجهاد الحمداني الذي نالت به هذه القبيلة شرف السيادة وعزة الملك -وهو جدّ الأمير سيف الدولة-، لم تقتصر حروبه على المحيط الذي كان يعيش فيه، بل امتدت إلى بلاد الروم، حتى وصل ملطيه وبنى لها سوراً^(١). وذكر سيف الدولة أنه دخل ملطيه مع عمه أبي العلاء وكان غلاماً صغيراً آنذاك فقرأ اسم جده منقوشاً على سورها، ثم دخلها محارباً بعد عشرين عاماً ومعه أبو فراس، فقصدا الاسم فوجده لا يزال منقوشاً^(٢).

دولة بني حمدان:

أ- بداية تكوين الدولة الحمدانية:

ظهر حمدان في ميدان الساحة السياسية بعد أن ثار على السلطان وأعلن الملك لنفسه، واستولى على قلعة ماردين واستقل بها سنة ٢٧٤هـ^(٣)، وكان ذلك في عهد الخليفة المعتضد.

تحالف حمدان مع هارون الشاري مقدم الصفرية، وظلا يهددان عرش المعتضد عدة سنوات، فاستمال الخليفة الشاري إلى جانبه، وقبض على حمدان وسجنه ببغداد^(٤). استنقل أمر الشاري من جديد، وحارب الخليفة، وانتصر عليه في عدة معارك، فاضطر الخليفة إلى الاستعانة بالحسين بن حمدان، فأتاه بالشاري أسيراً، وطلب منه ثلاث حوائج^(٥): إطلاق سراح أبيه حمدان، فأطلقه، وإزالة الإتاوة عن بني تغلب، فأزالها، وإثبات خمسمائة فارس من الحمدانيين في جيشه فأثبتهم. وأشار أبو فراس إلى ذلك في رائيته قائلاً^(٦):

وَأَقْبَلَ بِالشَّارِي يُقَادُ أَمَامَهُ وَلِلْفَيْدِ فِي كَلْتَا يَدَيْهِ ضَفَائِرُ

(١) الكامل، لابن الأثير، ج٧، ص١٨٦، ٢٣١.

(٢) ديوان أبي فراس، ت سامي الدهان، بيروت، ١٩٤٤م، ج٢، ص ١٢٦.

(٣) مقدمة ابن خلدون، ج٤، ص ٤٩١.

(٤) الكامل، لابن الأثير، ج٧، ص ٢٩٣.

(٥) الكامل، لابن الأثير، ج٧، ص ٣٢٩.

(٦) ديوان أبي فراس، شرح يوسف شكري، دار الجيل، بيروت، ط٢، ٢٠٠٢م، ص ١٣١.

وقد سجل التاريخ للحسين بن حمدان أمجاداً زاخرة بالبطولات إذ قام بأكثر من عشرين فتحاً^(١). وقد مجّد الشعراء أفعاله الجليلة ومن أولئك السرى الرفاء الذي قال فيه^(٢):

مَلِكٌ أَذَلَّ الْوَفْدَ جَوْدُ يَمِينِهِ * حَتَّى تَعَوَّرَ فِي الْعَلَاءِ الْأَكْبَرِ
تَحْكِي يَمِينَاهُ يَمِينِي عَابِدٍ * وَيَقُولُ إِنَّ لِمِ أَحْكِهِ لَمْ أُعْذِرِ
وَكَذَا الْفَتَى إِنْ لَمْ يُذَكَّرْ سَيْفَهُ * وَفِعَالَهُ بِصَلَاتِهِ لَمْ يُذَكَّرِ

قد ظل الحسين يساند الخليفة المعتضد إلى أن تولى الخلافة ابنه المكتفي.

ب- إمارة الحمدانيين في الموصل:

يؤرخ علماء التاريخ مولد الإمارة الحمدانية بالموصل سنة ٢٩٣ هـ وهي السنة التي أسند فيها الخليفة المكتفي أمر هذه الولاية إلى "أبي الهيجاء" عبد الله بن حمدان^(٣) -والد الأمير سيف الدولة- فالحسين كان يرى أنه أحق بأمر الولاية من أخيه، تقديراً لما قدّمه من جلائل الأعمال للمعتضد -والد المكتفي-؛ ولذلك اشترك في مؤامرة دُبّرت لخلع المكتفي من منصبه، فسجنه الخليفة وعزم على قتله، فطلب أبو الهيجاء من الخليفة مسامحته والعفو عنه، فاهتزت ثقة الخليفة في أبي الهيجاء، فعزله وقتل الحسين^(٤). لكنّ أبا الهيجاء لم يخضع لذلك العزل، ولم يستطع مؤنس المظفر الذي أرسله الخليفة لمقاتلته أن يخضعه، مما اضطرّ الخليفة إلى مصالحته، وتقليده الولاية للمرة الثانية سنة ٣٠٢ هـ^(٥).

في سنة ٥٣١٧، كان مؤنس الخادم قد اضطرّ الخليفة المقتدر إلى أن يخلع نفسه^(٦)، ولما استقر الأمر للقاهر ثار الناس يريدون إبقاء المقتدر، وكان

(١) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين، لمصطفى الشكعة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٨م، ص ٢٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٨.

(٣) الكامل، ج ٧، ص ٢٧١.

(٤) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، للذهبي، ت عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي،

ط ٢، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م، ص ٢٥.

(٥) المصدر السابق.

(٦) الكامل، ج ٨، ص ١٤٧ - ١٤٨.

بحضرة القاهر عبد الله أبو الهيجاء، فطلب القاهر منه المناصرة، فلم يتوان عن معاضدته ومؤساته بالرغم من أنّ الحال كانت منذرة بالهلاك، فحارب لأجل القاهر وأجابه بالروح والدم، مسطراً بذلك أروع صور البطولة والتفاني، والوفاء. ومن بعد مقتل المقتدر، زاد استبداد القواد الأعاجم، وعاش الخلفاء التاليين، حياة ذليلة لا تُراعى فيها حرمة ولا يعرف فيها قدر^(١).

أما بنو حمدان -وهم خمسة أشقاء- فكانوا يحتلون مراكز مهمة في أمصار غنية، ويحيطون بحاضرة الدولة العباسية إحاطة السوار بالمعصم، كما كانوا الملاذ الذي يأمنه الخلفاء، ويحتمون به من كيد قوادهم المستبدين.

آلت مقاليد الخلافة إلى الخليفة المتقي، وقد كان ضعيفاً إزاء شخصية ابن رائق القائد التركي، الذي عين نفسه أمير الأمراء، وصار يهدّد عرش الخليفة. وفي هذه الظروف دخل البريديون بغداد واحتلوها^(٢)؛ فهرب الخليفة ووزيره، ومنّ كان معهما إلى الموصل طالبين الحماية من الحسن بن أبي الهيجاء -شقيق سيف الدولة- انتهب الحسن الفرصة وقتل الوزير بن رائق، فعينه الخليفة مكانه "أمير الأمراء"، ولقبه "بناصر الدولة"، ولقب أخاه الأصغر علياً "بسيف الدولة"^(٣).

أرسل ناصر الدولة سيف الدولة قبله مع الخليفة إلى بغداد لاسترداد الخلافة وإرجاعه إليها. دخل سيف الدولة في عدة معارك مع البريديين وهزمهم وقتل قائدهم^(٤)، وقال في ذلك أبو فراس:

فَفِينَا لِدِينِ اللَّهِ عِزٌّ وَمَنْعَةٌ * وَفِينَا لِدِينِ اللَّهِ سَيْفٌ وَنَاصِرُ
هُمَا وَآمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مُشَرَّدٌ * أَجَارَاهُ لَمَّا لَمْ يَجِدْ مَنْ يُجَاوِرُ

(١) راجع تاريخ الخلفاء، للسيوطي، ت محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ٢، ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م، ص ٤١٠، البداية والنهاية، ج ١١، ص ١١٢، والكامل، ج ٨، ص ٤٥٠.

(٢) الكامل، لابن الأثير، أحداث سنة ٣٣٠هـ.

(٣) خطط الشام، لمحمد كرد علي، مكتبة النووي، دمشق، ط ٣، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ص ١٨٧، والكامل ج ٨، ص ٢٨٦، ٢٨٧، وتاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية)، لمحمد الخضري بك، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١٩٧٠م، ص ٣٦٩، ٣٧٠.

(٤) الكامل، ج ٨، ص ٣٠٢.

وَرَدَّاهُ حَتَّى مَلَّكَاهُ سَرِيرَهُ * بِعِشْرِينَ أَلْفًا بَيْنَهَا الْمَوْتُ سَافِرٌ
وَسَاسَا أُمُورَ الْمُسْلِمِينَ سِيَّاسَةً * لَهَا اللَّهُ وَالْإِسْلَامُ وَالِدِينُ شَاكِرٌ (١)

أما إمرة الإمارة فلم يطل أمدها للحمدانيين ببغداد؛ لاضطراب الأحوال فيها، وخلاف سيف الدولة مع الجنود الأتراك؛ ولأن ناصر الدولة ضاق زرعاً بالحياة في عاصمة الخلافة، التي لا يملك فيها الخليفة لنفسه ضراً ولا نفعاً^(٢)، فخرج إلى الموصل، وجعلها عاصمته، وهكذا تكونت الدولة الحمدانية بالموصل.

ج- إمارة الحمدانيين في حلب:

بعد أن وطد سيف الدولة أركان الدولة الحمدانية مع أخيه ناصر الدولة في الموصل، طلب من أخيه ناصر الدولة أن يعطيه ولاية، فقال له: "الشام أمامك وما فيه أحد يمنعك" فسير سيف الدولة جيشاً إلى حلب ودخلها سنة ٣٣٣هـ^(٣)، ووطد بها ملكاً كبيراً، وركناً ركيناً، واستمر بها حتى وفاته سنة ٣٥٦هـ^(٤)، مخلفاً من بعده حياة عامرة بالأمجاد والبطولات.

أثبتت الكتب الموثوقة^(٥)، أن حروب سيف الدولة ضد الروم حوالي أربعين غزوة، وكان في أكثرها منتصراً ظافراً.

مات سيف الدولة سنة ٣٥٦هـ، وبموته ضعفت إمارة بني حمدان. خلف سيف الدولة على إمارة حلب، ابنه سعداً لدولة وفي سنة ٣٦٣هـ، أقام سعد الدولة الدعوة للعزیز الفاطمي، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت ولاية حلب فاطمية بعد أن كانت ولاية عباسية^(٦).

(١) ديوان أبي فراس، ج٢، ص ١١٧ وما بعدها.

(٢) العالم الإسلامي للعصر العباسي، تأليف حسن أحمد محمود، وأحمد إبراهيم الشريف، دار الفكر العربي، ط٥، ص ٤٤٤ وما بعدها.

(٣) الكامل، ج٨، ص ٤٤٥، أحداث سنة ٣٣٣هـ.

(٤) المصدر السابق.

(٥) ريدة الحلب من تاريخ حلب، لابن العديم، ت سامي الدهان، طبع دمشق، ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م، ص ١٦٩، وسير أعلام النبلاء، لشمس الدين محمد بن أحمد الزهدي، ت شعيب الأرنؤوط وأكرم البوشي، مؤسسة الرسالة، ج١٦، ص ١٨٨.

(٦) المصدر السابق.

خلف سعد الدولة على الملك ابنه سعيد الدولة، وكان على خلاف مع الفاطميين، فقامت بينه وبينهم حروب، فاستعان بالروم عدة مرات لهزمهم. وأخيراً أسره الفاطميون وقتلوه، وبقتله انتهت دولة بني حمدان.

د - الحياة الاقتصادية:

أما الحياة الاقتصادية -بوجه عام- فقد كانت سيئة؛ لأن الحكام كانوا يرهقون الناس بالضرائب الباهظة والجبائيات، ومن أعظم مظاهر الظلم في ذلك العصر نظام المصادرات التي كانت بغير وجه حق، وخاصة مع الوزراء^(١). لم تكن الحياة الاقتصادية في ظل الحمدانيين -بوجه خاص- أحسن حالاً؛ لأنهم كانوا يبالغون في فرض الضرائب، وانتزاع الأموال والدليل على ذلك أنّ بني أعمامهم بني حبيب كانوا في نصيبين، فجاروا عليهم وصادروا غلاتهم، وكانوا يجددون لهم الكف، مما اضطرهم إلى الرحيل إلى بلاد الروم، فنتصروا واحتموا بهم^(٢).

كان سيف الدولة مترفاً مسرفاً محباً للبخ، وكان ينفق نفقات طائلة على: العلماء، والأدباء، والشعراء، والوزراء، وأرباب النفوذ^(٣) وقد ضرب دنائيراً خاصة بالصلات في كل دينار عشرة مثاقيل ذهب؛ ليجيز بها، كما كان يركب في خمسة آلاف من الجند وألفين من غلمانه؛ ليزور قبر أمه^(٤)، ومما يدل على فرط إسرافه -أيضاً- أنه كانت له كلاب تذبح له السخال، وتطعم لحومها، فقال الناشي الأحصي^(٥):

رأيت بباب داركم كلاباً * تغذيها وتطعمها السخالاً
فما الأرض أدبر من أديب * يكون الكلب أحسن منه حالاً

(١) ظهر الإسلام، لأحمد أمين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٣، ١٩٦٦م، ص ١٢٢، المسالك والممالك، لابن خرداذبة، طبع ليدن، ١٩٨٩م، ص ١٣٠ - ١٣١..

(٢) خطط الشام، لمحمد كرد علي، المطبعة الحديثة، دمشق، ١٩٢٥م، ج١، ص ٢٢٢.

(٣) ظهر الإسلام، ص ١٠٨.

(٤) إعلام النبلاء، بتاريخ حلب الشهباء، لمحمد راغب الطباخ، ط١، ١٣٤٢هـ - ١٩٢٣م، ج١، ص ١٢٩.

(٥) المصدر السابق، ج١، ص ١١٧.

وكان سيف الدولة يجوز أخذ ما في أيدي الناس؛ ليستعين به على غزو الروم، وليغدق به على الشعراء. وقد أشار ابن حوقل^(١) إلى ما أصاب تجار مدينة بالس من الظلم، على يد قاضي سيف الدولة أبي الحصين الذي صادرهم على ألف ألف دينار.

كان قاضيه أبو الحصين يقول: كل من هلك فلسيف الدولة ما ملك^(٢) وذكر المؤرخون أنّ أبا الحصين لما قُتل في إحدى المعارك داسه سيف الدولة بحصانة، وقال: لا رضي الله عنك، فإنك كنت تفتح لي أبواب المظالم، وذكر أنه لما مات سيف الدولة اشتد بكاء الناس عليه ومنه.

هـ- مذهب بني حمدان:

كان مجتمع حلب سنيّ العقيدة بعيداً عن التشيع، وكان أكثر أهلها على مذهب أبي حنيفة النعمان، وبعضهم الآخر شافعي المذهب، وجميعهم يتعصبون لأهل السُنّة تعصباً شديداً، وتحكي قصص كثيرة تثبت شدة تعصب أهل حلب ودمشق لأهل السُنّة، منها:

"دخل عبد الرحمن النسائيّ المحدث دمشق سنة ٣٠٣هـ وكان متشبعاً وسُئل عما يُروى عن محاسن معاوية وفضائله، فقال: "لا أعرف له فضيلة" إلا لا أشبع الله له بطناً" فدفعه الناس وأخرجوه من المسجد وداسوه بأقدامهم مما سبّب له آلام مات بسببها^(٣).

حافظ المجتمع الحلبّي على عقيدته السنيّة إلى أن هاجم الروم حلب سنة ٣٥١هـ^(٤) وقتل معظم أهلها فنقل سيف الدولة إليها جماعة من الشيعة من حران، وكان سيف الدولة يميل إلى التشيع فتأثروا به وغلب على أهلها التشيع، وقد صرح

(١) زبدة الحلب، ج١، ص ١١٢.

(٢) خطط الشام، ج١، ص ٢٢٢.

(٣) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، لآدم متر، ت محمد عبد الهادي أبي ريدة، ط١، ج١، ص٨٧.

(٤) بغية الطلب في تاريخ حلب والصاحب كمال الدين بن العديم، دار الكتب، القاهرة، ج١، ص ٤٦.

عدد من الشعراء بميل سيف الدولة إلى الشيعة ومنهم المنتبي الذي قال في سيف الدولة^(١) مشبهاً إياه بعلي بن أبي طالب:

يا سيف دولة ذي الجلال ومن له * خير الخلائق والأنام سمي
أو ما ترى صفين كيف أتيتها * فأنجاب عنها العسكر الغربي
فكانه جيش ابن حرب رعته * حتى كأنك يا عليّ عليّ

يبدو أن تشييع الحمدانيين كان خفيفاً، لأنهم لم يفرضوه عقيدة لدولتهم، والظاهر أنهم تشيعوا؛ لهدف سياسيّ لعلهم بذلك يرضوا بغداد ويأمنوا جانب البويهيين الذين زاد خطرهم على البلاد والذين استولوا على بغداد بعد استيلاء سيف الدولة على حلب بعام واحد^(٢).

(١) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، للثعالبي، شرح وتحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ج١، ص ٤٦.

(٢) راجع أخبار الدول، لأبي العباس أحمد بن يوسف الدمشقي، (القرماني)، طبع حجر بغداد، ١٨٨٢م، ص ٢٦٧.

المبحث الثاني الحياة الاجتماعية

الحياة الاجتماعية لم تعد عربية خالصة؛ لأنها تشكلت من مجموعة من العناصر البشرية المختلفة، والتي منها: الفرس، والترك، والروم، والبربر، والسريان، والهنود، واليونان، وغيرهم، نفذت عادات الترك في المجتمع العربي وصار العرب يقلدونهم في: مراسمهم، وأزيائهم، وبنائهم، وفي العناية بالأطعمة والأشربة والمبالغة فيها وقلدوهم - كذلك - في ممارسة بعض الألعاب كاللعب بالنرد والشطرنج، ومهارشة الديوك والكلاب وغيره^(١).

أدى امتزاج تلك العناصر المختلفة في الدولة العباسية إلى اختلاط الأنساب، وانحطاط الأخلاق، وتعاطى الناس المسكرات سرّاً وعلناً، وكثر ارتياد الأديرة، ومحلات القيان والغلمان، -كما- كثرت مجالس الأنس والسمر وأدى ذلك إلى إباحة المنكرات والانحلال الاجتماعي، وكان معظم الناس لا يتحرجون عن تلك الحياة الخالعة، وينظرون إليها باعتبارها شكل من أشكال الرقي، ونوع من الترف الحضاري.

قد يظن ظان أنّ الدين لم يكن الهم الشاغل لا للحكام ولا للناس في ذلك العصر، ولكن لم يكن كل الأمر كما يعتقد؛ لأن المجتمع في ذلك العقد من الزمان، كان شبيهاً بمجتمع المسلمين الآن، فإنك تجد فيه المسلم الذي يستبيح المعاصي، وينغمس في ملذات الحياة ومباهجها، والمؤمن الصالح الذي يقوم بواجباته الدينية كما يجب أن يكون. وقد ظهرت جماعات كثيرة تستنكر حياة

(١) راجع كتاب الحيوان، للجاحظ، شرح عبد السلام محمد هارون، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٣٨٨هـ، ج٢، ص٢٦٦، ص٢٩٢، والأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ج٥، ص١٥٤.

الخلاعة والمجون، وكانت مهمتها الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومن أولئك: الحنابلة^(١) والمعتزلة^(٢).

أثرت الحياة السياسية في الحياة الاجتماعية تأثيراً مباشراً، فكثرت الحروب، والفتن، والمجاعات، والأمراض، وظهر قطاع الطرق، وكثر السلب والنهب، وكثرت الحرائق المتعمدة في الأسواق^(٣). وانهارت البنية التحتية الاقتصادية للبلاد وانعكس ذلك على الأخلاق، فشح الغش والخداع والنفاق.

وتتمثل الحياة الاجتماعية في فئتين: فئة غنية مترفة ويمثلها: الخلفاء، والقواد، والوزراء، وأصحاب المناصب العالية، والزعامات الروحية في الدولة، وفئة غارقة في الفقر، وتمثل بقية الشعب.

الحياة الاجتماعية في الدولة الحمدانية:

نجد أن الحياة الاجتماعية في إمارة بني حمدان متعددة الجوانب والأشكال ويمكننا أن نقسمها إلى أربع طبقات:

١ - الأسرة الحمدانية الحاكمة:

تشمل هذه الطبقة القواد والحكام من آل حمدان، كان الحمدانيون يعتمدون أكثر ما يعتمدون على أقاربهم، فمثلاً كان سيف الدولة في حلب يستعين بأقربائه فأعطى أنطاكية لأبي العشائر، وحمص لأبي تغلب، ومنج لأبي فراس^(٤). وكانت هذه الطبقة غارقة في الترف والنعيم، وكان حكامها يقلدون الخلفاء العباسيين في مظاهر السيادة العامة، فلذلك بنوا القصور الغناء التي

(١) الحنابلة: كانوا يتشددون لأرائهم ويقاومون الفساد بالقوة ويموتون من أجل مبادئهم، ظهر الإسلام، ج٢، ص ١٢٦.

(٢) كانت تلك الفضيلة واحدة من المبادئ الخمسة التي كان ينادي بها المعتزلة. راجع تاريخ المذاهب الإسلامية، لمحمد أبي زهرة، دار الفكر العربي، مصر، ١٩٩٦م، ص ١٢٩.

(٣) تجارب الأمم، لأبي علي أحمد بن محمد المعروف بمسكويه، مكتبة المثنى، بغداد، ١٣٣٣هـ، ج١٢، ص ٣٣٨.

(٤) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين، ص ٨٣.

كانت تنافس في فن المعمار والبناء قصور الخلفاء^(١)، وفي تلك القصور كانت تقام ليالي الأُنس والسمر بمثل ما يحدث في قصور الخلفاء.

٢ - طبقة القوَاد والغلمان والجواري الروم:

استعان سيف الدولة في توطيد دعائم دولته وفي حروبه الداخلية والخارجية بعدد من القواد الأتراك، ورغم أن الكثيرين منهم أبدوا إخلاصاً كبيراً له، وأفنوا حياتهم من أجله، إلا أن منهم من شقَّ عصا الطاعة مثل: نجا وقرعويه^(٢).

امتلاً قصر سيف الدولة بالغلمان والجواري الروم؛ وصاروا رقماً لا يمكن أن يغض الطرف عنه؛ وذلك لكثرة حروب الأمير ضد الروم.

٣ - أفراد الشعب (العامة):

عاش الشعب حياة كلها حرمان وفاقه؛ لأن سيف الدولة قد أزهقه بكثرة الضرائب^(٣)؛ ليصرف على حروبه الكثيرة، وليصرف على القصر.

٤ - الذميون:

كان الذميون يعيشون حياة هائلة في ظلال الدولة الحمدانية وكانت لهم أقدام راسخة في الصناعات، وكان معظم الصيارفة والجهابزة في الشام من اليهود، على حين كان أكثر الأطباء والكتبة نصارى^(٤). ومن آثارهم السالبة أنهم تفننوا في بناء الأديرة^(٥)، فساهموا بذلك على انتشار الفساد والمجون بنصيب غير قليل.

(١) ريدة الحلب، ج١، ص ٣٨.

(٢) تجارب الأمم، ج٦، ص ٣٠٩.

(٣) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين، ص ٨٩ - ٩٠.

(٤) الحضارة الإسلامية، ج١، ص ٦٢.

(٥) راجع الديارات، للشايشتي، ط بغداد، ١٣٨٦هـ، ص ١١٢، ١١٣.

المبحث الثالث الحياة العقلية والثقافية

شهدت الحياة الثقافية في العصر العباسي الأول تقدماً ملحوظاً ونشاطاً علمياً وأدبياً كبيراً؛ وقد كان الخليفة المأمون أول من لفت الأنظار إلى أهمية الاستفادة من الثقافات الأجنبية المختلفة^(١)، فنقل العلماء علوم اليونان وفلسفتهم، وعلوم الفرس وفلكهم، وطب الهنود وحكمتهم، وخلفوا ثروة هائلة مما ترجموا من تلك الثقافات.

أما العصر العباسي الثاني فقد امتزجت فيه العناصر البشرية المختلفة، وتتنوعت فيه الحضارات والثقافات، وتفتقت فيه العقول وتفتقت فيه الأذهان، وصقلت فيه المواهب، واستوت فيه ثمار المعرفة، ونضج العقل العربي فوجد مجالاً إلى التفكير وسبيلاً إلى البحث وطريقاً إلى التأليف والتصنيف، ولذا تطورت الفنون العلمية، وأثمرت العلوم الإسلامية، وزهت الآداب العربية. فالغرس الذي نبت ونما في العصر العباسي الأول، وآتى أكله في العصر العباسي الثاني.

كان من آثار تمازج تلك العناصر -أيضاً- أن تعددت الفرق والمذاهب، وانتشرت الفلسفة، وذاع فنّ الغناء، وتطور فنّ الموسيقى وتتنوعت آلاته وأصواته^(٢).

من العلوم التي ازدهرت في هذا العصر:

الطب، والفلسفة، والفلك، والرياضيات، والجغرافيا، والتاريخ، والموسيقى، بالإضافة إلى العلوم التي بلغت أوج عظمتها مثل: اللغة وعلومها، والأدب وعلومه، والحديث وعلومه، والفقه وعلومه.

وقد نبغ في هذا العصر - من المؤلفين الأمدي صاحب الموازنة وأبو علي القالي صاحب الأمالي، وأبو الفرج الأصبهاني صاحب الأغاني، والثعالبي

(١) تجديد ذكوي أبي العلاء، دار المعارف، مصر، ط٦، ١٩٦٣م.

(٢) تاريخ الأدب العربي، لحنا الفاخوري، المطبعة البوليسية، بيروت، ط٦، ١٩٥٨م، ص٣٥٩.

صاحب اليتيمة، والصولي صاحب الأوراق، والجرجاني صاحب الوساطة، وأبو بكر الباقلاني صاحب إعجاز القرآن، والزجاج، وأبو علي الفارسي، وابن جني، وابن خالويه، والرماني، وكلهم إمام في علمه مبرز في موضوعه، كما فيه ظهر الفارابي، وأخوان الصفا وغيرهم.

أما عن بلاط الأمير سيف الدولة فقد قال عنه الثعالبي:

"إنه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك -بعد الخلفاء- ما اجتمع لسيف الدولة من شيوخ الشعر ونجوم الدهر فكان من مداحه المتتبي وأبي فراس، والصنوبري وابن نباته السعدي، والوأواء دمشقي، وكان خطيبه ابن نباته الفارقي ومعلمه ابن خالويه، ومطربه الفارابي، وطباخه كشاجم.

لقد ذكرنا أن انقسام الدولة العباسية إلى مجموعة من الإمارات والممالك كان سبباً في ازدهار العلوم، وارتقاء الآداب والفنون، فكيف كان ذلك؟
أولاً: أن هذه الدول تنافست فيما بينها تنافساً كبيراً ولم تعتمد في منافساتها على السيف وحده بل اعتمدت معه على العقل واللسان.

ثانياً: حرص كل أمير على أن يجذب إليه العلماء، والأدباء ويكثر حوله الشعراء؛ ليذاع اسمه، ويخلد رسمه، بما يؤلف من الكتب له وما ينظم من الشعر في مدحه؛ لأنهم عرفوا أنهم إذا أرادوا لملكهم البقاء، ولشخصهم العظمة والبهاء، عليهم بإكرام العلماء والشعراء؛ لأنهم يمثلون أعظم وسيلة للشهرة والإعلام والثناء.

ثالثاً: كانت هناك منافسة كبيرة بين الأدباء والعلماء أدت إلى أن يجود كل منهم بضاعته؛ لينال الحظوة والجاه عند ذوي السلطان وأصحاب الوجوه من الملوك والأمراء، فجودوا وابتكروا ونهضوا بالفكر الإنساني وشاركوا في بناء المجد الثقافي العربي والإسلامي، ذلك المجد الذي انطلقت منه الحضارات التي امتدت شرقاً وغرباً.

رابعاً: إن ضعف الدولة وانقسامها عدّد طرق الشهرة أمام العلماء والأدباء والشعراء، فبعد أن كانت بغداد وحدها مركز الإشعاع العلمي والثقافي وعاصمة

الفكر والأدب أصبح للفكر والأدب عواصم أخرى تنافسها مثل: حلب، والبصرة، والكوفة، والقاهرة، الري، وبخارى، وأصبهان، وإشبيلية وقرطبة وغيرها. أما حلب على وجه الخصوص فقد كانت من أشهر مدن العلم ولا سيما في ظل الحمدانيين، وقد جعلها سيف الدولة "من أكبر مدن المسلمين، وأوسعها فناء ومن أرحبها للعلم داراً وأوطئها للأدب كنفاً"^(١). وقد كانت بكل حق عاصمة الثقافة العربية والإسلامية في ذلك العصر.

(١) تجديد ذكرى أبي العلاء، ص ٥٠.

المبحث الرابع

الأسباب التي أسهمت في ارتقاء الأدب والشعر وازدهار العلوم والفكر

في بلاط الأمير سيف الدولة

تضافرت مجموعة من العوامل والأسباب التي أدت إلى أن يكون بلاط سيف الدولة الحمدانيّ منتدَى العلماء والحكماء، ومقصد الشعراء والأدباء. وأهم تلك العوامل شخصية الأمير سيف الدولة والتي تتمثل في عدة محاور:

١/ شخصيته البطولية والمجد السياسي والاجتماعي والإرث الحضاري:

سيف الدولة: هو علي بن عبد الله بن حمدان بن حمدون بن الحارث التغلبي وُلِدَ بميفارقين سنة ٣٠٣هـ وشبَّ ذكياً بليغاً يحب الرمي والقنص وركوب الخيل^(١).

ينتمي سيف الدولة إلى أسرة ورثت مجداً كبيراً وشرفاً عظيماً وقد شهد لها التاريخ بمآثر متعددة وحفظ لها في سجلاته صفحات بيضاء ناصعة.

■ أبدى سيف الدولة -وهو في ريعان شبابه- شجاعة نادرة، وكفاءة لا كفاء لها في قيادة الجيوش وتنظيم شئون الحرب، وقد لمع شخصيته في الوقت الذي لم يبق فيه للخلافة العباسية غير الاسم والمظهر؛ لذا كانت شخصيته بالنسبة للعرب والمسلمين، الشرف الباقي، والوجه المشرق والغد المأمول الذي ترجى منه النصر والمروءة والآمال الكبيرة.

■ صان قداسة الخلافة وحفظ ماء وجه الخليفة عندما اضطره الأعاجم إلى الهرب إلى سيف الدولة وناصر الدولة. وكان هدفهم إذلال كرامة العرب والمسلمين في شخص الخليفة، وهذا دأبهم في كل زمان ومكان، وما أحوجنا الآن إلى سيف الدولة، وناصر الدولة، وسيف العروبة، وناصر الإسلام. قال الثعالبي: "كان سيف الدولة واسطة قلادة بني حمدان كما

(١) بيتيمة الدهر، ج ١، ص ٣٧.

كان قرة الزمان ومنْ به سداد الثغور وسداد الأمور، ... وكان مقصد الوفود، ومطلع الجود، وقبلة الآمال ومحط الرجال"^(١).

■ حارب سيف الدولة الروم في عقر دارهم، وبلغ مواطن لم يبلغها أحد من العرب والمسلمين، لا قبله ولا بعده، وكاد أن يستولي على عاصمتهم القسطنطينية، وذاع اسمه في العالم الإسلامي لا بصفة أنه حاكم حلب -فحسب-؛ بل لأنه البطل المجاهد ضد الروم، وقد كان أقوى خصم وأعظم بطل، وقف أمام الجيوش البيزنطية"^(٢). وقال الثعالبي: "كانت غزواته تدرك من طاغية الروم الثأر، وتحسن في الإسلام الآثار.

■ حمى المقدسات الإسلامية والثغور العربية من عبث الروم مدة عشرين عاماً، وقد كان أول من فطن إلى أهدافهم السياسية والاستراتيجية، وقد كان هدفهم الأول الاستيلاء على بيت المقدس، والدليل على ذلك أن القائد البيزنطي نقفور فوكاس عندما فتح قرسوس التي كان يسيطر عليها سيف الدولة، وقف على منبرها وخطب قائلاً: "إن هذه البلدة هي التي كانت تعوقني عن الوصول إلى بيت المقدس"^(٣). وقال دكتور سعود محمود: "والجدير بالذكر أن الحرب التي خاضها سيف الدولة ضد البيزنطيين لمدة عشرين عاماً قد اتسمت بالصبغة الدينية، ويمكن القول بأنها صليبية قبل بدء الحرب الصليبية المعروفة، وكانت هذه الحرب جهاداً قام به سيف الدولة على أحسن الوجوه فتصدى للخطر البيزنطي تصدياً شجاعاً"^(٤).

■ كان سيف الدولة أعظم شخصية عربية وإسلامية في العصر العباسي الثاني، وكانت شجاعته تستهوي الكثيرين من العرب والمسلمين والأعاجم؛ لأنه كان أميراً جليلاً لا يعرف اليأس إلى قلبه سيلاً، قال أحد

(١) بيتيمة الدهر، ج ١، ص ٣٧.

(٢) الدولة البيزنطية، للباذ العريني، ص ٤٤ بتصرف.

(٣) الشعر في رحاب سيف الدولة، ص ٢٩.

(٤) المصدر السابق، ص ٣٨.

المستشرقين الفرنسيين عنه: "كان سيف الدولة عظيماً في انتصاره، كما كان عظيماً في انكساره، وكانت امبراطورية البيزنطيين، تخافه منتصراً وتجله منكسراً"^(١)، ونظراً لهذه السمات البطولية التي تميزت بها شخصية الأمير سيف الدولة في وقت ضم فيه الزمن بالفروسية والأبطال كان حلم الشعراء والأدباء والعلماء، الانتساب إلى اسمه والانتماء إلى بلاطه؛ لتسجل أسماؤهم في قائمة الشرف؛ ولينعموا بظلاله الآمنة كما وجد الشعراء في شخصيته مادة دسمة تناولوها من جوانب مختلفة، وقد كان الفكر والعلم والقلم واللسان أسلحة مسخرة في ميدان الصراع.

٢ / طبيعة حلب:

قد عرفت مدينة حلب بطبيعتها الساحرة، وبأنها مدينة عظيمة واسعة كثيرة الخيرات طيبة الهواء صحيحة الأديم والماء^(٢) وبأنها جمعت من كل جميل جمال وقديماً قيل: إن حلب تربة حمراء، وسنبلة صفراء، وشجرة خضراء^(٣). والذي لا شك فيه أن مثل هذه الطبيعة الساحرة تدعو إلى استفزاز مشاعر الأدباء، والمفكرين، وتعزز ملكات الشعراء والموهوبين قال كشاجم في حلب:

أرثك يد الغيث آثارها * وأعلنت الأرض أسرارها
وما أمتعت جارتها بلدة * كما أمتعت حلب جارتها
هي الخلد تجمع ما تشتهي * فزرها فطوبى لمن زارها

قصر الحلبية:

هياً الأمير للعلوم والفنون جواً يعين على ازدهارها فبنى قصر الحلبية في مكان صحيح الهواء -أجمع المؤرخون من عرب وعجم على عظمتها، وأدخل

(١) سيف الدولة وعصر الحمدانيين، لسامي الكيالي، طبع دار المعارف، مصر، ص ١١٢.

(٢) معجم البلدان، لشهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ط ٢، ١٩٩٥م، المجلد الثاني، ص ٢٨٢.

(٣) بغية الطلب في تاريخ حلب، لابن العديم، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، المجلد الأول، ص ٢٤٤.

فيه نهر قويق^(١) فكان النهر يدخل من جانب ويخرج من جانب آخر فيصب في مكان يعرف بالغيض. وقد كان مصدراً للإلهام ومبعثاً لهدوء النفس وداعياً لصفاء القريحة والمزاج.

٣/ ثقافة الأمير سيف الدولة:

إن سيف الدولة لم يكن من طبقة العامة، وكانت بيئته التي نشأ فيها تهيئة لحياة مثقفة لها حظ لا بأس به من المشاركة في العلم والأدب، والأخذ بأسباب الحضارة التي كانت مسيطرة في بغداد، وأخذت أسرته بأسباب الترف، ولم تترك أبناءها وبلا تتقيف وإنما اتخذت لهم الأساتذة والمؤدبين، وعلمتهم ما لم يكن بدّ من تعلمه للنهوض بمثل ما كانت تنهض به من جلائل الأعمال^(٢).

وتظهر ثقافة الأمير في أحاديثه ومشاركته فيما كان يخوض فيه جلسائه من العلم والأدب والفن، وقدرته على التمييز الدقيق فيما يقال في مجلسه، ورغبته في أن تحفل حلب بأضخم عدد ممكن من العلماء، والأدباء، والكُتّاب، والشعراء، وفي أن تتفرع فيها الثقافات، فتزهر الفلسفة إلى جانب العلم، وتزدان علوم الدين إلى جانب علوم اللغة والأدب^(٣).

ندوة الأمير:

وذكرنا أن اجتمع لسيف الدولة أفاضل المفكرين والشعراء؛ ولذا كانت ندوة الأمير مدرسة عريقة تخرج فيها العديد من العلماء والشعراء كما كانت سبباً في صقل كثير من المواهب ومن الذين تخرجوا من هذه الندوة الشاعر شيخ الأدباء في نيسابور أبو بكر الخوارزمي، الذي كان يقول: "ما فتق قلبي وشحد فهمي، وصقل ذهني، وأرهف لساني، وبلغ هذا المبلغ بي، إلا تلك الطوائف الشامية، واللطائف الحلبية التي علقت بحفظي، وامتزجت بأجزاء نفسي^(٤)".

(١) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، للمقدسي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٣، ١٤١١هـ - ١٩٩١م، ص

(٢) مع المتنبي، ص ٢٣٨.

(٣) مع المتنبي، ص ١٨٣.

(٤) بيتيمية الدهر، ج١، ص ٨.

حقيقة لم تقف عظمة سيف الدولة في ساحة الحرب ومحاربة الروم فحسب بل كان له جانب آخر من العظمة لا يقل شأنًا عن عظمته الحربية وهو: رعايته للآداب، والعلوم، والفنون أن الفضل الذي أحرزه سيف الدولة بنشر العلوم والآداب العربية عنوان مجد لا يقل عن أعماله الحربية^(١).
ذوقه الفني:

قد حبى الله سيف الدولة بملكة فنية عالية وذوق أدبي رفيع وروح شفافة، وهذه السمات دفعته إلى الاهتمام بالعلم، كما كانت خير معين له على فهم الأدب والشعر وتذوقه لهما، وكان أديباً شاعراً محباً لجيد الشعر شديد الاهتزاز لما يمدح به^(٢). وقد كان له شعر يدل على سمو خياله ورقة مزاجه، ومن رقيق شعره قوله في قوس قزح^(٣):

وساق صبيح للصبح دعوته * فقام وفي أجفانه سينة الغمض
يطوف بكاسات العقار كأنجم * فمن بين منقض علينا ومنقض
وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفاً * على الجو دكناً والحواشي على الأرض
يطرزها قوس الغمام بأصفر * على أحمر في أخضر تحت مبيض
كأذيال أقبلت في غلائل * مصبغة والبعض أقصر من بعض

والراجح أنه لم يؤثر عنه ديوان يدل على شاعرية غزيرة متعددة الفنون والأغراض، إلا أن الثعالبي قد أدرج باباً له في يتيمة تحت عنوان "ملح شعر سيف الدولة"^(٤) وهذا العنوان يوحي بأن له كثيراً من الشعر غير الذي ذكره الثعالبي. وقد كان معظم المأثور من شعره غزل ومن ذلك قوله:

أقبله على جزع * كشرب الطائر الفزع
رأى ماء فأطمعه * وخاف عواقب الطمع
وصادف فرصة فدنا * ولم يلتدّ - بالجزع

(١) الشعر في رحاب سيف الدولة، للدكتور سعود محمود عبد الجابر، مؤسسة الرسالة، ص ٤٥.

(٢) يتيمة الدهر، ج ١، ص ٣٧.

(٣) يتيمة الدهر، ج ١، ص ٥٣.

(٤) المصدر السابق، ج ١، ص ٥٤.

أما أن معظم المآثور من شعره غزل؛ فكان؛ لأن هذا البطل الذي نذر عمره لحرب البيزنطيين وسكب أنهاراً من دمائهم قد أغرم بفتاة بيزنطية سابية الحسن وكان لها عليه سلطان عظيم^(١)، وقد ذكر الثعالبي هذه الجارية فقال: "يحكى أنه كان لسيف الدولة جارية من بنات الروم؛ لا يرى الدنيا إلا بها، ويشفق من الريح الهابة عليها فحسدتها سائر خطاياها على لطف محلها منه وأزمعن إيقاع مكروه بها من سمّ أو غيره، وبلغ سيف الدولة ذلك، فأمر بنقلها إلى بعض الحصون احتياطاً على روحها وقال^(٢):

راقبتني العيون فيك فأشفقت * ولم أخل قط من إشفاق
ورأيت العذول يحسدني فيك * مجداً يا أنفس الأغلاق
فتمنيت أن تكوني بعيداً * والذي بيننا من الود باق
رب هجر يكون من خوف هجر * وفراق يكون خوف فراق

مقدرته على خلق روح المنافسة الشريفة بين الشعراء والعلماء في مجلسه:
ومن ناحية أخرى فإن لسيف الدولة حكمة بارعة ومقدرة فائقة على إدارة الحديث والمجالس، وكان في كثير من الأحيان يستفز ملكات الشعراء ويشعل روح التنافس بينهم بالتشجيع والعطاء فأحياناً يقول البيت ويطلب من الشعراء أن يجيزوه قال يوماً لندمائه وكان من بينهم أبو فراس أيكم يجيز قولي! وليس له إلا سيدي يعني أبا فراس^(٣):

لك جسمي تعلّهُ * فدمي لِمَ تحلّهُ
فارتجل أبو فراس وقال:
أنا إن كنت مالِكاً * فإلى الأمر كلّه
فاستحسنه وأجازه عليه.

(١) شعر الحرب في أدب العرب، لزكي المحاسني، دار المعارف، مصر، ١٩٦١م، ص ٢١٨.

(٢) يتيمة الدهر، ج ١، ص ٥٤، ٥٥.

(٣) يتيمة الدهر، ج ١، ص ١٢.

وسأل جماعة من العلماء بحضرته يوماً هل تعرفون اسماً ممدوداً وجمعه مقصور؟ فقال ابن خالويه: إنني أعرف اسمين ولا أقولهما إلا بألف درهم، لنلا يؤخذ بلا شكر، وهما: صحراء وصحارى، وعذرا، وعذارى^(١).

نظرته النقدية:

كانت لسيف الدولة رؤى نقدية صائبة، وله فهم عميق بالشعر والأدب.

فقد استشهده يوماً أبا الطيب المتنبي قصيدته التي أولها^(٢):

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ * وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ

فلما بلغ قوله فيها^(٣):

وَقَفْتَ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لَوَاقِفٍ * كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمٌ

تَمُرُّ بِكَ الْأَبْطَالُ كَلِمَى هَزِيمَةً * وَوَجْهُكَ وَضَاحٌ وَتَغْرُكُ بِاسِمٍ

قال قد انتقدنا عليك هذين البيتين، كما انتقدنا على امرئ القيس بيتاه^(٤):

كَأَنِّي لَمْ أَرْكَبْ جَوَاداً لِلذَّةِ * وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِباً ذَاتَ خِلْخَالِ

وَلَمْ أَسْبِ الرِّقَّ الرُّوِّيَّ وَلَمْ أَقُلْ * لِخَيْلِي كُرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ

ولك أن تقول:

تَمُرُّ بِكَ الْأَبْطَالُ كَلِمَى هَزِيمَةً * وَوَجْهُكَ وَضَاحٌ وَتَغْرُكُ بِاسِمٍ

وَقَفْتَ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لَوَاقِفٍ * كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمٌ

فقال: أيد الله مولانا! إن صح أن الذي استدرك على امرئ القيس هذا كان أعلم بالشعر منه، فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا، ومولانا يعرف أن الثوب لا يعرفه البراز معرفة الحائك، لأنه هو الذي أخرجه من الغزلية إلى الثوبية، وإنما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد، وقرن السماحة

(١) ظهر الإسلام، ص ١٨١.

(٢) يتيمة الدهر، ج ١، ص ٤٣.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٤.

(٤) يتيمة الدهر، ص ٤٤.

في شراء الخمر بالشجاعة في منازعة الأعداء. وأنا لما ذكرت الموت في أول البيت أتبعته بذكر الردى، وهو الموت ليجانسه، ولما كان وجه الجريح المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوساً وعينه من أن تكون باكية قلت: "ووجهك وضاح وثغرك باسم"؛ لأجمع بين الأضداد في المعنى، وإن لم يسع اللفظ لجمعها، فأعجب سيف الدولة بهذا الرأي، ووصله بخمسين ديناراً من دنانير الصلات، وفيها خمسمائة دينار^(١).

كان سيف الدولة قد أرسل إلى الخالدين الشاعرين وصيفة ووصيفاً، ومع كل واحد منهما بدرة وتخت من ثياب مصر، فقال أحدهما^(٢):

لم يغد شكرك في الخلائق مطلقاً * إلا ومالك في النوال حبيس
أنت الوصيفة وهي تحمل بدرة * وأتى على ظهر الوصيف الكيس
وبررتنا مما أجادت حوكه * مصر وزادت حسنه تيس
فغدا لنا من جودك المأكول والـ * مسروب والمنكوح والملبوس

فقال سيف الدولة: أحسنت إلا في لفظه "المنكوح" فليست مما يخاطب به الملوك.

كان المتنبى مقدماً على جميع شعراء البلاط من جانب سيف الدولة، وكان السري الرفاء بمجلس الأمير يوماً وقد جرى ذكر المتنبى، فبالغ سيف الدولة في الثناء عليه، فقال له الرفاء: أشتهى أن ينتخب لي الأمير قصيدة من غرر قصائده لأعارضها له، ويتحقق أنه أركب المتنبى في غير سرجه فقال له سيف الدولة على الفور: عارض لنا قصيدته القافية التي مطلعها^(٣):

لِعَيْنَيْكَ مَا يَلْقَى الْفُؤَادُ وَمَا لَقِيَ * وَلِلْحُبِّ مَا لَمْ يَبْقَ مِنِّي وَمَا بَقِيَ

قال السري: فكتبت القصيدة واعتبرتها في تلك الليلة، فلم أجدها من

مختارات أبي الطيب لكن رأيتَه يقول في آخرها:

إِذَا شَاءَ أَنْ يَلْهُوَ بِلِحْيَةِ أَحْمَقٍ * أَرَاهُ غُبَارِي ثُمَّ قَالَ لَهُ الْحَقِّ

(١) بيتمة الدهر، ج ١، ص ٤٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٤ - ٤٥.

(٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٤، ٤٥.

فقلت: والله ما أشار إلا لهذا وأحجمت عن معارضة القصيدة^(١) وفي ذلك دلالة واضحة على مدى شاعرية الأمير وتذوقه للشعر.

قال ابن خالويه^(٢) دخلت يوماً على سيف الدولة بن حمدان، فلما مثلت بين يديه قال لي: أقعد ولم يقل أجلس، فتبينت بذلك اعتلاقه بأهل الأدب واطلاعه على أسرار كلام العرب، وذلك لأن المختار عند أهل الأدب أن يقال للقائم أقعد وللنائم والساجد اجلس. وقد صدق المتنبى حين قال^(٣):

عَلِيمٌ بِأَسْرَارِ الدِّيَانَاتِ وَاللُّغَى لَهُ حَطَرَاتٌ تَفْضَحُ النَّاسَ وَالْكَتَبَا
وَإِنْ جَرَّ عَلَيْهِ هَذَا الْبَيْتَ مِنَ النِّقْدِ مَا جَرَّ.

كرم سيف الدولة وتشجيعه الشعراء والأدباء:

ما من شك في أنه من أهم الأسباب التي أدت إلى ارتقاء الأدب والشعر وازدهار العلوم والفكر، كرم سيف الدولة الذي فاق كل تصور وخيال.

قال بروكلمان: "ولئن كان سيف الدولة يدين بما تم له من شهرة عريضة لنضاله الموفق ضد الروم في المحل الأول، ليس من شك في أنه مدين بذلك في المحل الثاني لعطفه على العلوم والفنون ورعايته لها"^(٤).

وأثر ذلك الكرم -الذي يصل إلى حد الإسراف أحياناً- أنه كان سبباً في أن يقدم الشعراء والمفكرون إليه من كل صوب وحذب؛ فشحنوا قرائحهم وعملوا على تمحيص أعمالهم فكانوا كلما جودوا في بضاعتهم ازدادت عطاياه لهم.

والشواهد على كرم سيف الدولة كثيرة جداً، ولم تختصر عطاياه ونعمة على المشهورين من الشعراء والمفكرين فقط؛ بل شملت كذلك المغمورين منهم.

ومن كرمه الخرافي أنه أمر بضرب دنانير خاصة للصلاة؛ وزن كل دينار، عشرة مثاقيل، وعليه اسمه وصورته، فأمر يوماً لأبي الفرج منها بعشرة دنانير فقال ارتجالاً^(١):

(١) خزنة الأدب وغاية الأرب، لتقي الدين أبي بكر علي المعروف بابن حجة الحموي، طبع مصر، ص ١٣١.

(٢) بيتمة الدهر، للثعالبي، ص ٤٤ وما بعدها.

(٣) المصدر السابق.

(٤) تاريخ الشعوب الإسلامية، لكارل بروكلمان، بيروت، ط ٤، ١٩٦٥م، ج ٢، ص ٩١.

نَحْنُ بِجُودِ الْأَمِيرِ فِي حَرَمٍ * نَرْتَعُ بَيْنَ السُّعُودِ وَالنِّعَمِ
أَبْدَعُ مِنْ هَذِهِ الدَّنَانِيرِ لَمْ * يَجْرُ قَدِيمًا فِي خَاطِرِ الْكَرَمِ
فَقَدْ غَدَّتْ بِإِسْمِهِ وَصُورَتِهِ * فِي دَهْرِنَا عَوْدَةً مِنَ الْعَدَمِ
فزاده عشرة أخرى.

وقال أبو الحسن علي بن محمد الهمداني: "كنت واقفاً بين السماطين بين يدي سيف الدولة بحلب والشعراء ينشدونه فنقدم إليه إعرابي رثَّ الهيئة فاستأذن الحجاب، وأنشد^(٢):

أنت على وهذه حلب * قد نفذ الزاد وانتهى الطلب
بهذه تفخر البلاد وبألم * أمير تزهى على الورى العرب
وعبدك الدهر قد أضر بنا * إليك من جور عبدك الهرب

فقال له سيف الدولة أحسنت، وأمر له بمائتي دينار، وحين أنشد المتنبي سيف الدولة قصيدته التي جاء منها قوله^(٣):

يا أيها المحسن المشكور من جهتي * والشكر من قبل الإحسان لا قبلي
أقل أنل أن صن إحمل علّ سلّ أعد * زد هشّ بشّ هبّ إغفر أدن سرّ صل

وقع سيف الدولة تحت كل كلمة من هذه، فوقع تحت أقل أقلناك، وتحت أنك، يحمل إليه من الدراهم كذا، وتحت أقطع أقطعناك الضيعة الفلانية بباب حلب، وتحت سر قد سررناك، فقال المتنبي: إنّما أردت من التسري فأمر له بجارية.

ووضع بديع الزمان الهمداني مقامة من مقاماته سماها المقامة الحمدانية أسسها على أن سيف الدولة قد حضر مجلسه جماعة من الأدباء، وقد عرض

(١) بيتمة الدهر، ج ١، ص ٤٢.

(٢) بيتمة الدهر، ج ١، ص ٤٢، ديوان المتنبي، شرح العكبري، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط ١٩٧٨م، ج ٢، ص ٧٩.

(٣) بيتمة الدهر، ج ١، ص ١٤٩ - ١٤٧.

إليه فرس جميل، فقال سيف الدولة: "أيكم أحسن صفته جعلته صلته" والقصة بالضرورة خيالية ولكنها تمثل صورة سيف الدولة في أذهان الأدباء^(١).

وقد روى أن سيف الدولة كان منصرفاً من إحدى حروبه قد دخل عليه

الشعراء، ومعهم رجل شامي فأنشده:

وكانوا كفأر وسوسوا خلف حائط * وكنت كسنور عليهم تسقفاً

فأمر بإخراجه فقام على الباب يبكي فقال له سيف الدولة مالك تبكي؟

قال قصدت مولانا بكل ما أقدر عليه أطلب منه بعض ما يقدر عليه، فلما خاب

ألمي بكيت، فقال سيف الدولة، وكم كنت أملت؟ قال خمسمائة درهماً فأمر له

بألف درهم.

(١) ظهر الإسلام، ص ١٨٠.

الفصل الثاني

المبحث الأول

أبو الطيب المتنبي، وأبو فراس الحمداني

* أبو الطيب المتنبي:

المشهور في نسب المتنبي أنه: أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكندي^(١). الكوفي وقيل إنه هو: أبو الطيب أحمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار الكندي الكوفي^(٢). ولد سنة ٣٠٣ هـ بالكوفة. في محلة تسمى كندة^(٣) "بها ثلاثة آلاف بيت من بين رواء وسقاء"^(٤).

ويبدو أن والد المتنبي كان سقاء هذا استناداً على ما رواه الخطيب عن محمد بن يحيى العلوي فقال: "كان المتنبي وهو صبي ينزل في جوارى بالكوفة، وكان أبوه يعرف بعبدان السقاء، ويسقى لنا ولأهل المحلة، وقد ذكر والده عبدان أنه من جعفي بن سعد العشير، وجدته همدانية صحيحة النسب لا أشك فيها وكانت من صلحاء النساء الكوفيات"^(٥).

وقد هجاه ابن لنكك البصري حين سمع بقومه من مصر ووقع شعراء بغداد فيه، فقال:

(١) وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٢٠.

(٢) تاريخ بغداد، للحافظ أبي بكر أحمد بن علي "الخطيب البغدادي" دار الكتب العلمية، بيروت، ج ٤، ص ١٠٢، المصدر السابق.

(٣) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ج ٣، ص ١٤.

(٤) وفيات الأعيان وأنباء الزمان، لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ج ١، ص ١٢٤.

* وقد كان حامل النسب، والدليل على ذلك: أن المؤرخين اختلفوا في تسمية أجداده وفي نسبة، كما ظن بعضهم أنه ينتمي إلى كندة القبيلة اليمنية المشهورة فقال: "بدئ الشعر بكندة وختم بكندة"، يعني أمراً القيس والمتنبي، ولو كان منها لأثبت ذلك في شعره وافتخر بها. وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٥٤٢.

(٥) تاريخ بغداد، ج ٤، ص ١٠٣.

قولا لأهل زمان لا خلاق لهم * ضلوا عن الرشد من جهل بهم وعموا
أعطيتم المتنبى فوق منيته * فزوجوه برغم أمهاتكم
لكن بغداد جاد الغيث ساكنها * نعالهم في قفا السقاء تزدهم^(١)
وقال آخر:

أي فضل لشاعر يطلب الفض * ل من الناس بكرة وعشية
عاش حيناً يبيع في الكوفة الماء * وحيناً يبيع ماء المحيا^(٢)

وقد كان المتنبى يخفى نسبه دائماً لأمر في نفسه ولما سأله التتوخي عنه
لم يجب وقال: نا رجل أنزل دائماً على القبائل والأعراب وأطوي البوادي وحدي
ومتى انتسب لا آمن أن يكون لبعض الأعراب ثأر في قومي فيأخذوني بهم،
وما دمت غير منتسب إلى أحد فأنا أسلم على جميعهم ولا يخافون لساني^(٣).
نشأته: نشأ المتنبى بمحلة كندة بالقرب من الكوفة، واختلف إلى كتاب
فيه أولاد أشرف الكوفة فكان يتعلم دروس العلوية: شعراً، ولغة، وإعراباً^(٤). وشبَّ
مولعاً بحب اللغة ومعرفة فنونها، حريصاً على طلبها، ساعياً إلى أهلها في
البادية، قال الخطيب: "ذهب المتنبى في صباه إلى البادية وصحب الأعراب ثم

(١) وفيات الأعيان، ج١، ص ٤٦، الصبح المنبى عن حيثية المتنبى، ليوسف البديعي، ت مصطفى
السقا وآخرين، دار المعارف، ص ١٤٥.

(٢) وفيات الأعيان، ج١، ص ١٢٤.

(٣) الشعر في رحاب سيف الدولة، ص ٦٢، تاريخ بغداد، ج٤، ص ٣٢٥.

(٤) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، لعبد القادر عمر البغدادي، ت وشرح عبد السلام محمد هارون،
مكتبة الخانجي، القاهرة، مطبعة المدني، ج٢، ص ٣٤٧.

عاد إلى الكوفة بعد سنين بدوياً قحاً^(١). وسافر به أبوه سنة ٣٢١ هـ إلى بلاد الشام عندما أغار القرامطة على الكوفة^(٢). وذكر الثعالبي ذات القول^(٣). وينسب لأبي الطيب أنه ادعى النبوة في بادية السماوة^(٤)، فأغوى كثيرين من بني كلب وغيرهم حتى خرج إليه "الؤلؤ" أمير حمص من قبل الإخيشد، فأسره وفرق أصحابه، وحبسه طويلاً حتى تاب فأطلقه^(٥).

ويرى الدكتور طه حسين أن سبب سجنه هو آراؤه الثورية التي ضمنها شعره، واستهانتها بالقواعد الدينية، وتشبيهه المسلمين باليهود والقروء، ودعوته الناس إلى تلك المبادئ الخطرة التي عرفت عن القرامطة. وليس لادعائه النبوة^(٦).

وقال الدكتور إبراهيم علي أبو الخشب الذي قال متعجباً: كيف ساغ عند الناس أن ينسبوا للمتنبى صاحب العقل الجبار والرأي السديد والفلسفة الرائعة والحكمة البالغة أن ينحدر هذا الانحداراً لشنيع فيدعي النبوة؟^(٧).

خرج المتنبى من السجن فهام على وجهه في بلاد الشام متكسباً بشعره ومن أشهر ممدوحيه في ذلك الوقت بدر بن عمّار الأسدي نائب ابن رائق في طبرية وبالرغم من أن بدر بن عمّار كان معجباً بالمتنبى ومحباً له، إلا أن المتنبى لم يجد عنده ما يسدّ به حاجات نفسه من مال وجاه، وكان وقتئذٍ في أسوأ حالات الفقر، وقد ذكر صاحب اليتيمة أنه مدح علي بن منصور الحاجب بقصيدته التي مطلعها:

بأبي الشموس الجانحات غوارياً * اللابسات من الحرير جلابياً

-
- (١) تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، ج٤، ص ١٠٣.
- (٢) الكشف عن مساوئ شعر المتنبى، للصاحب بن عبّاد، ت محمد حسن آل ياسين، مكتبة النهضة، بغداد، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م، ص ١٢.
- (٣) يتيمة الدهر، ج١، ص ١٤.
- (٤) الصبح المنبي عن حيثية المتنبى، ص ٥٩.
- (٥) الصبح المنبي، ص ٦٧، هما روايتان، ص ٦٧، ٦٨، وفيات الأعيان، ج١، ص ١٢٢.
- (٦) مع المتنبى، لته حسين، طبع دار المعارف، مصر، ص ١٦٦.
- (٧) تاريخ الأدب العربي، لإبراهيم علي أبو الخشب، ط١، ج٢، ص ٢٧٤ وما بعدها.

فلم يعطه إلاّ ديناراً واحداً ولذا سميت بالدينارية^(١).

وقد مدح المتنبي بدون العشرة والخمسة من الدراهم كما أن أكثر ما ناله شعره قبل اتصاله بسيف الدولة كان مائة دينار، منحها له الأمير أبو محمد الحسن بن عبد الله بن طغج بالرملة^(٢).

المتنبي وسيف الدولة:

اتصل المتنبي بأبي العشائر وإلى سيف الدولة على أنطاكية سنة ٣٣٦هـ، فقدمه أبو العشائر إلى سيف الدولة لما قدّم سنة ٣٣٧هـ إلى أنطاكية وأثنى عليه، وقال صاحب الصبح المنبي: إن المتنبي اشترط على سيف الدولة أول اتصاله به، أنه إذا أنشده مديحه لا ينشده إلاّ وهو قاعد، وألا يكلف تقبيل الأرض بين يديه^(٣)، فقبل سيف الدولة تلك الشروط وصحبه المتنبي ما يقارب تسع السنوات، وقد قرّبه سيف الدولة وأجازه الجوائز السنوية ومالت نفسه إليه وأحبه واكتفى منه في العام بثلاث قصائد يجيزه عليها بثلاثة آلاف دينار^(٤).

وقد روى البغدادي: أن سيف الدولة أمر بحساب ما أعطى للمتنبي فكان خمسة وثلاثين ألف دينار في مدة أربع سنوات^(٥).

كتب المتنبي في رحاب الأمير الحمداني أجود ما جادت به قريحته من الشعر، ووصف جهاد الأمير ضد الروم، وصحبه في عدة معارك وكان فارساً شجاعاً، وذكر أنه في إحدى المعارك هزم جيش سيف الدولة هزيمة نكراء ففر الجنود والقواد ولم يبق حول سيف الدولة غير ستة أحدهم المتنبي^(٦)، وقد بلغ المتنبي عند سيف الدولة قمة الشهرة وذروة المجد^(٧).

(١) بيتيمة الدهر، ج ١، ص ٩٥.

(٢) خزانة الأدب، للبغدادي، ص ٣٤٦، ص ٣٥٠.

(٣) الصبح المنبي، ج ١، ص ٦٦.

(٤) الصبح المنبي، ج ١، ص ٦٦.

(٥) خزانة الأدب، ج ٢، ص ٣٥٢.

(٦) بيتيمة الدهر، ج ١، ص ٣٤.

(٧) أبو الطيب المتنبي في مصر والعراقين، لمصطفى الشكعة، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م،

كان المتنبي معجباً بشخصية الأمير أيما إعجاب لكنه اضطر إلى مفارقتها؛ وذلك بسبب مناقشة في مسألة نحوية جرت بينه وبين ابن خالويه أستاذ سيف الدولة، وعندما احتد النقاش بينهما قال المتنبي لابن خالويه: "ما أنت إلا أعجمي لا يفهم أساليب اللغة"^(١)، ففاض الغضب بابن خالويه وصك رأس المتنبي بمفتاح من حديد فأسال دمه، ونظر المتنبي إلى سيف الدولة، وشعر بعدم استنكاره لما فعله أستاذه، فمضى عنه قائلاً^(٢):

بِأَبِي الشُّمُوسِ الْجَانِحَاتُ غَوَارِبًا * اللَّابِسَاتُ مِنَ الْحَرِيرِ جَلَابِبًا

رحل المتنبي عن حلب وتوجه إلى دمشق سنة ٣٤٦هـ، ومنها ذهب إلى مصر فتلقيه ملكها كافور بالكرام والتبجيل ووعدته بولاية بعض أعماله، فلما رأى تعاضمه في شعره وسموه خافه، وأخذ يماطله، وعوتب فيه فقال: يا قوم مَنْ ادعى النبوة مع (محمد صلى الله عليه وسلم) لا يدعى المملكة مع كافور؟! حسبكم^(٣). شعر المتنبي بغدر كافور له، فهرب من مصر سنة ٣٥١هـ وهجاه بقصيدته:

عَيْدٌ بِأَيَّةِ حَالٍ عُدَّتْ يَا عَيْدُ * بِمَا مَضَى أَمْ بِأَمْرٍ فَيْكَ تَجْدِيدُ؟^(٤)

ذهب المتنبي إلى الكوفة ومنها قصد بغداد فلم يطب له فيها المقام، وخاصة أن المهلبى أغرى به شعراء بغداد فتباروا في هجائه؛ وذلك لأنه ترفع عن مدحه. وبعد ذلك ذهب إلى ابن العميد في أرجان وبعده اتصل بعضد الدولة، في شيراز، ثم رحل عنها، وبالقرب من النعمانية اعترضه فاتك بن أبي جهل ولما رأى الغلبة فرّ، فقال له غلامه، لا يتحدث عنك الناس بالفرار وأنت القائل:

فَالْخَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبِيدَاءُ تَعْرِفُنِي * وَالسَّيْفُ وَالرَّمْحُ وَالْقِرطَاسُ وَالْقَلَمُ^(٥)

(١) الصبح المنبى، ج ١، ص ٨٧.

(٢) ديوان المتنبي بشرح البرقوقى، ج ٤، ص ٢٣٥.

(٣) العمدة، ج ١، ص ٧٤.

(٤) ديوان المتنبي، شرح البرقوقى، ص ٨٥.

(٥) العمدة، لابن بشير القيروانى، ت محمد محبى الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٢م، ج ١،

ص ٧٤.

فكّر راجعاً فقتل وكان السبب ذلك البيت^(١)، وكان ذلك في سنة ٣٥٤هـ^(٢).

وقيل إن: فاتك قتله لأنه هجا ابن أخته (ضبة بن يزيد العتبي)^(٣).
والحق أن المتتبي بجانب اهتمامه الكبير بالاطلاع، كان على قدر كبير من الذكاء كما كان قوي الحافظة، وكان يذهب إلى الوراقين ويتصفح الكتاب وينظر فيه كأنه يريد التأكد من سلامته من التلف؛ ويرده إلى صاحبه بعد ذلك وقد حفظه كله^(٤).

ديوانه:

قد روى الديوان عن أبي الطيب ثقات منهم: أبو الفتح عثمان بن جنيّ، وقد ناظره في كثير من أبياته ثم شرحه. قال الواحدي: "إنما دعاني إلى تصنيف هذا الكتاب مع خمول الأدب وانقراض زمانه، اجتمع أهل العصر قاطبة على هذا الديوان وشغفهم بحفظه وروايته، والوقوف على معانيه وانقطاعهم عن جميع أشعار العرب جاهليتها وإسلامها إلى هذا الشعر واقتصارهم عليه في: تمثّلهم، ومحاضراتهم، وخطبهم، ومقاماتهم، حتى كأن الأشعار كلها فقدت^(٥).
وقال عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهاني: "أخبرني أبو الفتح عثمان بن جنيّ أنّ أبا الطيب أسقط من شعره الكثير وبقي ما تداوله الناس"^(٦).

(١) العمدة، ج١، ص ٧٤.

(٢) تاريخ بغداد، ج٤، ص ١٠٥، والكامل، ج٨، ص ٢٧٣.

(٣) وفيات الأعيان، ج١، ص ١٢٣.

(٤) راجع ديوان المتتبي شرح العكبري، أبي البقاء، التبيان في شرح الديوان، ت مصطفى السقا وآخرون، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط ١٩٧٨م، ص ٩، نزهة الألباء ص ٣٦٧.

(٥) ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام، لعبد الوهاب عزام، ط ٢، دار المعارف، مصر، ١٩٥٦م، ص ٣٦.

(٦) خزنة الأدب، للبغدادي، ج١، ص ٣٥٠.

أبو فراس الحمداني:

هو الحارث بن أبي العلاء سعيد بن حمدان بن حمدون التغلبي^(١) ابن عم سيف الدولة، وكنيته: أبو فراس، والفراس هو: الأسد^(٢)، وهذه الكنية تدل على شجاعته وفروسيته.

وُلِدَ في شهر ربيع الأول سنة ٣٢٠هـ^(٣)، ولم تذكر كتب التراجم مكان ولادته، ولكننا نرجح أن يكون بالموصل؛ لأن والده كان والياً عليها في ذلك التاريخ.

أبوه: أبو العلاء سعيد وكان أميراً من أمراء بني حمدان، وقد كان فارساً شجاعاً ولآه الخليفة المقتدر عدة ولايات واعتمد عليه في القضاء على العديد من الفتن، وتولى السلطة مع أخيه نصر على الموصل من سنة ٣١٨هـ إلى سنة ٣٢٣هـ

أمه: نستخلص من بعض أشعاره أنها رومية انظر قوله:

وَأَعْمَامِي رَيْبَعَةٌ وَهِيَ رَصِيدٌ وَأَخْوَالِي بَلْصَفَرٌ وَهِيَ غُلْبٌ^(٤)

ويقول:

إِذَا خِفْتُ مِنْ أَخْوَالِي الرُّومِ خُطَّةً تَخَوَّفْتُ مِنْ أَعْمَامِي الْعَرَبِ أَرْبَعًا^(٥)
ولأبي فراس عدد من الأخوة لأبيه ذكر منهم اثنين في أشعاره وقال في

أحدهما ويسمى الحسين:

حَلَلْتُ مِنَ الْمَجْدِ أَعْلَى مَكَانٍ * وَبَلَغَكَ اللَّهُ أَقْصَى الْأَمَانِي^(٦)

وقال في أبي الفضل الذي زاره في الأسر:

يَضِيقُ عَلَيَّ الْحَبْسَ حَتَّى تَزُورَهُ * فَمَا هُوَ إِلَّا رَوْضَةٌ وَغَدِيرٌ^(٧)

(١) وفيات الأعيان، ج٢، ص ٥٨، النجوم الزاهرة، ط١، ج٤، ص ٢٦.

(٢) لسان العرب، لابن منظور، ط دار المعارف، دار صادر، بيروت، ١٩٦٢م، ص ١٦، مادة (ف، ر، س).

(٣) وفيات الأعيان، ج٢، ص ٥٨، الكامل، ج٨، ص ٣١٧، وزبدة الحلب، ج١، ص ١٥٦.

(٤) ديوان أبي فراس، رواية وشرح ابن خالويه، دار صادر، بيروت، ١٣٨٥هـ-١٩٦٦م، ص ٤٩.

(٥) ديوانه، ص ٢٠٩.

(٦) ديوانه، ص ٢٠٩.

(٧) ديوانه، ص ٣٣٧.

وفي أشعاره كذلك نجد ما يدل على أنه واحد لأُمَّه وذلك عندما قال مخاطباً سيف الدولة:

بأي عذر رددت والهة * عليك دون الوري معولها
جاءتك تمّاح ردّ واحدها * ينتظر الناس كيف تغفلها

وله أختان تزوج إحداهما سيف الدولة، وتزوج الأخرى أبو العشائر^(١).

اعتزّ أبو فراس بكريم نسبه فقال:

لئن خُلِقَ الأنامُ لحسوّ كَأْسٍ * ومِزمارٍ وَطُنْبُورٍ وَعَوْدٍ
فَلَمْ يُخَلَقْ بِنَوْ حَمَدَانَ إِلَّا * لِمَجْدٍ أَوْ لِبِأْسٍ أَوْ لِحُودٍ^(٢)

نشأته: ولد أبو فراس في أحضان أسرة كريمة، وعندما قُتل والده كان في الثالثة من عمره، فاحتضنته أمه^(٣) وتولاه ابن عمه سيف الدولة بالعطف والرعاية، وعندما قدم إلى حلب أميراً عليها، نقل معه أبا فراس وأمه من الموصل إلى حلب سنة ٣٣٣هـ وقد صرّح بذلك أبو فراس في اشعاره، فقال:

فَمِنْ سَعِيدِ بْنِ حَمَدَانَ وَلِدَتُهُ * وَمِنْ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ سَائِرُهُ
لَقَدْ فَقَدْتُ أَبِي طِفْلاً فَكَانَ أَبِي * مِنَ الرِّجَالِ كَرِيمِ العَوْدِ نَاضِرُهُ^(٤)

وفي ظلال سيف الدولة نشأ وترعرع بين أبهة الملك وعزة السلطان، وقد تتلمذ على يد ابن خالويه الذي كان مؤدباً لبني حمدان، وأدخله سيف الدولة عرين الأبطال، وعلمه فنون الفروسية والقتال، وكان أبو فراس أبي النفس، سليم الطبع، كريم الخلق، جامعاً بين أدبي السيف والقلم.

كان سيف الدولة معجباً بمحاسنه، مؤثراً له على سائر قومه، فاصطفاه لنفسه، واصطحبه في غزواته، واستخلفه على أعماله، وعندما قوى ساعده قلده إمارة منبج وما حولها سنة ٣٣٦هـ^(٥).

(١) ديوانه، ص ٢٦٤.

(٢) بيتيمة الدهر، ج ١، ص ٤٤.

(٣) موسوعة شعراء العصر العباسي، لعبد عون الروضان، دار أسامة للنشر، ج ٢، ص ٥٥.

(٤) ديوان أبي فراس، رواية ابن خالويه، ص ، الشعر في رحاب سيف الدولة، ص ٨٠.

(٥) بيتيمة الدهر، ج ١، ص ٣٥.

أما عن مكانته في مجتمعه فقد قال عنه الثعالبي: "كان فرد دهره، وشمس عصره أدباً وفضلاً وكرماً ونبلاً"^(١) ويقول ابن خالويه: "مَنْ حَلَّ مِنْ الشرف السامي، والحسب النامي، والفضل الرائع، والأدب البارع، والشجاعة المشهورة والسماحة الماثورة، محل الأمير أبي فراس الحارث بن سعيد رحمه الله"^(٢). وقال الثعالبي عن شعره: "قد أطلت عنان الاختيار من محاسن شعر أبي فراس وما محاسن شيء كله حسن"^(٣).

وشعره مثال الشعر القديم متانة وأسلوباً إلا أن عليه رقة الطبع وسمة الظرف وعزة الملك، ولم تجتمع هذه الخلال قبله إلا في شعر عبد الله بن المعتز وكان الصاحب ابن عباد يقول: بدئ الشعر بملك وختم بملك^(٤).

اتصف أبو فراس بالشجاعة والإقدام وتحلّى بالقيم الطيبة ومكارم الأخلاق، وهذا بشهادة معاصريه، وكان حامي حمى ثغر من أهم الثغور في دولة الأمير، وقد اشترك مع سيف الدولة في العديد من المعارك ضد الروم إلى أن ذاع صيته، وأحبته القلوب، ولهجت بذكره الألسن، وانطلق لسانه برائع الشعر في الحماسة والحروب، وكان النصر حليفه حيثما حلت قدماءه، حتى خانته الحظ في إحدى المرات فأسره الروم في إحدى المواقع، فحارب إلى أن أثخن بالجراح، وأصابه سهم بقي في فخذيه، ثم أسر.

اختلف المؤرخون في قصة أسره، فمنهم من ذهب إلى أنه أسر مرتين الأولى سنة ٣٤٨هـ والثانية سنة ٣٥١هـ، ومنهم من ذهب إلى أنه أسر مرة واحدة سنة ٣٥١هـ.

يرى ابن خالويه أن أبا فراس أسر سنة ٣٥١هـ، أثناء خروجه للصيد في عدد يسير من أصحابه، فالتقى بابن أخت ملك الروم الذي خرج في ألف فارس

(١) بيتمة الدهر، ج ١، ص ٣٤.

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٥٧.

(٣) المصدر السابق، ج ١، ص ١١٢.

(٤) تاريخ الأدب العربي، لأحمد حسن الزيات، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٨م، ص ٣٠٣.

إلى نواحي منبج فنشبت بينهما معركة شديدة^(١) غير متكافئة من ناحية العدد ثبت فيها أبو فراس حتى أثنى بالجراح وأسر^(٢).

أما ابن خلكان فإنه يذهب إلى أنه أُسر مرتين: الأولى: بمغارة الكحل في سنة ٣٤٨هـ بالقرب من خرشنة، ويقول: إنه عندما أُسرَ كان راكباً فرسه فركضه برجله فأهوى به من أعلى الحصن إلى الفرات. والثانية: على مقربة من منبج في شوال سنة ٣٥١هـ ويقول: حملوه إلى القسطنطينية، وأقام في الأسر أربع سنين^(٣).

ويتأملنا في قراءة ما سرد آنفاً، نعتقد أن ما ذهب إليه ابن خلكان في روايته الأولى أقرب إلى الخيال، أما روايته الثانية فهي لا تختلف كثيراً عما ذكره ابن خالويه، وما يجعلنا نرجح رواية ابن خالويه هو ظننا أن ابن خالويه يُعدّ الأقرب إلى أبي فراس من سواه، وسبب آخر يجعلنا نؤكد ما ذهب إليه ابن خالويه: أن أبا فراس لم يذكر في شعره أنه أُسر غير مرة واحدة.

ذكر أبو فراس أن الروم أحسنوا معاملته وأكرموا أول الأسر، فقال:

أسرت وما صحبي بعزل لدى الوغى * ولا فرسى مهر ولا ربه غمر
ولكن إذا حمّ القضاء على امرئ * فليس له برّ يقيه ولا بحر
يمنون أن خلّوا ثيابي وإنما * على ثياب من دماهم حمر^(٤)

ثم بعد ذلك تغيرت معاملتهم له، فوضعوه في مكانٍ ضيق وألبسوه الثياب الخشنة، وصار لا ينتقل من مكانٍ إلى مكانٍ إلاّ بقيده، وفارقت وجهه سمات الجمال فقال مخاطباً سيف الدولة:

يا واسع الدار كيف توسّعها * ونحن في صخرة نزلناها
ياناعم الثوب كيف تبدّلناه * ثيابنا الصوف ما تبدّلها
ياراكب الخيل لو بصرت بنا * نحمّل أقيادنا وننقلها
رأيت في الضرّ أوجهاً كرمّت * فارق فيك الجمال أجملها

(١) ديوان أبي فراس، ت وشرح كرم البستاني، ط١ دار صادر، بيروت، ١٩٩٢م، ص ٧.

(٢) ديوانه، رواية ابن خالويه، ص ٧٥، ٧٦.

(٣) وفيات الأعيان، ج ١، ص ٦١.

(٤) ديوانه، ج ٢، ص ٢١٢ وما بعدها.

قَدَ أَثَرَ الدَّهْرِ فِي مَحَاسِنِهَا * تَعْرِفُهَا تَارَةً وَتَجْهَأُهَا^(١)

الراجح أن أبا فراس قضى في الأسر أربع سنين، والسؤال الذي استوقف الكثيرين هو: لماذا تأخر سيف الدولة عن فداء ابنه وقائده الذي يعدّ رمزاً من رموز دولته وعلماً شامخاً من أعلامها، كل هذا التأخير؟؟
وللإجابة عن هذا السؤال، لا بد من أن نضع في حسابنا اعتبارات كثيرة منها:

- ١- هل شابت علاقتهما شائبة في الآونة الأخيرة قبل الأسر؟
- ٢- كيف كان وضع دولة سيف الدولة في ذلك الحين؟
- ٣- هل كانت هناك مؤثرات خارجية أسهمت في بذر بذور الشك وفقدان الثقة بينهما؟

١- لم نجد في شعر أبي فراس ولا فيما قرأنا له من الكتب التي ترجمت له أثراً يدل على أن هناك شائبة شابت علاقتهما قبل واقعة الأسر.

٢- أما وضع دولة الأمير سيف الدولة في ذلك الحين فقد كان سيئاً للغاية؛ لأن الروم كانوا قد هزموا الأمير ودمروا حصونه، وخرّبوا عاصمته في حرب لم تشهد مثلها حلب من قبل، كما أسروا خلقاً كثيراً فُدّر عددهم بأكثر من ثلاثة آلاف أسير، وهنا قد نلتمس العذر للأمير؛ لأنه حينها قد يكون منشغلاً بتدبير أموره الداخلية وإعادة ترتيبها، ولأن ذلك الرقم الكبير من الأسرى يحتاج إلى أموال طائلة، لتتم مسألة الفداء، ومما لا شك فيه أن هذه الأموال تحتاج إلى تدبير. لكن هذا إذا كان أبو فراس قد أسر في تلك المعركة فعلاً، فابن خالويه في روايته -وهي الأوثق في رأينا- يؤكد أن أسر الأمير أبي فراس كان قبل تلك الواقعة، عندما خرج إلى الصيد في عدد يسير من أصحابه وهنا لا نجد العذر للأمير سيف الدولة.

(١) ديوانه، ج ٣، ص ٣٠٣.

أما المؤثرات الخارجية فنعني بها تحديداً الوشاة الذين عملوا على إفساد العلاقة بين الأمير والأمير الشاعر وهو في الأسر.

بالرجوع إلى ديوان أبي فراس نلاحظ أن هناك العديد من الأشعار التي كتبها أبو فراس والتي تؤكد أن هناك بعض الحساد من عشيرته كانوا يحاولوا - دائماً- أن يوغروا صدر سيف الدولة عليه، وقال إن ذلك كان دأبهم في وجوده وفي غيابه انظر قوله:

تَمَنِّيْتُمْ أَنْ تَفْقِدُونِي وَإِنَّمَا * تَمَنِّيْتُمْ أَنْ تَفْقِدُوا الْعِزَّ أَصِيدَا
أَمَا أَنَا أَعْلَى مَنْ تَعْدُونَ هِمَّةً * وَإِنْ كُنْتُ أَدْنَى مَنْ تَعْدُونَ مَوْلِدَا
إِلَى اللَّهِ أَشْكَو عُصْبَةً مِنْ عَشِيرَتِي * يُسَيِّوُونَ لِي فِي الْقَوْلِ غَيْباً وَمَشْهَدَا
وَإِنْ حَارِبُوا كُنْتُ الْمَجَنَّنَ أَمَامَهُمْ * وَإِنْ ضَارِبُوا كُنْتُ الْمُهْتَدَّ وَالْيَدَا
وَإِنْ نَابَ خَطْبٌ أَوْ أَلَمَّتْ مُلَمَّةٌ * جَعَلْتُ لَهُمْ نَفْسِي وَمَا مَلَكَتْ فِدَا^(١)

والذي خرجنا به أن مسألة تأخير الأمير لفداء أبي فراس كان لها أثر كبير على نفس الشاعر والقارئ لديوان أبي فراس يلحظ أن أبا فراس لم يمدح الأمير سيف الدولة بعد قدومه من الأسر وكذلك أنه لم يرثه بعد وفاته.

فدى سيف الدولة أبا فراس في سنة ٣٥٥هـ^(٢)، في شوال مقابل ستمائة ألف دينار رومية.

الجدير بالذكر هنا أن أسر أبو فراس قد أهدى الشعر العربي أروع ما جادت به قريحته من قصائد نتجت من تجربة شعورية صادقة نبعت من وجدانه وعبر عنها لسانه وعرفت تلك المجموعة الشعرية النادرة بالروميات وهي تعد من عيون الشعر العربي. قال النعالي: "العمرى إنها - كما قرأت لبعض البلغاء - لو سمعته الوحش أنست أو خوطبت به الخرس نطقت أو استدعي به الطير نزلت^(٣).

(١) وفيات الأعيان، ج٢، ص ٦١.

(٢) تاريخ ابن خلدون، لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون المغربي، دار الفكر، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، ج٤، ص ٣١٠.

(٣) بيتيمة الدهر، ج١، ص ١١٢.

عاد أبو فراس من الأسر سنة ٣٥٥هـ وبعد عودته بعام توفي ابن عمه سيف الدولة، وتولى زمام الأمر من بعده ابنه أبو المعالي، يساعده غلام أبيه قرعويه، مما أثار غضب أبا فراس فعزم على التغلب على حمص، ووصل خبره إلى أبي المعالي فأرسل إليه قرعويه وقتله في شهر ربيع الآخر في سنة ٣٥٧هـ، في ضيعة تعرف بصدد، وقيل أخذ رأسه وبقيت جثته مطروحة في البرية إلى أن جاء بعض الأعراب فكفنه ودفنه^(١).

قال ابن العديم: "ولطمت أمه سخية حتى قلعت عينها عليه"^(٢).

وجاء في وفيات الأعيان: "وقلعت أمه سخينة عينها لما بلغها وفاته"^(٣).

أما اليافعي فقد قال: "أبو فراس خال أبو المعالي فقلعت أم أبي المعالي عينها لما بلغها وفاته"^(٤).

وما يجعلنا نثبت رأي اليافعي، أن أبا فراس رثا أمه عندما كان أسيراً بالروم قائلاً:

أَيَا أُمَّ الْأَسِيرِ سَقَاكَ غَيْثٌ * بِكُرِهِ مِنْكَ مَا لَقِيَ الْأَسِيرُ
أَيَا أُمَّ الْأَسِيرِ سَقَاكَ غَيْثٌ * تَحَيَّرَ لَا يُقِيمُ وَلَا يَسِيرُ
أَيَا أُمَّ الْأَسِيرِ سَقَاكَ غَيْثٌ * إِلَى مَنْ بِالْفِدَا يَأْتِي الْبَشِيرُ^(٥)

ومن هذه الأبيات نرجح أن التي قلعت عينها هي أخته وليست أمه.

لم يجمع أبو فراس شعره في حياته، وإنما كان يلقيه على أستاذه ابن خالويه، ويحظر عليه نشره، وبعد وفاته قام ابن خالويه بجمع شعره وقدم له بمقدمة جميلة، وشروح وافية لكثير من الأبيات، وكانت ذات فائدة كبيرة، كما أنها أزلت كثيراً من الغموض، وأظهرت العديد من الجوانب التاريخية غير الواضحة. وقد أورد الثعالبي مختارات من أشعاره في يتيمة ولا سيما الروميات.

(١) تاريخ ابن خلدون، ج٤، ص ٣١٠، ووفيات الأعيان، ج٢، ص ٦١.

(٢) زبدة الحلب، ج١، ص ٥٦.

(٣) وفيات الأعيان، ج٢، ص ٦١.

(٤) مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، لليافعي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط٢، ١٩٧٠م، ج٢، ص ٣٦٩.

(٥) ديوانه شرح عباس إبراهيم، ص ٩٠.

المبحث الثاني

أبو العباس النامي، وأبو الفرج الببغاء

* أبو العباس النامي:

أبو العباس أحمد بن محمد الدارميّ المصيبيّ، المعروف بالناميّ، الشاعر المشهور، كان من الشعراء المفلقين، ومن فحولة شعراء عصره، وخواص مدّاح سيف الدولة بن حمدان، وكان عنده تلو أبي الطيب المتنبي في المنزلة والرتبة^(١).

والدارميّ: نسبة إلى دارم بن مالك بطن كبير من تميم^(٢).

والمصيبيّ: نسبة إلى المصيصة وهي مدينة على ساحل البحر الروميّ جوار طرسوس^(٣).

وكان رجلاً فاضلاً، وأديباً بارعاً، عارفاً باللغة والأدب، وله أمالٍ أملاها بحلب، روى فيها عن أبي الحسن علي بن سليمان الأخفش، وابن دُرستويه، وأبي عبد الله الكزّمانيّ، وأبي بكر الصوليّ، وإبراهيم بن محمد العروزيّ، وابن محمد المصيبيّ، وروى عنه: أبو القاسم الحسين بن علي بن أسامة الحلبيّ، وأخوه أبو الحسين أحمد، وأبو الفرج الببغاء، والقاضي أبو الطاهر صالح بن أسامة الحلبيّ، وجعفر الهاشمي، وأبو بكر الخالدي^(٤).

وكان الأمير سيف الدولة يميل إليه ويقدره، ويفضله على غيره من الشعراء إلى أن جاء المتنبي، فقدم الأمير المتنبي عليه.

واختلفت الآراء فيما إذا كان النامي من أنصار المتنبي أم من خصمائه؟ يقول ابن خلكان: وله معه وقائع ومعارضات في الأناشيد^(٥).

(١) وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٢٥.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٧.

(٣) المصدر السابق.

(٤) وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٢٥.

(٥) المصدر السابق، ص ١٢٦.

قال سامي الكياليّ في معرض قوله عن المتنبّي: وبدأت المؤامرات تحاك حوله وبدأوا يدسّون عليه ويصورون شعره بشكل مبتذل، أجمله مسروق، لا يستحق هذا الإكبار والإجلال، وكان في طليعة هذا النفر النامي الشاعر، وابن خالويه مؤدب سيف الدولة وابن عمه أبو فراس، وكان أبو فراس أكثرهم حقداً عليه^(١).

ويرى الدكتور مصطفى الشكعة أن الناميّ كان من أنصار المتنبّي، فقال: نشأت المشاحنات وتعددت المعسكرات التي استفاضت بها كتب تاريخ الأدب عما حدث في بلاط سيف الدولة من مساجلات ومشاحنات لم تكن تخلو من دماء في بعض الأحيان، فهناك الخلاف الشديد بين كل من أبي فراس والمتنبّي ولكل منهما أحبّاء وأنصار، فالجبهة الأولى: على رأسها أبو فراس وجناحها ابن خالويه، وأبو العشائر، والجبهة الثانية: زعيمها المتنبّي وجناحها ابن جنّي وأبو العباس الناميّ^(٢).

وقال الناميّ: وكان قد بقي من الشعر زاوية دخلها المتنبّي وكنت أشتي أن قد سبقته إلى معنيين قالهما -ما سبق إليهما أحد- أما أحدهما فقوله^(٣):

رَمَانِي الدَّهْرُ بِالْأَرْزَاءِ حَتَّى * فُوَادِي فِي غِشَاءٍ مِنْ نِبَالِ
فَصِرْتُ إِذَا أَصَابَتْنِي سِيَهَامٌ * تَكَسَّرَتِ النَّصَالُ عَلَى النَّصَالِ

والآخر هو:

فِي جِحْفَلِ سِتْرِ الْعَيُونِ غِبَارُهُ * فَكَأَنَّمَا يَبْصُرُونَ بِالْآذَانِ^(٤)

ولا ينسى النامي قدر نفسه بل يساوي مقامه بمقام نظيره ولا يرى أنه قد تفوق عليه بشيء سوى ابتكاره لهذين المعنيين وعبر عن ذلك في أسلوب هادئ بأنفاس باردة لا يبدو فيه غيظ ولا كره.

(١) سيف الدولة، لسامي الكيالي، ص ١٣٩.

(٢) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين، ص ١٢٤.

(٣) الصبح المنبي، ج ١، ص ٨١.

(٤) وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٢٧.

وكان النامي على عدا مع عدد من شعراء بلاط الأمير، ويبدو أن سبب ذلك العدا هو تلك المكانة المميزة التي خصّ بها الأمير الشاعر هذا بالإضافة إلى أن الشاعر كان كثير الاعتزاز بنفسه كما أنه كان يتعالى على أقرانه الشعراء، انظر قوله في قصيدة مدح فيها سيف الدولة:

وَوَدَّ شعري فيك شعراً لمعشر * فكنتُ عليهم مثل نعماك منعماً^(١)

ومن أولئك السرى الرفاء الذي كانت بينه وبين النامي عداوة ومهاجاة.

وهنا عرّض به لأن النامي كان جزاراً قبل اتصاله بالأمير.

كانت للنامي صلات طيبة ببعض شعراء البلاط ومن أولئك أبو الفرج

البيغاء وصلته به قوامها ما يربط التلميذ بأستاذه من صلات روحية وفكرية قد تتلمذ البيغاء على يد النامي وروى عنه بعض أماليه^(٢).

ومن محاسن شعره قوله في الأمير:

أمير العلا إن العوالي كواسب * علاءك في الدنيا وفي جنة الخلد

يمر عليك الحول سيفك في الطلا * وطرفك ما بين الشكيمة واللبد

يمر عليك الدهر فلك للعلا * وقولك للتقوى وكفك للرفد^(٣)

وكان الدارمي من المعمرين، حكى أبو الخطاب بن عون الحريري

النحوي الشاعر، أنه دخل على أبي العباس النامي قال: فوجدته جالساً ورأسه

كالثغامة* بياضاً وفيه شعره واحدة سوداء فقلت: يا سيدي في رأسك شعره

سوداء؟ فقال: نعم هذه بقية شبابي وأنا أفرح بها ولى فيها شعر، فقلت: أنشدني

فأنشدني:

رأيت في الرأس شعرة بقيت * سوداء تهوى العيون رؤيتها

فقلت للبيض إذ تروعها * بالله إلا رحمت غربتها

(١) الشعر في رحاب سيف الدولة، ص ٩٤.

(٢) وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٢٧.

(٣) يتيمة الدهر، ج ١، ص ٢٢٤.

* الثغامة: مفرد الثغام، وهو نبت له ورق كورق الزنجبيل يبيض إذا يبس والمراد بياض شعر الرأس،

وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٢٦.

فقل لبث السوداء في وطن * تكون فيه البيضاء ضررتها

ثم قال يا أبا الخطاب، بيضاء واحدة تروع ألف فكيف حال سوداء بين ألف بيضاء؟! (١).

وقال ابن النديم: إنَّ للنامي ديوان شعر يقع في مائة ورقة جمعه أبو أحمد الخلال الخالع (٢)، أما الديوان فهو في عداد المفقودات، وما جمع له من أشعار فهو ما وُجد في كتب الأدب من شعر الشاعر، وأورد الثعالبي طائفة من أشعاره في اليتيمة وقال: إنها من عقائل شعره وفرائد عقده (٣).

وتوفى النامي سنة تسع وتسعين وثلثمائة، وقيل سنة سبعين أو إحدى وسبعين، وعمره تسعون سنة (٤).

*** أبو الفرج البغاء:**

البغاء: اسمه عبد الواحد بن نصر بن محمد أبو الفرج المخزومي الحنبلي (٥) الشهير بالبغاء، ولُقّب بالبغاء للثقة كانت في لسانه (٦)، وقيل لحسن صوته (٧). وكانت بينه وبين أبي إسحاق الصابي مكاتبات فأشار في إحداها إلى لقبه فقال:

أبا الفرج استحققت نعتاً لأجله * تسميت من بين الخلائق ببغا
بياناً منيراً كاللجين مضمناً * نضاراً من المعنى أديب وأفرغا
وما هجنت منك المحاسن لثقة * وليس سوى الإنسان تلقاه الثقا (٨)

(١) وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٢٦.

(٢) الفهرست، لابن النديم، "أبي الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق المعروف بالوزّاق"، تحقيق رضا تجدّ، دار المسرة، ط ٣، طبع بيروت، ص ٢٤٠.

(٣) يتيمة الدهر، ج ١، ص ٢٢٥.

(٤) وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٢٧.

(٥) تاريخ بغداد، ج ١١، ص ١١.

(٦) يتيمة الدهر، ج ١، ص ٢٣٦.

(٧) وفيات الأعيان، ج ١، ص ٥٣٥، وشذرات الذهب، ج ٣، ص ١٥٣.

(٨) يتيمة الدهر، ج ١، ص ٢٥٥.

ولم يذكر المؤرخون سنة ولادته ولكننا إذا نظرنا في قول أبي الفرج الذي قال فيه: "إنه تأخر عن اللحاق بسيف الدولة، خوفاً من خطر الإخشيديين، وعمره آنذاك كان عشرين عاماً"^(١)، نستخلص أنه وُلد في سنة ٣١٤ هـ تقريباً، لأن سيف الدولة دخل دمشق بعد حروبه مع الإخشيديين سنة ٣٣٤ هـ. نشأ البيغاء بنصيبين وتعلم بها، واتصل في شبابه بسيف الدولة^(٢). كان أبو الفرج شاعراً مجوداً، وكاتباً مترسلاً، مليح الألفاظ، جيد المعاني، وأكثر شعره في: المديح، والغزل، والخمر، وفي يتيمة الدهر سرد الثعالبي نماذج كثيرة من أشعاره. ويعد البيغاء من خواص سيف الدولة، وتغنى بأمجاده وأفضاله وكرمه ومن ذلك قوله:

نَدَاكَ إِذَا ضَنَّ الْعَمَامُ عَمَام * وَعَزَمُكَ إِنْ فُلَّ الْحُسَامُ حُسَامُ
فَهَذَا يَنْبُلُ الرِّزْقَ وَهُوَ مُمَنَّع * وَذَاكَ يَرُدُّ الْجَيْشَ وَهُوَ لُهَامُ
وَمَنْ طَلَبَ الْأَعْدَاءَ بِالْمَالِ وَالطُّبَا * وَيَالسَّعْدِ لَمْ يَبْعُدِ عَلَيْهِ مُرَامُ^(٣)

وذكر أبو الفرج أنه كان يعمل كاتباً للأمير، وأنه كتب للبلدان والرعية بخير تماماً الفداء الذي تمّ في رجب سنة خمس وخمسين وثلاثمائة بين الأمير الحمداني والروم^(٤).

عاش أبو الفرج تحت ظلال الأمير إلى أن توفي الأمير، وأقام في حلب بعد وفاة سيف الدولة فترة من الزمن، ومدح ابنه سعد الدولة، ورحل من حلب إلى الموصل سنة ٣٥٨ هـ، ومنها ذهب إلى بغداد سنة ٣٥٩ هـ^(٥)، وهناك تقلبت به الأحوال ما بين النجاح والفشل، وظل يعاود زيارة الموصل مرة وبغداد مرة

(١) يتيمة الدهر، ج ١، ص ٢٣٧.

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية، لجورجي زيدان، ج ٢، ص ٢٥٨، ووفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٣٦.

(٣) يتيمة الدهر، ج ١، ص

(٤) الشعر في رحاب سيف الدولة، ص ١٣٥.

(٥) يتيمة الدهر، ج ١، ص ٤٩، وزهر الأدب، ج ١، ص ٢٢١.

أخرى^(١)، وأحسّ بمرارة العيش بعد وفاة الأمير وأصابه الفقر فظل يشكو منه قائلاً:

نَبَتَ بِي دَارِي وَفَرَّ الْعَيْدُ * وَأَوَدَتِ ثِيَابِي وَبِعْتُ فُرُوشِي
وَكُنْتُ أَلْقَبُ بِالْبِغَاءِ * قَدِيمًا فَقَدَ مَزَقَ الدَّهْرُ رِيشِي
وَكَانَ غِذَائِي نَقِي الْأُرْزِ * فَهَا أَنَا مُقْتَنِعٌ بِالْحَشِيشِ^(٢)

وقال الثعالبي: "سمعت الأمير أبا الفضل عبد الله بن أحمد الميكالي يقول عند صدوره من الحج وقدمه إلى بغداد في سنة تسعين وثلاثمائة: "رأيت بها أبا الفرج البغاء شيخاً عالي السن متناول الأمد، نظيف اللبسة، بهي الركبة ظريف الجملة، أخذت الأيام من جسمه وقوته، ولم تأخذ من ظرفه وأدبه"^(٣).

وذكر أبو علي التنوخي ديوان البغاء فقال: "اخترت من شعره ما يصلح للمكاتبة في الحوادث والأمثال، أو معنى لم يسبق إليه، وتركت أكثر محاسن شعره...". وأكثر إحسانه موكلاً إلى من ينظر في ديوانه"^(٤).

وقال البغدادي: وكان شاعراً مجوداً جيد المعاني^(٥)، وقال ابن خلكان: وأكثر شعر أبي الفرج جيداً، ومقاصده فيه جميلة^(٦). وقال الثعالبي عن شعره ونثره: في النظم له كلام بل مدام، فنثره مستوف أقسام العذوية، وشروط الحلاوة والسهولة، ونظمه كأنه روضة منورة تجمع طيباً ومنظراً حسناً^(٧).

وتدل مآثره الشعرية على أنه كتب في المديح، والغزل، والخمر، والزهر.

ومن قوله في اللهو:

(١) وفيات الأعيان بتصرف، ج ١، ص ٥٣٥، فروش، هذا الاستخدام جوزه الشاعر لنفسه للضرورة الشعرية لكنه غير موجود في اللغة.

(٢) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي، ط ١، ج ٧، ١٩٣٠م، ج ٧، ص ٢٤٢.

(٣) بيتيمة الدهر، ج ١، ص ٢٩٣.

(٤) الشعر في رحاب سيف الدولة، ص ١٣٧، نشوار المحاضرة، وأخبار المذاكرة، طبع الهند، ١٩٢١م، ج ١، ص ١٠٣.

(٥) تاريخ بغداد، ج ١١، ص ١١.

(٦) وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٠٢.

(٧) بيتيمة الدهر، ج ١، ص ٢٩٣.

وَأَيُّ لَيْلَةٍ أَوْسَعَتْ عَيْنِي * حُسْنًا وَلَهْوًا وَأُنْسًا
مَا زِلْتُ أَلْتُمُّ بَدْرًا * بِهَا وَأَشْرَبُ شَمْسًا
إِذْ أَطْلَعَ الدَّيْرُ سَعْدًا * لَمْ يُبْقِ مُذْ بَانَ نَحْسًا
فَصَارَ لِلرَّوْحِ مَنِّي * رَوْحًا وَلِلنَّفْسِ نَفْسًا^(١)

وقال البيهقي: عرض على أبو فراس ديوانه فكل ما استضعفناه نفاه، وما اجتمعنا على استجادته أقره وحرره في نسخة تداولها الناس^(٢).
وقد توفي سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة^(٣).
أما ديوانه فهو لا يزال في عداد المفقودات وما تداول له من شعر فهو ما وجد في اليتيمة وغيرها.
وقال ابن النديم إن ديوانه ٣٠٠ ورقة^(٤) كما ذكر أنه وقف على مجموعة من رسائله^(٥).

(١) يتيمة الدهر، ج ١، ٢٩٣.

(٢) نشوار المحاضرة، ج ١، ص ٢٢٥.

(٣) وفيات الأعيان، ج ١، ص ٥٣٥.

(٤) الفهرست، ص ٢٤٠.

(٥) تاريخ بغداد، ج ١١، ص ١١.

المبحث الثالث السري الرفاء والخالديان

* السري الرفاء:

اسمه: السري بن أحمد السري الكندي، ويكنى بأبي الحسن^(١)، ولم تذكر كتب التراجم سنة ولادته، وكل الذي ذكر عنه أنه وُلد بالموصل ونشأ فيها، وكان في صباه يرفو ويطرز الثياب في دكان بالموصل، ولذلك لُقّب بالسري الرفاء، وقد ذكر مهنته في شعره فقال:

وكانت الإبرة فيما مضى * صائنةً وجهي وأشعاري
فأصبح الرزقُ بها ضيقاً * كأنه من ثقبها جاري^(٢)

ويبدو أن مهنته تلك لم تدر عليه رزقاً يكفيه تسر الفقر، وذلك يتضح من سياق البيتين السابقين، درس الرفاء القرآن في الكتاب، وتعلم شيئاً من النحو واللغة والأدب والحديث، كما قرأ الشعر وتذوقه^(٣). قال الثعالبي: "وعندما قوى شعره وجاد وبزّ غيره من شعراء الموصل أثر أن يمدح ويتكسب بشعره وقد قضى باكورة الشباب"^(٤).

اتصل السري بناصر الدولة ومدحه ومدح أولاده، كما مدح بعض الأمراء الحمدانيين الذين كانوا يحيطون بناصر الدولة، وحسده الخالديان عندما شعرا بجودة شعره وبالمكانة الطيبة التي نالها لدى ناصر الدولة وخاصة أن ناصر الدولة قد خصص له راتباً شهرياً، فاستطاع أن يوقف رزقه منه، فقال معاتباً الأمير بعد أوقف راتبه الشهري:

قل للأمير الماجد السا * مي على أكفائه
والمُرْتَقِي أَمَمَ الْعَالَا * ءِ بِفَخْرِهِ وَسَنَائِهِ

(١) تاريخ بغداد، ج٩، ص١٤٩، بيتمة الدهر، ج٢، ص١٣٥.

(٢) بيتمة الدهر، ج٢، ص١٣٧.

(٣) وفيات الأعيان، ج١، ص٣٥٨.

(٤) بيتمة الدهر، ج٢، ص١٣٨.

إِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا بَنَى * لَمْ يَنْوِ هَدْمَ بِنَائِهِ
وَإِذَا اجْتَنَى غِرَّ الْمَدِيحِ * حَسَّ سِقَاةَ مَنْ أَنْوَأَهُ
أَنَا غَرَسُهُ وَالْغَرَسُ يَنْدُ * وَيَ إِنِ خَلَا مِنْ مَائِهِ^(١)

ولكن شكواه لم تشفع له عند الأمير، فترك الموصل، وقصد سيف الدولة بحلب، ومدحه "قطع سعده بعد الأقول وبعد صيته بعد الخمول، وحسن موقع شعره عند الأمراء من بني حمدان ورؤساء الشام والعراق"^(٢)، وبقي عند الأمير سيف الدولة أكثر من عشر سنوات مدحه فيها بأجود القصائد وشكره على أفضلها التي أنعم بها عليه، ومن ذلك نختار له قوله:

سَأشْكُرُ إِنْعَامَ الْإِمِيرِ وَفَضْلَهُ * فَقَدْ أَلْبَسَانِي أَنْعَاماً وَفَضَائِلًا
غَدَوْتُ وَآمَالِي الظَّمَاءُ تَقْوَدُنِي * إِلَى جُودِ كَفِيهِ فَعَادَتِ نَوَاهِلًا
وَحَلَيْتُ أَبْكَارَ الْقَصَائِدِ بِاسْمِهِ * وَلَوْلَاهُ أَضَحَّتْ ثِيْبَاتِ عَوَاطِلًا^(٣)

ولكن معاداة الخالدين له لم تجعله يهنأ بقربه من الأمير؛ لينعم بصلاته الجزيلة وكرمه الوافر: "وبالغا في أذاه وقطعا رسمه من سيف الدولة وغيره"^(٤)، وأوغرا صدر سيف الدولة عليه، وما هداً لهما بال إلا بعد أن منعه من إنشاد شعره في مجلسه، وذكر ذلك الرفاء في قصيدة له، فقال:

عَلَامَ حَرَمْتَنِي إِنْشَادَ شِعْرِي * لَدَيْكَ وَقَدْ تَنَاشَدَهُ الْأَنَامُ
وَلِي فِيكَ الَّتِي تَلْغَى الْقَوَافِي * إِذَا ذَكَرْتَ وَيَمْتَهِنُ الْكَلَامُ
يَقْصُرُ عَنْ مَدَاهَا الرِّيحُ جَرِيًّا * وَتَعْجِزُ عَنْ مَوَاقِعِهَا السَّهَامُ
تَنَاهَتْ حَسَنَهَا شَادَ وَحَادَ * تَحْتُ بِهَا الْمَطَايَا وَالْمَدَامُ
لَكَ النِّعَمُ الَّتِي جَلَّتْ وَلَكِنْ * دَنَوَى مِنْكَ وَالْقَرَبُ التَّمَامُ
وَتَشْرِيفِي الْقِيَامَ إِزَاءَ مَلِكِ * مَلُوكِ الْعَالَمِينَ لَهُ الْقِيَامُ

(١) ديوانه، ص ١٣.

(٢) بيتمة الدهر، ج ٢، ص ١٣٦.

(٣) ديوانه، ص ٢١٦.

(٤) تاريخ بغداد، ج ٩، ص ١٩٤.

وإحضاري إذا حبرت شعراً * لتسمع ما تحبر والسلام^(١)
 لم يجد استعطاف الرفاء شيئاً، فانحدر إلى بغداد تاركاً حلب للخالدين
 وهناك مدح الوزير المهلبى، فانحدرا وراءه، ودخلا على المهلبى وتلباه وحصلا
 في جملة منادميه، وجعلا هجيرهما ثلبة، وآل به الأمر إلى عدم القوت وركبه
 الدين^(٢).

وبعد أن عدم القوت، نسخ شعره وباعه، ثم نسخ لغيره بالأجرة، وتراكت
 عليه الديون، ولم يتمكن من سداد أجرة الدار الذي كان يسكن فيه، فقال واصفاً
 حاله:

لحى الله العراق وساكنيه * فما للحُرِّ بينهم قَرَارُ؟
 وجاد الموصِلَ الغراء غَيْثُ * يجود وللبروقِ به انسفارُ
 أأَقْعُدُ بالعراقِ أسيرَ دَهْرٍ * غريباً لا أزورُ ولا أزارُ؟^(٣)

ويبدو أنه ندم على رحيله من حلب؛ فأخذ يكتب سيف ويعتذر إليه عن
 انصرافه منه بدون إذنه، فقال:

فارقْتُ مشربَه الذي لا تنطفي * غُلُّ الحشا إلا ببردِ شرابِه
 ودخلتُ أبوابَ الندامةِ بعدما * عصفتُ بي الأحداثُ عن أبوابِه
 ما سَوَّلَتْ لي النَّفْسُ هجرَ جنابِه * عند الرحيل ولا اجتنابَ جنابِه
 ما سَوَّلَتْ لي النَّفْسُ هجرَ جنابِه * عند الرحيل ولا اجتنابَ جنابِه
 أنى وقد نلتُ السماءَ بقُرْبِه * وبلغتُ قاصيةَ المنى بثوابِه
 وحويتُ فضلَ المالِ من إفضالِه * ومحاسنَ الآدابِ من آدابِه
 لكنَّه رأيي حُرْمَتُ رَشَادِه * وبعُدتُ عن تسديدهِ وصوابِه
 أقومُ بين يدي سواه مؤملاً * وأنِيخُ راحلةَ الرجاءِ ببابِه
 فعسى الزَّمانُ يبُلُّ حَرَ جوانحي * بصَفاءِ مَورِدِه ويردِ حبابِه

(١) ديوانه، ص ٢٥٤.

(٢) تاريخ بغداد، ج ٩، ص ١٩٤.

(٣) المصدر السابق، ج ٩، ص ١٢٩.

فأفوز بالعذبِ النَّميرِ وينطوي * كَشْحُ الحسودِ على أليمِ عذابه^(١)

وكان الرفاء شيعياً، وقد ذكر في رسالة أرسلها إلى أبي الحسن علي بن محمد الشمشاطي أن ولاءه للشيعة جعله هدفاً لعداوة الكثيرين من الناس، الذين يخالفونه المذهب وذكر ذلك في شعره قائلاً:

وما نقموا إلا مقالة معلن * بأن أبا السبطين خير الخلائق^(٢)

وقال عنه ابن خلكان: "كان السري الرفاء شاعراً مطبوعاً عذب الألفاظ مليح المآخذ كثير الافتتان في التشبيهات والأوصاف"^(٣).

وقال أبو هلال العسكري: "وليس فيمن تأخر من الشاميين أصفى ألفاظاً مع الجزالة والسهولة وإلزام العمود الشعري منه"^(٤).

وقال الخطيب البغدادي: "السري شاعر مجيد حسن المعاني"^(٥).

مات الرفاء فقيراً بائساً^(٦)، واختلف المؤرخون في سنة وفاته، فقال ياقوت: إن وفاته كانت ببغداد سنة اثنتين وستين وثلاثمائة^(٧)، وذكر البغدادي: إنه توفي بعيد سنة ستين وثلاثمائة^(٨).

وللسري مؤلفات منها كما يقول ياقوت: كتاب الديرة، وكتاب المحب والمحبوب، وكتاب المشموم والمشروب^(٩)، وفي يتيمة الدهر طائفة من أشعاره، وديوانه مطبوع في مصر.

(١) ديوانه، ص ٢٠٤.

(٢) ديوانه، ص ٣٣٠.

(٣) وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٢٠١.

(٤) الصناعتين الكتابة والشعر، ت علي محمد البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب، ط ١، ١٩٥٢م، ص ١٠٤ وما بعدها.

(٥) تاريخ بغداد، ج ٩، ص ١٩٤.

(٦) المصدر السابق.

(٧) تاريخ الأدب العربي، لكارل بروكلمان، ترجمة عبد الحليم النجار، دار المعارف، مصر، ١٩٦٢م، ط ٢، ج ٢، ص ٩٧.

(٨) معجم الأدباء، لشهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ط ٢، ١٩٩٥م، ج ١١، ص ١٨٥.

(٩) وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٥٢، ومعجم الأدباء، ج ٤، ص ٢٢٧.

* الخالديان:

هما أبو بكر وأبو عثمان، محمد وسعيد ابنا هاشم بن وعلة بن يزيد بن عبد الله يثري بن عبد السلام بن خالد العبدي^(١)، أخوان شاعران، اشتهرا بالخالديين؛ لأنهما اشتركا في كثير من الشعر ونسب إليهما معاً^(٢).

ينتسب الخالديان إلى قرية من قرى الموصل تعرف بالخالديّة، وقد أشار إلى ذلك للشاعر السرى الرفاء في قصيدة هجاء أرسلها إليهما فقال:

ومن عجب أن الغبيين أبرقا * مغيرين في أقطار شعري وأرعدا

فقد نقلاه عن بياض مناسبي * إلى نسب في الخالدية أسودا^(٣)

وقيل: إنهما منتسبان إلى جدهما الأعلى خالد^(٤).

نشأ الخالديان في الخالدية وانتقلا منها إلى الموصل، وكانت الموصل آنذاك مقصد العلماء والأدباء، ولمعت فيها أسرة الحمدانيين واختلف إليها الشعراء ومدحوا أمراء بني حمدان وبها اشتهر الخالديان، وكانت لهما أشعار أذاعت اسميهما معاً ولفتت إليهما الأنظار، وقبلها كانا بعيدين عن كل شهرة وصيت^(٥). يقول الثعالبي: إنّ هذان لساحران، يغريان بما يجلبان ويبدعان فيما يصفان، وكان من يجمعهما من أخوة الأدب مثل ما ينظمهما من أخوة النسب، فهما في الموافقة والمساعدة يحييان بروح واحدة. ويشتركان في قرض الشعر وينفردان ولا يكادان في الحضر والسفر يفترقان، وكانا في التساوي والتشاكل والتشارك، كما قال أبو تمام:

رَضِيْعِي لِبَانَ خَلِيْلِي صَفَاءٍ * وَكَانَا جَمِيْعاً شَرِيْكِي عِنَانٍ^(٦)

(١) اللباب في تهذيب الأنساب، لعز الدين بن الأثير، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ج ١، ص ١٤١٤.

(٢) الفهرست، ص ١٦٩.

(٣) معجم البلدان، ج ١، ص ٢٣٨.

(٤) اللباب، ج ١، ص ١٦٩.

(٥) قدماء ومعاصرون، لسامي الدهان، دار المعارف، مصر، ١٩٦١م، ص ٣١.

(٦) بيتمة الدهر، ج ٢، ص ١٨٣، وروي هكذا: رضيعي لبان شريكي عنان * عتيقي رهان حليفي صفا.

وقد دلّ شعرهما على أنهما انتقلا من الخالدية ومنها إلى الموصل ومنها إلى بغداد، ثم حلب فدمشق، وعرفا شخصيات كثيرة وقابلا كثيراً من اللغويين والعلماء والأمراء، ثم اتصلا بسيف الدولة، والمهلبيّ، والصابي.

ديوانهما:

عمل أبو عثمان شعره وشعر أخيه قبل موته وأحبّ الشعر غلام لهما يعرف برشا، وقد عمل ديوانهما نحو ألف ورقة^(١).

وقال أبو العلاء المعريّ: ولهما ديوان ينسب إليهما لا ينفرد فيه أحدهما بشيء دون الآخر إلا في أشياء قليلة، وهذا متعذر في ولد آدم إذ كانت الجبلّة على الخلاف وقلة المرافقة؛ فأما أن يعمل الرجل شيئاً من كتاب ثم يتمه الآخر فهو أسوغ في المعقول من أن يجتمع عليه الرجلان^(٢). وكانا يمثلان ظاهرة أدبية فريدة^(٣). عاش الخالديان حياة مجون وعبث وارتادا الأديرة ووصفا الجوّاري والغلمان ورسما أحوال حياتهما من خلال أشعارهما، قال أحدهما^(٤):

أَلَا فَاسْقِنِي وَاللَّيْلُ قَدْ غَابَ نورهُ * لِعَيْبَةِ بَدْرِ فِي الغَمَامِ غريقِ
وَقَدْ فَضَحَ الظُّلْمَاءَ بَرَقَ كَأَنَّهُ * فُؤَادُ مَشوقٍ مَوْلَعٌ بِخَفوقِ
نُعَاينُهَا نوراَ جَلَاهُ تَجَسَّدُ * وَنَشْرِبُهَا ناراَ بِغَيْرِ حَرِيقِ
كَأَنَّ حَبَابَ الكَأْسِ فِي جَنبَاتِهَا * كَوَاكِبُ دُرٍّ فِي سَمَاءِ عَقِيقِ

ولم أجد في كتب التراجم تفاصيل تغنى فضولي، عن أسرار حياتهما، وكل الذي وجدته عنهما معلومات قليلة جداً، ولذلك كان اعتمادنا فيما عرفناه عن بعض ما يختص بجوانب حياتهما على شعرهما، أما ديوانهما فقد ذكره الحافظ الذهبي في القرن الثامن نقلاً عن قول ابن النديم، ثم سكنت عنه المصادر، وأصابه ما أصاب التراث العربي، وقد كان لجهود مجمع اللغة

(١) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي، ص ٢٢٩.

(٢) رسالة الغفران، لأبي العلاء المعري، ت عائشة عبد الرحمن، (بنت الشاطبي)، ط ٤، ١٩٦٣م، دار المعارف، مصر، ص ٤٢٤.

(٣) مناهج التأليف عند العلماء العرب، قسم الأدب، لمصطفى الشكعة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط ٤، ١٩٨٢م، ص ٥٠٥.

(٤) ديوان، الخالديين، سامي الدهان، مطبوعات مجمع اللغة العربية، مصر، ١٩٦٩م، ص ٧٤.

العربية بدمشق الفضل الكبير في جمع متناثرات هذا الديوان وإن لم يجمع كاملاً، وقد قام بتحقيقه دكتور سامي الدهان.

كان الخالديان من خواص سيف الدولة وخزنة كتبه^(١)، وكانا مميّزان ولهما مكانة رفيعة في نفس الأمير وقد أنعم عليهما بالنعمة الجزيلة وبالعطاء الوفير، وقد مدحا الأمير وكتبا عن بطولاته وأمجاده الحربية، ومن ذلك قول أبو بكر الخالدي:

تَرَى الْبَرِيَّةَ فِي حَالِي نَدَى وَرَدَى * يَرِيشُهَا وَبِحَدِّ السَّيْفِ يَبْرِيهَا
فَفَرَقَةٌ بِمَنَايَاهَا مَصْبَحَةٌ * وَفَرَقَةٌ صَدَقَتْ فِيهَا أَمَانِيهَا
كَأَنَّهُ الدَّهْرُ فِي الْأَمَالِ يَنْشُرُهَا * بَيْنَ الْعِبَادِ وَفِي الْأَعْمَارِ يَطْوِيهَا
إِذَا الصَّوَارِمُ عَرَّتْهُنَّ غَضَبَتُهُ * فَإِنَّهُ بِنُفُوسِ الْأُسْدِ كَاسِيهَا^(٢)

وقال ابن الجوزي، وكانت بين السرى الرفاء والخالديين أهاج كثيرة فبالغا في أذاه، وقطعا رسمه من سيف الدولة وغيره^(٣)، واتهمهما الرفاء بسرقة شعره، كما اتهماه بذات التهمة.

وقال ابن النديم: وكانا إذا استحسنا شيئاً من الشعر غصباه صاحبه حياً كان أو ميتاً، لا عجز منهما عن قول الشعر ولكن كذا كان طبعهما^(٤).

مؤلفاتهما:

لهما من الكتب كتاب حماسة المحدثين، وكتاب في أخبار أبي تمام ومحاسن شعره، وكتاب أخبار الموصل، وكتاب أخبار شعر ابن الرومي، وكتاب اختيار شعر البحري، وكتاب اختيار شعر مسلم بن الوليد^(٥). هذا بالإضافة إلى ديوانهما، وقد أورد الثعالبي بعض أشعارهما في يتيمته.

والأخ الأكبر هو محمد أبو بكر، وقد توفي سنة ٣٨٠هـ تقريباً وتوفي أخوه أبو عثمان سعيد سنة ٤٠٠هـ^(٦).

(١) فوات الوفيات، للكتبي، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج ٢، ص ٢٧١.

(٢) ديوان الخالديين، ص ١٠٣.

(٣) المنتظم، ج ٧، ص ٦٢، وتاريخ بغداد، ج ٩، ص ١٩٤.

(٤) الفهرست، ص ٢٤١.

(٥) الفهرست، ص ٢٤١.

(٦) فوات الوفيات، لمحمد بن شاعر الكتبي، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت- لبنان، ١٩٥١م، ج ٢، ص

المبحث الرابع الصنوبري وكشاجم

* الصنوبري:

يتفق معظم الذين ترجموا للصنوبري على أن اسمه أحمد بن مراد الضبي الأنطاكي الحلبي^(١)، وخالف ذلك من القدماء ابن النديم^(٢) وابن كثير^(٣)، ومن المحدثين آدم متر^(٤)، وذكروا أنه محمد بن أحمد... الخ، والقول بأنه: "محمد بن أحمد" خطأ؛ لأن الشاعر ذكر أن اسمه "أحمد" أكثر من مرة في شعره، ومن ذلك قوله:

إِرْضَ حُكْمَ الزَّمَانِ يَا أَحْمَدُ ارْضَهُ * إِنْ تَذُقْ ضَيْحَهُ فَقَدْ ذُقْتَ مَحْضَهُ^(٥)

أما لقب الصنوبري، فقد زعم هو نفسه أن جده كان يعمل في دار الحكمة لعهد المأمون، فاشترك الصنوبري في مناظرة في مجلس المأمون، فأظهرت هذه المناظرة ذكاءه؛ فأعجب المأمون به، وقال له: إنك لصنوبري الشكل دلالة على ذكائه وحدة مزاجه، ولعل المأمون لم يرد بذلك إلا سمته وصورته، وأن وجهه على هيئة الصنوبر المخروط الصورة^(٦). وعلل آدم متر لهذا اللقب تعليلاً نراه مناسباً فقال: فقد لا يجوز أن يكون لقباً بذلك على سبيل الإشارة إلى صفته وصورته، وإنما يدل ذلك اللقب على أنه هو وأباه كانا يتجران في خشب الصنوبر^(٧).

(١) معجم البلدان، ج٣، ص ٢٨٦-٢٨٩، وشذرات الذهب، ج٢، ص ٣٣٥، ديوانه، ص ٥.

(٢) الفهرست، ج١، ص ١٦٨.

(٣) البداية والنهاية، ج١١، ص ١١٩.

(٤) الحضارة الإسلامية، ج١، ص ٤٦٣.

(٥) ديوان الصنوبري، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت-لبنان، ١٩٧٠م، ص ٤٥٧.

(٦) العصر العباسي الثاني، لشوقي ضيف، دار المعارف، ط٦، القاهرة، ص ٢٤٧.

الضريح: اللبن الممزوج بالماء، المحض: الخالص غير المشوب.

(٧) تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٨٥.

وُلِدَ الصنوبريَّ بأنطاكية^(١)، في سنة "٢٨٤هـ" وقيل في سنة "٢٧٥هـ" ونشأ بحلب وقضى معظم أيام حياته بها، وكان له بها قصر فخم حوله الغرس والرياحين وشجر النارج والريحان المنثور، وكان موسعاً في العيش^(٢).
جمعت بين الصنوبري وكشاجم صداقة حميمة وقد أشار كشاجم إلى رغد العيش والهناء الذي كان يحياه صاحبه في قصيدة أرسلها له راجياً منه أن يغدق عليه من خيراته، فقال:

فَأَلْهَتْكَ بَسَاتِينُ * كَذَاتِ النَّوْرِ وَالزَّهْرِ
وَمَا شَيَّدْتَ لِلْخُلُوفِ * مِنْ دَارٍ وَمِنْ قَصْرِ
وَمَا جَمَعْتَ مِنْ غَرْسٍ * وَمِنْ حَزْتٍ وَمِنْ بَذْرِ
وَنَارَنْجٍ وَرِيحَانٍ * جَنِيَّ طَيِّبِهِ النَّشْرِ^(٣)

أما صلة الصنوبري بسيف الدولة فقد كانت قديمة أقدم من ملكه لحلب، لأن الصنوبري كان من حاشية أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان -والد سيف الدولة-، ثم صار من حاشية ابنه سيف الدولة، ورافقه حتى ألقى عصاه بحلب في نهاية حياته، وقد كان مصطفى عند الأمير، ولذلك قرّبه منه وجعله من ندمائه، ثم اتخذه أميناً لمكتبته^(٤)، وقد جمعت بينهما علاقة ودّ طيبة، ومدح الصنوبري الأمير قبل أن يتولى أمر حلب فقال:

تَرَكْتَ الرُّومَ بَعْضُهُمْ قَتِيلٌ * يَمْجُ دِمَاءً وَبَعْضُهُمْ أُسِيرٌ
فَقَدْ مَاتُوا وَمَا قُبُرُوا وَلَكِنْ * كَأَنَّ بِيوتَهُمْ لَهُمْ قُبُورٌ^(٥)

وتوفى بعد عام واحد من تولية سيف الدولة لحلب أي في سنة ٣٣٤هـ.

(١) الفهرست، ج ١، ص ١٩٨.

(٢) الحضارة الإسلامية، ج ١، ص ١٢٩.

(٣) ديوان كشاجم، ص ٢٠٨.

(٤) الشعر في ظل سيف الدولة، لدرويش الجندي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ١، ١٩٥٩م، ص ٥٨.

(٥) ديوانه، ص ٢٣٠.

وكان الصنوبري محباً للأسفار وطوّف في عدد من البلاد وكان لذلك الأثر البالغ في أشعاره، وقد قال الخوارزمي: من روى حوليات زهير، واعتذارات النابغة، وروضيات الصنوبري ولم يخرج إلى الشعر فلا أشب الله قرنه^(١). وقال ابن رشيق: لا بد لكل شاعر من طريقة تغلب عليه فينقاد إليها طبعه، كأبي نواس في الخمر، والصنوبري في ذكر النور والظلم^(٢). ويعده آدم متز شاعر الطبيعة الأول في الأدب العربي، ويقول كان الصنوبري وهو أول شاعر للطبيعة في الأدب العربي يجمع إلى ذلك ولوعاً شديداً بالسما والضياء والهواء، مع التطلع إلى أسرارها الجميلة^(٣). ولقد كان الصنوبري يعشق الطبيعة ولذلك أكثر من تناوله لها في شعره وذلك يرجع كذلك لأنه عاش حياة مترفة.

وديوان الصنوبري لم أجده كاملاً، والديوان الذي استقيت منه المعلومات بتحقيق إحسان عباس وقد قال: "إن ديوان الصنوبري لم يصلنا كله وهذا القسم الذي وصلنا يشمل قصائده من قافية الراء حتى القاف... وعلى هذا يكون هناك جزآن ضائعان منه على الأقل، واحد قبل هذا القسم الموجود، وواحد بعده^(٤)، وألحق به المحقق ما وجده من المصادر المخطوطة والمطبوعة.

وقال دكتور درويش الجندي: "إن الصولي رتب شعر الصنوبري على حروف الهجاء وجمعه في مائتي ورقة، وجمع الشيخ راغب الطباخ من شعر الصنوبري حوالي ستمائة بيت في كتابه الروضيات، وفي معهد المخطوطات بالجامعة العربية شريط مصور عليه الجزء الثاني من ديوان الصنوبري، وقد نقل هذا الجزء من نسخة خطية عُثِرَ عليها بمكتبة الجمعية الآسيوية بكلكتا، ومهما يكن فإن شعر الصنوبري لم يصل إلينا كاملاً، وإن كان ما وصل إلينا فيه بقدم إلينا صورة واضحة لشاعرية الصنوبري وطابعها^(٥).

(١) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ص ٢١٦، الشعر في رحاب سيف الدولة، ص ١٠٤.

(٢) العمدة، ج ١، ص ١٩٤.

(٣) الحضارة الإسلامية، ج ١، ص ٤٦٧.

(٤) مقدمة ديوان، الصنوبري، ص ٦.

(٥) الشعر في ظل سيف الدولة، ص ١٤٧.

وتوفى الصنوبري سنة ٣٣٤هـ، بعد أن عطر سماوات الأدب عبر
عصوره، بأريج نظمه البديع^(١).

* كشاجم:

تكاد تجمع المصادر على أن اسمه: محمود بن الحسين بن السندي بن
شاهك الرملي^(٢). لم يخالف هذا الرأي إلا السيوطي الذي ذكر أنه اسمه: محمود
بن محمد بن الحسين بن السدي بن شاهك^(٣)، وتبعه في ذلك الزركلي^(٤) وشوقي
ضيف^(٥). أما كنيته ففي جميع المصادر والكتب التي قرأتها "أبو الفتح" لم يخرج
عن هذا الإجماع إلا السيوطي الذي ذكر في كتابه حسن المحاضرة أن كنيته
"أبو نصر"^(٦).

كان شاعراً كاتباً متكلماً منجماً منطقياً محدثاً محققاً مدققاً مجادلاً جواداً،
وكان لا يجارى ولا يبارى^(٧).

وقد تحدثت كتب التراجم عن أن الشاعر لقب نفسه بلقب كشاجم وبه
صار يعرف حتى غلب على اسمه الحقيقي، ولما سئل عن سر هذا اللقب قال:
الكاف من: كاتب، والشين من شاعر، والألف من أديب، والجيم من جواد،
والميم من منجم أو من منطق^(٨)، وجاء في شذرات الذهب أن كشاجم لما مهر

(١) تاريخ الأدب العربي، لبروكلمان، ج٢، ص ٩٧.

(٢) الفهرست، ص ١٥٤، فوات الوفيات، ج٤، ص ٩٩، شذرات الذهب، ج٣، ص ٣٧، معجم المؤلفين،
ج٦، ص ١٢، ص ١٥٩، كشف الظنون، م٢، ١٤٥٩.

(٣) حسن المحاضرة، ج١، ص ٥٦.

(٤) الأعلام، ج٧، ص ١٦٨.

(٥) تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والأمارات، ج٦، ص ٦٧٣.

(٦) حسن المحاضرة، ج١، ص ٥٦٠.

(٧) الغدير في الكتاب والسنة والأدب، للأمني النجفي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م،
ط٤، ص ٤.

(٨) ظهر الإسلام، ج١، ص ١٨٥، تاريخ آداب اللغة العربية، جورج زيدان، ج١، ص ٢٥١. ديوان
كشاجم، للنبوي عبد الواحد شعلان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، مطبعة
المدني، المؤسسة السعودية بمصر، ص ٩، ديوان الشعر العربي، لعلي أحمد سعيد (أونيس)،
منشورات المكتبة العربية، حيدر أباد، بيروت، ص ٣٨٤.

في الطب أضيف إلى اسمه طاء من طبيب وقدمت فقيل: طكشاجم ولكنه لم يشتهر^(١).

نشأ كشاجم في مدينة الرملة في فلسطين في أسرة عريقة ذات صلة بالسياسة فقد كان جده السندي بن شاهك صاحب الشرطة في عهد الخليفة الرشيد، وأن الرشيد حبس موسى الكاظم وكان هو الموكل بمدة حبسه^(٢). كما كان جده الأول إبراهيم بن السندي والياً على الكوفة وكان أحد أصفياء الخليفة المأمون^(٣).

وفي شعره افتخر بنسبة الذي ينتمي إلى الفرس مشيداً بمجدهم وتاريخهم، فقال:

أنا ابنُ فُرسانِ الرِّما * حِمعاً وفُرسانِ الصِّفاحِ
قومي بنو ساسان لي * سنِ جمَاهمُ بالمُسْتَباحِ
العاقِد والتَّيجانِ تَضُ * حَكُّ عن وجوههم الصِّباحِ
والجاءِ علونِ عِدَاهمُ * لهمُ بمنزلةِ الأضاحي^(٤)

إذا فليس أجداده من السند أو الهند، وإن كان اسم جده يشير إلى شيء من ذلك. وقوله يدل صراحة إلى نسبه وفخره يدل على قومه^(٥).

لم تمدنا المصادر بمعلومات عن أسرته ولا عن أيام صباه ولم تذكر شيئاً عن أبيه، ولكن ديوانه يفيد بأنه تتلمذ على الأخفش الأصغر. وفي ديوانه قصيدة رثا فيها أباه تشير في مضمونها إلى أن وفاة أبيه كانت مبكرة، وأنه تحمّل أعباء أسرته من بعده والأبيات:

(١) شذرات لذهب، ج٣، ص ٣٨.

* وقف الأدباء كثيراً في تعليل هذا اللقب وانتهى أكثرهم إلى أنه منحوت من جملة حروف تختصر مهنة الرجل ولكن هذا لا يحسم الجدل حول لقبه فاللقب أعجمي واضح، والنسب صريح في ذلك فجده.

السندي بن شاهك: قداماء ومعاصرون، لسامي الدهان، دار المعارف، مصر، ١٩٦١م، ص ١٣.

(٢) تاريخ الطبري، لابن جرير، ت محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٣، دار المعارف، ج٢، ص ٣٤٧.

(٣) عيون الأخبار، لابن قتيبة، طبع دار الكتب المصرية، ج٣، ص ١١.

(٤) ديوان كشاجم، ص ٧٢-٧٣.

(٥) قداماء ومعاصرون، للدهان، ص ١٧.

خَافَتْهُ مُقْتَفِيًا * إِلَى الْمَعَالِي سُبُكًا
مِنْ بَعْدِ أَنْ أَدْرَكْتِ أَوْ * شَارَفْتِ فِيهِ أَمْلَأُ
وَحَمَلِ الْعِيبِ الَّذِي * كَانَ أَبُوكَ حَمْلًا^(١)

عرف كشاجم بكثرة ترحاله، وتنقل بين الأقطار فزار بغداد، والموصل،
دمشق، والقدس، ومصر، وذكر في شعره أنه كان كثير الترحال حتى سئم ذلك
فقال:

قَدْ سئِمْتُ الْهَوَى وَأَدْبَبْتُ فِي السَّيِّ * رِ جُسُومِ الْمُضَمَّرَاتِ الْعِتَاقِ
وَسَلَكْتُ بِي الْمَوَامِي فَأَخْلَقُ * تٌ وَفِي ذَاكَ كَثْرَهُ الْإِخْلَاقِ
قد سئمت الهوى وأبليت في السيد * رِ جِسُومِ الْمُضَمَّرَاتِ الْعِتَاقِ
وسلكت البلاد شرقاً وغرباً * وشاماً موصولة بالعراق^(٢)

زار كشاجم مصر عدة مرات، وجال في ربوعها، وتعلق بمشاهدها
الفاخرة، وتغنى بطبيعتها الساحرة، وكان له بين أهلها أخوة يحن إليهم، ويأسى
للبعد عنهم، فقال بعد أن استقر فيها فترة من الزمن:

قد كان شوقي إلى مصرٍ يُورِّقُنِي * فاليومَ عدتُ وعادتُ مصرُ لي داراً^(٣)
وصلة كشاجم بسيف الدولة قديمة؛ لأنه كان يعمل عند أبيه أبي الهيجاء
عبد الله بن حمدان، ومدحه وعاش في ظلاله ثم ألقى عصاه في حلب وصار
من حاشية سيف الدولة الذي أكرمه ووفر له سبل العيش الرغيد^(٤).
ولا شك أنه أفاد من النهضة العلمية التي كانت تشهدها حلب آنذاك،
واتصل بالعلماء والأدباء الذين كانوا يعيشون في كنف الأمير، وأفاد من دروسهم
وحلقاتهم العلمية واطلع على خزانة كتب سيف الدولة وفي قول إنه كان أحد
أمنائها^(٥) ونهل من فيض المعارف والعلوم وعبر عن ذلك بقوله:

(١) ديوان كشاجم، ص ٣٠١،

(٢) ديوان كشاجم، ص ٢٧٨.

(٣) ديوانه، ص ١٦٦.

(٤) وفيات الأعيان،

(٥) الحضارة الإسلامية، ج ١، ص ٤١٣.

وَمَا زِلْتُ أَبْغِي الْعِلْمَ مِنْ حَيْثُ يُبْتَغَى * وَأَفْتَنُ فِي أَصْنَافِهِ وَتَطَرُّفِهِ
فَقَدْ صِرْتُ لَا أَلْقَى الَّذِي اسْتَرِيدُهُ * وَلَا يُذَكِّرُ الشَّيْءَ الَّذِي لَسْتُ أَعْرِفُهُ^(١)

وقد ذكر أحمد أمين في ظهر الإسلام أن كشاجم كان طباحاً لسيف الدولة^(٢).

التقى كشاجم بالصنوبري في حلب وتوثقت صلة المحبة بينهما وقضى كشاجم في صحبة الصنوبري أوقاتاً ممتعة كانت أبهى أوقاته وأحفلاً بمتع الحياة المادية والمعنوية فقد وجد فيه صديقاً وياً وأخاً مخلصاً يزود عنه عوادي الزمان، وعبر عن صداقتهما الحميمة تلك بقوله:

أَتَسَّيَ زَمَنًا كُنَّا * بِهِ كَالْمَاءِ فِي الْخَمْرِ
أَلَيْفًا بَيْنَ حَائِفَيْنِ * عَلَى الْإِغْسَارِ وَالْيُسْرِ^(٣)

وكان كشاجم سائراً على طريقة الصنوبري، كما أنه طلب يد ابنته وعزاه^(٤) عن فقد أخرى.

وتبدو شخصية كشاجم في أوضح صورة لها نم خلال أبيات جاء فيها:

عجبي ممن تعالت حاله * وكفاه الله ذلات الطلب
كيف لا يقسم شطري عمره * بين حالين نعيم وأدب
ساعة يمتع فيها نفسه * من غذاء وشراب منتخب
ودنو من دمي هن له * حين يشتاقي إلى اللهو لعب
تلك أقسام متى يعمل بها * عامل يسعد ويرشد ويصب
عجبا ممن تعالت حاله * وكفاه الله ذلات الطلب
كيف لا لقسم شطري عمره * بين حالين نعيم وأدب
ساعة يمتع فيها نفسه * من غذاء وشراب منتخب
ودنو من دمي هن له * حين يشتاقي إلى اللهو لعب

(١) ديوانه، ص ٢٧٤.

(٢) ظهر الإسلام، ج ١، ص ١٨٥.

(٣) ديوان كشاجم، ص ٢٠٧.

(٤) الحضارة الإسلامية، ج ١، ص ٢٥٧.

فإذا ما نال من ذا خطه * فنشيد وحديث وكتب
تلك أقسام متى يعمل بها * عامل يسعد ويرشد ويضرب^(١)
مكانته: قال المسعودي عنه: "إنه من أهل الرواية والأدب والعلم والمعرفة"^(٢)
وقال عنه الثعالبي: "إنه ربحان أهل الأدب".

امتاز كشاجم بفنون عديدة ولكن أجلّ ذلك الشعر والنثر، أما شعره فطبق
ذكره الخافقين وأقرّ له شعراء عصره ومن جاء بعدهم بالمكانة السامية، والقريحة
الجيدة، والأسلوب الرصين، والديباجة المشرقة، والمعاني البديعة، والعاطفة
الصادقة، ولا عجب فإن العصر الذي كان يعيش فيه والبيئة التي خرجته كانت
بيئة شعرية رفيعة.

كان كشاجم من الشعراء الذين أنشدوا الشعر لمتعتهم الشخصية انظر
قوله:

وَأَلْبِنُ شَعْرَتُ لَمَّا تَعَمُّ * مَدْتُ الْهَجَاءَ وَلَا الْمَدِيحَةَ
لَكِنِّ وَجَدْتُ الشُّعْرَ لِيْلُ * آدَابِ تَرْجَمَةً فَصِيحَةً^(٣)

وشعره في بعض جوانبه يوضح ما أغفل عنه المترحمون وإن لم يكن
الشعر مصدراً دقيقاً في بعض الأحيان؛ لبيان كل حياة الشاعر - لكنه يدل على
شيء ينير السبيل إلى ذلك. وفي ديوانه قصائد تشير إلى تشيعه.

لم يذكر المؤرخون تاريخ ميلاد كشاجم كما اختلفوا في تاريخ وفاته فذكر
ابن خلكان^(٤): إنه توفي في سنة ٣٥٠هـ، وذكر ابن العماد^(٥) أنه توفي في سنة
٣٦٠هـ، ورغم الفارق الكبير بين التاريخين إلا أننا نرجح رأي ابن العماد وجاء
رأينا في ذلك استناداً على أبيات في ديوان الشاعر هجا فيها كافوراً، ومنها قوله:
يَحْكُمُ فِي مِصْرَ وَالشَّامِ وَقَدْ * كَانَ كَثِيراً بِمِثْلِهِ يَخْرَسُ^(٦)

(١) ديوانه، ص ٢١ - ٢٢.

(٢) مروج الذهب، م ٤، ص ٣٢٧.

(٣) ديوان كشاجم، ص ٧٦.

(٤) وفيات الأعيان، لابن خلكان، ج ، ص

(٥) شذرات الذهب، ج ٣، ص ٣٨.

(٦) ديوان كشاجم، ص ٢٢٨.

والمعروف أن كافوراً حكم مصر والشام من سنة ٣٥٥ - ٣٥٧ هـ.
ولكشاجم مؤلفات متعددة خلاف ديوانه الذي رتب على حروف المعجم،
وطبع في بيروت سنة ١٣١٣ هـ، ومن تلك المؤلفات^(١):
أدب النديم، والمصائد والمطارد^(٢) وذكر له حاجي خليفة^(٣) مجموعة
مؤلفات منها:
خصائص الطرب، وفنّ الطبخ، وكتاب جمع فيه الرسائل الأدبية
والأخوية وسماه الرسائل.

(١) ديوان كشاجم، المقدمة، ص ٦.

(٢) الحضارة الإسلامية، ج ٢، ص ٢٥٤.

(٣) الفهرست، ص ٣٩.

المبحث الخامس

ابن نباتة السعدي الوأواء الدمشقيّ

* ابن نباتة السعدي:

اسمه: هو أبو نصر عبد العزيز بن عمر بن محمد بن أحمد بن نباتة بن حميد بن نباتة بن تميم بن مرّة التميمي^(١).

ولادته: ولد ببغداد سنة سبع وعشرين وثلاثمائة^(٢).

مكانته: قال ابن خلكان: كان شاعراً مجيداً جمع بين حسن السبك وجودة المعنى وطاف البلاد، ومدح الملوك والوزراء والرؤساء، وله في سيف الدولة بن حمدان غرّ القصائد ونخب المدائح^(٣).

وقال الثعالبي: إنه من فحول شعراء العصر، كما قال عن شعره: وشعره مع قرب لفظه بعيد المرام مستمر النظام، على غرر من حرّ الكلام... وله بدائع أحسن من مطالع الأنوار، وأرقّ من نسيم الأسحار... وقال: أول ما وقع من شعره إلى خراسان إنما وقع على أبي نصر سهل بن المرزيان، فإنه استصحبه من بغداد في جملة ما حصّله بها من ظرائف الدفاتر ولطائفها وذخائرها، وأخايرها، وأتحفني به وهو بغبّار السفر... وأنا كاتب من عيونه ما يمتع الخواطر ويجلو النواظر^(٤).

وقال البغداديّ: إن أبا نصر أحد الشعراء المحسنين المجودين^(٥).

كتب ابن نباتة الشعر في أغراض متعددة. وقد أكثر من الفخر بنفسه. كما كان معجباً بشعره فخوراً به، ومما قاله في الافتخار بشعره:

(١) وفيات الأعيان، ت إحسان عباس، ج ٣، ص ١٩٠، بيتمة الدهر، ج ٢، ص ٤٤٧.

(٢) وفيات الأعيان، ج ٣، ص ١٩٠، وما بعدها.

(٣) وفيات الأعيان، ج ٣، ص ١٩٠ وما بعدها.

(٤) بيتمة الدهر، ج ٢، ص ٤٤٧ وما بعدها.

(٥) تاريخ بغداد، ج ١٠، ص ٤٦٦.

وكم لليلِ عندك من نجومٍ * جمعت النثرَ منها في نظام
عتاباً أو نسيباً أو مديحاً * لخلٍّ أو حبيبٍ أو همام
تفيدُ بها العقولُ نهىً وصحواً * وقد فعلتُ بها فعلَ المُدام^(١)

وقد بينَ هذا الشاعر من خلال أشعاره أنه كان نحيل الجسم، إلا أنه
على نحوله يحمل نفساً كبيرة متمسكة بالفضائل، تترفع عن النقائص، وتسعى
إلى الكمال فقال:

ومغرورٍ يُحاولُ نيلَ عِرضي * فقلتُ له الكواكبُ لا تُتال
ويعجب إن حويتَ الفضلَ طفلاً * ألا لله ثم لي الكمالُ
أحملُ ضعفَ جسمي ثقلَ نفسي * ونفسي ليس تحملُها الجبالُ
وأسمعُ كلَّ قولٍ غيرِ قولي * فأعلمُ أنه الخطلُ المُحالُ^(٢)

وشعره ينبئ عن مدى تطلعه لاكتساب المعالي وعزمه الذي لا يفتر في
طلاب المجد وقال محدثاً عن مضاء عزمه، وقوة حزمه، ونباهة عقله، وفصاحة
لسانه، وسمو مكانته التي يجهلها الناس:

تضاءلَ الدهرُ حتى ضاعَ في همي * واستفحلَ الهمُّ حتى صار من شيمي
فالعيشُ من نِعمي والموتُ من نِعمي * وحكمةُ الفلكِ الدوارِ من حكِمي
والحزم والعزم في الاقوام من خُلقي * كما الفصاحةُ في الاقوالِ من كَلِمي
لو يعرف الناسُ قدرى في زمانهم صلوا لوجهي أو باسوا ثرى قَدِمي^(٣)

وقال عن شرفه مفتخراً:

فتى تطربُ الألمانُ من فرحِ بهِ * وتسكُرُ منه الخمرُ وهو مُفِيقُ^(٤)
وله شعر ينبئ عن بعد نظره في الحياة وقراءته العميقة للناس والمجتمع،
وهو من عداد الشعر الفلسفيّ، ومنه قوله:

(١) بيتيمة الدهر، ج٢، ص ٤٤٧، ٤٤٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٥٤.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٥٥.

(٤) بيتيمة الدهر، ج٢، ص ٤٥٤.

طِلابُ المَعالي لِلْمَنونِ صَدِيقُ * وطولُ اللَّيالي لِلنَّفوسِ عَشِيقُ
وما الفَقْرُ إِلاَّ لِلْمَذَلَّةِ صاحِبُ * وما النَّاسُ إِلاَّ لِلغَنيِ صَدِيقُ
وأصغرُ عيبٍ في زَمانِكَ أَنَّهُ * بِهِ العِلْمُ جَهْلٌ وَالعَفافُ فُسوقُ
إِذا لم تَكُن هَذي الحِياةَ عَزيزَةً * فَمَذا إِلى طَولِ الحِياةِ يَشوقُ^(١)
وقال:

وَهَل يَنفَعُ الفَتِيانَ حَسَنَ جِسامِهِم * إِذا كانَتِ الأَعراضُ غَيرَ حَسانِ
فَلا تَجعَلِ الحَسَنَ الدَّليلَ عَلى الفَتى * فَمَ كلِّ مِصقولِ الحَديدِ يَماني^(٢)
عاش ابن نباته كأقرانه من شعراء الأمير ممتعاً نفسه بوسائل الترفيه
الاجتماعي التي كانت متاحة في عصر والتي لا يرى فيها المجتمع حرجاً،
فتجده يرتاد بيوت القيان ويشرب الخمر، وقال في ذلك:

إِنْ كُنْتَ تَمَنعُ سَعاداً مَن مَطالبِهِ * فَلا تَمَنعُ سَعاداً مَن تَمَنّيها
لِلهِ نِعمَةً أوتارٍ ومُسمِعةً * باتتْ تَدُلُّ عَلى شَوقِي أَغانِيها
وقهوةٌ كَشعاعِ الشَّمسِ طالِعةً * أَفنيْتُ بِالمِزجِ فيها رِيقَ ساقِيها^(٣)
ويراه الرائي من خلال أشعاره أنه كان ينظر إلى الدنيا بمنظار أسود قاتم
ويندب حظه في كثير من الأحيان ويكثر من: الشكوى من الزمان، والناس،
فيقول مثلاً:

حَظِّي مَن العِيشِ أَكلُ كُلِّهِ غَصاصُ * مَرُّ المَذاقِ وشُربُ كُلِّهِ شَرَقُ^(٤)
وقال:

فَكَم مَن خالِلٍ ما تَمَنيتُ قُربَهُ * فَجَربِئُهُ حَتى تَمَنيتُ بُغَدَهُ
وما لِلفتى في حادِثِ الدَّهرِ حِيلةٌ * إِذا نَحسُهُ في الشَيءِ قابِلَ سَعَدَهُ
أرى هِمَمَ المَرءِ اِكْتِتاباً وحِسرَةً * عَلِيهِ إِذا لَم يُسَعِدِ اللهُ جَدَّهُ^(٥)

(١) بيتيمة الدهر، ص ٤٥٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٥٧.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٥٠.

(٤) المصدر السابق.

(٥) بيتيمة الدهر، ج ٢، ص ٤٥٠ - ٤٥١.

وقد ذكرنا أنه كتب الشعر في أغراض متعددة، وكانت له ملح في شعر
الغزل منها:

دَعَهُمْ وَقَلْبِي مَا أَرِيدُ رُجُوعَهُ * أَبَدًا فَقَلْبِي كَانَ أَصْلَ فَسَادِي
لَوْ يَعْلَمُونَ صِلَاحَ حَالِي عِنْدَهُمْ * مَا فَرَقُوا بَيْنِي وَبَيْنَ فُؤَادِي (١)
وثبت من شعره أنه كان يشكو الفاقة والتي بسببها فارق مسقط رأسه
ووطنه بغداد، فقال:

كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى الْغِنَى * وَالْبُخْلُ عِنْدَ النَّاسِ فِطْنَةٌ
خَذْ مِنْ زَمَانِكَ كُلَّ شَيْءٍ * لِي لَا يَجُرُّ عَلَيْكَ مِنْهُ
وَنَبَتٌ بِنَا أَرْضُ الْعِرَاقِ * قِي فَمَا مَحَنَاهَا بِمِحْنَةٍ
غَيْرَ الرَّحِيلِ كَفَى الْبَلَا * دَبْنُ الْقَلْبِ النُّجْبَاءِ هُجْنَةٌ (٢)
وبعد أن نبت به أرض العراق فكّر في المسير إلى بلاط سيف الدولة
صاحب الاسم الكبير والمستقبل الواعد، فكتب إليه قصيدة مدحه فيها وأخبره
بعزمه على القدوم إلى بلاطه الرغيد، محدثاً عن: فصاحته ومفتخراً بقوة شعره
وقيمته:

يَا أَيُّهَا السَّيْفُ الَّذِي بَدَأَ بِهِ * تَحْمِي الْخِلَافَةَ مَلَكَهَا وَتَمَارِقُ
مَا أَبْتَغِي غَيْرِي إِلَيْكَ ذَرِيعَةً * أَنِّي بِفَضْلِكَ وَالْقَوَافِي وَاثِقُ
لَا تَحْسَبْنِي كَالَّذِينَ رَأَيْتَهُمْ * الْعِيُّ أَفْصَحُ وَالتَّمَهْلُ سَابِقُ
وَلَدِيٍّ مِنْ غُرَرِ الْكَلَامِ شَوَاهِقُ * لَا يَسْتَقِلُّ بِهَا اللِّسَانُ النَّاطِقُ
إِنَّا بِرِمْنَا بِالْعِرَاقِ وَأَهْلِهَا * حَتَّى سَأَمْنَا الْعَيْشَ وَهُوَ مُوَافِقُ (٣)
عاش ابن نباته في ظلال سيف الدولة مكرماً عنده منعم العيش، يمدح
محاسنه بغير المدائح وأجمل الأشعار، وكان الأمير يحسن صلته ينعم عليه
بالهدايا القيمة.

(١) بيتمة الدهر، ج ٢، ص ٤٥٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٥٢ - ٤٥٣.

(٣) الشعر في رحاب سيف الدولة، ص ٩٦.

مدح ابن نباته الأمير سيف الدولة ينحب القصائد، وسجل بشعره مآثره
 وبطولاته في المعارك، وأشاد بكرمه، وكان خير من تحدث عن شجاعته وكرمه،
 بمعانٍ نادرة لا تتأتى أو تصدر إلا عن شاعر موهوب في مقام ابن نباته، ومما
 قاله في شجاعته:

ولولاك سيف الدولة انقلبت بنا * هُمومٌ لها عند الزمانِ حُقوقُ
 فداؤك صرفُ الدهرِ من حدّائِهِ * فما الدهرُ إلا من يدك طليقُ
 تُغيّرُ على أحداثِهِ وصُروفِهِ * فتسبي بُنيّات الردى وتسوقُ
 أيعرفُ ملكُ الرومِ وقعةَ مَرعَشِ * وكفُّ أخيه في الحديدِ وثيقُ
 ويُكِرُّ يوماً بالأحيدِبِ كذبت * به البيضُ حدَّ البيضِ وهو صدوقُ
 به شرقتُ من خشيةِ الموتِ بالخصي * صدورٌ وفارت بالقلوبِ حُقوقُ
 وأفلت نَقفورٌ يُرقّعُ جُوده * وفيه لآثارِ السّلاحِ خُروقُ
 يَجُرُّ العوالي والسّهامَ بجِسمِهِ * كمحتطبٍ للحملِ ليس يُطيقُ^(١)

رثا ابن نباته أبا الحسن علي بن الأهوازي، وكان قد خرج على الأمير
 سنة خمس وخمسين وثلاثمائة، وكان بلاط الأمير لا يخلو من الوشاة من
 الشعراء المنافسين للشاعر، والذين كانوا يناصرونه العداء نظراً لمكانته وقربه من
 الأمير، فسعوا للفتنة بينهما، وقد أفلحوا في ذلك والقصيدة التي رثا فيها الشاعر
 الأهوازي، منها قوله:

يرعى النجومَ بطرفٍ ليس يُغمضُهُ * حتى كأنّ نجومَ الليلِ من مقلبه
 يا هل تقرُّ المعالي بعد مصرعِهِ * عيناً وتعملُ شيئاً كان من عملِهِ
 لا هزَمَ المجدُ رماً كان يخضبُهُ * ولا تسربلَ درعاً كان من حُللِهِ^(٢)

لهذا السبب ساءت العلاقة بينه وبين الأمير سيف الدولة فاضطر إلى
 الهرب وظلّ ببلاد الشام ولم يغادرها إلا بعد سقوط دولة الحمدانيين وبعد ذلك
 هجا الحمدانيين فقال:

(١) الشعر في رحاب سيف الدولة، ص ٤.

(٢) ديوان ابن نباته، ص ١٥.

وما زالت غواة بني عدي * تُضيعُ حقوقنا فيما تُضيعُ
إلى أن قامت الأيام عنهم * وفي أظفارها منهم نجيع^(١)

عاد ابن نباته إلى بغداد ومدح أمراءها من أمثال: عضد الدولة وقد كان
يجلّه ويكرمه وأفرد الشاعر له باقة من غرر أشعاره، ثم ذهب إلى ابن العميد
لكنه لم يحسن صلته، فتركه ورجع إلى بغداد وتوفى بها سنة ٤٠٥هـ^(٢).

* الوأواء دمشقي:

أبو الفرج محمد بن أحمد الغساني الدمشقي الملقب بالوأواء*. كان أول
أمره منادياً بدار البطيخ بدمشق ينادي على الفاكهة، وما زال يشعر حتى جاد
شعره وسار كلامه، وله ديوان شعر ليس بالكبير^(٣).

ويقول القفطي جاء في طبقات فحول الشعراء، أنه كان في أول أمره من
العامّة، وكان جابياً في فندق، وكان يتولى بيع الفاكهة بين يدي البنادرة، ويجبي
أثمانها، ولم يكن من أهل الأدب ولا ممن يعرف بقول الشعر، وكان أول شيء
عمله قصيدته الميمية في أبي القاسم العقيقي العلوي التي أولها:

تَظَلَّمُ الْوَرْدُ مِنْ خَدْيِهِ إِذْ ظَلَمَا * وَعَلَّمَ السُّقْمُ مِنْ أَجْفَانِهِ السَّقْمَا

فاستحسنها فأعطاه عشرين ديناراً، وتسامع الناس بها فانتشر بينهم ذكره
فاستطابوا طريقته^(٤).

وقال عنه الكتبي: إنه شاعر مطبوع، منسجم الألفاظ، عذب العبارة،
حسن الإشارة، جيد التشبيه، ومن عذب قوله:

(١) ديوان ابن نباته، ص ٢٦.

(٢) تاريخ بغداد، ج ١٠، ص ٤٦٧، ووفيات الأعيان، ج ٣، ص ٤٦٧.

(٣) المحمدون من الشعراء وأشعارهم، للقفطي، تحقيق رياض عبد الحميد مراد، دار ابن كثير بدمشق،
بيروت، ط ٢، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ص ٥٢ وما بعدها.

(٤) المصدر السابق.

بِاللَّهِ رَبُّكُمَا عُوْجَا عَلَي سَكْنِي * وَعَاتِبَاهُ لَعَلَّ الْعُتْبَ يَعْطِفُهُ
وَعَرَّضَا بِي وَقَوْلَا فِي كَلَامِكُمَا * مَا بَالُ عَبْدِكَ بِالْهَجْرَانِ تَتْلِفُهُ
فَإِنْ تَبَسَّمْ قَوْلَا عَنْ مَلَاظِفَةٍ * مَا ضَرَّ لَوْ بُوْصَالٍ مِنْكَ تُسْعِفُهُ
وَإِنْ بَدَا لَكُمَا مِنْ سَيِّدِي غَضَبٌ * فَغَالِطَاهُ وَقَوْلَا لَيْسَ نَعْرِفُهُ^(١)

وقال الثعالبي: "وأول من حمل ديوانه إلى نيسابور أبونصر سهل بن المرزبان، فإنه استصحبه من بغداد في جملة ما حصله من اللطائف والبدائع التي عنى بها وأنفق الرغائب فيها^(٢). كما ذكر أنه اطلع عليه وأورد مجموعة من أشعاره في يتيمة.

وقد ذكر محقق ديوانه: أن الوأواء اتصل بسيف الدولة في دار العقيقي وهو علوي من أهل البيت، ومن وجوه دمشق وأعيانها ومن علمائها الكبار وكان سيف الدولة إذا قدم إلى دمشق نزل بقصره، وهناك التقى بالوَأوَاءَ وذهب الوَأوَاءَ معه إلى حلب وصار من خواصه وكان ذلك عندما استولى سيف الدولة على دمشق سنة ٣٣٤هـ وطرد الإخشيديين منها.

كان الوَأوَاءَ قبل اتصاله بالشريف العقيقي فقيراً ومدح العقيقي بأربع قصائد عصماء، شكا في واحدة منها سوء حاله، وطلب منه أن يهديه ثياباً تدفع عنه عيب العائبين فقال:

بَخِلَ الْبَاخِلُونَ عَنَّا فَأَمْطَرَ * تَنَا نَائِلًا بِغَيْرِ سَحَابِ
حَالَتِي تَقْتَضِيكَ دُونَ اقْتِضَائِي * أَنْ يَكُونَ الثَّوَابُ دَسْتِ الثِّيَابِ
كُلَّمَا لَامَنِي خَبِيثٌ بِعُتْبٍ * قَامَ لِبْسِي لَهُ مَقَامَ الْجَوَابِ

قال هذا؛ لأن الناس في زمانه جعلوا الثياب شارة الرجال.

وقد مدح الوَأوَاءَ الأمير بقصائد عتاق، ذكر فيها بطولاته وأمجاده وتغنى بشجاعته وكرمه ومن ذلك قوله فيه:

(١) فوات الوفيات والذيل عليها، للكتبي، ت إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج٣، ص ٢٤٠.

(٢) فوات الوفيات، ص ٢٤٠.

* الوأوة في اللغة: صياح ابن آوى، أو صياح الكلب، ويبدو أن اللقب قد أخذ من طبيعة عمله. "المناداة في البيع".

مَنْ قَاسَ جَدْوَاكَ بِالْغَمَامِ فَمَا * أَنْصَفَ فِي الْحُكْمِ بَيْنَ شَاكِلَيْنِ
أَنْتَ إِذَا جُدْتَ ضَاكِحًا أَبَدًا * وَهُوَ إِذَا جَادَ دَامِعُ الْعَيْنِ (١)

وكان الوأواء يحن إلى بلاده دمشق كثيراً، وأثناء استقراره في رحاب
الأمير أصابته علة فازداد حنينه إلى بلاده وتذكر أهله وأحبابه فقال:

عَلِيلُ الْقَلْبِ وَالْبَدَنِ * بَعِيدُ الدَّارِ وَالسَّكَنِ
بِكَيْ وَشَاكَ تَشْتَتُهُ * عَنِ الْأَحْبَابِ وَالْوَطَنِ (٢)

ويقى الوأواء في رحاب الأمير مدة من الزمان عاد بعدها إلى دمشق
محملاً بالجوائز القيمة التي أهداها له الأمير وتغزل بالمذكر والمؤنث، وأدمن
الخمير ووصفها وصفاً دقيقاً وكان يقول مخاطباً شخصه:

نَلُّ مِنَ اللَّذَاتِ مَا تَب * غِيهِ وَاللَّهِ غَفُورٌ (٣)
ومن أقواله في الخمر:

وَهَيْفَاءٌ مِنْ نُدْمَاءِ الْمُلُو * كِ صَفْرَاءَ كَالْعَاشِقِ الْمُدْنَفِ
تَكِيدُ الظَّلَامَ كَمَا كَادَهَا * فَتَفَنِّي وَتُفْنِيهِ فِي مَوْقِفِ (٤)

ويبدو أنه راجع نفسه في أواخر أيام حياته فعاتبها على ما اقترفته من
ذنوب، وطلب المغفرة من الله تعالى قائلاً:

اللَّهُ يَغْلَمُ أَنِّي هَائِمٌ قَلِقٌ * عَلَيَّ ثُوبَانِ مِنْ ضُرٍّ وَمِنْ سَقَمِ
وَقَدْ نَدِمْتُ عَلَى مَا كَانَ مِنْ زَلِّي * وَأَنْتَ أَعْظَمُ مَنْ يُرْجَى مِنَ الْأُمَمِ
فَاغْفِرْ لِعَبْدِكَ يَا مَوْلَايَ زَلَّتْهُ * أَوْ لَا فَحُكْمُكَ فِينَا غَيْرُ مُحْتَكَمِ

قال سامي الدهان لعل المعري لو قرأ هذه الأبيات لجعله في رسالة

الغفران "ممن غفر الله لهم ببيت شعر" (٥).

(١) ديوان الوأواء الدمشقي، تحقيق سامي الدهان، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، ص
٢٢٢ - ٢٢٣.

(٢) ديوانه، ص ٣٤٦.

(٣) ديوانه، ص ٤٦.

(٤) ديوانه، ص ٢٠٩.

(٥) المصدر السابق.

* الوأواء:

وذكر دكتور سعود محمود عبد الجابر: أن الوأواء كان شيعياً، وقال أن

شعره حافل بالألفاظ والتشبيهات التي تدل على ذلك واختار له قوله:

إِنِّي سَأَلْتُكَ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّد * وَوَصِيَّهُ الْهَادِي الْأَمِينِ الْمَهْتَدِي
وَيَسْحَرِ مَنْطِقَكَ الَّذِي سُلْطَانُهُ * حُكْمٌ يَجُورُ عَلَى الْقُلُوبِ وَيَعْتَدِي
هَلَا هَجَرْتَ بِفِيكَ قَوْلَكَ سَيِّدِي * مَوْلَى يَقُولُ لِعَبْدِهِ يَا سَيِّدِي

وقوله:

عَلَوِيٌّ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ تَعَالُوا * دُونَ أَقْدَارِهِمْ عَلَى الْأَقْدَارِ
ضَرَبْتَ كَفَّهُ لَهُ فِي رُبَى الْمَجْج * دِرْوَاقاً مُطَنَّباً بِالْفَخَارِ^(١)

ونشر ديوانه سامي الدهان في سنة ١٩٥٠م^(٢).

ولم تذكر المصادر تاريخ ميلاده، كما لم يذكر تاريخ وفاته من القدماء

إلا ابن شاعر الكتبي وقال إنه توفي سنة ٣٩٠هـ.

الملاحظ أن هذا الشاعر على جودة شعره لم يحظ بدراسات علمية جادة

-على حد علمنا- كما أن المؤرخين القدماء لم يذكروا شيئاً عن تاريخ حياته،

والمعلومات التي وجدناها عنه في كتب التراجم قليلة جداً لا تروي ظمناً باحث،

ولا تشبع سغب طالب.

والجدير بالذكر أن الشاعر في ديوانه لم يصور جوانب حياته كلها بل

ركز على جانب اللهو والغزل، كما لم يصور حياة عقيدة كما فعل بعض

الشعراء أمثال البحري والشريف الرضي وأبي فراس^(٣).

(١) الشعر في رحاب سيف الدولة الحمداني، ص ١٤٣ - ١٤٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) فوات الوفيات، ج ٢، ص ٣٠١.

الفصل الثالث

توطئة:

كان سيف الدولة أعظم أمراء الممالك والأمارات في عصره قدراً، وأجلهم مقاماً، وأسماهم مكاناً، وأكثرهم شهرة، وذلك لأسباب سلف ذكرها. وقد كان عنوان عز وفخر للشعراء العرب؛ لأن دولته كانت الدولة العربية الوحيدة بين مجموعة من الدول الأعجمية فوجدوا في شخصيته كل مقومات الشخصية العربية الأصيلة التي كم ظمأت نفوسهم إليها وتاقت أحلامهم لها فسارعوا إليه وعاشوا في ظلاله؛ ليجاهدوا بألسنتهم لنصرة الدين والعرب والحق، وقد صار الكثيرون منهم من خواصه إلى أن اقترن اسمهم باسمه، قال المتنبي قبل قدومه لسيف الدولة:

وَإِنَّمَا النَّاسُ بِالْمُلُوكِ وَمَا * تَفْلِحُ عَرَبٌ مُلُوكُهَا عَجَمٌ^(١)

وقال مخاطباً سيف الدولة:

رَفَعْتَ بِكَ الْعَرَبُ الْعِمَادَ وَصَيَّرْتَ * قِمَمَ الْمُلُوكِ مَوَاقِدَ النِّيرانِ
أَنْسَابُ فَخْرِهِمْ إِلَيْكَ وَإِنَّمَا * أَنْسَابُ أَصْلِهِمْ إِلَى عَدْنَانِ^(٢)

لم يكن بإمكان كل شاعر القدوم إلى سيف الدولة؛ لأنه كان أديباً وشاعراً وناقداً، هذا ما جعل بلاطه يحوي أميز أمراء الشعر العربي على مر الدهور والأيام، وقد أحس شعراؤه بهذا منه فعملوا على تجويد أشعارهم، وحاولوا التجديد في الأغراض الشعرية ما استطاعوا، كما أنهم استحدثوا بعض الأغراض وسنعرض ذلك بالتفصيل الذي يبين جوانبه.

الذي يعيننا في هذا الفصل الإجابة عن أسئلة تطرح نفسها في هذا المقام.

- ١- إلى أي حد كان الشعر مصدراً تاريخياً لهذه الفترة من تاريخ حلب.
- ٢- إلى أي مدى أثرت شخصية سيف الدولة وبيئته الحلبية في تطوير الشعر وتوجيه ملكات الشعراء.
- ٣- كيف تشكلت أغراض الشعر وفنونه تبعاً لذلك.

(١) ديوان المتنبي، ج٤، ص٦٦، شرح البرقوقي، ج٣، ص١٨٩.

(٢) ديوانه، دار الجيل، بيروت، ص٤١٨.

سنحاول الإجابة ضمناً وبصفة مجملّة عن هذه الأسئلة من خلال أغراض الشعر وفنونه آملين أن نوفق في ذلك بإذن الله ليكون إضافة يمكن الاستفادة من طرحها وبيانها.

المبحث الأول الأغراض التقليدية المديح، الفخر، الرثاء

إذا أمعنا النظر في المديح، والفخر، والرثاء، نجد أن هذه الأغراض لا تخرج عن كونها تعداد للسّمات الطيبة، والفضائل الكريمة، والتغني بالمثل العليا، والقيم الرفيعة؛ لذا رأينا أن نجمع هذه الأغراض في فصل واحد؛ وذلك لأنها موضوعات تكاد تتفق في مقاصدها ومراميها، فالمديح: ليس إلا إظهاراً لمحاسن الممدوح، وذكرها ونشرها، والفخر: لا يبعد كثيراً عن طبيعة المديح، إذ هو لا يخرج عن مدح المفتخر بنفسه، والتغني بمآثر قومه أو قبيلته، والرثاء: ضرب من المديح لكنه يختص بالأموات دون الأحياء، يعدّ مآثرهم، ويصور أفضالهم وأفضال قومهم، وما اتصفوا به من خلق كريم أو ما خلفوا من عمل صالح في قالب من الحسرة والألم والبكاء^(١).

المديح:

الملاحظ أن فن المديح جاء على منوال واحد على مرّ العصور، وترجع المهارة فيه إلى مقدرات الشاعر اللغوية وحسن تصرفه في المعاني والألفاظ. احتلّ المديح أسمى مكانة من بين الأغراض الشعرية، في بلاط الأمير، وخاصة لدى الشعراء الوافدين الذين كان السبب الأول في قدومهم إلى الأمير تكسب المال والحصول على جزيل النوال. يعدّ سيف الدولة أكثر الأمراء في عصره نصيباً في شعر المديح، وحسبك أن أبا محمد عبد الله بن الفياض الكاتب، وأبا الحسن علي بن محمد الشمشاطي، قد اختارا من مدائح الشعراء لسيف الدولة عشرة آلاف بيت^(٢).

(١) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين، ص ١٤٠.

(٢) بيتمة الدهر، ج ١، ص ٣٨.

وقد ذكر الذهبي: أن ما جمع له من المدائح مجلدان^(١) وقد كان من أهم الشعراء الذين تباروا في مدح الأمير وأولاهم بالذكر: المتنبّي، وأبو فراس، والنامي، وابن نباتة السعدي، والسري الرفاء، والخالديين، والوأيء الدمشقي، والبيغاء، وكشاجم، والصنوبري، وغيرهم.

مدح الشعراء الأمير سيف الدولة بأفضل الصفات الكريمة وأمّهات الفضائل مثل: العقل، الشجاعة، العدل، العفة، الكرم، شرف النسب، المجد، ومدحوه مدحاً لا يدانيه مدح عدا القليل من الخلفاء.

لا شك في أنه إذا ذكر شعر المديح في بلاط الأمير فلا بد أن يخطر بالخطر أول وهلة شاعره المتنبّي، وقد لا نكون بعدنا عن الصدق إذا قلنا: إن ما يقارب ثلث شعره قد كان في مدح الأمير. والحق أن كليهما حقق الشهرة للأخر، فلولا سيف الدولة لما اشتهر المتنبّي بهذه الصورة ولو لا المتنبّي لما امتلأت مسامع الناس من مدح ابن حمدان.

نسج المتنبّي قصائده في المديح على منوال القدماء في الغالب، واستهلّ العديد منها في مدح الأمير، بذكر الأطلال، وبالحدِيث عن المحبوبة، ثم ينتقل بعد ذلك إلى مدح الأمير بمكارم الأخلاق. وقد كتب المتنبّي في سيف الدولة مجموعة من القصائد التي تعدّ من عيون الشعر العربي نختار له منها قصيدته التي مطلعها:

أَجَابَ دَمْعِي وَمَا الدَّاعِي سِوَى ظَلَلٍ * دَعَا فَلَبَّاهُ قَبْلَ الرِّكْبِ وَالْإِبِلِ
ظَلَلْتُ بَيْنَ أَصْحَابِي أَكْفَكُفُهُ * وَظَلَّ يَسْفَحُ بَيْنَ العُذْرِ وَالْعَذَلِ
وَمَا صَبَابُهُ مُشْتَاقٍ عَلَى أَمَلٍ * مِنَ اللِّقَاءِ كَمُشْتَاقٍ بِلا أَمَلٍ
مَتَى تَزُرُ قَوْمَ مَنْ تَهْوَى زيارَتِهَا * لا يُتَحَفَوُكَ بِغَيْرِ البَيْضِ وَالْأَسَلِ
وَالهَجْرُ أَقْتَلُ لِي مِمَّا أَرَأَيْتُهُ * أَنَا العَرِيقُ فَمَا خَوْفِي مِنَ البَلَلِ^(٢)

(١) سير أعلام النبلاء، ج١٦، ص١٨٨.

(٢) ديوان المتنبّي شرح العكبري، ج٣، ص٧٤، وشرح البرقوق، ج٢، ص١٩٨، وما بعدها.

استهل الشاعر قصيدته بالبكاء على أطلال محبوبته العافية، وقال: إن حنينه إلى تلك الأطلال سبق الركب والإبل؛ ولذلك تدافعت كوامن العشق في دواخله، وتأججت لواعج الشوق في نفسه، وأشجته الذكرى لتلك المحبوبة، فأجهشت عيناه بالبكاء، تلبية لدعوة الطلل، وتسليماً لصادق الهوى، فظل يكفكف تلك الدموع ويخفيها خوفاً من لوم أصحابه وهم ما بين عاذر له وعاذل. وقال إنه في يأس من أن ينعم بوصول تلك المحبوبة التي يحرسها قوم شداد، وفوارس شجعان سيوفهم مشهورة دائماً، فلا يستطيع أحد ولا محب على أن يجرؤ على اقتحام ديارهم، وأن من تسول له نفسه ذلك الأمر سيقرى بالسيوف والرماح، ويرى الشاعر أن السيوف والرماح أهون إلى نفسه من هجرها، ويعلل لذلك بتعليل جميل قائلاً: إنَّ الغريق لا يخاف البلل، ويواصل هذا الاستهلال الرائع فيقول:

ما بال كُـلِّ فُـؤادٍ في عَشيرَتِها * بهِ الَّذي بي وما بي غيرُ مُنْتَقِلِ
مُطاعَةَ اللَّحْظِ في الأَحاظِ مالِكَةً * لِمُقْتَلَيْها عَظِيمِ المُلْكِ في المُقَلِ
تَشَبَّهُ الخَفِراتُ الأَنِساتُ بِها * في مَشِيها فَيَنلَنَ الحُسنَ بِالحِيلِ^(١)

القارئ لهذه المقدمة الطويلة في ديوان الشاعر يرى أن في ظاهرها تقليداً فنياً متبعاً لدى معظم الشعراء، ووقفة وفاء لصاحبة ذلك الطلل البائد، ولكننا إذا أمعنا النظر فيها وتبيننا بواطن معانيها -إذا صدق إحساسنا في ذلك- فإننا نلتبس أنها إشارات صادقة خاطفة، يرمز بها الشاعر إلى سيف الدولة المحبب إلى نفوس الجميع ممن هم حوله، وإلى دولته المنيعه الحصينة التي لها عظيم الملك بين الدويلات اللاتي يحاولن التشبه بها، ولكن هيهات أن يحققن ذلك. ومن بعد تلك المقدمة دخل المتنبي في الغرض الأساسي لقصيدته وهو مدح الأمير، فقال:

(١) ديوان المتنبي شرح العكبري، ج٣، ٢٠٠-٢٠١م.

ضاقَ الزَّمانُ وَوَجَّهَ الأَرْضِ عَن مَلِكِ * مِلءِ الزَّمانِ وَمِلءِ السَّهْلِ وَالجَبَلِ
فَنَحْنُ فِي جَدَلٍ وَالرُّومُ فِي وَجَلٍ * وَالْبُرُّ فِي شُغْلٍ وَالْبَحْرُ فِي حَجَلٍ (١)

هذه القصيدة بكل حق أجل من كل مدح ووصف؛ لأنها: قوية الألفاظ،
رائعة المعاني، جزلة التراكيب، رقيقة الأسلوب.

وفي البيتين السابقين يقول الشاعر واصفاً حسن بلاء الأمير في الروم:
ضاق الزمان عن استيعاب قدره، وضافت الأرض عن كثرة فضله، وقال: إنَّ
المسلمين ظلوا يعيشون في أمان وجزل وسرور بسبب انتصارات الأمير المتتالية
على أعدائهم، وأن الروم في خوف دائم من كثرة غاراته عليهم، والبحر خجل
من كثرة عطائه، والبرُّ في شغل بجيوشه الكثيرة.

انظر كيف استطاع الشاعر أن يحشد كل هذه المعاني الرائعة في بيتين،
وكيف أنه تمكن بخياله المبدع أن يربط بين هذه الأشياء ويؤلف بينها، كما أنه
بتخييره للألفاظ واستخدامه حسن التقسيم قد أضفى على هذين البيتين موسيقى
ساحرة، وقد أوتي الشاعر ما أوتي من جوامع الكلم فمدح ووصف وأبدع.

ويواصل الشاعر مديحه قائلاً:

مِن تَغَلَّبِ الغالِبِينَ النَّاسِ مَنْصِبُهُ * وَمِن عَدِيٍّ أَعادي الجُبِينِ وَالْبَخَلِ
وَالْمَدْحِ لِابْنِ أَبِي الهِجاءِ تُجْدُهُ * بِالجاهِلِيَّةِ عَيْنِ العِيِّ وَالخَطَلِ
خُذْ ما تَراهُ وَدَع شَيْئاً سَمِعْتَ بِهِ * فِي طَلَعَةِ الشَّمسِ ما يُغْنِيكَ عَن زُحَلِ
إِنَّ الهَمامَ الَّذِي فَخَرَ الأَنامِ بِهِ * خَيْرُ السُّيُوفِ بِكَفِّي خَيْرَةَ الدُّوَلِ
تُمسي الأَمانيُّ صَرَعي دونَ مَبْلَغِهِ * فَمَما يَقولُ لِشَيءٍ لَيْتَ ذَلِكَ لي (٢)

يقول الشاعر: لا غرو في أن يملأ هذا الأمير هذا الكون الكبير، بجليل
أعماله وعظيم أفضاله، فهو من قبيلة تغلب المعروفة بغلبتها على القبائل، ومن
عدى التي عرفت بالشجاعة والكرم، ويقول: إن في مدحه له بأجداده وإن كرموا
مجداً وأخلاقاً - تتقيص من قدره؛ لأن أجداده لم يبلغوا ما بلغه هو من شأو

(١) ديوان المتنبي، شرح البرقوق، ج ٣، ص ٢٠٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٠٤ - ٢٠٥.

وعظمة، وهو أفضل قائد في كف أفضل أمة، وهو لا يتمنى شيئاً؛ لأن كل أمنياته تأتية طوع يديه.

وبجانب مقدرة الشاعر الفائقة في اختيار المعنى المصيب، وتشديد المبنى المتماسك الصلبد، فإن الخيال عنده من الأعاجيب، فهو خير معين له في تظليل صورته الرائعة وتلوينها، وقد اختار الشاعر لصورته اللون البديعي في البيت الأول، فجانس بين تغلب والغالبين، وعدى وأعادى، وفي البيت الثالث فاستخدم أسلوب التمني والاستفهام في آن واحد، والاستفهام يبين سمات الممدوح التي عجزت أن تبلغها كليب وأهل العصر الأول من أجداده وغيرهم، وفي البيت الرابع أتى بكناية طريفة لعب فيها خياله دوراً كبيراً وهي تبين مدى سمو الممدوح وعلو مكانته، وفي ذات البيت استخدم أسلوب المنطق ووسيلته في ذلك التشبيه الضمني، وكنى لسيف الدولة بأنه "خير السيوف"، وكنى لدولته بأنها "خيرة الدول"، وفي البيت الأخير ألبس الأمانى ثوب المحسوس فجعلها تصرع مستخدماً الاستعارة المكنية.

وبعد ذلك قال:

أُنْظِرْ إِذَا اجْتَمَعَ السِّيفَانِ فِي رَهَجٍ * إِلَى اِخْتِلَافِهِمَا فِي الْخَلْقِ وَالْعَمَلِ
هَذَا الْمَعْدُّ لِرَيْبِ الدَّهْرِ مُنْصَلِتًا * أَعَدَّ هَذَا لِرَأْسِ الْفَارِسِ الْبَطْلِ
وَمَا الْفِرَارُ إِلَى الْأَجْبَالِ مِنْ أَسَدٍ * تَمْشِي النَّعَامُ بِهِ فِي مَعْقِلِ الْوَعْلِ
جَازَ الدُّرُوبَ إِلَى مَا خَلْفَ خَرَشْنَةَ * وَزَالَ عَنْهَا وَذَاكَ الرَّوْعُ لَمْ يَزُلْ
فَكُلَّمَا حَلَمْتَ عَنَاءُ عِنْدَهُمْ * فَإِنَّمَا حَلَمْتَ بِالسَّبِي وَالْجَمَلِ^(١)

يقول الشاعر: انظر إذا اجتمع السيفان في رهج...، ويعنى بأحد السيفين سيف الدولة وقد أُعدَّ لتأديب الدهر، والآخر هو السيف الحقيقي، أُعدّه سيف الدولة لقطع هامات الأبطال؛ ولشجاعة الأمير ومعرفة الأعداء بذلك منه؛ كانوا يفرّون منه وبلوونون بالجمال اتقاء بأسه، ولا يغنيهم ذلك عنه شيئاً، وإنه تعمق في بلاد الروم وتغلغل في أمصارها إلى أن وصل ما وراء خرشنة، وعاد بعد

(١) ديوان المتنبي شرح البرقوقى، ج ٣، ص ٢٠٦ - ٢٠٧.

ذلك إلى بلاده سالماً غانماً رافعاً رايات النصر المؤزر تاركاً الروم من ورائه يعيشون في فزع وهلع؛ لشدة ما أدخل في نفوسهم من خوف، ولم يقف عند هذا التصوير الرائع لشجاعته، وقوة شكيمته، وشدة بأسه، وإنما أضاف قائلاً: إن فتياتهم لكثرة ما رأين من سبى من بينهنّ تعمق الخوف في نفوسهن، فصار العقل الباطن يصور لهنّ صورة الحرب والسبى في منامهنّ وكأنها صورة حقيقية لا مناص منها، وما الحلم إلا ما تريه الخواطر.

وللشاعر عدة قصائد ابتدأها بالمديح مباشرة ومن تلك^(١):

لُكُلْ امْرِئٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا * وَعَادَتْ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الطَّعْنُ فِي العِدَا
وكذلك قصيدته المتألقة دائماً وأبداً والتي كان مطلعها بيتين من الحكمة الرائعة التي جرت على الألسن:

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ العَزْمِ تَأْتِي العَزَائِمُ * وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الكِرَامِ المَكَارِمُ
وَتَعْظُمُ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا * وَتَصْغُرُ فِي عَيْنِ العَظِيمِ العَظَائِمُ^(٢)

والقصيدتان بصورة عامة تبيينان مقدرة الشاعر الفائقة، في صوغ الأساليب الجميلة والتراكيب المتعانقة، حتى أن الباحث يجد أنه مضطر إلى أن يقف وقفة تأمل في كل بيت من أبياتهما، ولكننا لا نريد تكرار المعاني في موضوع واحد، فالقصيدة السابقة، جاءت شافية كافية، وأعطت صورة وافية تعتبر أنموذجاً طيباً لمديح المتنبي في سيف الدولة، وإن كانت قصائده جملة فيه لا تخلو من معانٍ رائعة، وأخيلة مبتكرة، وألفاظ ساحرة، وأساليب أخّاذة لها عميق الأثر في النفوس، فظلت العديد من أبياته لشدة قيمتها وجمالها منطبعة في القلوب، ومرسومة في الخواطر، وعالقة بالذهن.

أما الشاعر الفذ أبو فراس فهو في رأينا غير مبرّز في هذا الفن من الشعر، وإنما كان مبرّزاً في أغراض أخرى ورائداً فيها، كالفخر، والشكوى، والرتاء، والطرده، والغزل، وغيره، ولا غرابة في ذلك فالشاعر أمير لا حاجة له بشعر المديح، ولذلك ابتعد بشعره عنه، وارتقى به من أن يهبط إلى مستوى

(١) ديوان المتنبي شرح العكبري، ج١، ص ٢٨١.

(٢) المصدر السابق، ج٣، ص ٩٤.

التكسب، ولم يكتب الشاعر في المديح سوى أربع قصائد، وجاءت مدائحه في غيرها -على قلتها- مختلطة بالفخر، أو الشكوى أو الأخويات، وجملة القول إن المديح لم يكن غرضاً أصيلاً في ديوان الشاعر، والسبب في ذلك؛ لأن الشاعر أمير يعتز بمكانته بين القبائل، وكان يتأفف من أن يكون مادحاً، خاصة عندما صار المدح (حرفة الأدب)، وقد نفى الشاعر عن نفسه صفة الشاعرية مترفعاً بذلك من أن يضم إلى قبيلة الشعراء المتكسبين، فقال:

نَطَقْتُ بِفَضْلِي وَإِمْتَدَحْتُ عَشِيرَتِي * وَمَا أَنَا مَدَّاحٌ وَلَا أَنَا شَاعِرٌ^(١)

ولا يعني حكماً على الشاعر بأنه غير مبرز في هذا الفن بأن مدائحه كلها غير طيبة، وإنما يأتي الحكم في ذلك من منطلق أن أغلب شعره في المديح كان فخراً بنفسه. قال الشاعر في قصيدة كان الغرض منها مدح سيف الدولة ابتدأها مفتخراً بنفسه قائلاً:

أَلَا مَنْ مَبْلِغُ سَرَواتِ قَومِي * وَسَيفَ الدَولَةِ المَلِكِ الهَمَامَا
بِأَنِّي لَمْ أَدعِ فَتِياتِ قَومِي * إِذَا حَدَّثَنَ جَمَعَمَنَ الكَلَامَا
شَرِيتُ ثَنَاءَهُنَّ بِبَذْلِ نَفْسِي * وَنَارُ الحَرَبِ تَضَطَّرِمُ إِضْطِرَامَا
وَلَمَّا لَمْ أَجدِ إِلَّا فِراراً * أَشَدَّ مِنَ المَنِيَّةِ أَوْ حِمَامَا
حَمَلْتُ عَلَى وُرودِ المَوْتِ نَفْسِي * وَقُلْتُ لِغُصْبَتِي مَوْتُوا كِرَامَا^(٢)

يقول الشاعر: مَنْ الذي يبلغ الأمير العظيم سيف الدولة وسادات قومي إذا خاضوا في غمار الحديث وهم يفتخرون بأمجادهم بأنني ذلك البطل الهمام الذي لا يدع فتيات قومه عرضه للسبي والإذلال إذا أكفهرت صروف الأيام في وجوههن، ويقول: إنه لم يشتر ثناءهن بجاهه، ولا بماله ولا بوجاهته، وإنما اشتري ذلك الثناء باقتحامه للحروب عندما يشتد حماها، فهو يبذل روحه رخيصة فيها من أجل الحفاظ على الذمم، ويقول: إنه البطل الذي يغشى الوغى بقلب من حديد ويحقق النصر، ويرفع لواء العز والفخر، ويقول: إذا امتحنت الأقدار معدني وضاقت بي الدائرة، فإنني أختار طريق الكرامة لا السلامة،

(١) ديوان أبي فراس رواية ابن خالويه، ج ١، ص ١٢٠

(٢) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٦٢، وديوانه رواية ابن خالويه، ص ٢٦٦.

وأوصى أقاربي بالثبات ولو كانوا على شفا حفرة الموت، لأنه كان يجعل تقوى الله سبحانه وتعالى زاده الذي يتزود به ويستسقي ذلك من إيمانه الراسخ بعقيدته ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزَقُونَ﴾^(١).

والشاعر كان لا يرى أن هناك ثمة فرق بينه وبين ابن عمه سيف الدولة، فهما يشتركان في مجد أصله واحد، إلا أن سيف الدولة جاء سابقاً في أماره الحمدانيين بحكم تقدمه عليه في السن، وهو يجعله مثله الأعلى حتى يركب الخطط العظاما، ويقتفي أثره حتى يبلغ مجده، والأبيات التي يتبين فيها ذلك هي:

وَهَلْ عُنْزٌ وَسَيْفُ الدِّينِ رُكْنِي * إِذَا لَمْ أَرْكَبِ الخُطَطَ العِظَامَا
وَأَتَبَعَ فِعْلُهُ فِي كُلِّ أَمْرٍ * وَأَجَعَلَ فَضْلُهُ أَبْدَاءَ إِمَامَا
أَرَانِي كَيْفَ أَكْتَسِبُ المَعَالِي * وَأَعْطَانِي عَلَى الدَّهْرِ الذِّمَامَا
وَرَبَّانِي فَفُقْتُ بِهِ البرَايَا * وَأَنْشَأَنِي فَسُدْتُ بِهِ الأَنَامَا
فَعَمَّرَهُ الإِلَٰهَ لَنَا طَوِيلًا * وَزَادَ اللّٰهَ نِعْمَتَهُ دَوَامَا^(٢)

يتجلى لنا مدى تمسك الشاعر بعقيدته وقوة إيمانه بالله في الكثير من القصائد، وهو هنا يلقب الأمير بأنه سيف الدين، لأنه السيف الذي عصم المسلمين من مآرب الصليبيين.

والأبيات السالفة توضح الطريقة المعهودة لمديح أبي فراس، فهو عندما يمدح الأمير يساوي مقامه بمقام الأمير، ويفخر بنفسه ويمجدها ثم يخص الأمير بجزء يسير من القصيدة يمدحه فيه.

وهذه قصيدة تبدو فيها صورة الفخر بصورة جلية واضحة لدى الأمير

الشاعر المعتز بنفسه وبفروسيته ومنها قوله:

أَلَا قُلْ لِسَيْفِ الدَّوَلَةِ القَرْمِ إِنَّنِي * عَلَى كُلِّ شَيْءٍ غَيْرِ وَصْفِكَ قَادِرُ
فَلَا تُلْزِمْنِي خِطَّةً لَا أُطِيقُهَا * فَمَجْدُكَ غَلَابٌ وَفَضْلُكَ بَاهِرُ

(١) سورة آل عمران، الآية ١٦٩.

(٢) ديوانه رواية ابن خالويه، ص ٢٦٧.

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فَخْرِي وَفَخْرُكَ وَاحِدًا * لَمَا سَارَ عَنِّي بِالْمَدَائِحِ سَائِرُ
وَلَكِنِّي لَا أُغْفِلُ الْقَوْلَ عَن فَتَى * أُسَاهِمُ فِي عَلَيَّهِ وَأُشَاطِرُ
وَعَن ذِكْرِ أَيَّامٍ مَضَتْ وَمَوَاقِفٍ * مَكَانِي مِنْهَا بَيْنَ الْفَضْلِ ظَاهِرٌ^(١)

ويتضح لنا مدى ترفع الشاعر وأنفته وارتقائه فوق المطامح المادية من خلال قوله:

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فَخْرِي وَفَخْرُكَ وَاحِدًا * لَمَا سَارَ عَنِّي بِالْمَدَائِحِ سَائِرُ
فمدح أبي فراس يبين معدن الشاعر ويكشف عن أصالته، وبعد همته، وامتناله للقيم الإنسانية السامية، ويوضح أن للشاعر مبادئ ومثل رفيعة لا يعيش إلا لأجلها.

وقد اعتاد الشاعر الأمير أن يمدح الأمير سيف الدولة دون أن ينسى مقدار نفسه ولا يرتفع بسيف الدولة إلى المستوى الذي يهبط به هو.

والحق أن للشاعر بعض القصائد التي جاء فيها بنفثات طيبة في مدح الأمير، ومنها تلك القصيدة التي قالها عندما استخلفه الأمير على ملكه، وخرج لغزو، فعز ذلك على نفس أبي فراس، وغمرته عاطفة الأبوة تجاه ربه الثاني فقال له: مادحاً وهي من جيد قوله ومنها:

أَشِدَّةٌ مَا أَرَاهُ مِنْكَ أَمْ كَرَمٌ * تَجُودُ بِالنَّفْسِ وَالْأَرْوَاحِ تُصْطَلَمُ
يَا بَاذِلَ النَّفْسِ وَالْأَمْوَالِ مُبْتَسِمًا * أَمَا يَهْوُلُكَ لَأَمَوْتُ وَلَا عَدَمُ
لَقَدْ ظَنَنْتُكَ بَيْنَ الْجَحْفَلَيْنِ تَرَى * حَيَاةُ صَاحِبِهَا تَحْيَا بِهَا الْأُمَمُ
نَشَدْتُكَ اللَّهُ لَا تَسْمَحْ بِنَفْسٍ عَلَاً * وَكَانَ حَقُّهُمْ أَنْ يَفْتَدُوكَ هُمْ^(٢)
تَفْدِي بِنَفْسِكَ أَقْوَاماً صَنَعْتَهُمْ * أَنْ السَّلَامَةَ مِنْ وَقَعِ الْقَنَا تَصِمُ

جاءت فكرة الشاعر في هذه الأبيات رائعة في أسلوب جديد تبدو عليه خفة الروح وتسوده عاطفة صادقة، فما هو يناشد الأمير ويستحلفه بالله العظيم

(١) ديوان أبي فراس، شرح ابن خالويه، ص ١٠١، ديوانه، ج ٢، ص ١١٥.

(٢) شرح ديوان ابن خالويه، ص ٣٦٠، وديوانه، ج ٣، ص ٣٥٧، * تصطم: اصطلم الشيء استأصله.

بألا لا يبذل روحه الغالية رخيصة؛ لأن في بقائها حياة أمم بأكملها. والمديح لدى أبي فراس يأتي عارضاً، وغالباً ما نجد في شكل مقطوعات أو بين ثنايا القصائد.

وهناك أمر كان لا بد من الإشارة إليه، وهو أن أبا فراس لم يمدح في حياته أحداً قط بصفة الكرم؛ كما أنه لم يمدح الأمير بصفة الكرم إلا في هذه الأبيات.

وقد كان أبو العباس النامي كثيراً ما ينهج نهج الأقدمين في مدائحه فيستفتح قصائده في مديح الأمير بالغزل ومن ذلك قوله:

أمرن هوانا أن يصح لنسقما * فادمي قلوباً صاديات إلى الدما

المقدمة الغزلية طويلة، وفي هذا البيت يشير الشاعر إلى أنه فارس شجاع نظماً نفسه إلى الدماء. وبعد مقدمة طويلة في الغزل قال مادحاً الأمير:

أطعت العلى حتى كأنك عبدها * وان كنت مولاهم وكنت لها ابنما

مكارم لا تنفك تتعب حاسداً * يؤخره سعي لها قد تقدما^(١)

وصف الشاعر الأمير بأنه: عالي المنزلة، سامي المكانة، موضحاً أن مكارمه ما استطاع أن يبلغ إليها أحد، وأن حساده قد أعياهم السعي فسئموا ويئسوا من أن يبلغوا ما بلغه الأمير من مكارم.

ومن أجمل ما قال النامي في مديح الأمير قصيدته التي منها:

قال النهار له والشمس مغمدة * وللمنايا شمس غمدها القمم

هذا عجاج فأين الأفق وهو قنا * وتلك خيل فأين الأرض وهي دم

في ناظر الشمس ان عنت له رمد * ومسمع الرعد ان اصغى له صمم

يردها ونظام الملك متسق * والموت في خرز الاعناق ينتظم

بحد سيفك سيف الدولة انحطمت * قواعد الشرك والارواح تنحطم

يحدث الذئب ذئباً وهو مبتهج * ويخبر النسر نسرٌ وهو مبتسم

قد ارضعتك ثدي الأرض درتها * ورمحك ابن رضاع ليس ينظم^(٢)

(١) يتيمة الدهر، ج ١، ص ٢٨٣.

(٢) الشعر في رحاب سيف الدولة، ص ١٦٢-١٦٣.

صوّر الشاعر في أسلوب بارع صورة رائعة لإحدى معارك الأمير التي احتدم فيها القتال رحمى وطيسه، فامتلاً الأفق بالقنا، وتغطت الأرض بدماء الأبطال وجاء بذلك في استفهام يفيد التعجب، وقد صور شجاعة الأمير في أسلوب حماسي مبيناً أنه كان يعدّ الموت لأعدائه وينظمه بحد سيفه القاطع الذي اقتلع به جذور الشرك وقواعده.

ومن الشعراء المجيدين ابن نباته السعدي، الذي مدح كرم الأمر بمعانٍ قيمة في هذا الفنّ، وكانت مدائحه فيه بصفة عامة تتميز بالمقدمات الطويلة التي يذكر فيها أكثر من غرض. ومن ذلك قوله:

لو كان صِبْغِي سوادَ الشَّعْرِ لم يَحُلْ * والدَّهْرُ يُعْرِفُ ما فِيهِ سِوَى الحَجَلِ
وأثْبَتُ اللّونَ لَوْنٌ لا يُغَيِّرُهُ * صرْفُ الزَّمانِ ولا يَسوُدُ بالحِيلِ
الملاحظ أن الشاعر كان يكثر في مقدماته من ذكر المشيب ويرجع ذلك إلى أن ضيف الشيب كان قد حلّ عليه قبل أن يبلغ العشرين من عمره قال في بيت من أبيات هذه القصيدة يبين ذلك:

لَمّا بَدَأَ الشَّيْبُ والعَشْرُونَ ما كَمَلْتُ * مع الشَّبابِ تُجارِيهِ على مَهَلٍ^(١)
ومن بعد طول وقفة مع المشيب انتقل الشاعر إلى الغزل فقال:

يا أَهْلَ بابلَ عزمي قَبْلَهُ فِكْرِي * في النَّائِبَاتِ وسيفي بَعْدَهُ عَذْلِي
كَمَ عِنْدَكُم نِعَمٌ عِنْدِي مَصائِبُها * لَكُمْ وصالُ العَواني والصَّبابَةُ لي^(٢)
البيتان جميلان، ويبدو أن الشاعر جعل البابليان مادة غزله عامداً، فهو بذلك يشير إشارة لطيفة إلى حنينه إلى بلاده، فالشاعر عراقي الموطن.

دخل الشاعر من بعد تلك المقدمة الممتزجة -بأكثر من غرض- في غرضه وهو مديح الأمير، فقال:

يا أَيُّها الدَّهْرُ إنَّ العِيَّ كالحَطَلِ * ما دَهَرْنَا غيرَ سيفِ الدَّولةِ البَطَلِ
قد كُنْتَ تأسرُهُم بالسيفِ مُنصَلِتا * فصرتَ تأسرُهُم بالخوفِ والوَجَلِ

(١) فنون الشعر، ص ١٥٩.

(٢) المصدر السابق، ص ١٦٠ وما بعدها.

من يزرع الضرب يحصد طاعةً عَجَباً * ومن يربّ العُلا يأمن من الثكلِ
كانت سحائبك فيهم كلُّ بارقةٍ * حمراء تهطلُ بالأيدي وبالقُللِ
فاليوم سحْبك فيهم كلُّ بارقةٍ * غراء تهطلُ بالأموالِ والحُللِ
حتى تمنى ملكُ الرومِ حظَّهُم * وأنه معهم في الأسرِ لم يزل

إنّ مثل هذا التصوير الجميل، قلّمًا نجد صورة له لغير ابن نباته
السعدي، فالشاعر في هذه الأبيات عبّر عن ما يختلج في نفسه وعقله، ونقل
عواطفه وانفعاله، بصورة لا يستطيع أن يتخيّلها الإنسان العادي، ووسيلته في
ذلك السحر البياني، وانتقاء الألفاظ، والتلاعب بالمعاني.

وقد صور شجاعة الأمير وكرمه ونبل أخلاقه بأسلوب يوضح ما ذهبنا
إليه. فجعل الخوف يأسر، والضرب يُزرع، والطاعة تُحصد، والعلا تُربى
ووصف شجاعة الأمير وقسوته مع الأعداء وهم في ميدان المعركة، ثم بيّن
أصالة محتدة وكريم خلقه في معاملته للأسرى، وهم في رحاب أسره وقد تبدلت
حياتهم إلى نعيم، حتى أن ملكهم تمنى أن ينال حظهم، وأن يكون معهم في
الأسر.

ولم تكن الصورة السالفة هي الوحيدة مما أبدع في تصويره الشاعر بل
هناك صور متعددة تعد آيات من آيات الحسن والجمال^(١).

ومن الشعراء الذين ازدان بهم بلاط الأمير: السرى الرفاء، وقد بلغت
قصائده في سيف الدولة سبع وثلاثين قصيدة، ابتداءً معظمها بالغزل، وقصيدة
المدح عنده لا تأتي مستقلة بهذا الغرض، وإنما تشتمل في كثير من الأحيان
على أغراض أخرى: كالفخر، والهجاء، والوصف، والشكوى، وغيره.

ومن قصائده الرائعة في مدح الأمير قصيدته التي مطلعها:

أؤنب الشوق فيهم وهو يضطرم * واستقل دموع العين وهي دم
أهدت لهنّ على خوف إشارتنا * تحية ردها الغناب والغنم
هي الظباء ولي من ربعها حرم * وهي الشفاء ولي من لحظها سقم^(٢)

(١) الشعر في رحاب سيف الدولة، ص ١٦٨.

(٢) ديوان السرى الرفاء، ص ٢٤٤.

ابتدأ الشاعر قصيدته بالغزل مترسماً خطى القدامى من الشعراء، فشبهه الشوق بالنار، وشبه دموع العين بالدماء، وشبه الحسنات بالظباء. ثم قال مادحاً الأمير:

أضحى بنجدة الإسلام معتصماً * وأنت بالله والمهدي معتصم
أعجب به حين يدعو لملحمة * أصم ليس به من دعوة صمم
فالغزو منتظم والفيء مقتسم * والدين مبتسم والشرك مصظم
لا يستعير له المداح منقبة * ولا يقولون فيه ليس ما علموا
رحب على آلميه ظل رحمته * وليس بينهم قربي ولا رحم
هو الحيا والغنى ما أنهل عارضه * وهو الردى ما ارتدى بالسيف والعدم
رمى الصليب وأبناء الصليب فلم * تغمد صوارمه إلا وهم رمم
بالبيض تنكرها الأعماد مغمدة * والجرد تعرفها الغبطان والألم
يا صارم الدين إن الدين قد علقت * كفاه منك بحبل ليس ينصرم^(١)

هذه القصيدة أبانت جانباً مشرقاً في شخصية الأمير، وهو اعتصامه بحبل الله واهتداؤه بهديه وتحقيقه لمبدأ التمكين للدين.

يقول الشاعر: إن هذا الأمير يصير كالأصم إذا مُسَّتْ حدود الله؛ ولشدة غضبه وغيرته على دينه، يعلن الجهاد وينظم الغزو وينتصر لدين الله، ويستأصل الشرك.

ويقول: إن مدّاحه لا يستعيرون له المناقب، وإنما يصفونه بالصفات التي عرفها فيه الناس طراً دون رياء.

ويقول: إن كرمه يسع الأبعاد قبل الأقارب، وهو مثال في الكرم والشجاعة، وشبه كرمه بالسحاب الممطر، وشبهه في حال ارتدائه لسيفه بالموت الذي ليس لهارب منه نجاة.

كما وضع جانباً مهماً في الحرب وهو أن: الصليبيين كانوا يلبسون الصلبان الكبيرة، حتى تأخذ الحرب صبغة دينية.

(١) المصدر السابق، ص ٢٤٥.

ويقول الشاعر أيضاً: لم يهدأ بال الأمير إلا بعد أن مذاقهم شر ممزق وجعلهم أشلاء تتغذى بها الذئاب والكلاب، ويقول: إنه حقق هذا النصر الكبير باعتياده على السيوف التي أنكرتها أعمادها؛ لكثرة الحروب، وبالخيول الأصيلة التي لا يفتر دأبها، والتي تمرست على الحروب وتعودت عليها. وأخيراً يقول مخاطباً له: إنك سيف الدين الذي يحمي حماه، وإن التاريخ الإسلامي سيحفظ لك هذا الصنيع الطيب ما خلد الدهر.

ومن الشعراء المجيدين البيغاء، وقد مدح الأمير مدحاً طيباً وسلك في مدحه طرقاً متعدّدة، منها قوله:

نَدَاكَ إِذَا ضَنَّ الْعَمَامُ عَمَامَ * وَعَزَمُكَ إِنْ فُلَّ الْحُسَامُ حُسَامُ
فَهَذَا يَنْبُلُ الرِّزْقَ وَهُوَ مُنْعَعٌ * وَذَاكَ يَرُدُّ الْجَيْشَ وَهُوَ لُهَامُ
وَمَنْ طَلَبَ الْأَعْدَاءَ بِالْمَالِ وَالطُّبَا * وَبِالسَّعْدِ لَمْ يَبْعُدْ عَلَيْهِ مُرَامُ^(١)

يصف الشاعر الأمير بالكرم ويقول: إنه أجود من الغيث في وقت الجذب وعزمه أمضى من عزم السيوف في وقت الشدة والغضب وهذه الصورة وإن كانت تقليدية فإنها جميلة تستطيرها النفس. وقال -أيضاً- في قصيدة ابتدأها ببيت رائع فيه حكمة بالغة:

مَا الْمَالُ إِلَّا مَا أَفَادَ ثَنَاءً * مَا الْعِزُّ إِلَّا مَا ثَنَى الْأَعْدَاءُ^(٢)
ومنها قوله:

وَفَدَيْتَ مِنْ أَسْرِ الْعَدُوِّ مَعَاشِرًا * لَوْلَاكَ مَا عَرَفُوا الزَّمَانَ فِدَاءً
كَانُوا عَبِيدَ نَدَاكَ ثُمَّ شَرَيْتَهُمْ * فَغَدُوا عَبِيدَكَ نِعْمَةً وَشِرَاءً
وَالْأَسْرُ إِحْدَى الْمَيْتَتَيْنِ وَطَالَمَا * خَلَدُوا بِهِ فَأَعَدْتَهُمْ أَحْيَاءً
وَضَمِنْتَ نَفْسَ أَبِي فِرَاسٍ لِلْعُلَا * إِذْ مِنْهُ أَصْبَحَتِ النُّفُوسُ بَرَاءً
مَا كَانَ إِلَّا الْبَدْرُ طَالَ سَرَارُهُ * ثُمَّ أَنْجَلَى وَقَدْ اسْتَتَمَّ بِهَاءَ
يَوْمَ غَدَا فِيهِ سَمَاكَ يَعْتَقُ ال * أَسْرَى وَمَنْكَ يَا سُرَّ الْأَمْرَاءَ

(١) يتيمة الدهر، ج ١، ص ٤١.

(٢) نشوار المحاضرة، ص ١٣٦، ١٣٧.

نلحظ في هذا المديح شيئاً من الجدّة في المضمون، إذ أن مديح الشاعر يواكب الأحداث التاريخية، التي تؤكد أن سيف الدولة كان يفدى أسراه بالأموال الطائلة. وفي البيت الثاني يأخذ الشاعر قوله من الحكمة: "بالإحسان تستعبد القلوب" ويقول للأمير: إن هؤلاء الأسرى كانوا إذا دعا داعي الجهاد يلبون النداء، وهم -الآن- يدينون لك بالولاء ولا يعصون لك أمراً لأنك فديتهم وأعدتهم أعزة كرماء بعد أن كادوا أن يفقدوا الأمل في الحياة "ولا يكفر النعمة إلا اللئيم".

وينتهز الشاعر الفرصة؛ ليحث الأمير على استعجال فداء صديقه العزيز - أبا فراس، ويمدح الشاعر في تلك السانحة الأمير أبا فراس مشبهاً إياه بالبدر الذي استكمل منازلته فبدأ بعد المفاداة، في أبهى صورته يملأ الكون جمالاً وبهاء، كما افتخر بالدولة الحمدانية التي عرفت بشجاعة أمرائها الذين ضربوا أمثالاً رائعة في: البطولة، والتضحية، والاستبسال؛ لأنهم كانوا يقودون الجيوش بأنفسهم والشاعر محق في قوله فالأمير أبو العشائر مات ببلاد الروم، وقضى أبو فراس أربع سنوات في الأسر.

أما الصنوبري صديق الأسرة الحمدانية، فقد أبان شعره جانباً مهماً من تاريخ حياة الأمير، وهو أنّ هذا الأمير الفارس لم تبدأ معاركة مع الروم بسنة ٣٣٧هـ كما ذكرت مصادر التاريخ، ولكنه قبل أن يقدم إلى حلب حاربهم وشتت فلولهم وانتصر عليهم انتصاراً ظافراً في عدد من المعارك، والدليل على ذلك أن الشاعر توفي قبل أن يبدأ سيف الدولة حروبه مع الروم بثلاث سنوات، والقصائد التي مدح بها الشاعر الأمير كانت بالموصل، ومنها رائعته:

بأيمن طائرٍ وأصحّ فالٍ * وأسعدِ كوكبٍ يغزو الأميرُ
يؤيدُ جيشه بجيوشٍ نصرٍ * تسيّرُ على النجاحِ إذا تسيّر
فتبلغُ حيثما بلغتُ مناهُ * ويلقانا ببشراهُ البشير
تركت الروم بعضهم قتيلٍ * يمج دماً وبعضهم أسير
ولما طار بأسك أمسى فيهم * هفوا جزعاً كما تهفو الطيور

لسيف الدولة السيف الذي للـ * منايا في غراريه زئير^(١)
وقال في قصيدة أخرى:

وَقَصَّ العدى شرقاً وغرباً بالقنا * أسدٌ لآسادِ العدى وَقَاصُ
والرومُ أَعَصَّ بالجِوشِ جِوشَهُم * إِعَاصَ مَن عَادَاتُهُ الإِعَاصُ
ولجوا المعاقِلَ والحصونَ وأترصُوا * أغلَاقها لو ينفَعُ الإِترَاصُ
فإِذَا معَاقِلُهُم شَبَاكٌ للردى * وَإِذَا حَصُونُهُم لَهُم أَقْصَاصُ^(٢)

ومن الشعراء المجيدين -أيضاً- الوأواء الدمشقي، وكان مذهبه في المديح أن يستفتح قصائده بالغزل أو بالوصف، ولا سيما وصف الطبيعة -وهذا في الغالب- وكان يطيل إطالة فيها مبالغة ثم يأتي بعد ذلك بعدد من الأبيات يمدح فيها الأمير. ومن ذلك نختار قصيدته التي فاقت مقدمتها العشرين بيتاً ومن مطلعها قوله:

فليت الهوى العذري يعذني إذا * خلعت به عذر الدموع السواكب
ومأسورة الأجنان عن سنة الكرى * كأن عليها الصبر ليس بواجب
تحرك طفل النوم في مهد طرفها * إذا اكتحلت بالغمض عين المراقب
تصدت لنا ما بين إعراض زاهد * على حذر منها وإقبال راقب^(٣)

على الرغم من أن الإطالة -بصورة عامة- مقرونة بالملل ولازمة من لوازمه وقيل: إنَّ الشاعر المجيد: لا يطيل فيملّ، ولا يقصّر فيخل، ولا يقطع وبالنفس ظمأً إلى المزيد". لكن ما يشفع للوأواء إنه كان في مقدماته، ينحت المعاني تحتاً، وينتقي الألفاظ انتقاءً، ويجسد الصورة تجسيداً، يثير خيال المتلقي ويستفز فضوله باستخدامه لتلك الأساليب البيانية الساحرة المبتكرة فلا يمل تلك الإطالة.

(١) ديوان الصنوبري، ص

(٢) ديوانه، ص ٢٣٤ - ٢٣٨.

(٣) ديوان الوأواء، ص ٣ وما بعدها.

ولتلك الصور التي يرسمها الشاعر في مقدماته أبعاد نفسية عميقة تربط بين وجدان الشاعر وانفعاله الصادق مع الأحداث وخياله الذي يعمل تلك الصور نابضة بالحياة عاكسة شعوره وروحه.

إلى من يرى أن الدروع غلائل * وأن ركوب الموت خير المراكب
إلى كعبة الآمال والمطلب الذي * تمر بك الأيام وهو شواهد
فتى ألبس الأيام ثوب شبيبة * به حليت أجياد عطل المطالب
تظل المنايا تحت ظل سيوفه * وكانت قديماً في جلايب شائب
لن أقعدت أسيفه كل قائم * إذا خطر الخطى تحت الكتائب
يكاد يريك الشيء قبل عيانه * ويقضي لك الحاجات قبل المطالب
إذا أبرقت ضرباً سيوفك أمطرت * لقد أرجلت أرماحه كل راكب
رؤوس الأعداء فوق أرض المصائب * بأنك ما أبقيت عتياً لعاتب^(١)

قال دكتور سامي الدهان: أما المديح عند الوأء فهو قليل معدود خصّه بسيف الدولة والشريف العقيقي وتبع فيه الطريقة القديمة. فوصف ممدوحه بما يتصف به كل ممدوح من كرم وشجاعة.

وصف الوأء سيف الدولة بأنه كعبة الآمال، وأن الدروع غلائل له، وأن ركوب الموت عنده خير المراكب، وأنه جسور حتى يميت صبر محاربيه. وهو فتى ألبس الأيام ثوب الشباب وأن المنايا تستظل بظل سيوفه، وأنه يطعن فترجل أرماحه كل راكب، وأنه يمطر الأعداء ضرباً بسيوفه، فلا ترد رماحه إلا وهي حمر الثعالب، وهو يقضي الحاجات قبل المطالب، تنهل كفاه بالندى فلا يبقى عتياً لعاتب^(٢).

(١) ديوان الوأء، ص ٣، ٤، ٥.

(٢) راجع ديوانه، ص ٢٠ وما بعده.

* الفخر:

الفخر فن المباهاة والاعتداد بالنفس، وهو التغني بالفضائل الكريمة، والتباهي بالخصال الطيبة، وهو المدح ذاته إلا أن الشاعر هنا يخص به نفسه وقومه.

ومن أهم الصفات التي يفاخر بها الشعراء: الشجاعة والفروسية، والكرم والمروءة، وإعانة الجار، وغيرها.

وفي العصر الجاهلي، كان الشاعر لسان حال القبيلة أي: أن الفخر كان طابعه قبليّ بحث؛ ولذلك كان لكل قبيلة شاعر يفتخر بمآثرها ويمثلها في المجمع، ويدافع عن شرفها ويدفع عنها كيد الكائدين، والقبيلة التي لم يكن لها شاعر يعدّد مفاخرها، ويحفظ كيائها، كانت تلتمس لها شاعراً من بين القبائل الأخرى تلحقه بها وتتسبه إليها، وكان لذلك أثره البالغ في تنبيه العصبية القبيلة وإثارتها.

وقد أخذ الفخر في العصر الأموي طابعاً آخر؛ لأنه جاء مصطبغاً بألوان الطيف السياسية التي كانت تشكل المجتمع، وكان لكل الفرق من: أمويين، وزبيريين، وشيعة، وخوارج، شاعر يخوض المعارك الفخرية، ويتقمص أهداف فرقته، وقد بلغ هذا الغرض -بفضل ذلك التنافس والاختلاف- قنه الجمال الفني، وهذا بعد غض النظر عن الجوانب السالبة للعصبية الحزبية ومساوئها. أما العصر العباسي فأوله كان يمثل قمة النضج الفكري، والسبب في ذلك هو: ارتفاع مستوى الوعي بفضل اختلاط الأمم وامتزاج الثقافات المتنوعة، ولذلك نجد أن النفوس قد ابتعدت عن التعصب القبلي، أما آخره فقد قويت فيه شوكة الشعوبية، وقد أظهر ضعف الخلافة نوايا الأعاجم الخبيثة تجاه العرب، وكان ذلك واحداً من أهم الأسباب التي أدت إلى قيام الدولة الحمدانية، فأنشأ الحمدانيون دولة عربية خالصة فرضت كيائها ووجودها وأثبتت على مرّ الزمان بقاءها وخلودها.

وبما أن الفخر صدى تطلع النفس إلى ذاتها فقد وجد الشعراء في دولة الأمير ذاتهم العربية، وروحهم الإسلامية؛ فلذلك تسابقوا إلى مدحه وافتخروا

بدولته و بانتصاراته ضد الأعاجم. وقد سردنا جانباً من ذلك الفخر بدولة الأمير وانتصاراته ضد الروم في باب المديح، وقد ذكرنا أن هذين الغرضين، تكاد أن تتفق ملامحهما ومراميهما، ولكن من بعد قراءة متأنية، ودراسة مستفيضة، نلاحظ أن هذا الفن بسماته الدقيقة يكاد أن ينحصر في شاعرين اثنين هما: أبو الطيب المتنبي، وأبو فراس الحمداني.

جاء الفخر في صورتين عند أبي الطيب المتنبي، الصورة الأولى: الفخر بالعروبة من خلال شخصية الأمير سيف الدولة، التي جددت القيم والمعاني العربية بعد أن كادت صروف الأيام أن تطمس معالمها، وخاصة عندما قويت شوكة الشعوبية، وأخذ الفرس يعرضون بالعرب ويقللون من شأنهم، ويمجدون تاريخ الفرس ويعتزون به، وكان المتنبي أول من فطن لتلك النوايا من بين سائر الشعراء، فقال:

وَأِنَّمَا النَّاسُ بِالْمُلُوكِ وَمَا * تُفْلِحُ عُرْبٌ مُلُوكُهَا عَجَمٌ
لَا أَدَبٌ عِنْدَهُمْ وَلَا حَسَبٌ * وَلَا عُهُودٌ لَهُمْ وَلَا ذِمَّةٌ
بِكُلِّ أَرْضٍ وَطِئْتُهَا أُمَّمٌ * تُرْعَى لِعَبْدٍ كَانَتْهَا غَنَمٌ
يَسْتَخْشِنُ الْخَزْرَ حِينَ يَلْمُسُهُ * وَكَانَ يُبْرَى بِظْفَرِهِ الْقَلَمُ^(١)

الجدير بالذكر، أن هذه القصيدة كتبها الشاعر قبل أن يتصل بسيف الدولة، وجاء سردنا لها هنا إيضاحاً وتبييناً لروح هذا الشاعر الذي كان يؤلب على الثورة، في رسالة صريحة أرسلها لكل عربي تجرى في دمائه الروح العربية، عله يصحو من غفوته فيزأر وينتفض ويثور لكرامته، ويرفض تحكّم الأعاجم، ويأبى حياة الذل، وقد أصدر الشاعر تلك الصرخة التي نشأت بدويها الآفاق، فكأن الأقدار قد استجابت لندائه فأهدته أميراً كان برداً وسلاماً على كل قلب كانت تضطرم في دواخله الحمية العربية.

وقد كان المتنبي كثير الفخر بأميّره العربي "سيف الدولة" وكان ينعته دائماً بأنه سيف العرب، وأمير العرب وإلى غير ذلك من ألقاب.

(١) ديوان المتنبي شرح البرقوقى، ج ٣، ص ١٨٩.

ويمكننا أن نختار له من تلك الأشعار قوله:

تُهَابُ سَيْوْفِ الْهِنْدِ وَهِيَ حَدَائِدُ * فَكَيْفَ إِذَا كَانَتْ نِزَارِيَّةً عُرْبًا^(١)
ومن تلك أيضاً قول المتنبي راداً على الأمير عندما أرسل إليه رسالة
يستقدمه فيها بعد عودته من كافور:

فَهَمْتُ الْكِتَابَ أَبْرَ الْكُتُبِ * فَسَمِعَا لِأَمِيرِ الْعَرَبِ^(٢)

وحقيقة أن هذا البيت يبين لنا مدى افتخار الشاعر بأمره وتمسكه به
باعتباره فخراً ورمزاً للعروبة؛ لأن هذه القصيدة قالها بعد أن ترك سيف الدولة
الذي لم يناصره لا قولاً ولا فعلاً.

افتخر المتنبي بانتصارات الأمير على الروم، كما افتخر بملازمته للأمير
في معركة من أهم المعارك التي خاضها الأمير، ضد الروم في سنة ٣٤٢هـ،
وقد كان المتنبي فارساً من فرسان تلك المعركة، فقال:

طَلَعَنَ عَلَيْهِمْ طَلْعَةً يَعْرِفُونَهَا * لَهَا غَرَّرَ مَا تَنْقُضِي وَحُجُوبُ
تَمَلُّ الْحُصُونِ الشُّمُّ طَوْلَ نِزَالِنَا * فَتَلْقِي إِلَيْنَا أَهْلَهَا وَتَنْزُولُ
وَبِتَّنَ بِحِصْنِ الرَّانِ رَزْحِي مِنَ الْوَجِي * وَكُلُّ عَزِيْزٍ لِلْأَمِيرِ ذَلِيلُ
لَيْسَنَ الدُّجَى فِيهَا إِلَى أَرْضِ مَرَعَشٍ * وَلِلرُّومِ خَطْبٌ فِي الْبِلَادِ جَلِيلُ^(٣)

استخدم الشاعر في بعض الأبيات ضمير المتكلمين الضمير (نا)؛
ليكسب المعنى قوة؛ وليفلت انتباه المتلقي إلى أنه كان فارساً له دوره في تلك
المعركة وإلى أنه ناصر الأمير بالسيف واللسان.

ومن ثم افتخر الشاعر بأمره مادحاً إياه بأنه عظيم لا يرقى أحد إلى
بلوغ عظمته، وإن كل العالمين فضول إذا ما قورنوا به، فهو وإن كان اسمه
"السيف" لا يقارن بالسيف؛ لأنها كليلية، ولا بالرماح؛ لأنها قصيرة، وقال في
ذلك:

فَلَمَّا رَأَوْهُ وَحَدَّهُ قَبْلَ جَيْشِهِ * دَرَوْا أَنَّ كُلَّ الْعَالَمِينَ فَضُولُ

(١) ديوان المتنبي شرح البرقوقى، ج ١، ص ١٨٦.

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٢٥.

(٣) المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٢٥.

وَأَنَّ رِمَاحَ الْخَطِّ عَنْهُ قَصِيرَةٌ * وَأَنَّ حَدِيدَ الْهِنْدِ عَنْهُ كَلِيلُ
فَإِنْ تَكُنِ الْأَيَّامُ أَبْصَرْنَ صَوْلَهُ * فَقَدْ عَلِمَ الْأَيَّامَ كَيْفَ تَصُولُ
فَدَتِكَ مُلُوكٌ لَمْ تُسَمَّ مَوَاضِيًا * فَإِنَّكَ مَاضِي الشَّفَرَتَيْنِ صَاقِيلُ
إِذَا كَانَ بَعْضُ النَّاسِ سَيْفًا لِدَوْلَةٍ * فَفِي النَّاسِ بَوَاقَاتُ لَهَا وَطُبُولُ^(١)

في البيت الأخير عرّض الشاعر ببني بويه؛ لأنهم لم يشاركوا الأمير في
حروبه ضد الروم، وفي هذه المعركة اكتفوا بضرب الطبول ونفخ البوقات.

وقال فيه مفتخراً ومادحاً:

لَيْسَ إِلَّاكَ يَا عَلِيُّ هُمَامٌ * سَيفُهُ دُونَ عَرِيضِهِ مَسْلُولُ
كَيْفَ لَا يَأْمَنُ الْعِرَاقُ وَمِصْرُ * وَسَرَايَاكَ دُونَهَا وَالْخَيْوَلُ
لَوْ تَحَرَّفَتْ عَن طَرِيقِ الْأَعَادِي * رَيَّطَ السِّدْرُ خَيْلَهُمُ وَالنَّخِيلُ
وَدَرَى مَن أَعَزَّهُ الدَّفْعُ عَنْهُ * فِيهِمَا أَنَّهُ الْحَقِيرُ الذَّلِيلُ
فَقَدَّ النَّاسُ كُلَّهُمْ عَن مَسَاعِي * كَ وَقَامَتْ بِهَا الْقَتَا وَالنُّصُولُ
مَا الَّذِي عِنْدَهُ تُدَارُ الْمَنَايَا * كَالَّذِي عِنْدَهُ تُدَارُ الشَّمُولُ^(٢)

الصورة الثانية لفخر المتنبي:

قال أبو منصور الثعالبي: "أما المتنبي فقد غرق في خضم من الأوهام
نحت لنفسه منها مجداً وعزاً...".

المتنبي في فخره بنفسه يرضى حاجة في نفسه، ويكشف عن غروره،
وجاء فخره إعظاماً لنفسه، واحتقاراً للناس، وتعالياً على أقرانه من الشعراء، وكان
عادة ما يعمد إلى الاستهزاء بالشعراء والتقليل من شأن شاعريتهم ومواهبهم،
فيقول مثلاً:

وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا مِنْ رُوَاةٍ قَلَائِدِي * إِذَا قُلْتُ شِعْرًا أَصْبَحَ الدَّهْرُ مُنْشِدًا
فَسَارَ بِهِ مَنْ لَا يَسِيرُ مُشْمَرًا * وَغَنَى بِهِ مَنْ لَا يُغْنِي مُعَرِّدًا^(٣)

ويقول مخاطباً الأمير:

(١) ديوان المتنبي، شرح البرقوقى، ج ٣، ص ٢٢٧.

(٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٧٦-٢٧٧.

(٣) ديوان المتنبي، شرح البرقوقى، ج ٢، ص ١٤.

أَجْزَنِي إِذَا أَنْشِدْتَ شِعْرًا فَإِنَّمَا * بِشِعْرِي أَتَاكَ الْمَادِحُونَ مُرَدِّدًا
وَدَعَ كُلَّ صَوْتٍ غَيْرِ صَوْتِي فَإِنِّي * أَنَا الصَّائِحُ الْمَحْكِيُّ وَالْآخِرُ الصَّدَى (١)
ويقول أيضاً:

أَنَا الَّذِي نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى أَدَبِي * وَأَسْمَعْتَ كَلِمَاتِي مَنْ بِهِ صَمَمٌ (٢)
يفتخر المتنبي أحياناً بنفسه وبيالغ في ذلك، فيأتي بما يجافي الذوق من
المعاني، ومن ذلك قوله متعالياً على الناس جميعاً:

أَيِّ مَحَلٍّ أَرْتَقِي * أَيِّ عَظْمٍ أَتَّقِي
وَكُلُّ مَا قَدْ خَلَقَ ال * لَاهُ وَمَا لَمْ يَخْلُقْ
مُحْتَقِرٌ فِي هِمَّتِي * كَشَعْرَةٍ فِي مَفْرِقِي (٣)

فالمتنبي إن أخفق في بعض فخرياته من ناحية المعنى فإنه قد وفق كل
التوفيق في اختيار الألفاظ وفي الأسلوب وفي قوة التراكيب، ومثال ذلك قصيدته
التي منها قوله:

أَطَاعِنُ خَيْلًا مِنْ فَوَارِسِهَا الدَّهْرُ * وَحِيداً وَمَا قَوْلِي كَذَا وَمَعِيَ الصَّبْرُ
وَأَقْدَمْتُ إِقْدَامَ الْأَتِيِّ كَأَنَّ لِي * سِوَى مُهْجَتِي أَوْ كَانَ لِي عِنْدَهَا وَتَرُ
وَلَا تَحْسَبَنَّ الْمَجْدَ زَقّاً وَقَيْنَةً * فَمَا الْمَجْدُ إِلَّا السِّيفُ وَالْفَتَكَةُ الْبِكْرُ
وَتَضْرِبُ أَعْنَاقَ الْمُلُوكِ وَهَامِهَا * لَكَ الْهَبَّاتُ السُّودُ وَالْعَسْكَرُ الْمَجْرُ
وَتَرْكُوكَ فِي الدُّنْيَا دَوِيّاً كَأَنَّمَا * تَدَاوُلُ سَمْعَ الْمَرِّ أَنْمُلُهُ الْعَشْرُ (٤)

افتخر الشاعر بمجموعة من القيم الخلقية الطيبة فوصف نفسه
بالشجاعة، والصبر، والسعي إلى المجد وهو يعلم تماماً أن لا سبيل إلى بلوغ
المجد إلا بالسيف، ولكن السيف الذي يريد أن يرتقي به إلى منابر المجد لم يكن
السيف الذي يضرب أعناق الفرسان والشجعان بل هو ذلك السيف الذي يضرب

(١) المصدر السابق، ج٢، ص ١٤-١٥.

(٢) ديوان المتنبي شرح البرقوق، ج٤، ص٨٣.

(٣) ديوان المتنبي شرح البرقوق، ج٣، ص ٨١، ديوانه، ج٢، ص ٣٤١.

(٤) ديوان المتنبي، طبع بيروت، ص

أعناق الملوك وبذلك يضمن لنفسه خلود الذكر الداوي، والصيت الذائع إلى الأبد.

ومن أجمل ما افتخر به المتنبي من معانٍ، فخره بنفسه في قصيدته التي رثا فيها جدته، وإن كنا نرى أن المزج بين هذين الغرضين أمر غير محمود؛ وذلك لأن فخر الشاعر بنفسه وما فيه من إطالة قد ينسى المتلقي الغرض الذي لأجله كتبت القصيدة، ولأن افتخار الشاعر بنفسه قد أطفأ حرارة الأسي، وأخمد تباريح الحزن وكل الذي نود توضيحه هنا أن الشاعر قد وفق في الافتخار بنفسه إلى حد ما، وهذا بعد أن نغض الطرف عن الغرض الأساسي للقصيدة والقصيدة منها قوله:

وَلَوْ لَمْ تَكُونِي بِنْتِ أَكْرَمِ وَالِدٍ * لَكَانَ أَبَاكَ الضَّخْمَ كَوْنُكَ لِي أُمًّا
لَئِنْ لَدَى يَوْمِ الشَّامِتِينَ بِيَوْمِهَا * فَقَدْ وُلِدْتَ مِنِّي لِأَنفِهِمْ رَغْمًا
تَعَرَّبَ لَا مُسْتَعْظَمًا غَيْرَ نَفْسِهِ * وَلَا قَابِلًا إِلَّا لِخَالِقِهِ حُكْمًا
وَلَا سَالِكًا إِلَّا فُؤَادَ عَجَاجَةٍ * وَلَا وَاجِدًا إِلَّا لِمَكْرَمَةٍ طَعْمًا
وَإِنِّي لَمِنْ قَوْمٍ كَأَنَّ نُفُوسَنَا * بِهَا أَنْفٌ أَنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ وَالْعَظْمَا
كَذَا أَنَا يَا دُنْيَا إِذَا شِئْتَ فَادْهَبِي * وَيَا نَفْسُ زَيْدِي فِي كَرَائِبِهَا قُدَمَا
فَلَا عَبَّرْتَ بِي سَاعَةً لَا تُعْزُنِي * وَلَا صَحَبْتَنِي مُهْجَةً تَقْبَلُ الظُّلْمَا^(١)

يقول الشاعر حائثاً نفسه وغيره إلى السعي إلى نيل المكارم، ويقول كذلك لا بد للإنسان أن يعيش من أجل أهداف قيمه، وغايات سامية ولا بد أن تكون وسيلته في تحقيق ذلك العزم الذي لا يفتر والدأب المستمر، ويقول: إن الذي يختار لنفسه هذا الطريق عليه أن يعي أن هذا الطريق محفوف بالمصاعب والمتاعب، ويعلم أنه لولا المشقة ساد الناس كلهم.

الفخر عند أبي فراس:

في رأينا أن أبا فراس جاء رائداً في هذا الفن الشعري؛ وذلك لأن الفخر كان غرضاً أصيلاً في شعره، ولا غرو في ذلك، فالشاعر كان يمتلك جميع

(١) ديوان المتنبي شرح البرقوقى، ج ٣، ص ٢٣٣-٢٣٥.

المؤهلات التي يتحقق بها هذا الغرض، فهو: أمير من أمراء بني حمدان المشهورين، وحاكم لثغر من أهم الثغور، وقائد للجيش، هذا علاوة على أنه ذو أصل كريم ونسب أصيل، ينتهي في أعظم قبيلة عرفها التاريخ.

قال صاحب اليتيمة: "... على أن الفخر لم يشع بين جمهور الشعراء على كثرتهم، وإنما كاد أن ينحصر في شاعرين اثنين هما: الأمير أبو فراس، وأبو الطيب المتنبي، فعمد الأولى إلى النهج القديم من فخر بأجداده ابتداءً من تغلب منتهياً إلى أبيه وأعمامه وابن عمه سيف الدولة، ذاكراً أمجادهم وغزواتهم، ثم مفتخراً بنفسه، وأخلاقه، وفروسيته...، ولم يكن غريباً أن ينحصر فنّ التفاخر في هذين الشاعرين الكبيرين، فأبو الطيب شاعر فحل بلغ من قوة شعره ذلك الخلود الذي فرضه على الزمن، وأبو فراس شاعر له من مكانته وفنه ما جعله نداً للمتنبى في ندوة سيف الدولة، حتى أنه كان يقدر شعره ويتحامي جانبه"^(١).

والفخر عند أبي فراس أنواع متعددة:

١ - الفخر بقومه:

افتخر أبو فراس بأجداده في مواضع مختلفة من شعره وقد اخترنا له قصيدته التي افتخر فيها بجده الأدنى الحارث بن النعمان فقال:

أَنَا الْحَارِثُ الْمُخْتَارُ مِنْ نَسْلِ حَارِثٍ * إِذَا لَمْ يَسُدَّ فِي الْقَوْمِ إِلَّا الْأَخَايِرُ
فَجَدِّي الَّذِي لَمْ الْعَشِيرَةَ جَوْدُهُ * وَقَدْ طَارَ فِيهَا بِالتَّفَرُّقِ طَائِرُ
تَحَمَّلَ قَتْلَهَا وَسَاقَ دِيَاتِهَا * حَمُولٌ لِمَا جَرَّتْ عَلَيْهِ الْجَرَائِرُ
وَدَى مَاءَةٌ لَوْلَاهُ جَرَّتْ دِمَائُهُمْ مَوَارِدَ مَوْتِ مَالِهِنَّ مَصَادِرُ^(٢)

إن من أبرز السمات التي وجدت في حياة بني تغلب الحروب التي لا تنطفي حتى تشب من جديد ومعروف أن الحرب تلد الحرب وأهل القتلى لا يتركون الثأر، افتخر أبو فراس بجده داعية السلام "الحارث" الذي أصلح بين

(١) ديوان أبي فراس، رواية ابن خالويه، ص ١٠٧.

(٢) المصدر السابق، ص ١١٥.

أحياء تغلب بعد أن تحمّل ديات القتلى وفداهم من ماله الخاص وكانوا مائة
قتيل كما افتخر ببني حمدان قائلاً:

إني امرؤ ببني حمدان مفتخر * خير البرية أجداداً وأسلافاً
إن حالفنا المعالي فهي قد علمت * كانت لأبائنا من قبل أحلافاً^(١)

يقول الشاعر: إنه يفتخر ببني حمدان "قديماً ومعاصرين"؛ لأنهم لا
يعقدون حلفاً إلا مع المعالي. ويقول فيهم أيضاً:

وإذا فخرت فخرت بالشم الألى * شادوا المعارك من بني حمدان
نحن الملوك بنو الملوك أولي العلا * ومعادن السادات من عدنان
قومي متى تخبرهم لم يحسنوا * غير اصطناع العرف والإحسان
والمجد يعلم.. أننا أركاناه * والبيت معتمد على الأركان
كم معدم أغنوا بفضل سماحهم * كرمًا وفكّوا عن أسير عان^(٢)

افتخر الشاعر بأنهم سادة كرماء تؤول أصولهم إلى عدنان، وأنهم ملوك
أشداء بنو للمجد صرحاً متيناً، وأنهم لا يحسنون غير اصطناع المعروف
والإحسان، كما أنهم عون للفقير البائس، وفرج للأسير اليائس، وهم عنوان
للسجاعة والسماحة والمروءة والكرم.

ب الفخر بالأمير سيف الدولة:

أثارت انتصارات الأمير ضد أعدائه الروم نفوس الشعراء واستفزت
شاعريتهم، وكتب الشعراء نماذج متفردة في مدح الأمير، وبخاصة أبي فراس
الذي كان في كثير من الأحيان قائداً من أهم قواد تلك الجيوش، والمتنبي الذي
رافق الأمير في عدد من المعارك، فالقصائد التي كتبها كلا الشاعرين عن
انتصارات الأمير، كانت تعبر عن تجارب شعورية حقيقية وهذا السبب كفيل بأن
يكتب البقاء والصيت لقصائد هذين الشاعرين، التي جاءت مليئة بالاعتزاز
والفخر.

(١) ديوان أبي فراس، شرح د. خليل النويهي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٤، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م،
ص ٢٢٠ - ٢٢١.

(٢) ديوان أبي فراس، ص ٣٥٤.

كتب أبو فراس رائيته المشهورة التي تعتبر أنموذجاً ملحمياً رائعاً في

الأدب العربي واستهلها بالغزل على عادة شعراء العصر الجاهلي فقال:

لَعَلَّ خَيْالَ الْعَامِرِيَّةِ زَائِرُ * فَيُسْعَدُ مَهْجُورٌ وَيُسْعَدُ هَاجِرُ
وَقَدْ كُنْتُ لَا أَرْضَى مِنَ الْوَصْلِ بِالرِّضَا * لِيَالِي مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَامِرُ
وَأَنِّي إِذَا لَمْ أَرُجْ يَقْظَانِ وَصَلَهَا * لِيُقْنِعَنِي مِنْهَا الْخِيَالُ الْمُرَاوِرُ^(١)

ومن بعد مقدمة فاق عدد أبياتها الأربعة بيتاً افتخر الشاعر بابن عمه

الأمير فقال:

وَمَا زَالَ مِنَّا جَارَ شَرَشَنَةَ امْرُؤٍ * يُرَاوِحُهَا فِي غَارَةٍ وَيُبَاكِرُ
وَلَمَّا وَرَدْنَا الدَّرْبَ وَالرُّومَ فَوْقَهُ * وَقَدَّرَ قُسْطَنْطِينُ أَنْ لَيْسَ صَادِرُ
ضَرَبْنَا بِهَا عُرْضَ الْفُرَاتِ كَأَنَّمَا * تَسِيرُ بِنَا تَحْتَ السُّرُوجِ جَزَائِرُ
إِلَى أَنْ وَرَدْنَا أَرْقَنِينَ نَسَوْقُهَا * وَقَدْ نَكَاتَ أَعْقَابُهَا وَالْمَحَاضِرُ
وَمَالَ بِهَا ذَاتَ الْيَمِينِ لِمَرْعَشٍ * مَجَاهِدٌ يَتْلُو الصَّابِرِ الْمُتَّصِرُ
وَأَبْنُ بَقْسُطَنْطِينٍ وَهُوَ مُكَبَّلٌ * تَحْفُ بِطَارِيقٍ بِهِ وَزَرَاوِرُ
وَوَلَّى عَلَى الرَّسْمِ الدُّمُسْتُقُ هَارِباً * وَفِي وَجْهِهِ عُدْرٌ مِنَ السِّيفِ عَازِرُ
فَدَى نَفْسَهُ بِإِبْنِ عَلَيْهِ كَنَفْسِهِ * وَلِلشِدَّةِ الصَّمَاءِ تُقْنَى الذَّخَائِرُ
وَقَدْ يُقْطَعُ الْعَضْوُ النَّفِيسُ لِغَيْرِهِ * وَتُدْفَعُ بِالْأَمْرِ الْكَبِيرِ الْكَبَائِرُ^(٢)

ومن يرجع إلى ديوان الشاعر يجد أن القصيدة تفوق المائتين بيتاً، ويقتنع

بأنها من أروع الملاحم؛ لأن الشاعر قد صور من خلالها صورة حياة ومتكاملة للحرب، كما ابتداءً بالاستعداد للمعركة وانتهاءً بالنصر وقد بعث في تلك الصور روح الحياة، فجاءت حافلة بالحركة وبت فيها مزيجاً من الثقافة التي تدل على تلاحم الأدب العربي والثقافات الأخرى، كما استطاع أن يعكس صدق انفعاله وروحه الثائرة وافتخر بنفسه وبأجداده ثم ذكر انتصارات الأمير على البريديين، وكل المارقين عليه في دولته ووصف استعداده لحرب الروم، ثم وصف مدى الضنى الذي تصاب به الإبل من طول المسير، ووصف صبر المجاهدين،

(١) ديوان أبي فراس رواية ابن خالويه، ص ١٠٢-١٠٣.

(٢) المصدر السابق، ص ١١٥.

وعدّد المدن الرومية التي مرّ بها جيش الأمير، كما صور جيش الأعداء الذي اجتمعت فيه أجناس كثيرة، والذي عندما رآته جيوش الأمير راجعت عزاءمها، ولولا إيمان جند الأمير بأنه "ما النصر إلا من عند الله"، ويقينهم بأنه "كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة"؛ لتراجعوا، تاركين الحرب وأمرها ووضح أنهم بشجاعتهم، وقوة أميرهم الذي يمثل جيشاً بأكمله، حققوا النصر لأمتهم، وجعلوا أعزة الروم أدلة، وذلك بعد أن أسروا ابن القائد العام للجيش الروميّة، ذلك الدمستق الذي رأى قتل قائده وأسر ابنه وصهره، فراحه هول الموقف وفرّ بجلده تاركاً ابنه في أيدي خصومه؛ لأنه أيقن من أن الموت قادم لا محالة منه، وقد ساق أبو فراس في ذلك الموقف مثلاً يناسب المقام، وقد صار مثلاً سائران وهو قوله: وللشدة الصماء تفنى الذخائر، وأردفه بمثل أروع، وهو قوله:

وَقَدْ يُقَطِّعُ الْغُضُوَّ النَّفْسِ لِغَيْرِهِ * وَتُدْفَعُ بِالْأَمْرِ الْكَبِيرِ الْكَبَائِرُ

الفخر بنفسه:

هذه قصيدة تشكل لونا راقياً في الفخر؛ لأن بها تمجيداً للقيم الإنسانية

الفاضلة منها:

غَيْرِي يُغَيِّرُهُ الْفَعَالُ الْجَافِي * وَيَحُولُ عَنِ شِيمِ الْكَرِيمِ الْوَافِي
 لَا أَرْتَضِي وُدّاً إِذَا هُوَ لَمْ يَدُم * عِنْدَ الْجَفَاءِ وَقَلَّةِ الْإِنصَافِ
 إِنَّ الْغَنِيَّ هُوَ الْغَنِيُّ بِنَفْسِهِ * وَلَوْ أَنَّهُ عَارِي الْمَنَاقِبِ حَافِ
 وَتَعَافُ لِي طَمَعُ الْحَرِيصِ أُبُوتِي * وَمُرُوعَتِي وَقِنَاعَتِي وَعَفَافِي
 وَمَكَارِمِي عَدَدُ النُّجُومِ وَمَنْزِلِي * مَاوَى الْكِرَامِ وَمَنْزِلُ الْأَضْيَافِ
 لَا أَقْتَنِي لِصُرُوفِ دَهْرِي عُدَّةً * حَتَّى كَأَنَّ صُرُوفَهُ أَحْلَافِي
 شِيمٌ عُرِفَتْ بِهِنَّ مُذْ أَنَا يَافِعٌ * وَلَقَدْ عُرِفَتْ بِمِثْلِهَا أَسْلَافِي^(١)

وقيمة الفخر هنا تتبع من معرفة الشاعر العميقة بحقيقة الحياة ومداركه المتفتحة، وحكمته البالغة، وشخصيته التي صقلتها التجارب، فها هو يتحدث عن أصالة معدنه الذي لا تغيره صروف الأيام.

أكثر أبو فراس من الافتخار بنفسه إبان فترة الأسر، ومن ذلك قوله:

إِنْ زُرْتُ خَرَشَنَةَ أَسِيرًا * فَلَكُمْ أَحَطَّتْ بِهَا مُغِيرًا

(١) ديوان أبي فراس شرح يوسف شكري، ص ٢١٤-٢١٥.

وَلَقَدْ رَأَيْتُ النَّارَ تَن * تَهَبُ الْمَنَازِلَ وَالْقُصُورَا
وَلَقَدْ رَأَيْتُ السَّيْبِي يُج * لَبُّ نَحُونَا حُوقًا وَحُورَا
مَنْ كَانَ مِثْلِي لَمْ يَبِت * إِلَّا أَسِيرًا أَوْ أَمِيرَا
لَيْسَتْ تَحُلُّ سَرَائِنَا * إِلَّا الصُّدُورَ أَوْ الْقُبُورَا^(١)

والقصيدة سهلة قريبة المآخذ، وفيها يتبين مدى افتخار الشاعر بفروسيته، والملاحظ أن الشاعر قد أكثر من الافتخار بنفسه أبان الأسر معزياً نفسه بأمجاده وبطولاته السابقة.

* الرثاء:

مما لا شك فيه أن الرثاء لا يخرج عن أمور ثلاثة:

١- ذكر مناقب الميت، ومآثره ومفاخره.

٢- الحزن على الميت وإبداء الجزع على فقده.

٣- مؤاساة أهل الميت وإرسال النصح والإرشاد لهم.

والرثاء الذي نود التركيز عليه في هذه الدراسة هو: ما ارتبط بالأمير ودار حول آله وحاشيته، ولا حاجة لنا بشعر الرثاء الذي يختص بالشعراء الكثيرين الذين كانوا حول الأمير.

وفي رأينا أن الرثاء الذي نحن بصدد الحديث عنه -ففي الغالب- لم ينبع عن عاطفة صادقة؛ لأنه كان من باب المجاملات الاجتماعية أي: جاء لكسب رضا الأمير قال د. درويش الجندي: "ولا شك أن معظم ما قيل من الرثاء في ظل الأمير لم يصدر عن الشعراء وقلوبهم موجعة؛ لأن الشعراء الذين قد أحاطوا بالأمير كانوا مضطرين إلى مؤاساته في كل كبيرة وصغيرة تحل به، فإذا فقد سيف الدولة قريباً أو عزيزاً كان أكبر دافع للشعراء على الرثاء هو حزن الأمير نفسه على مَنْ فقده ولذلك كان مصدر الرثاء عقولهم وفنهم، ولم يصدر عن قلوبهم ومشاعرهم. وقد كان ذلك داعياً إلى اتجاه الرثاء إلى التعزية أكثر من

(١) ديوان أبي فراس، رواية ابن خالويه، ص ١٥٥.

اتجاهه إلى البكاء والحزن على الفقيد... وقد يمزج الشاعر التعزية بإطراء الأمير وتمجيده...^(١).

ومن هنا نخلص إلى أن الشعراء قد كتبوا قصائد جيدة لا غبار عليها، إلا أن القارئ لتلك المراثي لا يحس بمرارة الأسي وحرارة الحزن، التي تصدر عن عاطفة صادقة ونفس متفجعة؛ هذا باستثناء مراثي الأمير أبي فراس الذي جاء رثاؤه حاراً مليئاً بالحزن، ينبع من عاطفة قوية تلامس القلب وتثير التفجع والحسرة في النفس.

من الشعراء الذين شاطروا الأمير الأحران: أبو الطيب المتنبي: كتب المتنبي قصائد متعددة يؤاسي فيها الأمير معزيا، فرثى أم الأمير، وأختيه، وابنه، وغيرهم.

في ذات السنة التي اتصل فيها المتنبي بسيف الدولة توفيت أم الأمير فرثاها بقصيدة لامية مشهورة وهي في مجملها عزاء ومنها قوله:

نِعْدُ الْمَشْرِفِيَّةَ وَالْعَوَالِي * وَتَقْتَأُنَا الْمَنُونُ بِلا قِتَالِ
نَصِيْبِكَ فِي حَيَاتِكَ مِنْ حَبِيْبِ * نَصِيْبِكَ فِي مَنَامِكَ مِنْ حَيَالِ

ثم قال:

وَهَذَا أَوَّلُ النَّاعِيْنَ طُرّاً * لِأَوَّلِ مَيَّةٍ فِي ذَا الْجَلَالِ
كَأَنَّ الْمَوْتَ لَمْ يَفْجَعِ بِنَفْسِ * وَلَمْ يَخْطُرْ لِمَخْلُوقٍ بِبَالِ
صَلَاةِ اللَّهِ خَالِقِنَا حَنُوطٌ * عَلَى الْوَجْهِ الْمُكْفَنِ بِالْجَمَالِ
عَلَى الْمَدْفُونِ قَبْلَ الثَّرْبِ صَوْنًا * وَقَبْلَ اللَّحْدِ فِي كَرَمِ الْخِلَالِ
فَإِنَّ لَهُ بِبَطْنِ الْأَرْضِ شَخْصًا * جَدِيدًا ذِكْرُنَاهُ وَهُوَ بِبَالِي
وَمَا أَحَدٌ يُخَلِّدُ فِي الْبَرَايَا * بَلِ الدُّنْيَا تَوَوَّلُ إِلَى زَوَالِ^(٢)

في هذه الأبيات عمد الشاعر إلى إجلال الفقيدة وتعظيمها، لكنه في بعض أبيات القصيدة لم يوفق لا في اللفظ ولا في المعنى، فقولته في البيت

(١) الشعر في ظل الدولة، لدرويش الجندي، ص ٢٤٨.

(٢) ديوان المتنبي، شرح البرقوق، ج ٣، ص ١٤٠ وما بعدها.

* انظر العمدة، ج ٢، ص ١٥٤.

الثالث "على الوجه المكفن بالجمال" أقام عليه الدنيا وأقعدتها في عالم النقاد* . ويرى الدكتور طه حسين أن في قوله: "ذكرناه" سماحة لفظية إذ أنه لا يليق به أن يذكر البلى والانحلال لجسم الأميرة الأم وهو يعزى ابنها"^(١)، "وقد أفسد - كذلك - موسيقى البيت بلفظ ذكرناه"^(٢).

أَطَابَ النَّفْسَ أَنَّكَ مُتَّ مَوْتًا * تَمَنَّتْهُ الْبَوَاقِي وَالْخَوَالِي
سَقَى مَثْوَاكَ غَادٍ فِي الْغَوَادِي * نَظِيرُ نَوَالٍ كَفَّكَ فِي النَّوَالِ
أَسْأَلُ عَنْكَ بَعْدَكَ كُلَّ مَجْدٍ * وَمَا عَهْدِي بِمَجْدٍ عَنْكَ خَالِي
يَمُرُّ بِقَبْرِكَ الْعَافِي فَيَبْكِي * وَيَشْغَلُهُ الْبُكَاءُ عَنِ السُّؤَالِ^(٣)

ثم أبدى عظمة الفقيده، وعميق أسفه على فقدها في قوله:

في الأبيات السابقة عظم الشاعر من شأن الفقيده، وترسم خطى القدامى، فدعا بالسقيا لقبر الأميرة وذلك بقدر ما أعطت يداها من العطايا التي لا تعد ولا تحصى، والقصيدة حوت العديد من المعاني الطيبة، والصور الرائعة، والتعليقات المبتكرة ومن ذلك قوله في أروع بيتين كتبهما فيها هما:

وَلَوْ كَانَ النِّسَاءُ كَمَنْ فَقَدْنَا * لَفُضِّلَتِ النِّسَاءُ عَلَى الرِّجَالِ
وَمَا التَّأْنِيثُ لِاسْمِ الشَّمْسِ عَيْبٌ * وَلَا التَّنْكِيرُ فَخْرٌ لِلْهَلَالِ^(٤)

وقد نعزى جملة المآخذ التي وقع فيها الشاعر، والتي أخذها عليه النقاد إلى:

- ١- أن رثاء المرأة بصورة عامة في العهود السابقة للعصر الحديث، لا يجد فيه الشاعر متسعاً من القول؛ لضيق ما يُقال فيها.
- ٢- التكلف الذي اضطره الشاعر لكسب رضاء الأمير.
- ٣- الشاعر كان حديث العهد بالأمير ولم يعرف الأميرة عن قرب ولكنه مع ذلك أراد أن يثبت وجوده ويتحدث عن شاعريته منافساً كما لا يستهان به من شعراء الأمير.

(١) مع المتنبي، ج٢، ص ١٥٤.

(٢) فنون الشعر، ص ١٩٩.

(٣) ديوان المتنبي المتنبي، البرقوقي، ص ١٤٥-١٤٦.

(٤) ديوان المتنبي شرح البرقوقي، ج٣، ص ١٤٩.

رثا المتنبي شقيقة سيف الدولة الصغرى التي ماتت في سنة ٣٤٤هـ، ثم توفيت شقيقته الكبرى خولة في سنة ٣٥٢هـ، وكان المتنبي وقتئذ بالكوفة، وعندما سمع بوفاتها أرسل إلى الأمير معزياً بقصيدة منها قوله:

يَا أُخْتِ خَيْرِ أَخٍ يَا بِنْتَ خَيْرِ أَبِي * كِنَايَةً بِهِمَا عَنِ أَشْرَفِ النَّسَبِ
أَجَلٌ قَدْرِكَ أَنْ تُسْمَى مُؤَيَّبَةً * وَمَنْ يَصِفُكَ فَقَدْ سَمَّاكَ لِلْعَرَبِ
طَوَى الْجَزِيرَةَ حَتَّى جَاءَنِي خَبْرٌ * فَرَعْتُ فِيهِ بِأَمَالِي إِلَى الْكَذِبِ
حَتَّى إِذَا لَمْ يَدَعْ لِي صِدْقَهُ أَمَلًا * شَرِقْتُ بِالْذَمِّ حَتَّى كَادَ يَشْرِقُ بِي (١)

والقصيدة بكل حق تعدُّ من أروع ما جادت به قريحة المتنبي في الرثاء. كتب المتنبي أكثر قصائده في هذا الغرض، "أداءً للواجب ونهوضاً بالحق لا استجابة للعاطفة، ولا إعراباً عن الضمير..." (٢).

قد أعزى بعض النقاد المعاصرين عزاء المتنبي الحار للأميرة خولة إلى علاقة حب كانت تجمع بينهما، وقد أكدوا ذلك الظن ودلّوا عليه بأدلة غير مقنعة، وفي تقديرنا أن كل ما في الأمر هو أن الأميرة كانت تقدّر في المتنبي فنه، وترى في شخصه عماداً يرفع من شأن دولة أخيها مؤازراً إياه تارة باللسان وتارة بالسيف، وترى كذلك أن قوة لسانه لا تقل عن حد السيف، وهي تريد لأخيها أن يظفر به ويجعله في بلاطه العامر، وخاصة أن الدويلات في ذلك العهد كانت تثبت دعائم حكمها بالأقلام وبالسيوف.

استطاع الشاعر في هذه القصيدة أن يصور مدى حزنه على الفقيدة، في صدق لم يعهد له في المرثي من قبل، فقال:

أَرَى الْعِرَاقَ طَوِيلَ اللَّيْلِ مُذْ نُعِيَتْ * فَكَيْفَ لَيْلُ فَتَى الْفَتِيَانِ فِي حَلْبِ
يَظُنُّ أَنْ فُؤَادِي غَيْرَ مُلْتَهَبٍ * وَأَنَّ دَمْعَ جُفُونِي غَيْرُ مُنْسَكِبِ
بَلَى وَحَرَمَةٍ مَنْ كَانَتْ مُرَاعِيَةً * لِحُرْمَةِ الْمَجْدِ وَالْفُصَادِ وَالْأَدَبِ
وَإِنْ تَكُنْ تَغْلِبُ الْغَلْبَاءُ غُنُصْرُهَا * فَإِنَّ فِي الْخَمْرِ مَعْنَى لَيْسَ فِي الْعَنْبِ
فَلَيْتَ طَالِعَةَ الشَّمْسَيْنِ غَائِبَةً * وَلَيْتَ غَائِبَةَ الشَّمْسَيْنِ لَمْ تَغِبِ

(١) المصدر السابق، ج٣، ص ٢١٥، وما بعدها.

(٢) مع المتنبي، لطف حسين، ص ٢٠٤، شرح ديوان المتنبي، البرقوقى، ج٣، ص ١٤٠، وما بعدها.

وَأَيَّتْ عَيْنِ الَّتِي آبَ النَّهَارِ بِهَا * فِدَاءُ عَيْنِ الَّتِي زَالَتْ وَلَمْ تَوْبِ
وَمَنْ تَفَكَّرَ فِي الدُّنْيَا وَمُهَجَّتِهِ * أَقَامَهُ الْفِكْرُ بَيْنَ الْعَجْزِ وَالْتَعَبِ
وَلَا ذَكَرْتُ جَمِيلاً مِنْ صَنَائِعِهَا * إِلَّا بَكَيْتُ وَلَا وَدُّ بِلا سَبَبٍ^(١)

الأبيات السابقة توضح مدى تفجع الشاعر وجزعه على الفقيدة، والبيت الثالث: "بلى وحرمة ... الخ" يوضح الدافع الحقيقي الذي جعل الشاعر صادقاً في مرثيته هذه، وهو أن هذه الفقيدة العظيمة الماجدة، كانت ترعى القصاد وتكرم الأدباء، ويقول: إن هذا الأمر ليس مستغرباً عليها فهي من تغلب الغلباء عنصراً ومع ذلك فهي رقماً يشكل لونيّة خاصة، وطعماً آخراً ثم يأتي بالدليل على فكرته الرائعة مبيناً أن الخمر وإن كان أصله العنب، فإن الخمر طعم آخر، ومعنى مختلف، وإحساس خاص مغاير، واستخدم في هذه الصورة الجمالية التي تستوقف القارئ، التشبيه الضمني، وجانس بين لفظي (عين، وعين) في البيت الخامس، وشبهها بالشمس الغاربة وتمنى لو أنّ الشمس الحقيقية كانت فداءها ثم ختم قوله بحكمة رائعة وهي: أن من يتفكر في أمر هذه الدنيا يقتنع بحقيقة واحدة وهي: أنه عاجز وأن مقدراته في هذه الحياة سواء أكانت مادية أم فكرية فهي محدودة أمام مقدرات الله سبحانه وتعالى، فلذلك ليس أمام المرء إلا التسليم بهذا العجز، والرضاء بقضاء الله عز وجل.

أما الشاعر الأمير أبو فراس، فقد جاء الرثاء عنده صادقاً حاراً، عميق الإحساس، بيّن التفجع، مخلوطاً بالتلطف والحزن الشديد في غير تكلف. وذلك لأن من رثاهم كانوا أهله وأقاربه.

قال أبو فراس في رثاء ابنه، ابن أخت سيف الدولة.

أعزز عليّ بأن يموت موسداً * وأبيت أندبه مع الأخوان
ولقد وددت بأن أكون مكانه * تحت التراب وأن يكون مكاني^(٢)

رثا الأبناء أصدق أنواع المراثي؛ لأنه ينبعث عن تجربة شعورية صادقة "وكلما كانت الفجيعة ذاتية رأيت تمزق القلوب ظاهراً"^(١).

(١) ديوان المتنبي، شرح البرقوقى، ج ٣، ص ٢١٧.

(٢) ديوان أبي فراس، تحقيق الدهان، ج ٣، ص ٤١٦.

وقال في رثاء الأمير أبي العشائر حين مات أسيراً ببلاد الروم وكان ابن عمه وابن عم الأمير:

أَبَا الْعِشَائِرِ لَا مَحَلَّكَ دَارِسٍ * بَيْنَ الضُّلُوعِ وَلَا مَكَانِكَ نَارِحُ
إِنِّي لِأَعْلَمُ بَعْدَ مَوْتِكَ أَنَّهُ * مَا مَرَّ لِلْأَسْرَاءِ يَوْمَ صَالِحٍ^(٢)

ومما أضيف على رثاء أبي فراس تلك السمات الخاصة فيمن ذكرناهم أنه كان أسيراً ببلاد الروم ويعاني الأسر.

أرسل أبو فراس للأمير مرثية يعزيه فيها عن أخته خولة التي بلغه نبأ وفاتها، وهو أسير بالقسطنطينية منها قوله:

أَوْصِيكَ بِالْحُزَنِ لَا أَوْصِيكَ بِالْجَدِّ * جَلَّ الْمَصَابُ عَنِ التَّعْنِيفِ وَالْفَنَدِ
إِنِّي أُجِبُّكَ أَنْ تُكْفَى بِتَعْزِيَةٍ * عَنِ خَيْرِ مُفْتَقِدٍ يَأْخِرُ مُفْتَقِدِ
هِيَ الرَّزِيَّةُ إِنْ ضَنْتَ بِمَا مَلَكْتَ * مِنْهَا الْجُفُونُ فَمَا تَسْخُو عَلَى رَحَدِ
بِي مِثْلُ مَا بَكَ مِنْ حُزْنٍ وَمِنْ جَزَعِ * وَقَدْ لَجَأْتُ إِلَى صَبْرٍ فَلَمْ أَجِدِ
لَمْ يَنْتَقِصْنِي بُعْدِي عَنْكَ مِنْ حُزْنٍ * هِيَ الْمُوَاسَاةُ فِي قُرْبٍ وَفِي بُعْدِ
أَبْكِي بِدَمْعٍ لَهُ مِنْ حَسْرَتِي مَدَدٌ * وَأَسْتَرِيحُ إِلَى صَبْرٍ بِلَا مَدَدِ
وَلَا أُسَوِّغُ نَفْسِي فَرَحَةً أَبَدًا * وَقَدْ عَرَفْتُ الَّذِي تَلْقَاهُ مِنْ كَمَدِ^(٣)

ونلاحظ أن الشاعر هنا كان أشبه بطائر سجين لا يملك إلا أن يصدح بألحان شجيّة، يعبر فيها عن آلامه وخلجاته النفسية، ويلجأ إلى الصبر فلن يجد سوى تلك الدمعات الحريّة، ويطوى كل هذه الأحاسيس والأشجان في قصيدة شعرية، ويرسلها إلى الأمير مؤاسياً ومعزياً وراثياً.

وورد عليه -أيضاً- نبأ وفاة الأمير أبي المكارم بن سيف الدولة في سنة أربع وخمسين وثلاثمائة -وهو ابن أخته- فأرسل إلى ابن عمه الأمير معزياً فقال:

مَا بَعْدَ فَقْدِكَ فِي أَهْلِ وَلَا وَدِّ * وَلَا حَيَاةٍ وَلَا دُنْيَا لَنَا أَمَلُ

(١) راجع أصول النقد الأدبي، لأحمد الشائب، دار الثقافة، بيروت، ص ١٩،

(٢) ديوان أبي فراس، رواية ابن خالويه، ص ٦٩.

(٣) ديوان أبي فراس، شرح يوسف شكري فرحات، دار الجيل، بيروت، ص ٨٦، ٨٧.

يَا مَنْ أَتَتْهُ الْمَنَايَا غَيْرَ حَافِلَةٍ * أَيْنَ الْعَبِيدُ وَأَيْنَ الْخَيْلُ وَالْخَوَلُ
 أَيْنَ السُّيُوفَ الَّتِي يَحْمِيكَ أَقْطَعُهَا * أَيْنَ السَّوَابِقُ أَيْنَ الْبَيْضُ وَالْأَسَلُ
 يَا وَيْحَ خَالِكَ بَلْ يَا وَيْحَ كُلِّ فَتَى * أَكُلُّ هَذَا تَخَطَّى نَحْوَكَ الْأَجَلُ^(١)

يقول الشاعر: إنَّ فقدته جعلنا نصحب الحياة بلا آمال، ويقول له مستنهماً
 ومتعجباً كيف تخطى إليك الموت، وحولك هالة من العبيد والخدم والأبطال،
 وأين السيوف والرماح التي تحميك؟ وأين ذلك السيف التبار الذي يدثرك والذي
 يعد أمضى السيوف وأقطعها؟ فلماذا كل هذه الأشياء لا تبعد عنك شبح الموت
 الذي أخذك منّا.

استخدم الشاعر الاستفهام في إبلاغ بعض المعاني التي ودّ التركيز
 عليها فذكر لفظ أين وكرره والذكر هنا جاء لغرض بلاغي: وهو تقوية الحزن
 وإظهار الأسى والتحسر، وحقيقة أن الشاعر استطاع من خلال هذا التكرار أن
 ينقل إحساساً مريراً يكاد ينطق حزناً إلى نفس المتلقي ولا أظن أن هناك أحداً
 يقرأ هذه الأبيات دون أن ينتقل إليه هذا الإحساس المرير الذي صورّه الشاعر.

وقد رثا الشاعر أمه وهو في الأسر فقال:

أَيَا أُمَّ الْأَسِيرِ سَقَاكَ غَيْثٌ * تَحَيَّرَ لَا يُقِيمُ وَلَا يَسِيرُ
 حَرَامٌ أَنْ يَبِيَّتَ قَرِيرَ عَيْنٍ * وَلَوْمْ أَنْ يُلْمَ بِهِ السُّرُورُ
 وَقَدْ دُقَّتِ الرِّزَايَا وَالْمَنَايَا * وَلَا وَلَدٌ لَدَيْكَ وَلَا عَشِيرُ
 وَغَابَ حَبِيبُ قَلْبِكَ عَنْ مَكَانٍ * مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ بِهِ حُضُورُ
 لِيَبْكِكَ كُلُّ يَوْمٍ صُمَّتِ فِيهِ * مُصَابِرَةٌ وَقَدْ حَمَى الْهَجِيرُ
 لِيَبْكِكَ كُلُّ لَيْلٍ قُمَّتِ فِيهِ * إِلَى أَنْ يَبْتَدِيَ الْفَجْرُ الْمُنِيرُ^(٢)

وقال أيضاً:

إِلَى مَنْ أَشْتَكِي وَلَمَنْ أَنَا جِي * إِذَا ضَاقَتْ بِمَا فِيهَا الصُّدُورُ
 بِأَيِّ دَعَاءٍ دَاعِيَةٌ أَوْ قَى * بِأَيِّ ضِيَاءٍ وَجْهَ أَسْتَنْتِيرُ

(١) المصدر السابق، ص ٢٣١.

(٢) ديوان أبي فراس، شرح يوسف شكري فرحات، ص ١٨٣ - ١٨٤.

ويحاول البيغاء أن يعزى الأمير في فقيده الشاب فقال:

سُرورُنَا بِكَ فَوْقَ الْهَمِّ بِالنُّوبِ * فَمَا يُغَالِبُنَا حُزْنَ عَلَى طَرْبِ
حَتَّامِ تَخْدَعُنَا الدُّنْيَا بِزُفْهِهَا * وَلَا تَحْصُلُنَا مِنْهَا عَلَى أَرْبِ
نُسْرُ مِنْهَا بِمَا تُجْنِي عَوَاقِبُهُ * هَمًّا وَنَهْرُبُ وَالْأَجَالُ فِي الطَّلَبِ^(١)

ومن الشعراء الذين عرّوا الأمير عن ابنه الشاب ابن نباته السعدي فقال:
وحاشاك سيف الدولة اليوم أن تُرى * من الصبر خُلوا أو إلى الحزن ظامياً
فإن تك أفنت سطوة الدهر عمره * فغمر علاه يترك الدهر فانياً
وما فيه مفقود إذا كنت حاضراً * ولا فيه مثكول إذا كنت باقياً^(٢)

في رأينا أن فن الرثاء لا بد أن ينبع من عاطفة عميقة جيّاشة بالحزن
والألم العميق ولا بد أن يكون ذلك الإحساس حقيقة جليّة سافرة وشعوراً عميقاً
صادقاً يحرك الطبع والفكر يترجمه الشاعر إلى أشعار يكون لسان الحال فيها
أصدق من لسان المقال.

إذا فقد الرثاء عنصر الصدق فإنه يأتي في صورة مشوهة باهتة لا
تعكس أثراً في نفس المتلقي. فلننظر إلى أبيات الشاعرين فإن الأول منهما، ابتدأ
تعزيتة للأمير بقوله: سرورنا وهذا أمر يجافي الذوق، والثاني خاطب الأمير
قائلاً: "وما منه مفقود إذا كنت حاضراً... الخ" فالشاعر هنا تجاهل عاطفة الأبوة
تماماً، فالأب عادة ما يؤثر ابنه على نفسه وهذه فطرة فطر عليها الوالدان فهما
بيدلان الغالي والنفيس من أجل أبنائهما، ويمثل ما ذهبنا إليه أبي فراس خير
تمثيل في قوله في رثاء ابنه:

ولقد وددت بأن أكون مكانه * تحت التراب وأن يكون مكاني

وواضح أن الشاعرين لم يوفقا في اختيار المعنى المصيب؛ لأن معانيهما
جاءت سطحية وضحلة ولا نعتقد أن مثل هذا العزاء يصادف قبولاً حسناً لدى
الأمير.

(١) نشوار المحاضرة، ج١، ص ١٣٦.

(٢) الشعر في رحاب سيف الدولة، ص ٢١٢.

والحق أن أبي فراس كان أفضل ممن تفجع من الشعراء، لأنه مرثياته تجبرك على الانفعال معها قال الجاحظ: إن الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان^(١). ومما يثير الدهشة أن أبا فراس رثا نفسه قبل أن توافيه المنية بلحظات فقال مخاطباً ابنته:

أَبْنَيْتِي لَا تَحْزَنِي * كُلُّ الْأَنَامِ إِلَى ذَهَابِ
أَبْنَيْتِي صَبْرًا جَمِي * لِأَلِّجَلِيلِ مِنَ الْمَصَابِ
نُوحِي عَلَيَّ بِحَسْرَةٍ * مِنْ خَلْفِ سِتْرِكَ وَالْحِجَابِ
قَوْلِي إِذَا نَادَيْتَنِي * وَعَيَّيْتِ عَن رَدِّ الْجَوَابِ
زَيْنُ الشَّابَابِ أَبُو فِرَا * سِ لَمْ يُمَتَّعَ بِالشَّابَابِ^(٢)

(١) البيان والتبيين، ت فوزي عطوة ط١، بيروت، ١٩٦٨م، ص ٨٣، ٨٤.

(٢) وفيات الاعيان ، ج٢، ص ٦٠، ورواية ابن خالويه، ص ١٩١.

المبحث الثاني

الهجاء، الغزل، الخمر، التشييع الأخوانيات، الصيد والطرْد، الشكوى

* الهجاء:

المعروف أن الهجاء هو: سلب الصفات المستحسنة، وإثبات الصفات المستهجنة. يقول صاحب العمدة: أجود ما في الهجاء أن يُسلب الإنسان الفضائل النفسية^(١).

والهجاء في ظلال الأمير سيف الدولة كان يميل إلى العفة والتعريض. قال ابن رشيّق: وأنا أرى التعريض أهجى من التصريح؛ لاتساع الظن في التعريض وشدة تعلق النفس به، والبحث عن معرفته، وطلب حقيقته^(٢).

الهجاء في رحاب الأمير كان فناً راقياً إلى حد ما، وذلك إذا ما قيس بالهجاء في الممالك الأخرى وبالهجاء في العصر الأموي؛ لأن أخلاق سيف الدولة الطيبة أسهمت في تهذيب سلوك شعرائه، وارتقت بأذواقهم، ووجهتهم إلى الالتزام بالقيم العقديّة والخُلقيّة التي يجب على الأديب المسلم أن يلتزم بها ويثبت دعائمها، ويرفع ألوبتها، فيدفع بأدبه إلى الفضيلة وأخواتها لا إلى الرذيلة وبناتي^(٣). ودليلنا على ذلك أن المتنبّي -على سبيل المثال- قبل اتصاله بسيف الدولة كان هجاءً مقذعاً ومن قصائد الهجاء الساقطة التي كتبها قصيدته التي هجا فيها الذهبي^(٤)، ولا أظن أن هناك أحداً يخفى عليه ما هجا به المتنبّي كافوراً من مشين القول ومقذعه بعد أن فارق سيف الدولة.

والحق أننا لا نرى لمثل ذلك الهجاء الفاحش أثراً عند المتنبّي وهو في ظلال الأمير. وأشد ما هجا به المتنبّي سيف الدولة بعد رحيله عنه هو قوله:

(١) العمدة، ج٢، ص١٤١.

(٢) المصدر السابق، ج٢، ص١٤٠.

(٣) من قضايا الأدب الإسلامي، لصالح آدم بيلو، دار المنارة السعودية، جدة، ص٦٢.

(٤) راجع ديوان المتنبّي شرح البرقوقيّ، ج١، ص٢٥٠.

رَأَيْتُمْ لَا يَصُونَ الْعِرْضَ جَارِكُمْ * وَلَا يَدِرُّ عَلَى مَرَعَاكُمْ اللَّبِنُ
جَزَاءً كُلِّ قَرِيبٍ مِنْكُمْ مَلْلٌ * وَحَظُّ كُلِّ مُحِبٍّ مِنْكُمْ ضَعْفٌ
وَتَغَضَّبُونَ عَلَى مَنْ نَالَ رِفْدَكُمْ * حَتَّى يُعَاقِبَهُ التَّنْغِيسُ وَالْمِنْنُ^(١)

وما الذي يسويه هذا الهجاء إذا ما قورن بما قاله الشاعر في كافر وغيره. ولم يقع شعراء الأمير في برائن ذلك الهجاء الهابط إلا لماما. الملاحظ أن هناك عدد من العوامل التي أثرت في فن الهجاء في بلاط الأمير وهي: سياسة سيف الدولة الخارجية، وسياسته الداخلية، والتنافس الأدبي الذي كان بين الشعراء.

ومن هنا يمكن لنا أن نقسم الهجاء إلى قسمين:

الهجاء السياسي، والهجاء الشخصي.

الهجاء السياسي:

الراجح أن الأمراء كانوا يحيطون ملكهم بهالة من الشعراء الأفاضل؛ وذلك لأن الشعر كان يمثل السلطة الرابعة التي بها توطد أركان الحكم. أما الشعراء فقد كانوا بمثابة السفر الخالد الذي يحمل بين طياته بشائر الشهرة والبقاء، لأولئك الملوك والأمراء وسيف الدولة كان يبتغي من الأدباء والشعراء، أن ينشروا اسمه رائداً في السماء، ويحدثوا بذلك دويماً يصم آذان القائمين على شؤون الدويلات والرؤساء، وحفزهم على أن يستخدموا من فن الهجاء إعلاماً مضاداً يحارب به الأعداء.

اشترك شعراء الأمير جميعاً في هجاء الروم، أعداء الإسلام والعرب. وهذا أمر لا حرج فيه قالت السيدة عائشة رضي الله عنها عن الكفار سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هجاهم حسان فشفأ واستشفى^(٢).

قال المتنبي يهجو الدمستق قائد الجيوش الرومية:

أَفِي كُلِّ يَوْمٍ ذَا الدُّمُسْتَقِّ مُقَدِّمٌ * قَفَاهُ عَلَى الإِقْدَامِ لِلْوَجْهِ لَائِمٌ
أَيُنَكِّرُ رِيحَ اللَّيْثِ حَتَّى يَذُوقَهُ * وَقَدْ عَرَفَتْ رِيحَ اللَّيْثِ الْبَهَائِمُ

(١) ديوانه، شرح العكبري، ج٤، ص ٢٣٥، ٢٣٦، وشرح البرقوق، ج٤، ص ٤٦٥ - ٤٦٦.

(٢) صحيح مسلم، مطبعة الحلبي، ج٤، ص ١٤٦.

وَقَدْ فَجَعْتَهُ بِابْنِهِ وَابْنَ صِهْرِهِ * وَبِالصَّهْرِ حَمَلَاتُ الْأَمِيرِ الْغَوَاشِمُ
 مَضَى يَشْكُرُ الْأَصْحَابَ فِي فَوْتِهِ الظُّبَى * بِمَا شَقَّاتُهَا هَامُهُمُ وَالْمَعَاصِمُ
 وَيَفْهَمُ صَوْتِ الْمَشْرِفِيَّةِ فِيهِمْ * عَلَى أَنَّ أَصْوَاتِ السُّيُوفِ أَعَاجِمُ
 يُسْرُ بِمَا أَعْطَاكَ لَا عَن جَهَالَةٍ * وَلَكِنَّ مَغْنُومًا نَجَا مِنْكَ غَانِمُ
 وَأَسْتِ مَلِيكًا هَازِمًا لِنَظِيرِهِ * وَأَكِنَّكَ التَّوْحِيدُ لِلشَّرِكِ هَازِمٌ^(١)

فالشاعر هجا ذلك القائد الذي لا يتعظ من هزائمه المتلاحقة التي حلت بجيشه، إلى أن فجع بأسر ابنه وابن صهره، ففر مسروراً بنجاته التي صارت وصمة عار في تاريخ حياته.

قال المتنبي في سيف الدولة بعد أن أتم بناء مدينة مرعش استعداداً لقتال

الروم:

كَفَى عَجْبًا أَنْ يَعْجَبَ النَّاسُ أَنَّهُ * بَنَى مَرَعَشًا تَبًّا لِأَرَائِهِمْ تَبًّا
 وَمَا الْفَرْقُ مَا بَيْنَ الْأَنَامِ وَبَيْنَهُ * إِذَا حَذَرَ الْمَحْذُورَ وَاسْتَصْعَبَ الصَّعْبَا
 لِأَمْرٍ أَعَدَّتْهُ الْخِلَافَةُ لِلْعِدَا * وَسَمَّتْهُ دُونَ الْعَالَمِ الصَّارِمِ الْعَضْبَا
 وَلَمْ تَفْتَرِقْ عَنْهُ الْأَسِنَّةُ رَحْمَةً * وَلَمْ يَتْرِكِ الشَّامَ الْأَعَادِي لَهُ حُبًّا
 وَلَكِنْ نَفَاها عَنْهُ غَيْرَ كَرِيمَةٍ * كَرِيمُ الثَّنَا مَا سُبَّ قَطُّ وَلَا سَبًّا
 وَجَيْشٌ يُنْتَبَى كُلُّ طُودٍ كَأَنَّهُ * خَرِيقُ رِيَّاحٍ وَاجَهَتْ غُصْنًا رَطْبًا
 كَأَنَّ نُجُومَ اللَّيْلِ خَافَتْ مُغَارَهُ * فَمَدَّتْ عَلَيْهَا مِنْ عَجَاجَتِهِ حُجْبًا
 فَمَنْ كَانَ يُرْضِي اللُّؤْمَ وَالْكَفْرَ مُلْكُهُ * فَهَذَا الَّذِي يُرْضِي الْمَكَارِمَ وَالرِّيَا^(٢)

ذم الشاعر -في هذه الأبيات- من كانوا ينافسون الأمير من ملوك وأمرء، خاصة بدمه الإخشيديين، موضحاً أن انسحابهم من بلاد الشام التي سيطر عليها الأمير لم يجيء حباً له، وإنما جاء لأنهم كانوا يهابونه وبخشون جانبه، وقال: إنه لا يوجد وجه للمقارنة بينه وبين هؤلاء الملوك، ولذا أسماه الخليفة سيف الدولة، لأنه كان يعلم أنه أهل لهذه الثقة وهذه المكانة، ولا يوجد ملك غيره يستحق هذه التسمية وهذا اللقب.

(١) ديوان المتنبي بشرح البرقوق، ج ٤، ص ١٣٦ - ١٣٧.

(٢) المصدر السابق، ج ١، ص ١٩٣ - ١٩٤.

وقال: إن جيشه العظيم يهزم الجيوش القوية ويكسر شوكتها مثلما تكسر الرياح الخارقة الغصن الرطيب.

وقال: كأن نجوم الليل خافت من أن يغير عليها فاتخذت من عجاج جيشه ستاراً يحول بينه وبينها.

وختم القصيدة بدم الملوك والرؤساء الذين كانوا يقيمون ملكهم على اللؤم والكفر، وبين أن سيف الدولة كان يقيم ملكه من أجل مرضاة الله، ولرفع رايات القيم الإنسانية الطيبة ومكارم الأخلاق.

وقد جرت مناظرة بين الدمستق وأبي فراس قال له فيها: ما لكم وللحرب؟ إنما أنتم كتّاب. فقال له أبو فراس: نحن نطأ أرضكض منذ ستين سنة بالسيف أم بالأقلام، وذكر له أسماء الوقائع والأسرى ثم هجاه قائلاً:

أتزعم يا ضخم اللغديد أننا * ونحن أسود الحرب لا نعرف الحربا
فويلك من للحرب إن لم نكن لها * ومن ذا الذي يضحى ويمسي لها تريا
لقد جمعنا الحرب من قبل هذه * فكنا بها أسداً وكنت بها كلبا
بأقلامنا أحجرت أم بسيوفنا * وأسد الشرى قدنا إليك أم الكتبا^(١)

وقد حاول أن يبين له الحلال والحرام، فقال أبو فراس متعجباً:

أما من أعجب الأشياء علج * يُعرّفني الحلال من الحرام
وتكفّفه بطارقة تيسوس * تُبارى بالعثانين الضخام
لهم خلق الحمير فلتست تلقى * فتى منهم يسير بلا حزام^(٢)

السياسة الداخلية:

كان الشعراء في ظل الأمير يبتعدون عن هجاء القبائل العربية -التي كانت تخرج على الأمير أحياناً-، خوفاً منها وذلك باستثناء أبي فراس والمنتبى والسرى الرفاء. وكان الشعراء يتوقون الحيطة والحذر في هجاء تلك القبائل
لأميرين:

(١) الشعر في ظل سيف الدولة، ص ١٩٣.

(٢) ديوان أبي فراس، ج ٢، ص ٣٧، ديوان أبي فراس، رواية ابن خالويه، ص ٢٧٦.

١- ليس من السهل على الشاعر أن يمس تلك القبائل بسوء من القول فيسلم من عداوتها وبطشها وهو يعيش قريباً منها، وإذا ما اعتمد على احتمائه بسيف الدولة فقد لا ينفعه ذلك كثيراً، فسيف الدولة نفسه لم يسلم من عداوتهم وخروجهم عن طاعته في بعض الأحيان.

٢- فإن هذه القبائل العربية هي عدة سيف الدولة وعتاده في صراعه الخارجي، ولا سيما الروم، فقد يؤدي هجاؤهم إلى إفساد الأمر بين الأمير وبينهم فيعود ذلك على الأمير بالخسران المبين.

إذاً فإن هجاء تلك القبائل أمر في غاية الخطورة إن لم تصحبه لباقة وحكمة وحذر.

ونحن لا نكاد نجد في الشعر الحمداني هجاء أو تعريضاً بهذه القبائل إلا في شعر بعض رجال سيف الدولة الذين لهم من قوتهم وعصبيتهم ما يجعلهم لا يرهبون هذا المسلك الوعر، فإنهم قد سلكوه في حيطة وحذر، مبتعدين فيه أكثر الأحيان عما لا يليق بكرامة هذه القبائل العربية، في بيئة تعتر بالعروبة وتفخر بها، ومن هؤلاء: أبو فراس، وأبو أحمد عبد الله بن ورفاء الشيباني، والمنتبي، والسرى الرفاء^(١).

قال أبو فراس في قبائل كعب التي خرجت على الأمير في سنة أربع وأربعين وثلاثمائة بعد أن أخذ الأمير ثورتها:

ولما أن طعت سفهاء كعب * فتحنا بينهم للحرب بابا
منحناها الحرائب غير أنا * إذا جارت منحناها الحرابا
وأبعدنا لسوء العقل كعباً * وأدنيننا لطاعتها كلابا
فلما أيقنوا أن لا غياث * دعوه للمغوثة فاستجابا
وعاد إلى الجميل لهم فعادوا * وقد مدوا لصارمه الرقابا
أمرّ عليهم خوفاً وأمناً * أذاقهم به أربا وصابا^(٢)

(١) الشعر في ظل سيف الدولة، لدرويش الجندي، ص ١٩٣ وما بعدها بتصريف.

(٢) ديوان أبي فراس، ج ٢، ص ١١، رواية ابن خالويه، ص ١٥ وما بعدها.

وصور المتنبّي تمرد بني كلاب فقال:

ترفق أيها المولى عليهم * فإن الرفق بالجاني عتاب
وأنهم عبادك حيث كانوا * إذا تدعو لحادثة أجابوا
فكيف يتم بأسك في أناس * تصيبهم فيؤلمك المصاب
وأنت حياتهم غضبت عليهم * وهجر حياتهم لهم عقاب
وعين المخطئين همو وليسوا * بأول معشر خطئوا فتأبوا
وجرم جره سفهاء قوم * وحلّ بغير جرمه العذاب^(١)

الأسلوب الذي انتهجه كلا الشعاعين في مخاطبة هاتين القبيلتين هو أسلوب الترغيب والترهيب توكيماً للحيلة والحذر.

وواضح من خلال ما سردنا من نماذج أن الحياة في عصر الأمير لم تكن هادئة كل الهدوء؛ لأنّ للأمير بعض الخصوم والمنافسين الذين كانوا يؤلبون تلك القبائل وبحرضونها على الثورة ضده، حتى تتزعزع أركان حكمه.

قال الشيباني موضعاً ذلك:

وإنهم لما استهاجوا حباله * وما كان عن مستوجب البطش دانيا
كمن شبّ ناراً في شعار ثيابه * وهيج ليثاً للفريسة ضارياً^(٢)

وكان شعراء الأمير -كذلك- يتوقون الحذر في هجاء خصوم الأمير من

حكّام الولايات والممالك؛ لأمرين:

١- خوفاً منهم.

٢- علمهم إذا ما اضطرتهم الظروف إلى اللجوء إلى أي منهم يكون الباب

أمامهم مفتوحاً.

ويقول د. درويش الجندي: أما السرى الرفاء فقد نشأ في ظلال

الحمدانيين في الموصل أولاً وفي حلب ثانياً؛ ولهذا كان هجاؤه السياسي كثيراً ما يكون الدافع إليه عاطفته الوطنية، فقد كانت تلك العاطفة تدفعه إلى هجاء خصومهم من بني بويه، الذين كانوا أحياناً يغيرون على الموصل مسقط رأسه

(١) ديوان المتنبّي، شرح البرقوقى، ط دار البيان، ص ٢٠٨ - ٢٠٩.

(٢) الشعر في ظل سيف الدولة، ص ١٩٥.

وينفردون دون الحمدانيين بالسلطان، وذلك مثلما حدث مع ناصر الدولة عندما امتنع عن إرسال الأموال المقررة عليه لدى الخلافة أو بالأحرى للبويهيين أصحاب السلطة الفعلية، فقال:

أرى الخائن المغرورَ نامَ بأرضكم * كأنَّ المناياَ الحمرَ عنه نيامُ
تسنمُ أعلامَ الديارِ وأنتم * لمن حلَّ فيها غاربٌ وسنامُ
فشقَّ على الماضينَ من عظمائكم * وهم ريمٌ في تريبها وعظامُ
منازلٍ مرفوعٍ لحاضرکم بها * قبابٌ وللبادي الأغرَّ خيامُ
تهلَّلَ منها الغيثُ وهي عوابسُ * وأسفرَ منها الصبحُ وهي ظلامُ
فعودوا ليحتلَّ الندى في خلالها * ويرحلَّ لؤمٌ حلها ولئامُ
ولا تمكِّنوه من ذمامِ سيوفكم * فليس له عندَ السيفِ ذمامُ
فلا صلحَ حتى تُستطارَ سواعدُ * وتسقطُ أيدي في اللقائِ وهامُ
فحينئذٍ يصفو السماعُ لسماعٍ * وينساعُ للشربِ العِطاشِ مُدامُ^(١)

وهاجم المتنبي الخليفة العباسي تصريحاً لا تلميحاً في القصيدة التي أنشدها لسيف الدولة في ميدان حلب عند عرض الجيش وهما على فرسيهما، مهنئاً له بعيد الأضحى سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة، فقال:

فيا عجباً من دائلِ أنتَ سيفُهُ * أما يتوقى شفرتي ما تقلدا
ومن يجعلُ الضرغامَ بازاً لصيدهِ * تصيدهُ الضرغامُ فيما تصيدا
وما قتلَ الأحرارَ كالعفوِ عنهمُ * ومن لك بالحرِّ الذي يحفظُ اليدَا^(٢)

يخاطب الشاعر في هذه الأبيات الخليفة العباسي في سخرية وتهكم ويتعجب منه؛ لأنه يتقلد سيفاً فتاكاً كان من الواجب عليه أن يتوقاه حتى لا يودي بحياته، ويتعجب كذلك من هذا الخليفة الذي يرسل للصيد بدل الباز ضرغاماً من الممكن أن ينصيده.

(١) ديوان السري، ص ٢٢٦.

(٢) ديوان المتنبي شرح البرقوقى، ج ٣، ص ٢٧٧-٢٧٨.

أما هجاء أبو فراس للعباسيين فقد كان نابعاً من توجهه السياسي، ومبدئه المذهبي الذي كان يؤمن به، وقد قال فيهم:

أَبْلَغُ لَدَيْكَ بَنِي الْعَبَّاسِ مَأْلَكَةً * لَا تَدْعُوا مُلْكَهَا مُلَّاكَهَا الْعَجَمُ
أَيُّ الْمَفَاخِرِ أَمَسَتْ فِي مَنَابِرِكُمْ * وَغَيْرِكُمْ أَمِرٌّ فِيهِنَّ مُحْتَكِمٌ
وَهَلْ يَزِيدُكُمْ مِنْ مَفْخَرٍ عِلْمٌ * وَفِي الْخِلَافِ عَلَيْكُمْ يَخْفِقُ الْعِلْمُ
لَا يَغْضَبُونَ لِغَيْرِ اللَّهِ إِنْ غَضِبُوا * وَلَا يُضِيعُونَ حُكْمَ اللَّهِ إِنْ حَكَمُوا
تَبْدُو التَّلَاوَةَ مِنْ أَبِيائِهِمْ أَبَدًا * وَفِي بُيُوتِكُمْ الْأَوْتَارُ وَالنَّعْمُ
مِنْكُمْ غَلِيَّةٌ أَمْ مِنْهُمْ وَكَانَ لَهُمْ * شَيْخُ الْمُغَنِّينَ إِبْرَاهِيمُ أَمْ لَكُمْ
مَا فِي دِيَارِهِمْ لِلْخَمْرِ مُعْتَصِرٌ * وَلَا بُيُوتَهُمْ لِلْسُّوءِ مُعْتَصِمٌ
وَلَا تَبَيْتَ لَهُمْ خُنْثَى تُشَادِمُهُمْ * وَلَا يُرَى لَهُمْ قِرْدٌ لَهُ حَشَمٌ^(١)

الخصومات بين الشعراء:

أدى التنافس في بلاط الأمير إلى الخصومة والعداء بين بعض الشعراء والعلماء. * المتنبي والشعراء:

كان المتنبي أقرب الشعراء إلى قلب الأمير، وقد أكسبتهم هذه المكانة السامية ثقة وصلت به إلى حد الغرور، فكان يتعالى على الشعراء وغيرهم، ويحقر من شأنهم، ويستهزئ بشاعريتهم، فقال:

أَفِي كُلِّ يَوْمٍ تَحْتَ ضَبِي شُويعِر * ضَعِيفٌ يَقَاوِينِي قَصِيرٌ يَطَاوِلُ
لِسَانِي بِنَطْقِ صَامَتٍ عَنْهُ عَاذِلُ * وَقَلْبِي بِصِمْتِي ضَاكِكُ مِنْهُ هَاذِلُ
وَأَتَعَبُ مَا نَادَاكَ مِنْ لَا تَجِيبُ * وَأَغِيظُ مِنْ عَادَاكَ مِنْ لَا تَشَاكِلُ^(٢)

ويقول مخاطباً الأمير:

أَرَى الْمُتَشَاعِرِينَ غُرُو بَدْمِي * مِنْ ذَا يَحْمَدُ الدَّاءَ الْعُضَالَا
وَمَنْ يَكُ ذَا فَمِ مَرِيضٌ * يَجِدُ مَرًّا بِهِ الْمَاءُ الزَّلَالَا^(٣)

(١) ديوان أبي فراس، ج٢، ص ٣٤٨ - ٣٥٦، ديوان أبي فراس شرح ابن خالويه، ص ٢٥٩.

(٢) ديوان المتنبي شرح البرقوق، ج٣، ص ٢٩٤.

(٣) المصدر السابق، ج٣، ص ٤٢٩.

جَرَدَ المَتَنبِي خِصْمَاتِهِ الشُّعْرَاءَ مِنْ صِفَةِ الشَّاعِرِيَّةِ وَقَالَ إِنَّ الَّذِي يُصَابُ بِمِرَارَةٍ فِي فَمِهِ لَعَلَّةٌ عَرَضَتْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ إِذَا شَرِبَ الْمَاءَ الْعَذْبَ يَذُوقُهُ مِرًّا، وَهَذِهِ حَقِيقَةٌ، إِلَّا أَنَّ الشَّاعِرَ لَمْ يَقْصِدْ هَذَا الْمَعْنَى بَلْ اسْتَعْمَلَهُ فِيمَنْ يَعْيبُونَ شَعْرَهُ؛ لَعَيْبٍ فِي ذَوْقِهِمُ الشُّعْرِي، وَضَعْفٍ فِي إِدْرَاكِهِمُ الْأَدْبِي.

وَقَدْ كَانَ الْمَتَنبِي عَلَى عِدَاءٍ مَعَ عِدَدٍ مِنَ الشُّعْرَاءِ وَالْعُلَمَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يَنْتَظِرُونَ الْفُرْصَةَ الْمُنَاسِبَةَ لِيَقْتَصُوا لِأَنْفُسِهِمْ مِنْهُ، وَقَدْ انْتَهَزُوهَا عِنْدَمَا أَلْقَى قَصِيدَتَهُ:

وَاحِرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شَبِمْ * وَمَنْ بِجِسْمِي وَحَالِي عِنْدَهُ سَقَمٌ
يَا أَعْدَلَ النَّاسِ إِلَّا فِي مُعَامَلَتِي * فَيْكَ الْخِصَامُ وَأَنْتَ الْخِصْمُ وَالْحَكَمُ
أَعِيدُهَا نَظَرَاتٍ مِنْكَ صَادِقَةً * أَنْ تَحْسَبَ الشَّحْمَ فِيمَنْ شَحْمُهُ وَرَمٌ
وَمَا انْتِفَاعُ أَخِي الدُّنْيَا بِنَظَرِهِ * إِذَا اسْتَوَتْ عِنْدَهُ الْأَنْوَارُ وَالظُّلْمُ
أَنَا الَّذِي نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى أَدْبِي * وَأَسْمَعَتْ كَلِمَاتِي مَنْ بِهِ صَمَمٌ
يَا مَنْ يَعْزُّ عَلَيْنَا أَنْ نُفَارِقَهُمْ * وَجَدَانُنَا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمٌ
إِنْ كَانَ سَرَّكُمْ مَا قَالَ حَاسِدُنَا * فَمَا لِحُجْرٍ إِذَا أَرْضَاكُمْ أَلَمٌ
وَبَيْنَنَا لَوْ رَعَيْتُمْ ذَاكَ مَعْرِفَةً * إِنَّ الْمَعَارِفَ فِي أَهْلِ النَّهْيِ ذِمَمٌ
لَئِنْ تَرَكْنَا ضَمِيرًا عَنِ مِيَامِنَا * لِيَحْدُثَنَّ لِمَنْ وَدَّعْتُهُمْ نَدَمٌ
شَرُّ الْبِلَادِ مَكَانٌ لَا صَدِيقَ بِهِ * وَشَرُّ مَا يَكْسِبُ الْإِنْسَانَ مَا يَصِمُ
وَشَرُّ مَا قَنَصَتْهُ رَاحَتِي قَنَصٌ * شَهْبُ الْبُزَاةِ سَوَاءٌ فِيهِ وَالرَّحْمُ
بِأَيِّ لَفْظٍ تَقُولُ الشُّعْرَ زَعِنْفَةً * تَجُوزُ عِنْدَكَ لَا عَرَبٌ وَلَا عَجَمٌ^(١)

فَأَخَذُوا يَنْتَقِضُونَهُ وَالْحَقُّ أَنَّهُ فِي تِلْكَ الْقَصِيدَةِ قَدْ خَرَجَ عَنْ حُدُودِ الذَّوْقِ فَعَابُوا عَلَيْهِ مَخَاطِبَتَهُ الْأَمِيرَ بِصُورَةٍ لَا تَلِيْقُ بِهِ وَوَصَفَهُ أَنَّهُ لَا يَفْرُقُ بَيْنَ الشَّحْمِ وَالْوَرْمِ، وَأَنَّهُ تَسْتَوِي عِنْدَهُ الْأَنْوَارُ وَالظُّلْمُ وَالْيَ غَيْرَ ذَلِكَ، وَكَيْفَ لَا يَغْتَنِمُونَ الْفُرْصَةَ وَهُوَ يُوَكِّدُ لَهُمْ نَظَرَتَهُ إِلَيْهِمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَيُعَرِّضُ بِهِمْ قَائِلًا:

بِأَيِّ لَفْظٍ تَقُولُ الشُّعْرَ زَعِنْفَةً * تَجُوزُ عِنْدَكَ لَا عَرَبٌ وَلَا عَجَمٌ

(١) ديوان المتنبي شرح البرقوقى، ج ٤، ص ١٠٧ وما بعدها.

* السري والخالديان:

يبدو أن العلاقة كانت طيبة بين السري والخالديين والتمسنا ذلك من قصيدة في ديوان السري يدعو فيها سعيد الخالدي إلى زيارته ويستدعيه إلى الحمام ويصفه، فيقول:

أسعيد هل لك في زيارة منزل * تثني عليه جوانح الزوار
إلى أن يقول في وصف الحمام:

رحب تلاقى الجدر منه ينابع * وترى السماء عليه كالأقمار
ينضو الحيّ الوجه ثوب حياته * فيه فيخطر كالحسام العاري^(١)

لم تهدنا كتب التراجم ولا غيرها إلى أسباب الخلاف بين السري والخالديين، ولم نجد في شعر أيّ منهم ما يشير إلى أسباب العداء بينهم، كل الذي فهمناه أن الخالديين استطاعوا أن يكدّوا عليه حياته فعاش حياة قاسية ومات فقيراً بائساً، وقد أكثر الرفاء من هجائهما وادّعى عليهم سرقة شعره فقال موضحاً ذلك في قصيدة أرسلها إلى أبي البركات بن ناصر الدولة:

أشكو إليك حليفي غارة شهرا * سيف الشقاق على ديباج أشعاري
ذئبين لو ظفرا بالشعر في حرم * لمزقاه بأيصاب وأظفار
سلا عليه سيوف البغي مصلته * في جفيل من شنيع الظلم جرار
ثم قال:

باعا عرائس شعري بالعراق فلا * تبعد سباياها من عون وأبكار
ما كان ضرهما والدر ذو خطر * إن حلياه ملوكاً ذات أخطار
والله ما مدحا حياً ولا رثياً * ميتاً، ولا افتخرا إلا بأشعاري
إن توجاك بدرّ فهو من من لجبي * أو ختماك بياقوت فأحجاري^(٢)

كما اتهم السري الرفاء النامي بسرقة شعره، وهجاه قائلاً:

أرى الجرّار هيجني وولّى * وكاشفني وأسرع في انكشافي

(١) ديوان السري، ص ١٣٠.

(٢) المصدر السابق، ص ١١٤ وما بعدها.

ورقَّعَ شِعْرَهُ بَعِيونَ شِعْرِي * فَشَابَ الشَّهْدَ بِالسُّمِّ الزُّعَافِ
لَقَدْ شَقَّيْتُ بِمَدِيَّتِكَ الأَضَاحِي * كَمَا شَقَّيْتُ بِغَارَتِكَ القَوَافِي (١)
* الغزل:

الغزل من أقدم الفنون الشعرية، وأكثرها شيوعاً في جميع العصور الأدبية، وذلك لاتصاله الوثيق بالطبيعة البشرية. وهو يؤدي دوراً حيوياً في التعبير عن بعض حاجات العواطف؛ ولذا فهو أعلق الفنون الشعرية بالقلب، وأقربها إلى الإنسان.

ومن حقّ الغزل أن يكون حلو الألفاظ، قريب المعاني، لين الإيثار، شفاق الجوهر، يطرب الحزين، ويستخف الرصين (٢).

تأثر الغزل في العصر العباسي بالروح الفارسية، فلذلك كان في معظمه ضرباً من اللهو والمجون.

تعددت مرثي الغزل عند شعراء الأمير سيف الدولة الحمداني وتبعاً لذلك رأينا أن نقسم الغزل إلى:

١ - الغزل التقليدي:

ونعني به الغزل الذي نجده في مقدمات القصائد في المديح أو في بعض الأغراض الشعرية الأخرى.

٢ - الغزل الفطري:

ونعني به الغزل الذي يصور مشاعر الشاعر وميوله الفطري نحو مَنْ يحب من النساء، وهو كثير ما يختلط ببعض الأغراض الشعرية الأخرى وخاصة الخمر ووصف الطبيعة.

٣ - الغزل الفاحش:

ونعني به الغزل بالمدكر، وهذا النوع من الغزل يجافي الذوق الإنساني، ويخرج عن المسلك القويم، وينافي الطبيعة البشرية، وهو مسلك منحرف وشاذ. ومما أدى إلى انتشاره في مجتمع الحمدانيين:

(١) ديوان السرى الرفاء، ص ١٧٧.

(٢) العمدة، ج ٢، ص ١١٦ بتصرف.

- ١- تأثر المجتمع العربي بأثره في العراق وفي الشام بالفرس إذ صار الناس لا يرون في التغزل بالغلّمان أمراً منكراً.
- ٢- كثرة حروب الأمير التي كانت سبباً في كثرة الغلّمان.
- ٣- انتشار الأديرة التي كانت تهيئ لذلك الأمر فتعد الخمر والغلّمان لكل طارق وقارع.

الغزل التقليدي:

وهو -كما ذكرنا- الغزل الذي يتجلى في مطالع القصائد تقليداً للشعراء القدامى، وقد نحت شعراء الأمير عقولهم في اصطناع التماثيل الناطقة، وفي رسم الصور البديعة في مطالع القصائد التي مدحوا فيها الأمير؛ لأن تلك المطالع كانت أول ما يقرع سمعه، وبها يستدل الشاعر على شاعريته فإن أجادها كانت داعياً إلى إصغاء الأمير لما يجيء من بعدها وحافزاً على تقديره لفن الشاعر، ولذا كانوا يخرجون صورهم تلك في أجمل تقويم.

ومن أولئك الشعراء: السرى الرفاء، وأبو فراس، وحتى المتنبّي الذي لم يعن كثيراً بشعر الغزل، والذي لم يعرف عنه أنه كتب قصيدة مستقلة فيه عمد إلى استقلال قصائده في المديح به، ومن ذلك قوله:

لعينيك ما يلقي الفؤاد وما لقي * وللحب ما لم يبق مني وما بقى
وما كنت ممن يدخل العشق قلبه * ولكن من يبصر جفونك يعشق
وبين الرضا والسخط والقرب والندى * مجال لدمع المقلّة المترقّق
وأحلى الهوى ما شك في الوصل ربه * وفي الهجر وهو الدهر يرجى ويبقى^(١)

يقول المتنبّي في محبوبته إن الذي تضمنته عيناك من السحر والجمال يثير لوعة الحب وما يلقاه قلبي من الوجد ما لم يبقه السقم مني مما أفنيته.

يقول ما كنت ممن يميل إلى اللهو والغزل ولكن من يبصر عيونك يتمكن العشق في نفسه.

(١) ديوان المتنبّي شرح العكبري، ص ١٥٢

وما بين ما أرجوه من رضاك وحبك، وأحذره من سخطك وغضبك وما
أتمناه من لقاءك واقترابك وأخشاه وأنا على بعد منك مجالاً للدموع التي تتفرق
في المقل كلفاً بالحبيب وحادراً من الرقيب.

ويقول أنه يرجو الوصل ويتقي الهجر لمراعاة أسباب الوصال وإذا كان
العاشق في حيز شك من إمكان لقاء المحبوبة كان الوصل بالنسبة له غنيمة.
أما إذا تيقن الوصل فإنه لا يستمتع باللقاء وإذا كان في يأس منه لم تكن له لذة
الرجاء فالهواء عليه كله بلاء.

لعل القارئ المتأمل في هذه الأبيات يحس بأن هذه المقدمة الغزلية ما
هي إلا رمزاً وإيحاء يعني به الشاعر الأمير ففي قول الشاعر بين الرضا
والسخط، والقرب والندى، وهو الدهر يرجى ويتقي، إشارات إلى هذه الرمزية.
ومما يجعلنا نرجح هذا الرأي، رأي المتنبي في الابتداء، ألم يكن هو
القائل:

إِذَا كَانَ مَدْحٌ فَالنَّسِيبُ الْمُقَدَّمُ * أَكْلُ فَصِيحٍ قَالَ شِعْرًا مُتَمِّمٌ
لِحُبِّ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَوْلَى فِائَهُ * بِهِ يُبْدَأُ الذِّكْرَ الْجَمِيلُ وَيُخْتَمُ^(١)

فواضح من هنا إذاً أن المتنبي يعمد إلى تلك المقدمات لا لأجل أنه
يؤمن بذلك التقليد، بل لأجل حاجة في نفسه.

وقد استهل أبو فراس حوالي ثلاثين قصيدة في شعره بالمقدمات التقليدية
وجاء ذلك في فخرياته وإخوانياته، وفي بعض روميته ومن ذلك قوله وهو في
الأسر:

عَلَيَّ لِرَبْعِ الْعَامِرِيَّةِ وَقَفَّةٌ * تُمِلُّ عَلَيَّ الشَّوْقَ وَالِدَمْعُ كَاتِبُ
فَلَا وَأَبِي الْعُشَّاقِ مَا أَنَا عَاشِقٌ * إِذَا هِيَ لَمْ تَلْعَبْ بِصَبْرِي الْمَلَاعِبُ
وَمِنْ مَذْهَبِي حُبُّ الدِّيَارِ لِأَهْلِهَا * وَلِلنَّاسِ فِيمَا يَعْشَقُونَ مَذَاهِبُ^(٢)

وقال السري الرفاء:

كَمَلْنَنَ فَاظْلَعْنَ الْبُدُورَ كَوَامِلَا * وَمَلْنَنَ فَاْبْدَيْنَ الْغُصُونَ مَوَائِلَا

(١) ديوان المتنبي بشرح البرقوق، ج ٤، ص ٨٩

(٢) ديوان أبي فراس، شرح يوسف شكري، ص ٤٤.

يُحَرِّكُ أَعْطَافَ الْعَلِيلِ صَبَابَةً * إِذَا حَرَكْتَ أَعْطَافَهُنَّ الْغَلَائِلَا
وَسَلَّتْ ظُبَا أَسْيَافِهَا مُقَلَّ الظُّبَا * فَلَسْتَ تَرَى إِلَّا قَتِيلًا وَقَاتِلًا^(١)

الشعر الفطري:

وهذا النوع من الغزل تختلف فيه مذاهب الشعراء فأبو فراس مثلاً يحلو له
-غالباً- أن يمزجه بالفروسية، ومن ذلك قوله:

وَإِذَا يَاسَتْ مِنْ الدُّنُو * وَرَغِبْتُ فِي فَرَطِ البِعَادِ
رَجَوُ الشَّهَادَةِ فِي هَوَا * أَكَّ لِأَنَّ قَلْبِي فِي جِهَادِ^(٢)

أما الصنوبري فقد كان مغرماً بحبك الصور المطرزة بألوان الطبيعة
الزاهية والملونة بألوان البديع والبيان، فهذا هو يقول:

وَلِي فِي بَابِ جَبْرُوتِ ظَبَاء * أَعْطَيْهَا الْهَوَى ظَبِيًّا فَظَبِيَا
وَنَعَمِ الدَّارِ دَارِيَا ففِيهَا * حَلَا لِي الْعَيْشُ حَتَّى صَارَ أَرِيَا
تَفِيضِ جَدَاوِلِ البَلُورِ فِيهَا * خَلَالَ حِدَائِقِ يَنْبُتِنِ وَشِيَا
مُظَلَّلَةِ فَوَاكِهِهَا بِأَيْهَا الـ * مَنَاطِرِ فِي نَوَاطِرِنَا وَأَهْيَا^(٣)
وقال أيضاً:

بَسَطْتُ أَنَامِلَ لَوْلُوِ أَطْرَافِهَا * فِيهَا تَطَارِيفٌ مِنَ المَرْجَانِ
وَتَقَنَّعْتُ لَكَ بِالدَّجَى فَوْقَ الضُّحَى * وَتَنْقَبْتُ بِشِقَائِقِ النِّعْمَانِ^(٤)

أما الخالديان فقد كانا في هذا الفن يميلان إلى الطرافة والنكتة، وقد كان
الغزل لديهما كثيراً ما يجيء مرتبطاً بالخمرة أو بوصف الطبيعة، قال أبو بكر
الخالدي:

أَنْبَاكَ شَاهِدَ أَمْرِي عَنِ مَغِيْبِهِ * وَجَدَ جَدَ الْهَوَى بِي فِي تَلْعَبِهِ
يَا نَازِحًا نَزَحْتَ دَمْعِي قَطِيعَتَهُ * هَبْ لِي مِنَ الدَّمْعِ مَا أَبْلَى عَلَيْكَ^(٥)

(١) ديوان السري، ص ٢١٥، القصيدة في مدح أبي بكر المراغي.

(٢) بيتمة الدهر، ج ٦، ص ٧٩.

(٣) ديوان الصنوبري، ص ٥١٣.

(٤) ديوان الصنوبري، ص ٥٠٣.

(٥) ديوان الخالديين، ص ٢٩.

وقال أبو عثمان الخالدي:

دُموعي فيك أنواءً غزارُ * وَقَلْبِي ما يُفْرُّ لَهُ قَرارُ
وَكُلُّ فِتْيَ عَلاهْ ثُوبُ سُقْمٍ * فَذاكِ الثُّوبُ مِنِّي مُسْتَعارُ^(١)

والمتنبي رغم تفوقه ونبوغه فهو غير مطبوع في شعر الغزل، وشعره في هذا الجانب مصنوع يخلو من العاطفة الحية.

وقد قال عبد الوهاب عزّام: فالمتنبي ليس ليس في طبعة ونزوعه من أهل الغزل، ولكنه حينما أراد أن يتغزل تأسيماً بالشعراء^(٢) استطاع أن يجيد، ومن جيد قوله:

قَبَلْتُها وَدُموعي مَزجُ أَدْمِعِها * وَقَبَلْتُني عَلى خَوفٍ فَماءَ لِفَمِ
فَذُقْتُ ماءَ حَياةٍ مِن مُقَبَلِها * لَو صابِ ثُرباً لِأَحيا سالفِ الأُمَمِ
تَرنو إِلَيَّ بِعَينِ الظَّبِي مُجَهَشَةً * وَتَمسَحُ الطَّلَّ فَوَقَ الوَرْدِ بِالغَنَمِ
رُويدَ حُكْمِكَ فِينا غَيرَ مُنصِفةٍ * بِالناسِ كُلِّهمِ أَفديكَ مِن حَكَمِ^(٣)

وذوق المتنبي في الغزل بدوي فهو لا يميل إلى الحضريات.

انظر قوله:

لَبَسَنَ الوَشِي لا مُتَجَمَلاتٍ * وَلكِن كَما يَصُنُّ بِهِ الجَمالِ
وَضَفَرَنَ الغَدائِرَ لا لِحُسنٍ * وَلكِن خَفَنَ في الشَّعْرِ الضَّلالِ^(٤)

أما البغاء فقد كان يميل إلى الغزل الروحي فيها هو يقول:

يا سادتي هذه نفسي تُودِّعُكم * إِذ كانَ لا الصَّبْرُ يُسليها ولا الجَزَعُ
قَد كُنْتُ أَطمَعُ في رَوحِ الحَياةِ لَها * فَالآنَ إِذِ بِنْتُمُ لَم يَبِقَ لي طَمَعُ
لا عَدَبَ اللّهُ رَوحِي بِالبِقاءِ فَمَما * أَظُنُّني بَعَدُكمِ بِالعِيشِ أَنْتَفِعُ^(٥)

(١) ديوانهما، ص ١٢٦

(٢) ذكرى أبي الطيب، ص ٣٣٢

(٣) ديوان المتنبي بشرح البرقوق، ج ٤، ص ١٥٤

(٤) المصدر السابق، ص ٣٣٨، ٣٣٩

(٥) شذرات الذهب، ج ٣، ص ١٥٢، بيتيمة الدهر، ج ١، ص ٢١٦

ومن الشعراء الذين أبدعوا في هذا الفن كشاجم، ومن رقيق قوله تصويره
لمشهد وداع محبوبته:

بِأَبِي وَأُمِّي زَائِرٌ مُتَقَنَّعٌ * لَمْ يَخْفَ ضَوْءُ الشَّمْسِ تَحْتَ قِنَاعِهِ
لَمْ أَسْتَتِمَّ عِنَاقَهُ لِقُدُومِهِ * حَتَّى ابْتَدَأْتُ عِنَاقَهُ لِدَوَاعِهِ
فَمَضَى وَأَبْقَى فِي فُؤَادِي حَسْرَةً * تَرَكَتُهُ مَوْفُوقاً عَلَى أَوْجَاعِهِ^(١)

أما مفاتيح الحسن والجمال في هذا الفن فقد امتلكها الوأء ونال بها
قصب السبق؛ لأنه من أكثر الشعراء رقة وإحساساً مرهفاً، تأمل قوله:

وَزَائِرِ رَاعٍ وَجْهَ الْبَيْنِ مَنْظَرُهُ * أَحْلَى مِنَ الْأَمْنِ عِنْدَ الْخَائِفِ الْوَجَلِ
أَلْقَى عَلَى اللَّيْلِ لَيْلاً مِنْ ذَوَائِبِهِ * فَهَابَهُ الصُّبْحُ أَنْ يَبْدُو مِنَ الْخَجَلِ
أَرَادَ بِالْهَجْرِ قَتْلِي فَاسْتَجَرْتُ بِهِ * فَاسْتَلَّ بِالْوَصْلِ رُوحِي مِنْ يَدَيِ أَجْلِي
وَزَائِرِ رَاعٍ قَلْبَ النَّاسِ مَنْظَرُهُ * أَحْلَى مِنَ الْأَمْنِ عِنْدَ لَخَائِفِ الْوَجَلِ
أَلْقَى عَلَى اللَّيْلِ لَيْلاً مِنْ ذَوَائِبِهِ * فَهَابَهُ الصُّبْحُ أَنْ يَبْدُو مِنَ الْخَجَلِ
أَرَادَ بِالْهَجْرِ قَتْلِي فَاسْتَجَرْتُ بِهِ * فَاسْتَلَّ بِالْوَصْلِ رُوحِي مِنْ يَدَيِ أَجْلِي
وَصَرْتُ فِيهِ أَمِيرَ الْعَاشِقِينَ فَقَدْ * صَارَتْ إِمَارَةَ أَهْلِ الْعَشْقِ مِنْ قَبْلِي^(٢)
وقال:

أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ فِي بَغْدَادَ لِي قَمِراً * بِالْكَرْخِ مِنْ فَلَكَ الْأَزْرَارِ مَطْلَعُهُ
وَدَعْتُهُ وَيُودِّي أَنْ تُودِّعَنِي * رُوحَ الْحَيَاةِ وَأَنْنِي لَا أُودِّعُهُ
وَكَمْ تَشَبَّتْ بِي يَوْمَ الرَّحِيلِ ضَحَى * وَأَدْمَعِي مُسْتَهْلَاتٌ وَأَدْمَعُهُ
وَكَمْ تَشَفَّعَ فِي أَنْ لَا أُفَارِقَهُ * وَلِلضَّرُورَةِ حَالٍ لَا تُشَفِّعُهُ^(٣)

ومن أشهر أبياته، قوله:

قَالَتْ وَقَدْ فَتَكَتْ فِينَا لَوَاحِظُهَا * كَمْ ذَا أَمَا لِقَتِيلِ الْحُبِّ مِنْ قَوْدِ
وَأَمْطَرَتْ لَوْلُؤاً مِنْ نَرْجِسٍ وَسَقَتْ * وَرِداً وَعَضَّتْ عَلَى الْغُنَابِ بِالْبَرْدِ
إِنْسِيَّةً لَوْ رَأَتْهَا الشَّمْسُ مَا طَلَعَتْ * مِنْ بَعْدِ رُؤْيَيْهَا يَوْماً عَلَى أَحَدِ

(١) ديوان كشاجم، ص ٢٦٧

(٢) بيتيمة الدهر، ج ١، ص ٣٤١، ٣٤٢

(٣) ديوان الوأء، ص ٧٣، وبيتيمة الدهر، ج ٢، ص ٣٤٠

كَأَنَّمَا بَيْنَ غَابَاتِ الْجُفُونِ لَهَا * أُسْدُ الْحِمَامِ مُقِيمَاتٍ عَلَى الرَّصَدِ (١)

الغزل الفاحش:

كان الغزل بالمذكر في العصر العباسي، لون من ألوان الحضارة، وكان الناس لا يرونه أمراً منكراً.

وقد انتشر هذا النوع من الغزل في الدولة الحمدانية حتى على مستوى الأمراء. قال أبو فراس في غلامه منصور، وقد استبدَّ به الشوق إليه وهو في الأسر:

إرثٍ لَصَبِّ فَيْكَ قَدْ زِدْتَهُ * عَلَى بَلَايَا أُسْرِهِ أُسْرًا
قَدْ عَدِمَ الدُّنْيَا وَلَذَاتِهَا * لَكِنَّهُ مَا عَدِمَ الصَّبْرَا
فَهُوَ أَسِيرُ الْجِسْمِ فِي بَلَدَةٍ * وَهُوَ أَسِيرُ الْقَلْبِ فِي أُخْرَى (٢)

وقال الصنوبري وكان يحب غلاماً اسمه جعفر:

أَطِيلُ فِي وَصْفِ الْهَوَى أَمْ أَقْصِرُ * وَأُذِيْعُ مَكْتَوْمِ الْأَسَى أَمْ أَسْتُرُ
يَا جَعْفَرُ الْعَالِي عَلَى بَدْرِ الدَّجَى * بِكَ نَالَ بِهَجَةٍ وَجْهَهُ يَا جَعْفَرُ
تَمَّتْ خِلَالِ الْحَسَنِ فَيْكَ فَكُلُّهَا * تُثْنِي عَلَيْكَ إِذَا تُعَدُّ الْخِنْصَرَ (٣)

وقال أبو بكر الخالدي:

أَهْلًا بِشَمْسِ مُدَامٍ مِنْ يَدَيِ قَمَرٍ * تَكَامَلَ الْحُسْنُ فِيهِ فَهُوَ تَيَّاهُ
كَأَنَّ خَمْرَتَهُ إِذْ قَامَ يَمْزِجُهَا * مِنْ خَدِّهِ اعْتَصِرَتْ أَوْ مِنْ ثَنَائِيهِ
إِذَا سَقْتِكَ مِنَ الْمَمْرُوجِ رَاحَتُهُ * كَأَسَا سَقْتَكَ كُؤُوسَ الصَّرْفِ عَيْنَاهُ
فِي وَجْهِهِ كُلُّ رِيحَانٍ تُرَاحُ لَهُ * مِنْهَا قُلُوبٌ وَأَبْصَارٌ وَتَهْوَاهُ
النَّرْجِسُ الْعَضُّ عَيْنَاهُ وَطَرَّتُهُ * بِنَفْسِجٍ وَجَنِي الْوَرْدِ خَدَاهُ (٤)

(١) ديوان الواواء، ص ٨٣، ٨٤، ٨٥

(٢) بيتمة الدهر، ت قميحة، ج ١، ص ٩١

(٣) ديوان الصنوبري، ص ٦٥

(٤) ديوان الخالديين، ص ١٠٢، ١٠٣

* الخمر:

عشق الشعراء الخمر وتغنوا بها، لأنها تضيء على نفوسهم المتعة والسرور، وبها يغرقون آلامهم وهمومهم، وينتقلون إلى عالم الخيال السعيد الذي لا يعرف من يدخله السأم ولا الكآبة؛ لأنه عالم لا يحده مدى، ولا يصادمه واقع، ولا تلاقيه حقيقة، ولا يرافقه عقل، ولا يحاسبه ضمير.

كان شعر الخمر في العصرين الجاهلي والأموي يأتي في أبيات قليلة من بين ثانيا القصائد، وقلما نجد قصيدة مختصة بهذا الغرض، ومن أشهر شعراء هذين العصرين الأعشى والأخطل التغلبي.

أما شعر الخمر في العصر العباسي فقد صار فناً قائماً بذاته ينبه عن نفسه، وغرضاً مستقلاً له مميزاته وشخصيته، قال دكتور مصطفى الشكعة: "... كان أبو نواس رائد هذا الفن وحامل لوائه، وبعد أن كانت الخمر عند السالفين له مجرد أوصاف عابرة، أصبحت عند المدرسة النواسية أخيلة رفيعة، وصناعة محكمة، وتشبيهات رائعة، ومعاني مبتكرة، وصوراً مولدة"^(١).

وقال دكتور سعود محمود: "والذي يرجع إلى خمريات أبي نواس يدرك أن شعر الخمر عنده قد أصبح مذهباً له، يصبه في قوالب متقنة وتشبيهات رائعة، ومعاني مبتكرة، ويكاد يكون معجماً للخمريات يضم أشتات أسمائها، وأدواتها، وأوقات مزاولتها، ويتحدث عن: الساقى، والساقية، والنديم، وعن كل شيء يختص بها"^(٢).

بعد أن جعل أبو نواس الخمر مذهباً في شعره ثار على التقليد الفني الموروث من الشعراء القدامى "الوقوف على الأطلال" ونادى بالتجديد في المطالع، واستبدل بكاء الأطلال بذكر الخمر، ورفع لواء تلك الدعوة فتبعه العديدون من الشعراء وبخاصة شعراء الجيل الثاني لهذا العصر.

ومما قاله في ذلك:

لَا تَبْكُ لَيْلِي وَلَا تَطْرَبُ إِلَيَّ هِنْدٍ * وَاشْرَبْ عَلَى الْوَرْدِ مِنْ حَمْرَاءِ كَالْوَرْدِ

(١) فنون الشعر، ص ٢٤٠

(٢) الشعر في رحاب سيف الدولة، ص ٢٥٤

كَأْساً إِذَا انْحَدَرَتْ فِي حَلْقِ شَارِبِهَا * أَجَدْتُهُ حُمْرَتَهَا فِي الْعَيْنِ وَالْخَدِّ
فَالْخَمْرُ يَأْقُوْتَةُ وَالْكَأْسُ لُوْلُوَّةٌ * مِنْ كَفِّ جَارِيَةٍ مَمْشُوْقَةٍ الْقَدِّ
تَسْقِيكَ مِنْ عَيْنِهَا خَمْرًا وَمِنْ يَدِهَا * خَمْرًا فَمَا لَكَ مِنْ سُكْرَيْنِ مِنْ بُدِّ
لِي نَشْوَتَانِ وَلِلنَّدْمَانِ وَاحِدَةٌ * شَيْءٌ خُصِصْتُ بِهِ مِنْ بَيْنِهِمْ وَحْدِي^(١)

وفي عصر سيف الدولة أكثر الشعراء من التغني بالخمير وتسابقوا إلى وصفها، وذكر مجالسها. ولعلّ من أشهر شعراء الخمرة في رحاب سيف الدولة: الخالديين، والسرى الرفاء، والوَأَوَاءَ الدمشقي، وأبا الفرج الببغاء، وكشاجم والصنوبري، الذين تأثروا جميعاً بأبي نواس فساروا على نهجه وثاروا على الأطلال التي عفت صورها، وزالت معالمها، واندرست رسومها^(٢)، قال الرفاء:

أَلَا عُدَّ لِي بِيَاطِيَّةٍ وَكَاسٍ * وَرَعَّ هَمِّي بِإِبْرِيْقٍ وَطَاسٍ
وَذَاكِرْنِي بِشِعْرِ أَبِي نُوَّاسٍ * عَلَي رَوْضٍ كَشِعْرِ أَبِي نُوَّاسٍ^(٣)

وقال الصنوبري:

لَا تَبِكِ رِيْعًا عَفَا وَلَا طَلَا * وَلَا تَصِفْ نَاقَةً وَلَا جَمَلَا
وَعَاظَنِي قَهْوَةً إِذَا مُزِجْتِ * أَرْتُكَ مِنْهَا فِي كَآسِهَا شُعْلَا^(٤)

أسهمت الأديرة التي انتشرت في الشرق على تطور هذا النوع من الشعر وخاصة في العصر العباسي، وقد وجدت تلك الأديرة منذ العصر الجاهلي واشتهرت براري سورياومصر بها، وقديماً قال عمرو بن كلثوم:

أَلَا هُبِّي بِصَحْنِكَ فَاصْبَحِينَا * وَلَا تُبْقِي خُمُورَ الْأَنْدَرِينَا
وَكَآسٍ قَدْ شَرِبْتُ بِبِعْبَابِكَ * وَأُخْرَى فِي دِمَشْقَ وَقَاصِرِينَا^(٥)

ومن الناس من كان يقصد تلك الأديرة؛ ليستريح من مشقات السفر، ومنهم من كان يقصدها للتفرج على تماثيلها وصورها، على أن قصدها للعبث

(١) خمريات أبي نواس، شرح علي نجيب عطوي، دار مكتبة الهلال، ط١، ١٩٨٦م، ص ١٢٣.

(٢) الشعر في رحاب سيف الدولة، ص ٢٥٤

(٣) ديوان الرفاء، ص ١٥٢

(٤) ديوان الصنوبري، ص ٤٨٥

(٥) معلقة عمرو بن كلثوم شرح الزوزني، ص

والخمر أكثر من كل أولئك وهؤلاء، وحول هذه الطائفة العابثة نظم شعر كثير^(١).

ومن الأمثلة التي توضح ذلك قول أبي الفرج البغاء في دير مران:

وَيَوْمٍ كَأَنَّ الدَّهْرَ سَامَحَنِي بِهِ * فَصَارَ أَسْمَهُ مَا بَيْنَنَا هِبَةَ الدَّهْرِ
جَرَّتْ فِيهِ أَفْرَاسُ الصِّبَا بِارْتِيَاخِنَا * إِلَى دَيْرٍ مُرَّانَ الْمُعْظَمِ وَالْعُمْرِ
بِحَيْثُ هَوَاءَ الْعَوَظَتَيْنِ مُعْطَرِ الن * نَسِيمٍ بِأَنْفَاسِ الرِّيَّاحِينَ وَالزَّهْرِ
فَمِنْ رَوْضَةٍ بِالْحُسْنِ تُرْفَدُ رَوْضَةً * وَمِنْ نَهْرٍ بِالْفَيْضِ يَجْرِي إِلَى نَهْرِ
وَفِي الْهَيْكَلِ الْمَعْمُورِ مِنْهُ إِفْتَرَعْتُهَا * وَصَحْبِي حَلَالاً بَعْدَ تَوْفِيَةِ الْمَهْرِ
وَنَزَّهْتُ عَنِ غَيْرِ الدَّنَائِيرِ قَدْرَهَا * فَمَا زِلْتُ مِنْهَا أَشْرَبُ التَّبَرِّ بِالتَّبَرِ^(٢)

وكانت أكاليل الزهور تكلل رؤوس الشاربين ويبدو ذلك من خلال قول الصنوبري في رفاقه على الشراب:

على ذا تاجٍ وردٍ و على ذا تاجٍ نسرين^(٣)

كان الرفاء من الشعراء الذين اشتهروا بعشق الخمر، وتفننوا في وصفها، وكان كثيراً ما يمزج وصف الخمر بوصف الطبيعة، ولا يحلو له الشراب إلا تحت ظلال الأشجار الظليلة المخضرة، وكان لا يرى في شربها إثماً، فقال:

أَدْرَهَا فَفَقَدُ اللَّوْمِ إِحْدَى الْغَنَائِمِ * وَلَا تَخْشَ إِثْمًا لَسْتَ فِيهَا بِآثِمِ
فَلَا عَيْشَ إِلَّا فِي اعْتِصَامِ بَقْهَوَةٍ * يَرُوحُ الْفَتَى مِنْهَا خَضِيبَ الْمَعَاصِمِ
وَلَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّ كَرَمٍ مُعَرَّشٍ * تُغْنِيكَ فِي قَطْرِيهِ وُرْقُ الْحَمَائِمِ
سَمَاءٌ غُصُونٍ تَحْجُبُ الشَّمْسَ أَنْ تُرَى * عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا مِثْلَ نَثْرِ الدَّرَاهِمِ^(٤)

وقد أكثر شعراء الأمير سيف الدولة الحمداني من التغني بالخمر في أشعارهم، وذكروا قدمها وتحدثوا عن أثر دبيبها في نفس الشارب، ووصفوها،

(١) تطور الخمريات في الشعر العربي، لجميل سعيد، مطبعة الاعتماد، ١٩٥٤م، ص ١٩٠-١٩١

(٢) الخطط، ج ٦، ص ٤١

(٣) ديوان الصنوبري، ص ٤٩٠

(٤) بيتيمة الدهر، ج ١، ص ١٩٧

ووصفوا الكأس، والساقى، والساقية، واقتدوا في التلذذ بها والإكثار من وصفها بأبي نواس.

والببغاء من الشعراء الذين عاقروا الخمرة وأدمنوا شربها، وقد أشار في إحدى قصائده الخمرية إلى قدم الخمر معللاً لذلك بتعليل فيه شيء من الطرافة، اشتقه من اسمها، فقال أنها سميت بذلك الاسم؛ لأنها عرفت في سالف الزمن:

وَعَرِيقَةَ الْأَنْسَابِ وَالشَّيْمِ * مَوْجُودَةً وَالْخَلْقُ فِي الْعَدَمِ
كَمَلْتَ فَضَائِلَهَا وَقَصَّرَ عَنِ * أَوْصَافِهَا الْإِغْرَاقُ فِي الْكَلَمِ
ظَهَرَتْ وَنُورُ الشَّمْسِ فِي فَلَكِ * مِنْ قَبْلِ خَلْقِ الصُّبْحِ وَالظُّلَمِ
فَإِنْهَلَّ جَوْهَرُهَا بِمَنْسَكِبِ * لَمْ يُعْتَصِرْ بِيَدٍ وَلَا قَدَمِ
وَاشْتَقَّ مَعْنَى إِسْمِ السَّلَافِ لَهَا * مِنْ كَوْنِهَا فِي سَالِفِ الْأَمَمِ
فَكَأَنَّهَا فِي صَفْوِهَا خُلِقِي * وَكَأَنَّهَا فِي عِتْقِهَا كَرَمِي (١)

ومن الشعراء الذين تعشقوا الخمر، واختلفوا إلى أديرتها وتنقلوا بين حاناتها؛ ابتغاء المتعة والسرور، الخالديان، فوصفاها بدقة، قال أبو عثمان:

هَتَفَ الصُّبْحُ بِالْدُّجَى فَاسْتَقْنِيهَا * فَهَوَّةً تَتَرُكُ الْحَلِيمَ سَفِيهَا
لَسُنَّتْ تَدْرِي لِرِقَّةٍ وَصَفَاءِ * هِيَ فِي كَأْسِهَا أُمُّ الْكَأْسِ فِيهَا (٢)

ووصف أخوه أبو بكر الساقى والكأس، فقال:

قَامَ مِثْلَ الْعُصْنِ الْمَيِّ * يَادِ فِي غَضِّ الشَّابِ
يَمَزْجُ الْخَمْرَ لَنَا بِالصِّ * صَفْوٍ مِنْ مَاءِ الرُّضَابِ
فَكَأَنَّ الْكَأْسَ لَمَّا * ضَحِكَتْ تَحْتَ الْحَبَابِ
وَجَنَّةٌ حَمْرَاءُ لَاحَتْ * لَكَ مِنْ تَحْتِ النَّقَابِ (٣)

وتحدث شعراء الأمير عن أثر دبيب الخمر في نفس الشارب فقال

الرفاء:

دَعَانَا إِلَى اللَّهِوَ دَاعِي السُّرُورِ * فَبَيْتْنَا نَبُوحُ بِمَا فِي الصُّدُورِ

(١) بيتمة الدهرن ج ١، ص ٣٢١-٣٢٢

(٢) ديوان الخالديين، ت الدهان، دار صادر، بيروت، ج ١، ص ١٥٠

(٣) ديوان الخالديين، ج ١، ص ١٠

وطَافَتْ عَلَيْنَا بِشَمْسِ الدِّنَا * نَفِي غَلَسِ اللَّيْلِ شَمْسُ الخُدُورِ
 كَأَنَّ الكَوْوَسَ وَقَدْ كُأَلَّتْ * بِفَضْلَاتِهَا بِأَكَالِيْلِ نُورِ
 جِيُوبٍ مِنَ الوَشْيِ مَزْرُورَةٌ * يَلُوحُ عَلَيْهَا بِيَاضُ النُّحُورِ (١)

ويريد الواوَاء أن يغتنم فرصة غفلة الدهر عنه ليستمتع بشرب الخمر
 ويتعجل غلامه أن يبادر بها قبل أن يعاجله الموت، فقال:

قُمْ يَا غُلامُ إِلَى المُدَامِ * قُمْ دَاوِنِي مِنْهَا بِجَامِ
 فَالضُّبْحُ يَنْتَهِبُ الدُّجَى * وَالبَدْرُ يَضْحَكُ فِي الظَّلامِ
 قُمْ فَاسْقِنِي بَرْقَ الثُّغْوِ * رِفقاً مَضَى بَرْقُ الغَمَامِ
 بَادِرِ إِلَى شُرْبِ الحَمِيَا * قَبْلَ بِأَدِرَةِ الحَمَامِ
 وَتَغَنِّمِ الغَفَلَاتِ مِنْ * دَهْرٍ يَجُورُ عَلَى الكِرَامِ (٢)

ورثا كشاجم كأس انكسرت فأبدى مدى تحسره على فقدها، فقال:

عَرَانِي الزَّمَانُ بِأَحْدَاثِهِ * فَبَعْضُ أَطَقْتُ وَبَعْضُ فَدَحِ
 وَعِنْدِي فَجَائِعٌ لِلنَّائِبَاتِ * وَلَا كَفَجِيعَتِنَا بِالْقَدَحِ
 وَعَاءُ المُدَامِ وَتَاجُ البَنَانِ * وَمُدْنِي السُّرُورِ وَمُقْصِي التَّرْحِ
 وَمَعْرِضُ رَاحِ مَتَى يَكْسُهُ * وَيُسْتَوْدَعُ السَّرَّ مِنْهَا يَبْحِ
 وَيَعْبِقُ مِنْ نَكْهَاتِ المُدَامِ * فَتَحْسَبُ مِنْهُ عَيْباً نَفْحِ
 أَقْلَبُ مَا أَبْقَتِ الحَادِثَا * تٌ مِنْهُ وَفِي العَيْنِ دَمْعٌ يَسْحُ (٣)

قال د.مصطفى الشكعة:

كان الشعراء في مجالس الخمر يتناشدون الشعر ويستمعون إلى
 الموسيقى، وقد تركت هذه المجالس لوناً جديداً من الخمرات هو: الاستزادة،
 والدعوة إليها، والمشاركة فيها وذكر ما بها من خمر معتقة وأخوان ظرفاء.
 قال أبو عثمان الخالدي يدعو صديقاً إلى الشراب في يوم شك (٤):

(١) ديوان السرى، ص ١٤١

(٢) ديوان الواوَاء، ص ٢٠١، ٢٠٢

(٣) ديوان كشاجم، ص ٧٨

(٤) ديوان الخالدين، ص ١٣٢ - ١٣٣

هُوَ يَوْمَ شَاكَ يَا عَلِيَّ * يَّ وَشَرُّهُ مُذْ كَانَ يُخَذَّرُ
 وَالْجَوُّ حُلَّتْهُ مُمْسَسٌ * سَكَّةٌ وَمَطْرُفُهُ مُعْتَبَرُ
 وَالْمَاءُ فِضِّي الْقَمِي * صِ وَطَيْلَسَانُ الْأَرْضِ أَخْضَرُ
 وَأَخُو الْحَجَى لَوْ كَانَ هَذَا الْ * يَوْمُ مِنْ رَمَضَانَ أَفْطَرُ
 وَمُدَامَةَ صَفْرَاءِ أَدْ * رَكَ عُمْرَهَا كِسْرَى وَقَيْصَرُ
 وَحَدِيثُنَا مَا قَدْ عَلِمَ * تَ وَشِعْرُنَا مَا أَنْتَ أَبْصَرُ
 فَأَنْشِطْنَا نَحْتَتَ مِنْ * كَاسَاتِنَا مَا كَانَ أَكْبَرُ
 أَوْ لَا فَإِنَّكَ جَاهِلٌ * إِنْ قُلْتَ إِنَّكَ سَوْفَ تُعْذَرُ

* التَّشْيِيعُ:

كان المسلمون في عهد الخلافة الراشدة الأولى جماعة متحدة قوية متماسكة فكرياً وعقدياً، ولقد كان هذا الأمر من أهم العوامل التي أسهمت في تبليغ الرسالة المحمدية للأمم من حولهم... فدخل الناس في دين الله أفواجاً. وعندما استشهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه - سنة ٣٥هـ^(١) كان هذا الحدث الجلل بداية فتنة دامية بين المسلمين فرقت جموعهم وشنت وحدثهم، فنشبت الحرب بين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الذي بايعه المسلمون خليفة بعد عثمان وبين معاوية ابن أبي سفيان الذي كان والياً لعثمان على الشام، والذي رفض أن يبايع علياً^(٢)، فاستمرت الحرب بينهما سنوات حتى استشهد الإمام علي في سنة ٤١هـ^(٣).

وقد تركت هذه الحرب التي عُرفت "بالفتنة الكبرى" آثاراً: نفسية واجتماعية وسياسية في المجتمع الإسلامي، فبرزت نتيجة لذلك خلافات فكرية ومذهبية لم تكن معروفة من قبل.

(١) تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، لمحمد علي أبي ريان، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٦م، ص ١٢٣.

(٢) تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، لمحمد علي أبي ريان.

(٣) راجع الفرق الإسلامية في الشعر الأموي، للنعمان القاضي، دار المعارف، مصر، ص ٩١ وما بعدها.

لم يكتف معاوية بن أبي سفيان باغتصاب الخلافة من علي -فحسب- بل زاد الأمر تأزماً بعد أن بايع ابنه يزيد ملكاً وخليفة على المسلمين، ثم أرسل يزيد إلى الحسين بن علي من قتلته في كربلاء وشرّد آل البيت وأنزل بهم الذل والاضطهاد، مما جعل فريقاً من المسلمين يعطف على مصابهم، وسميت تلك الفرقة بالشيعة^(١). وكان من ألمع شعرائهم، الكميت بن زيد، وكثير عزة، وأيمن بن خريم.

ونتيجة لتلك الأحداث نتجت الخلافات المذهبية والفكرية، وتعددت الأحزاب السياسية^(٢)، وظهر الحزب الأموي الذي يؤيد الأمويين وينادي بخلافة معاوية وابنه، ومن شعرائه: جرير والأخطل، وظهر الحزب الذي عارض الشيعة والأمويين معاً، وهو حزب الخوارج، ومن شعرائه: فروة بن نوفل، وظهر حزب الزبيريين الذي كان يناصر عبد الله بن الزبير، ومن شعرائه: عبد الله بن قيس الرقيات.

كانت تلك حال الشارع السياسي في العصر الأموي، ثم جاء العصر العباسي ولم يكن حظ آل البيت فيه بأفضل من حظهم في العصر الأموي بل لقوا من التشريد والمطاردة شيئاً كثيراً، وكان من ألمع الشعراء في هذا العصر دعبل الخزاعي صاحب القصيدة المشهورة:

مَدَارِسُ آيَاتٍ خَلَّتْ مِنْ تِلَاوَةٍ * وَمَنْزِلٌ وَحِيٍّ مُقْفَرٍ الْعَرَصَاتِ

بعد انقسام الدولة العباسية، تعددت الدويلات، وكانت معظم تلك الدويلات شيعية، مثل: الفاطمية، والزيدية، والبويهية، والحمدانية، وغيرها. اتسم الحمدانيون في تشيعهم بالتسامح والبعد عن التعصب المذهبي، ولم يفرضوا ذلك المذهب على الدولة؛ لأن تشيعهم كان خفيفاً، ولم يكونوا مثل: الفاطميين ولا البويهيين الذين كانوا في غاية التشدد والتعصب*.

(١) الإمامة والسياسة، لمحمد بن عبد الله الدينوري، ت طه أحمد الزين، مؤسسة الحلبي، ج ١، ص ١٣٧ وما بعدها، ص ١٢٣.

(٢) الفرق الإسلامية، الشعر الأموي، ص ٩١ وما بعدها.

(٣) * قال القرطبي: "كان بنو حمدان شيعة ولكن تشيعهم كان خفيفاً، ولم يكونوا كبنو بويه في غاية القباحة سبابين، راجع أعلام النبلاء، ج ١، ص ٢٧٩.

المعروف أن فرق الشيعة كانت متفاوتة في تعصبها، وقد رأى البعض *
أن الفرقة الإمامية تعد من أعدل فرق الشيعة، وهم يرون الإمامة في علي أولاً
ثم في أبنائه على التعيين واحداً بعد واحد.

ولم تهدنا كتب التاريخ إلى الفرقة الشيعية التي ينتمي إليها الحمدانيون، وهذا إن
دلّ فإنما يدل على أن التشيع عندهم لم يكن عميقاً وربما كان لهدف سياسي.
وفي ديوان أبي فراس الحمداني وجدنا ما يشير إلى أنه كان ينتمي إلى
فرقة الشيعة الإمامية الاثنا عشرية، وهذه الفرقة سميت بذلك؛ لأنها تقول باثني
عشر إماماً، وأبيات أبي فراس التي تشير إلى ذلك هي:

لَسْتُ أَرْجُو النَّجَاةَ مِنْ كُلِّ مَا أَخَذَ * شَاهُ إِلَّا بِأَحْمَدٍ وَعَلِيٍّ
وَبِنْتِ الرَّسُولِ فَاطِمَةَ الطُّهْرِ * رِ وَسِبْطِيهِ وَالْإِمَامِ عَلِيٍّ
وَالْتَقِيَّ النَّقِيَّ بَاقِرِ عِلْمِ الْـ * لَهُ فِينَا مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ
وَأَبْنِهِ جَعْفَرِ وَمُوسَى وَمَوْلَا * نَا عَلِيٍّ أَكْرَمِ بِهِ مِنْ عَلِيٍّ
وَأَبِي جَعْفَرِ سَمِيِّ رَسُولِ الْـ * لَهُ ثُمَّ ابْنِهِ الزَّكِيِّ عَلِيٍّ
وَأَبْنِهِ الْعَسْكَرِيِّ وَالْقَائِمِ الْمُظْـ * هِرِ حَقِّي مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ
بِهِمْ أَرْتَجِي بُلُوغَ الْأَمَانِي * يَوْمَ عَرَضِي عَلَى الْإِلَهِ الْعَلِيِّ (١)

ومن هنا نرجح أن يكون مذهب الشيعة الإمامية "الاثنا عشرية" مذهب
الدولة الحمدانية.

* راجع ظهر الإسلام، لأحمد أمين، ج ٤، ص ١٠٩ - ١٠١

* تاريخ المذاهب الإسلامية، ص ٤ وما بعدها.

(١) ديوان أبي فراس، ج ٣، ص ٤٢٩، ديوان أبي فراس، رواية ابن خالويه، ص ٣١٣.

يقول د. الشكعة: أن هؤلاء الأئمة الذين ذكروا القصيدة.. ورد تسلسلهم في كتاب فرق الشيعة للعالم الشيعي أبي محمد الحسن بن موسى النوبختي.
أما الشعر الشيعي في بلاط الأمير سيف الدولة الحمداني فقد جاء في صور مختلفة منها:

١- تمجيد آل البيت، ٢- التوسل إلى الله بهم

٣- هجاء بني أمية وبني العباس ٤- التعريض بأهل السنّة

٥- رثاء الحسين والتفجع عليه

تمجيد آل البيت، قال كشاجم:

آل الرسول فضولتم * فضل النجوم الزاهره
وبه رتم أعداكم * بالمآثرات السائره
ولكم من الشرف البلا * غة والحلوم الوافره
فإذا تفوخر بالعلا * فبكم علاكم فآخره
هذا وكم أطفأتم * عن أحمد من ثائره
بالسمر تخضب بالنجيب * مع وبالسيف الباتره
تشفى بها أكبادكم * من كل نفس كافره^(١)

القصيدة خفيفة رشيقة الوزن يمدح فيها الشاعر آل الرسول (صلى الله عليه وسلم) ويبن فضلهم ومآثرهم الطيبة، مؤكداً أنهم أهل الشرف الرفيع، والبلاغة الراسخة، والعقل الراجح، والشجاعة المعهودة.

٢- التوسل إلى الله بهم:

مدح الرفاء في قصيدة طويلة آل البيت وقال في جزء منها متوسلاً بهم:
آل النبي وجدنا حُبكم سبباً * يرضى الإله به عنّا ويرضينا
فما نخطبكم إلا بسادتنا * ولا نناديكم إلا موالينا
وكم لنا من فخارٍ في مودتكم * يزيدُها في سوادِ القلبِ تمكيناً
إن أجرٍ في حُبكم جزِي الجوادِ فقد * أضحت رِحابُ مساعيكُم مياديناً^(٢)

(١) ديوان كشاجم، ص ١٩٣.

(٢) ديوان السرى الرفاء، ص ٢٧٣.

يتوسل الشاعر لنيل رضاء الله - سبحانه وتعالى - بحب آل النبي ويقول:
إننا لا نخاطبهم إلا بسادتنا، ولا نناديهم بغير موالينا، إجلالاً وتكرمة لهم، كما
أن قدرهم السامي يزيد مودتهم تمكيناً في قلوبنا، ونحن نفخر بوادرهم ونسعى
دائماً لحبهم. وقال الصنوبري مبيناً جانباً من مذهب الشيعة وجانباً من مبادئهم
متوسلاً وسائلاً الشفاعة بآل النبي:

- * لا تُطعمَنَّ النفسَ في إعطائها
 - * شيئاً فتطلبَ فوق ما تعطيها
 - * حبُّ النبي محمد ووصيِّه
 - * مع حبِّ فاطمة وحب بنيتها
 - * أهل الكساء الخمسة الغرر التي
 - * يبني العلا بعلاهم بانيتها
 - * هم صفة الكرم الذي أصفيتهم
 - * ودي وأصفيت الذي يصفيتها
 - * أرجو شفاعتهم فتلك شفاعة
 - * يلتذُّ برد رجائها راجيها
 - * صلوا على بنت النبي محمد
 - * بعد الصلاة على النبي أبيها^(١)
- ٣-أ- هجاء بني أمية:

- * يا عصبه لم تخف من
- * إلهها أن تجورا
- * يا عصبه لم تراقب
- * قرآنه المسطورا
- * ألم يكن حمل رأس ال
- * حسين خطباً كبيراً
- * يوم الحسين على الدي
- * من كنت يوماً عسيرا
- * ملأت والله كرباً
- * يا كربلاء الصُّدورا^(٢)

قال الصنوبري في هجاء الأمويين؛ لأنهم قتلوا الحسين بن علي:

وقال معرضاً بهم:

- * وابكوا دماءً لو تشاهدُ سفكها
- * في كربلاء لما ونت تبيها
- * تلك الدماء لو أنها تُفدى إذا
- * كنا بنا وبغيرنا نفديها
- * إن الذين بغوا إراقتها بغوا
- * مشئومة العقبى على باغيها^(٣)

ب- هجاء بني العباس:

(١) ديوان الصنوبري، ص ٥١٠

(٢) ديوان الصنوبري، ص ٧٥

(٣) المصدر السابق، ص ٥١٠

روى عن ابن خالويه أن: محمد بن سكرة الهاشمي عمل قصيدة يفاخر فيها ولد أبي طالب، وينتقص ولد علي ويذكر فيها التحامل عليهم، مطلعها:

بنو علي دعوا مقاتلكم * لا ينقص الدر رصع من رصعه^(١)

فكتب أبو فراس قصيدة طويلة جداً مجّد فيها آل البيت وراثهم، وبكى، وبكاهم وهجا فيها العباسيين وندّد بهم، ووصف حكمهم بالطغيان وبالظلم وبالفساد، وقال: إن العلويين أحق الناس بالخلافة، وذكر أنه لا سبيل لا للعباسيين ولا لغيرهم إلى الافتخار على بني علي؛ لأنهم - كما يرى - دونهم حسباً ونسباً وشرفاً، منها قوله:

بالرجالِ أما لله منتصِفٌ * من الطُغاةِ أما للدينِ مُنتَقِمٌ
بنو عليّ رعايا في ديارهم * والأمرُ تملكُهُ النسوانُ والخدمُ^(٢)

يستصرخ الشاعر من حوله للانتقام لدين الله ونصرة^(٣) بني علي المظلومين في أرضهم على حين أمر الملك في الدولة العباسية يديره الخدم والنسوان، فقال:

لايطغينَ بني العباسِ ملكُهُم * بنو عليّ مَوالِيهِم وَإِن رَعَمُوا
أَتَفَخَّرُونَ عَلِيهِم لا أبا لَكُمْ * حَتَّى كَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ جَدُّكُمْ
وَمَا تَوَازَنَ يَوْمًا بَيْنَكُمْ شَرَفٌ * وَلا تَسَاوَتْ بِكُمْ فِي مَوْطِنٍ قَدَمٌ
وَلا لَكُمْ مِثْلُهُم فِي المَجْدِ مُتَّصِلٌ * وَلا لِجَدِّكُمْ مَسْعَاةٌ جَدَّهُم

وقال موضحاً أحقية العلويين للخلافة ومدلاً بما قاله النبي صلى الله

عليه وسلم يوم الغدير:

قَامَ النَّبِيُّ بِهَا يَوْمَ الغَدِيرِ لَهُم * وَاللَّهُ يَشْهَدُ وَالْأَمْلَاقُ وَالْأُمَّمُ
وَصُيِّرَتْ بَيْنَهُم شُورَى كَأَنَّهُمْ * لا يَعْرِفُونَ وَلاةَ الحَقِّ أَيُّهُمْ
تَاللَّهِ ما جَهِلَ الأَقْوَامُ مَوْضِعَهَا * لَكِنَّهُمْ سَتَرُوا وَجَهَ الَّذِي عَلمُوا
ثُمَّ ادَّعَاهَا بَنُو العَبَّاسِ إِرْتَهُمُ * وَما لَهُم قَدَمٌ فِيها وَلا قَدَمُ

(١) ديوان أبي فراس، ج ٣، ص ٣٤٧

(٢) ديوان أبي فراس، ج ٣، ص ٣٤٩ وما بعدها.

(٣) ديوان أبي فراس، شرح يوسف شكري، ص ٢٨٨، ٢٩٤.

وقال مشيراً إلى غدر أبي جعفر المنصور بأبي إبراهيم وأخيه محمد بن النفس الزكية، ابني عبد الله بن الحسن بن علي، وكيف أنه تحايل عليهما إلى أن قتلتهما، ونصب نفسه خليفة:

بئس الجزاء جزيتم في بني حسن * أبوهم العلم الهادي وأمهم
لا بيعة ردعتكم عن دمايهم * ولا يمين ولا قري ولا ذمم

وقال مبيناً: إن ما فعله بنو العباس بآل رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

وغدرهم بذويه وقتلهم وتشريدهم لهم، كان أفظع بكثير مما لاقوه من بني أمية:

مانال منهم بنو حرب وإن عظمت * تلك الجرائر إلا دون نيلكم
كم غدره لكم في الدين واضحة * وكم دم لرسول الله عندكم
أنتم أله فيما ترون وفي * أظفاركم من بنيه الطاهرين دم
يا جاهداً في مساويهم يكتمها * غدر الرشيد يحيى كيف ينكتم
ليس الرشيد كموسى في القياس ولا * مأمونكم كالرضا إن أنصف الحكم
باؤوا بقتل الرضا من بعد بيعته * وأبصروا بعض يوم رثدهم وعموا^(١)

وهنا يشير الشاعر إلى غدر المأمون بعلي الرضا بعد أن قبل أن يجعله

الخليفة من بعده ثم دس له السم في الطعام وقتله.

التعريض بأهل السنة: قال أبو فراس:

تباً لقوم تابعوا أهواءهم * فيما يسوءهم غداً عقباه
أتراهم لم يسمعوا ما خصه * منه النبي من المقال أباه
إذ قال يوم غدير "خم" معناً * من كنت مولاه فذا مولاه
هذي وصيته إليكم فافهموا * يا من يقول بأن: ما أوصاه
اقرأ من القرآن ما في فضله * وتأملوه وافهموا فحواه
لو لم تنزل فيه إلا "هل أتى" * من دون كل منزل لكفاه
من كان أول من جنى القرآن من * لفظ النبي ونطفه وتلاه؟
من عاضد المختار من دون الورى * نم أزر المختار من آخاه؟

(١) ديوان أبي فراس، شرح يوسف شكري، ص ٢٨٨، ٢٩٤.

- * من بات فوق فراشه متكرراً * لما أظل فراشه أعداه؟
- * من ذا أراد إلهنا بمقاله * الصادقون القانتون سواه؟
- * من خصه جبريل من رب العلا * بتحية من ربه وحباه؟
- * أظنتم أن تقتلوا أولاده * ويظلمكم يوم المعاد لواه
- * يا رب إنني مهتد بهداهم * لا أهتدي يوم الهدى بسواه
- * أهوى الذي يهوى النبي وآله * أبداً وأشناً كل من يشناه^(١)

ومن مظاهر الشعر الشيعي "بكاء القبور" قال الصنوبري:

- * نكي قبوراً إن بكينا غيرها * بعض البكاء فإنما نعيها
- * نفذت حياتي في شجى وكآبة * لله مكتئب الحياة شجيتها^(٢)

قال السري:

- * أقام روح وريحان على جدث * ثوى الحسين به ظمان آمينا
- * كأن أحشاءنا من ذكره أبداً * تطوى على الجمر أو تحشى السكاكينا^(٣)

نجد أن العديد من شعراء الأمير يمزجون في شعرهم الشيعي ما بين المدح والهجاء والرثاء، ويجيء ذلك كله في قصيدة واحدة ويبدع الشاعر فيها إلى أن يستلج قلوب القراء ويأسر نفوسهم، ويرجع السبب في ذلك إلى أن هؤلاء الشعراء كانوا صادقين في مشاعرهم مخلصين في ودادهم لآل البيت مؤمنين بمبادئهم يدافعون عنها بصدق وانفعال وحماس، بعيدين كل البعد عن التكلف، وهذا ما جعل معظم قصائدهم خالية من البديع.

الجدير بالذكر أن هذه القصائد تصور جانباً مهماً في تاريخ الحياة في

ذلك الوقت؛ ولذا فهي وثائق تاريخية مهمة.

قال السري الرفاء:

- * ورب غراء لم تُنظم قلائدها * إلا ليحمد فيها الفاطميونا
- * الوارثون كتاب الله يمنحهم * إرث النبي على رُغم المُعاديننا

(١) ديوان أبي فراس، ج ٢، ص ٤٢٢، ٤٢٤.

(٢) ديوان الصنوبري، ص ٥١١.

(٣) ديوان الرفاء، ص ٢٧٣.

- والسابقون إلى الخيرات ينجدهم * عتق النجار إذا كلل المجارونا
 قوم نصلّي عليهم حين نذكّرهم * حبّاً ونلعن أقواماً ملاءينا
 إذا عددنا فريشاً في أباطحها * كانوا الذوائب منها والعرائنا
 أغنتهم عن صفات المادحين لهم * مدائح الله في طه وياسينا
 فلست أمدحهم إلا لأرغم في * مدحهم أنف شانيهم وشانينا^(١)

* الإخوانيات:

هذا اللون من الشعر يصور العلاقات الاجتماعية بين الشعراء وأصدقائهم، وتندرج تحته مجموعة من الموضوعات، التي يتحدث فيها الشاعر عن الروابط الاجتماعية بينه وبين هؤلاء الأصدقاء، مهناً، أو معزياً، أو لائماً، أو معتذراً، أو مادحاً، أو غيره.

أما إذا كان الصديقان شاعرين فإنهما يتساجلان بالقصائد الأخوية، في شعر رقيق يحرص فيه الشاعران على اتفاق القافية والروي.

كان أبو فراس من أكثر شعراء عصره مساجلة بين أحابيه وأصدقائه لما عرف عنه من: رقة الحاشية، وصفاء النفس، وحلاوة المعشر، وكرم الطبع، ومساجلاته متعددة مع القاضي أبي الحصين الرقي قاضي حلب والشاعرين أبي محمد جعفر وأبي أحمد عبد الله أبناء ورقاء الشيباني - وكانا من رؤساء عرب الشام وقوادهما والمختصين بسيف الدولة^(٢) - ومثال ذلك ما كتبه أبو فراس إليهما:

- أتاني عن بني ورقاء قول * أذ جنى من الماء القراح
 وأطيب من نسيم الروض حفت * به اللذات من روح وراح
 ولو أني اقترحت على زماني * لكنتم يا بني ورقا اقتراحي^(٣)
 فأجابه أبو أحمد قائلاً:

(١) ديوان الرقاء، ص ٢٧٣

(٢) فنون الشعر، ص ٢٨٠

(٣) بيتيمة الدهر، ج ١، ص ١٢٢ - ١٢٣

- أصاح قلبه أم غير صاح * وقد عنت له عفر البطاح
 طباء الوحش تحكي ماثلات * طباء الأنس بالصور الملاح
 يدرن مراض أجفان صحاح * فيا عجي من المرضى الصحاح
 وما زالت عيون العين فينا * تؤثر فوق تأثير السلاح^(١)

ومن بعد هذا الغزل الرقيق والمداعبة اللطيفة، قال مادحاً له:

- أمدره تغلب لسناً وعلماً * ومصقع نطقها عند التلاحي
 لقد أوتيت علماً واضطلاعاً * بآداب وألفاظ.. فصاح
 لمقولك المضاء إذا انتضاه الـ * قصيد على المهتدة الصفا^(٢)

وأنفذ أبو فراس إليهما قصيدته "لعلّ خيال العامرية زائر فيسعد مهجور

ويسعد هاجر، فكتب إليه أبو أحمد على ذات الوزن والروي:

- ألا يا ابن عم يستزيد ابن عمه * رويدك أني لانبساطك شاكر
 تصفحت ما أنفذته فوجدته * كما استودعت نظم العقود الجواهر
 وذكرني روضاً بكته سماؤه * فضاحكة مستأسد وهو زاهر
 عرائس يجلوها عليك خدورها * ولكنما تلك الخدور دفاتر
 فعدلاً فإن العدل في الحلم سيرة * بها سار في الناس الملوك الأساور^(٣)

وكتب أبو فراس إلى أبي الحصين -قاضي حلب- وكان الأمير قد عزم

المسير إلى الرقة:

- يا طول شوقي إن قالوا الرحيلُ غدا * لفرق الله فيما بيننا أبدا
 يامن أضافيه في قربٍ وفي بُعدٍ * ومن أخالصه إن غاب أو شهدا
 لا يبعد الله شخصاً لا أرى أنساً * ولا تطيب لي الدنيا إذا بعدا^(٤)

فأجابه القاضي بقصيدة مطلعها:

(١) المصدر السابق

(٢) بيتمة الدهر، ج ١، ص ١٢٢-١٢٣

(٣) بيتمة الدهر، ج ١، ص ١٢٤

(٤) بيتمة الدهر، ج ١، ص ١٢٧

الحمد لله حمداً دائماً أبداً * أعطاني الدهر ما لم يعطه أحداً
إن كان ما قيل من سير الركاب غداً * حقاً فإني أرى وشك الحمام غداً^(١)

يقول د. زكي مبارك: صار هذا الفن فناً قوياً يخيل إلى القارئ أنه فن جديد؛ لكثرة ما جدّ فيه من الصور والتعابير، وهو في جوهره قريب من الغزل، لا يفرق بينهما إلا اختلاف ما يرادان عنه من أحوال النفس^(٢).

وقد كثرت المساجلات الشعرية بين الصديقين الحميمين الصنوبري وكشاجم ومن ذلك ما كتبه كشاجم إلى الصنوبري معاتباً^(٣):

أخ لي كنتُ أغبطُ باغتقاده * ولا أخشى التتكر من وداده
وكان قياده بيدي ذليلاً * فصعبت الحوادث من قياده
فأصبح قد تبرأ من ودادي * كما برى المتيّم من فواده
وعاندني ولم أعلم بآني * سأنقل من هواه إلى عناده
ومال إلى البعاد ولستُ أخشى * حمام الموت إلا في بعاده
جفاً فأبان عن طرفي لذيد الـ * كرى وأزال خدي عن وساده^(٤)

وقال يصف مدى تعلقه بصديقه العزيز مبيناً مكان وده من مهجته:

ولو سفكت يداه دم ابن عمي * أو إنني لم أتره ولم أعاده
ولو قتلي أراد قتلتُ نفسي * له عمداً ليلبغ من مراده
أقنني إن عثرتُ وخذ بكفي * أخيك وفك طرفي من سهاده
فما كتبتُ يدي الأبيات حتى * جرى قلبي بدمعي في مداده
وإن أك مُذنباً وعفوت عني * فإن الله يعفو عن عباده^(٥)

أجابه الصنوبري بقصيدة رائعة، منها قوله:

أخ لي عاد من بعد اجتنابه * وفرق بين قلبي واكتنابه

(١) المصدر السابق

(٢) النثر الفني في القرن الرابع الهجري، دار الجيل، بيروت، ص ١٢٨.

(٣) بيتمة الدهر، ج ١، ص ١٢٤

(٤) المصدر السابق، ص ١٢٧

(٥) ديوان كشاجم، ص ١٣٦ وما بعدها

* حباني بالعتاب وكان ظني
 * وخاطبني فخلت بأن زهر ال
 * بلفظ لو بدا لحليف شيب
 * فقرب بين أجفاني وغمضي
 * إذا انتسب الثقات إلى وفاء
 * أبا الفتح افتحت الفضل لما
 * وأطفأ برداً وصلك حر هجر
 * بنفسي شيمة لك ولو أتحت
 * * به أن لا سبيل إلى عتابه
 * * ربي الموشي يجنى من خطابه
 * * لفارقه وعاد إلى شبابه
 * * وياعد بين دمعي وانسكابه
 * * فحسبك بانتسابي وانتسابه
 * * فككت معذباً بك من عذابه
 * * تلهبت الجوانح بالتهابه
 * * لذي ظماً لكانت من شرابه^(١)

ويقول دكتور سعود محمود: يبدو لنا أن السبب في تعكير الصفاء بينهما

يرجع إلى معارضة الصنوبري لأرجوزة لكشاجم.

وتدخل التعازي في هذا اللون من الشعر قال أبو الفتح كشاجم معزياً

الصنوبري عن ابنته:

* أَتَأْسَى يَا أَبَا بَكْرٍ
 * وَقَدْ زَوَّجْتَهَا الْقَبْرَ
 * وَعَوَّضْتَ بِهَا الْأَجْرَ
 * زِفَافٌ أَهْدَيْتَ فِيهِ
 * فَتَاةً أَسْبَلَ اللَّهُ
 * وَقَدْ يَخْتَارُ فِي الْمَكْرُو
 * فَقَابِلْ نِعْمَةَ اللَّهِ الَّتِي
 * وَعَزَّ النَّفْسَ عَمَّا فَا
 * * لِمَوْتِ الْخُرَّةِ الْبُكْرِ
 * * وَمَا كَالْقَبْرِ مِنْ صَهْرٍ
 * * وَمَا كَالْأَجْرِ مِنْ مَهْرٍ
 * * مِنْ الْخِذْرِ إِلَى الْقَبْرِ
 * * عَلَيْهَا أَسْبَغَ السَّثْرَ
 * * هِ لِلْمَرْءِ وَمَا يَدْرِي
 * * أَوْلَاكَ بِالشُّكْرِ
 * * تَ بِالتَّسْلِيمِ وَالصَّبْرِ^(٢)

ومن قصائد المعاتبات قول السري في سيف الدولة عندما منعه من

إنشاد شعره في مجلسه فقال في ذلك:

* علام حرمتني إنشاد شعري
 * * لديك وقد تناشده الأنام
 * * ولي فيك التي تلغى القوافي
 * * إذا ذكرت ويمتن الكلام

(١) ديوان الصنوبري، ص ٤٥٧

(٢) ديوان كشاجم، ص ٢٠٢، ٢٠٣

- يقصر عن مداها الريح جرياً * وتعجز عن مواقعها السهام
 تنهت حسنها شاد وحاد * تحت بها المطايا والمدام
 لك النعم التي جلت ولكن * دنوى منك والقرب التمام
 وتشريفي القيام إزاء ملك * ملوك العالمين له قيام
 وإحضاري إذا حبرت شعراً * لتسمع ما تحبر والسلام^(١)

قال أبو فراس معاتباً الأمير سيف الدولة:

- زَمَانِي كُلُّهُ غَضَبٌ وَعَتَبٌ * وَأَنْتَ عَلَيَّ وَالْأَيَّامُ إِلْبُ
 وَعَيشُ الْعَالَمِينَ لَدَيْكَ سَهْلٌ * وَعَيشِي وَحَدَهُ بِفَنَّاكَ صَعْبُ
 وَأَنْتَ وَأَنْتَ دَافِعُ كُلِّ خَطْبٍ * مَعَ الْخَطْبِ الْمُلِمِّ عَلَيَّ خَطْبُ
 إِلَى كَمِذَا الْعِقَابُ وَلَيْسَ جُرْمٌ * وَكَمْ ذَا الْإِعْتِذَارِ وَلَيْسَ ذَنْبُ
 أَمْثَلِي تُقْبَلُ الْأَقْوَالُ فِيهِ * وَمِثْلُكَ يَسْتَمِرُّ عَلَيْهِ كِذْبُ

ثم قال مفتخراً:

- جَنَائِي مَا عَلِمْتَ وَلِي لِسَانٌ * يَقْدُ الدَّرْعَ وَالْإِنْسَانَ غَضْبُ
 وَفَرَعِي فَرَعُكَ السَّامِي الْمَعْلَى * وَأَصْلِي أَصْلُكَ الزَّاكِي وَحَسْبُ^(٢)

قال السري الرفاء في صديق له أودعه سراً فأفشاه:

- رَأَيْتُكَ تَبْرِي لِلصَّدِيقِ نَوَافِذَاً * عَدُوُّكَ مِنْ أَوْصَابِهَا الدَّهْرُ آمَنُ
 وَتَكْشِفُ أَسْرَارَ الْأَخْلَاءِ مَارِحاً * وَيَا رَبَّ مَرْحِ عَادَ وَهُوَ ضَغَائِنُ
 سَأَخْفِظُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ صَائِناً * عَهْدَكَ إِنَّ الْحُرَّ لِلْعَهْدِ صَائِنُ
 وَأَلْقَاكَ بِالْبِشْرِ الْجَمِيلِ مُدَاهِناً * فَلِي مِنْكَ خُلٌّ مَا عَلِمْتُ مُدَاهِنُ
 أَنْمُ بِمَا اسْتَوْدَعْتُهُ مِنْ زُجَاجَةٍ * تَرَى الشَّيْءَ فِيهَا ظَاهِراً وَهُوَ بَاطِنُ^(٣)

ومما يدخل في الأخوانيات التهاني، قال المتنبي مهنئاً الأمير سيف

الدولة بالشفاء من علة ألمت به به:

- الْمَجْدُ عَوْفِي إِذْ عَوْفِيَّتْ وَالْكَرْمُ * وَزَالَ عَنْكَ إِلَى أَعْدَائِكَ الْأَلَمُ

(١) ديوانه، ص ٢٥٤.

(٢) يتيمة الدهر، ج ١، ص ٩٩ وما بعدها. شرح ابن خالويه، ص ٣١

(٣) ديوان السري، ص ٢٩٧

صَحَّتْ بِصِحَّتِكَ الْغَارَاتُ وَابْتَهَجَتْ * بِهَا الْمَكَارِمُ وَإِنهَلَّتْ بِهَا الدِّيمُ
وَمَا أَخْصُكَ فِي بُرِّ بْتَهْنَةِ * إِذَا سَلِمْتَ فَكُلُّ النَّاسِ قَدْ سَلِمُوا^(١)

قال أبو فراس في الوداد في قصيدة أرسلها إلى أخيه حرب بن سعيد

مادحاً:

حَلَلْتُ مِنَ الْمَجْدِ أَعْلَى مَكَانٍ * وَيَلَّغَكَ اللَّهُ أَقْصَى الْأَمَانِي
فَإِنَّكَ لَا عَدِمَتِكَ الْعُلَا * أَخٌ لَا كَأَخْوَةِ هَذَا الزَّمَانِ
صَفَاؤُكَ فِي الْبُعْدِ مِثْلُ الدُّنُو * وَوُدُّكَ فِي الْقَلْبِ مِثْلُ اللِّسَانِ
كَسَوْنَا أُخُوَّتَنَا بِالصَّفَاءِ * كَمَا كُسِيَتْ بِالْكَلامِ الْمَعَانِي^(٢)

* الصيد والطرْد:

أغرم العرب منذ أقدم العصور بالصيد والطرْد، فأقبلوا على هذه الرياضة ودرسوا كل ما يتعلق بها من: تدريب الحيوانات والطيور وتربيتها وتطبيعها؛ وذلك لأن الصيد متعة من متع النفس، وضرب من ضروب الرزق، وهو لون من ألوان الحرب في أيام السلم^(٣)، وله فوائد عظيمة منها: الصبر وتحمل المشاق، ورياضة الجسم، وكسر الرتابة، وملاقة الأصدقاء وقضاء أمتع الأوقات معهم.

لم يكن هذا اللون من الشعر غرضاً أصيلاً في العصر السابقة للعصر العباسي، أما في العصر العباسي فلقد بلغ الاهتمام بالصيد حداً يفوق حد التصور، وقد يرجع السبب في ذلك بجانب، ما وصف به هذا العصر من الترف، إلى اهتمام الخلفاء به باعتباره جزءاً من مظاهر الحضارة التي تكمل مظهر السيادة والملك.

وفي العصر العباسي الأول كان الخلفاء يصطحبون معهم الشعراء إلى رحلات الصيد؛ ليصوروا تلك المشاهد، وبذلك فقد أسهموا في تطوير هذا الفن

(١) ديوان المتنبي

(٢) ديوان أبي فراس شرح ابن خالويه، ص ٢٩٧، بيتمة الدهر، ج ١، ص ٧١

(٣) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين، ص ٣١٢ بتصرف

الذي صار مثار اهتمام الناس بجميع طبقاتهم، ومن أشهر شعراء هذا الفن في هذا العصر: أبو نواس، وابن المعتز، وابن الرومي والبحتري وغيرهم.

فإذا جاء الحديث عن الصيد والطرْد في دولة سيف الدولة فإنك تجد فناً مستقلاً، أینع ثمره واستوى على سوقه وآتى أكله، وأخذ من قطفه الدانية العصريين والمتأخرين، لأن اهتمام أمراء بني حمدان به كان اهتماماً بالغاً حتى أن أحد شعرائهم المفلّحين وهو كشاجم ألف كتاباً في المصايد والمطارِد تحدث فيه عن جوارح الطيور وكلاب الصيد وكل الوسائل التي كانت تستخدم في هذه الهواية. ولم يترك في ذلك صغيرة أو كبيرة تتعلق به.

ومن أهم شعراء سيف الدولة الذين أسهموا إسهاماً واضحاً في هذا الفن: كشاجم، وابو فراس، والبيغاء، والسرى الرفاء، ولأبي فراس أرجوزة بيّن بين ثناياها كثيراً من المظاهر التي تتعلق بهذا الفن وابتدأ هذه الأرجوزة بأبيات من الحكمة النادرة، مبيّناً أن العمر الحقيقي للإنسان هو الأيام التي عاشها بإحساس السعادة، وإن كانت تلك الأيام أيام قلائل يعدها الإنسان عداً، فقال:

ما العُمُرُ ما طالت بهِ الدُهورُ * العُمُرُ ما تمَّ بهِ السُرورُ
أيّامٌ عِزِّي ونَفادِ أَمري * هي التي أحسبُها من عُمري
لو شئتُ ممّا قد قللنَ جدّاً * عددتُ أيّامَ السُرورِ عداً
أنعمتُ يوماً مرّاً لي بالشامِ * ألدّ ما مرّ من الأيّامِ^(١)

وكان أبو فراس في رحلة الصيد لا يصطحب إلا كل ظريف خفيف

الظل، من أهل الفضل والنجابة:

با الله لا تستصحبوا ثقيلًا * واحتنبوا الكثرة والفضولًا
ردوا فلاناً وخذوا فلاناً * وضمنوني صيدكم ضماناً
فاخترت لما وقفوا طويلاً * عشرين أو فويقها قليلاً
عصابة أكرم بها عصابة * معروفة بالفضل والنجابة

(١) بيتيمة الدهر، ج١، ص ١٠٨

وكان كذلك يوجه أصحابه في رحلة الصيد إلى: اختيار الجوارح السريعة
النشطة الماهرة في مطاردة الصيد، فقال:

- * دعوت بالصقار ذات يوم * عند انتباهي سحراً من نومي
- * قلت له: اختر سبعة كباراً * كل نجيب يرد الغبارا
- * يكون للأرنب منها اثنان * وخمسة تفرد للغزلان
- * واجعل كلاب الصيد نوبتين * يرسل منها اثنان بعد اثنين
- * ثم تقدمت إلى الفهاد * والبازيارين بالاسعداد

خرج أبو فراس وأصحابه قاصدين عين قاصر، ذلك المكان الذي وقع
الاختيار عليه؛ لاشتهاره بأحسن الصيد وأطيبه، فوصلوا إليه قبيل الغروب
واستيقظوا في الصباح الباكر؛ لابتداء معركة الصيد، فقال:

- * ثم قصدنا صيد عين قاصر * مظنة الصيد لكل خابر
- * وجئناه والشمس قبيل المغرب * تختال في ثوب الأصيل المذهب
- * وأخذ الدراج في الصياح * مكتنفاً من سائر النواحي
- * في غفلة عنا وفي ضلال * ونحن قد زرناه بالآجال
- * يطرب للصبح وليس يدري * أن المنية في طلوع الفجر^(١)

كان أبو فراس في تلك الرحلة أمير الركب، ووصف ذلك المشهد الرائع
وكانه القائد في ساحة المعركة يوجههم، ويرشدهم، ويناديهم للصلاة، فيقول:

- * حتى إذا أحسست بالصباح * ناديتهم حي على الفلاح
- * نحن نصلي وبالبزاة نخرج * مجردات والخيول تسرج
- * وسرت في صف من الرجال * كأننا نرحف للقتال
- * فما استوينا كلنا حتى وقف * غليم كان قريباً من شرف
- * ثم أتاني عجلًا قال السبق * فقلت إن كان العيان قد صدق
- * سرت إليه فأراني جاثمه * ظننتها يقظى وكانت نائمة
- * ثم أخذت نبلة كانت معي * ودرت دورين لم أوسّع

(١) بيتمة الدهر، ج ١، ص ١٠٩

حتى تمكنت ولم أخط الطلب * لكل حتف سبب من السبب

ووصف أبو فراس نهاية تلك الرحلة، فقال:

صحت إلى الطباخ ماذا تنتظر * أنزل عن المهر وهات ما حضر

جاء بأوساط وجرى باج * من حبل الصيد ومن دراج

وجيء بالكأس وبالشراب * فقلت وفرها على أصحابي

أشبعني اليوم ورواني الفرح * فقد كفاني بعض وسط وقدح^(١)

وكان كشاجم من أميز شعراء الأمير في هذا الفن، وكيف وهو الذي عدد في كتابة أنواع الطيور الجارحة، وتحدث عن كلاب الصيد، مبيناً كيفية تدريب تلك الطيور والكلاب، وكان خبيراً بأحوالها ملماً بما يختص بها، واصفاً أمراضها وعلاجها.

كان كشاجم دقيقاً في وصفه ومن الطيور التي وصفها، الباشق مصوراً شكله الطريف وواصفاً ريشه الجميل وجسمه النحيل الخفيف، وعيونه الذهبية ومخالبه التي تشبه الأهلة وسرعته العجيبة، فقال:

يَسْمُو فَيَخْفَى فِي الْهَوَاءِ وَيُنْكَفِي * عَجَلًا فَيَنْقُضُ انْقِضَاضَ الطَّارِقِ

وَكَأَنَّ جُوجُوهَ وَرَيْشَ جَنَاحِهِ * خُضْبًا بِنَفْسِ يَدِ الْفَتَاةِ الْعَاتِقِ

وَكَأَنَّمَا سَكَنَ الْهَوَىٰ أَعْضَاءَهُ * فَأَعَارَهُنَّ نُحُولَ جِسْمِ الْعَاشِقِ

ذَا مُقَلَّةٍ ذَهَبِيَّةٍ فِي هَامَةِ * مَخْفُوفَةٍ مِنْ رَيْشِهَا بِحَدَائِقِ

وَمَخَالِبٍ مِثْلِ الْأَهْلَةِ طَالَمَا * أَدْمَيْنَ كَفَّ الْبَازِيَارِ الْحَادِقِ

وَإِذَا انْبَرَى نَحْوَ الطَّرِيدَةِ خِلْتَهُ * كَالرَّيْحِ فِي الْإِسْرَاعِ أَوْ كَالْبَارِقِ^(٢)

وقد وصف كشاجم من جوارح الطيور صقراً أحمر موضحاً سرعة

انقضاضه على الوحش، وجرأته في قتل الطباء:

عدونا وطرف النجم وسمان غائر * وقد نزل الإصباح والليل سائر

بأجدل من حمر الصقور مؤدب * وأكرم ما جريت منها الأحامر

(١) المصدر السابق، ص ١١١

(٢) ديوان كشاجم، ص ٢٩١، ٢٩٢

- جريء على قتل الظباء وإنني * ليعجبني أن يكسر الوحش طائر
 قصير الذنابي، والقدامى كأنها * قوادم نسر أو سيوف بواتر
 فعن لنا من جانب السفح ريرب * على سنن تستن فيه الجآذر
 تجلى وحلت عقدة السير فانتحي * لأولها إذ مكنته الأواخر
 فما تم غمض الطرف حتى رأيتها * مصرعة تهوى إليها الحناجر
 كذلك لذاتي وما نال لذة * كطالب صيد ينكفي وهو ظافر^(١)

وصف السرى الطيور الجارحة في طرده له، لم تختلف معانيها عن ما ذكره أبو فراس وإن كانت في نهجها أشبه بطرديات ابن المعتز ولذا رأينا أن نختار وصفه لكلام الصيد في واحدة من قصائده، فقال:

- وأكلب تستغرق الصّفاتِ * ضوامر الاحشاءِ مُخطفاتِ
 إلى دماءِ الصّيدِ صاديّاتِ * بأسطة الآذانِ سابغاتِ
 سواقطِ الأرجاءِ ساكناتِ * بلؤلؤ الطلّ مقرّطاتِ^(٢)

ووصف البغاء قسى البندق وهي آلة صيد مصنوعة من القنا، فقال:

- ومرنانٍ مُعبّسةٍ ضحوك * مُهدّبةٍ الطّبائعِ والكَيانِ
 مُغالبةٍ وليس بها حراكٌ * وباطشةٍ وليس لها يدانِ
 وتدرك ما تشاء بغير رجل * ولا باع يطول ولا بنان
 وتلحظ ما يكُلُّ الطرفُ عنه * بلا نظرٍ يصحُّ ولا عيانِ
 لها عضوان من عصبٍ ولحمٍ * وسائرُ جسمها من خيزرانِ
 يُخاطبُ في الهواءِ الطيرُ منها * بلَفْظٍ ليس يصدُرُ عن لسانِ^(٣)

* الشكوى:

تتدرج الشكوى تحت قائمة الشعر الوجداني.

الملاحظ أن هذا الفن من الشعر قد استشرى واتسع نطاقه في العصر العباسي الثاني؛ بسبب الحياة القاسية والضغوط الاجتماعية والسياسية العصبية.

(١) نهاية الأرب في فنون العرب، للنويري، دار الكتب المصرية، ١٩٢٣م، ج ١٠، ص ١٩٦.

(٢) ديوان السري، ص ٩٥.

(٣) نهاية الأرب، ج ١، ص ٣٤٨ - ٣٤٩.

الشكوى أنواع متعددة منها: الشكوى من الزمان "الدهريات"، الشكوى من الأهل والأقارب، الشكوى من الأصدقاء.

لا شك في أنه إذا ذكرت الشكوى في العصر العباسي فلا بد أن تسبق إلى الذهن أول وهلة "روميات أبي فراس" تلك الأشعار التي سكب فيها الشاعر عصاره قلبه، وصار بها حامل لواء هذا الفن.

الشكوى من الدهر:

قال أبو فراس وقد أشجاه صوت حمامة ناحت بقربه:

أَقُولُ وَقَدْ نَاحَتْ بِقُرْبِي حَمَامَةٌ * أَيَا جَارَتَا هَلْ تَشْعُرِينَ بِحَالِي
مَعَاذَ الْهَوَى مَا ذُقْتَ طَارِقَةَ النَّوَى * وَلَا خَطَرْتَ مِنْكَ الْهُمُومُ بِبَالِ
أَتَحْمِلُ مَحْزُونََ الْفُؤَادِ قَوَادِمَ * عَلَى غُصْنِ نَائِي الْمَسَافَةِ عَالِ
أَيَا جَارَتَا مَا أَنْصَفَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا * تَعَالَى أَقَاسِمِكَ الْهُمُومَ تَعَالَى
تَعَالَى تَرَى رُوحاً لَدَيَّ ضَعِيفَةً * تَرَدَّدُ فِي جِسْمٍ يُعَذِّبُ بِأَلِ
أَيُضْحِكُ مَأْسُورٌ وَتَبْكِي طَلِيقَةً * وَيَسْكُتُ مَحْزُونٌ وَيَتَدَبُّ سَالِ
لَقَدْ كُنْتُ أَوْلَى مِنْكَ بِالِدَمْعِ مُقَلَّةً * وَلَكِنَّ دَمْعِي فِي الْحَوَادِثِ غَالِ^(١)

وقد اشتكى أبو الفرج البغاء من الدهر فقال:

صَحِبْتُ الدَّهْرَ فِي سَهْلٍ وَحَزْنٍ * وَجَرَّيْتُ الْأُمُورَ وَجَرَّبْتَنِي
وَلَمْ تَتَضَمَّنِ الدُّنْيَا لِحَظِّي * مَنْ أَلْ مُسَّرَّةٍ إِلَّا بِحُزْنِ
وَشِمْتُ بِوَارِقِ الْأَمَالِ دَهْرًا * فَلَمْ أَظْفِرْ عَلَى ظَمَأٍ بِمُزْنِ^(٢)

وقال المتنبي عاش مَنْ كانوا قبلنا هذه الحياة وعرفوا صروف الدهر وتقلبات أحواله، فالزمان مطبوع على الكدر ولا يصفو إلا ليعكر ولا يوجد بالسرور إلا ليكدر.

صَحِبَ النَّاسُ قَبْلَنَا ذَا الزَّمَانَا * وَعَنَاهُمْ مِنْ شَأْنِهِ مَا عَنَانَا
وَتَوَلَّوْا بَعْضَةَ كُلُّهُمْ مِنْ * هُوَ وَإِنْ سَرَّ بَعْضُهُمْ أَحْيَانَا
رُبَّمَا تُحْسِنُ الصَّنِيعَ لِيَالِي * هِيَ وَلَكِنَّ تَكْدُرُ الْإِحْسَانَا

(١) ديوان أبي فراس، ج ٢، ص ٣٢٥

(٢) بيتيمة الدهر، ج ١، ص ٣٢٥

وَكَاثَنَا لَمْ يَرْضَ فِينَا بَرِيْبِ اَل * دَهْرٍ حَتَّى اَعَانَهُ مَن اَعَانَا
كُلَّمَا اُنْبِتَ الزَّمَانُ قَنَاةً * رَكَّبَ المَرءُ فِي القَنَاةِ سِنَانَا^(١)

وقال المتنبي في البيتين الأخيرين - وهو من أروع ما كتب - كأن الناس
لم يكتفوا بصروف الدهر وأفعاله، بل كانوا شرّ معين له على أحواله، فإذا أنبتت
الأرض عوداً جعلوه رمحاً وركبوا في رأسه سنانا؛ ليقتلوا به إخوانهم.

وقال ابن نباتة السعدي:

وتأخذُ من جوانبنا الليالي * كما أخذ المساء من الصباح
أما في أهلها رجلٌ لبيبٌ * يحسُّ فيشُتكي ألمَ الجراح
أرى التَّشْمِيرَ فيها كالتَّوَانِي * وحرمانَ العطيَّةِ كالنَّجَاحِ
ومَن لبسَ الثُّرابَ كمن علاه * فلا تَغْرُزُكَ أنفاسُ الرِّياحِ
وكيفَ يكْدُ مُهْجَتَهُ حَريصٌ * يَري الارزاقَ في ضَرْبِ القِداحِ^(٢)

الشكوى من الأهل والأقارب:

أذاب الأسر ألواناً من الأحزان العميقة في نفس أبي فراس الشاعر
الحساس، فبث صداها فناً رقيقاً من الشكوى التي تكاد أن تذوب معها القلوب،
ويبدأ شكواه بالفخر فيقول:

وقورٌ وأحداثُ الزمانِ تتوشني * وللموتِ حولي جيئةٌ وذهابُ
إلى الله أشكو أننا بمنازلٍ * تحكّم في آسادهن كلابُ
تمرُّ الليالي ليس للنفع موضعٌ * لئدي ولا للمعتفين جنابُ
ولا شدّ لي سرّجٌ على ظهرٍ سابحٍ * ولا ضربت لي بالعراء قبابُ
ولا برقت لي في اللقاء قواطعٌ * ولا لمعت لي في الحروب حرابُ^(٣)

فأبو فراس فارس وإن كان في الأسر، وهو هنا يشكو بعده عن حياة
الفروسية، وميادين المعارك وهي حياة المجد والشرف التي يتوق إليها ويأسف
لبعده عنها، فقال مخاطباً سيف الدولة الذي لم يتعجل فداءه:

(١) ديوان المتنبي، شرح البرقوقى، ج ٤، ص ٣٧٠ - ٣٧١

(٢) تاريخ بغداد، ج ١، ص ٤٦٧

(٣) ديوان أبي فراس، رواية ابن خالويه، ص ٢٤

- وَأَسْطَوْ وَحُبِّي ثَابِتٌ فِي صُدُورِهِمْ * وَأَحْلَمُ عَنْ جَهَّالِهِمْ وَأَهَابُ
وَأَفْعَالُهُ لِلرَّاعِبِينَ كَرِيمَةٌ * وَأَمْوَالُهُ لِلطَّالِبِينَ نِهَابُ
وَأَكِنَ نَبَا مِنْهُ بِكَفِّي صَارِمٌ * وَأَظْلَمَ فِي عَيْنِي مِنْهُ شِهَابُ
وَأَبْطَأَ عَنِّي وَالْمَنَايَا سَرِيعَةٌ * وَلِلْمَوْتِ ظَفْرٌ قَدْ أَطْلَّ وَنَابُ
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَدٌّ قَدِيمٌ نَعْدُهُ * وَلَا نَسَبٌ بَيْنَ الرِّجَالِ فُرَابُ
فَأَحْوِطُ لِلِإِسْلَامِ أَنْ لَا يُضِيعَنِي * وَلِي عَنكَ فِيهِ حَوِطَةٌ وَمَنَابُ^(١)

شكوى أبي فراس تدل على معدنه الطيب واصله النبيل لأنه لا يتوسل لابن عمه توسل الضارع الذليل، ولا المستجدي الحقير ويجعل شفيعه إلى هذا جدارته وشجاعته وسالف وده وقرابته، ونسبه، وإسلامه، وشجاعته.

وقال:

- دَعْوَتُكَ لِلجَفْنِ القَرِيحِ المُسَهَّدِ * لَدَيَّ وَلِلنَّوْمِ القَلِيلِ المُشَرَّدِ
وَمَا ذَاكَ بَخْلًا بِالحَيَاةِ وَإِنَّهَا * لِأَوَّلِ مَبْنُودٍ لِأَوَّلِ مُجْتَدِ
وَأَكِنْتَنِي أَخْتَارُ مَوْتَ بَنِي أَبِي * عَلَى صَهَوَاتِ الخَيْلِ غَيْرِ مُوسَدِ
وَتَأبَى وَآبَى أَنْ أَمُوتَ مُوسَدًا * بِأَيْدِي النِّصَارَى مَوْتَ أَكْمَدَ أَكْبَدِ
مَتَى تُخْلِفُ الأَيَّامُ مِثْلِي لَكُمْ فَتَى * طَوِيلَ نِجَادِ السَّيْفِ رَحْبَ المُقْلَدِ
وَإِنْ تَفْتَدُونِي تَفْتَدُوا لِغَلَاكُمْ * فَتَى غَيْرَ مَرْدُودِ اللِّسَانِ أَوْ اليَدِ
يُدَافِعُ عَن أَعْرَاضِكُمْ بِلِسَانِهِ * وَيَضْرِبُ عَنكُمْ بِالحُسَامِ المُهَنَّدِ^(٢)

ميزة أبي فراس في شكواه أنه لم يبتذل نفسه بصفار أو نقص، فينزل بغدر الشعر، أو يحط من قيمة الأدب، ولم يلح في الخلاص كراهية للموت، ولا تمسكاً فيه بالحياة ولكنه يرى أن موته بهذه الصورة إذلال للدولة الحمدانية، وشفاء لما في صدور الأعداء الذين يضمرون الكره والبغضاء للعرب والمسلمين.

(١) المصدر السابق، ص ٢٤

(٢) المصدر السابق، ص ٨٢ وما بعدها

وقد بلغ أبو فراس أن أمه ذهبت من منبج إلى حلب قاصدة سيف تسأله
فداء ابنها الوحيد فقال في ذلك:

يَا حَسْرَةً مَا أَكَادُ أَحْمِلُهَا * أَخْرَهَا مُزْعِجٌ وَأَوْلُهَا
عَلِيَّةٌ بِالشَّامِ مُفْرَدَةٌ * بَاتَ بِأَيْدِي الْعِدَى مُعْلَلُهَا
تُمْسِكُ أَحْشَاءَهَا عَلَى حُرْقٍ * تُطْفِئُهَا وَالْهَمُومُ تُشْعَلُهَا

ثم قال مخاطباً الأمير:

بِأَيِّ عُذْرٍ رَدَدْتَ وَالْهَيْهَ * عَلَيَّكَ دُونَ الْوَرَى مُعْوَلُهَا
جَاءَتْكَ تَمْتَاخُ رَدٍّ وَاحِدِهَا * يَنْتَظِرُ النَّاسُ كَيْفَ تُقْفَلُهَا^(١)

وقال:

لَوْلَا الْعَجْوُزُ بِمَنْبِجٍ * مَا خِفْتُ أَسْبَابَ الْمَنِيِّهِ
وَلَكَانَ لِي عَمَّا سَأَلَ * تُمْنَ الْفِدَا نَفْسٌ أَبِيهِ
لَكِنِ أَرَدْتُ مُرَادَهَا * وَلَوْ أَنْجَذْتُ إِلَى الدَّيِّهِهِ
وَأَرَى مُحَامَاتِي عَلَيَّ * هَا أَنْ تُضَامَ مِنَ الْحَمِيَّهِ^(٢)

رسم الشاعر صورة حية لوجدانيات فارس حزين يعاني بعده عن ساحات
القتال، وي بعده عن الأهل والأمير وعن أمه، التي كم حزنت واعتلت بسبب ابنها
الوحيد ولا يبعد أن يكون أسر ابنها سبباً في موتها؛ لأنها ماتت قبل أن يفك
أسره وكان الشاعر يعيش إحساس أمه في دواخله فيقول لها مؤاسياً في العديد
من قصائده:

يَا أُمَّتَا لَا تَيَأْسِي * لِلَّهِ الطَّافُ خَفِيَّهِ
كَمْ حَادِثٍ عَنَّا جَلَا * هُوَ وَكَمْ كَفَانَا مِنْ بَلِيَّهِ
أَوْصِيكَ بِالصَّبْرِ الْجَمِي * لِ فَإِنَّهُ خَيْرُ الْوَصِيَّهِ

وقال أيضاً:

وَإِنَّ وَرَاءَ السَّتْرِ أُمَّاً بُكَأُوها * عَلَيَّ وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ طَوِيلُ

(١) ديوان أبي فراس، رواية ابن خالويه، ص ٢٤١-٢٤٣

(٢) المصدر السابق، ص ٣١٧

فِيَا أُمَّتَا لَا تَعْدَمِي الصَّبْرَ إِنَّهُ * إِلَى الْخَيْرِ وَالنُّجْحِ الْقَرِيبِ رَسُولُ
وَيَا أُمَّتَا لَا تُخْطِئِي الْأَجْرَ إِنَّهُ * عَلَى قَدْرِ الصَّبْرِ الْجَمِيلِ جَزِيلُ
تَأْسَى كَفَاكَ اللَّهُ مَا تَحْدَرِينَهُ * فَقَدْ غَالَ هَذَا النَّاسُ قَبْلَكَ غَوْلُ^(١)

قال أبو فراس في الشكوى من قومه:

أَرَانِي وَقَوْمِي فَرَّقْتَنَا مَذَاهِبُ * وَإِنْ جَمَعْتَنَا فِي الْأُصُولِ الْمُنَاسِبُ
غَرِيبٌ وَأَهْلِي حَيْثُ مَا كَانَ نَاطِرِي * وَحِيدٌ وَحَوْلِي مِنْ رِجَالِي عَصَائِبُ
نَسِيْبُكَ مَنْ نَاسَبْتَ بِالْوُدِّ قَلْبَهُ * وَجَارُكَ مَنْ صَافَيْتَهُ لَا الْمُصَاقِبُ
وَأَعْظَمُ أَعْدَاءِ الرِّجَالِ نِقَاتُهَا * وَأَهْوَنُ مَنْ عَادَيْتَهُ مَنْ تُحَارِبُ
لَقَدْ زِدْتُ بِالْأَيَّامِ وَالنَّاسِ خِبْرَةً * وَجَرَّبْتُ حَتَّى هَدَّبْتَنِي التَّجَارِبُ^(٢)

الشكوى من الأصدقاء والأصحاب:

قال أبو فراس:

إِذَا الْخِلُّ لَمْ يَهْجُرْكَ إِلَّا مَلَالَةً * فَلَيْسَ لَهُ إِلَّا الْفِرَاقَ عِتَابُ
إِذَا لَمْ أَجِدْ مِنْ خُلَّةٍ مَا أُرِيدُهُ * فَعِنْدِي لِأُخْرَى عَزْمَةٌ وَرِكَابُ
بِمَنْ يَثِقُ الْإِنْسَانُ فِيمَا يَنْوِبُهُ * وَمِنْ أَيْنَ لِلْحُرِّ الْكَرِيمِ صِحَابُ^(٣)

وقال:

مُصَابِي جَلِيلٌ وَالْعَزَاءُ جَمِيلُ * وَظَنِّي بِأَنَّ اللَّهَ سَوْفَ يُدِيلُ
وَأَسْرٌ أَقَاسِيهِ وَلَيْلٌ نُجُومُهُ * أَرَى كُلَّ شَيْءٍ غَيْرَهُنَّ يَزُولُ
تَنَاسَانِي الْأَصْحَابُ إِلَّا عُصَبِيَّةً * سَتَلْحَقُ بِالْأُخْرَى غَدًا وَتَحُولُ
وَمَنْ ذَا الَّذِي يَبْقَى عَلَى الْعَهْدِ إِنَّهُمْ * وَإِنْ كَثُرَتْ دَعَاوَاهُمْ لِقَلِيلُ
أَقْلَبُ طَرْفِي لَا أَرَى غَيْرَ صَاحِبِ * يَمِيلُ مَعَ النِّعْمَاءِ حَيْثُ تَمِيلُ
وَصِرْنَا نَرَى أَنَّ الْمُتَارِكَ مُحْسِنٌ * وَأَنَّ صَدِيقًا لَا يُضِرُّ خَلِيلُ

(١) ديوان أبي فراس، رواية ابن خالويه، ص ٢٣٣

(٢) المصدر السابق، ص ٢٣

(٣) المصدر السابق، ص ٢٤ - ٢٥

أَكَلُ خَلِيلٍ هَكَذَا غَيْرُ مُنْصِفٍ * وَكُلُّ زَمَانٍ بِالْكَرَامِ بَخِيلٌ^(١)

قد رسم أبو فراس في شكواه بصورة عامة صورة صادقة لوجدانيات أسير يعاني ذل القيد وغربة الأهل ونزوح الدار وتحكم العدو وتخلى الأعوان وجفوة المعارف وزوال الأصحاب وجاء بكل هذا في قصائد غاية في الرقة والجزالة.

(١) ديوان أبي فراس، ج٢، ص ٢١٣، وما بعدها.

المبحث الثالث

وصف الطبيعة، ووصف مظاهر الحياة الاجتماعية

وشعر الجهاد والحرب

وصف الطبيعة:

رغم أن شعر الطبيعة ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالعصر العباسي إلا أنه من المؤكد لم يكن وليد هذا العصر وإنما كان ميلاده منذ العصر الجاهلي؛ لأن شعراء العصر الجاهلي لم يقفوا جامدين أمام الطبيعة ومناظرها ولكنهم صوروها تصويراً بارعاً يتناسب وطبيعتهم تلك*. ومن الشعراء الجاهليين الذين برزوا في هذا الفن: امرؤ القيس الذي سبق العرب إلى أشياء ابتدعتها، واستحسنها العرب واتبعه فيها الشعراء، ومنها: استيفاق صحبه، والاستبكاء على الديار، وتشبيه النساء بالطباء، وتشبيه الخيل بالعقيان والعصى وقيد الأوابد^(١) قال امرؤ القيس:

قفا نَبِكِ مِنْ ذِكْرِ حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ * بِسِقْطِ اللّوِي بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ^(٢)

وقال أيضاً:

وَقَدْ أَغْتَدِي وَالطَّيْرُ فِي وُكُنَاتِهَا * بِمُنْجَرِدِ قَيْدِ الأَوَابِدِ هَيْكَلِ^(٣)

الملاحظ أن شعر الطبيعة تجدد وتطور مع تجدد الأعصر وتطورها وذلك على حسب المعطيات التي هيأت لذلك من كل عصر تالي.

* قد أطلنا النفس عن الحديث عن هذا الفن في العصر الجاهلي، لأن بعض المحققين ذكر أن الشاعر الجاهلي وقف من الطبيعة موقف المتفرج أو موقف الحذر المنقبض، والشاعر العباسي وقف من الطبيعة موقف المتذوق بجمالها المقتون بمظاهرها. راجع ديوان ابن الرومي، شرح وتحقيق عبد الأمير المهنا، دار مكتبة الهلال، بيروت، ط ١٤١١هـ - ١٩٩١م، ج ١، ص ٩

(١) طبقات فحولاً لشعراء، لمحمد بن سلام الجمحي، شرح وتحقيق أحمد شاكر، مطبعة القاهرة، ج ١، ص ٥٥ بتصرف

(٢) فن الوصف وتطوره في الشعر العربي، لإيليا حاوي، ط ٢، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٧م، ص ٤٧.

(٣) المعلقات السبع، شرح الزوزني.

وعلى أية حال فإن الطبيعة هي التي توحى للشعراء وللفنانين بالإبداع والفن، وقد صدق المستشرق يكون حين سئل عن الفن فأجاب بأنه: "هو: الإنسان مضافاً إليه الطبيعة"^(١).

وعندما سئل كثير يا أبا صخر كيف تصنع إذا أعسر عليك قول الشعر؟ فقال: لم يستدع شارد الشعر بمثل الماء الجاري، والشرف العالي، والمكان الحضر الخالي^(٢).

والذي يهمننا من بين تلك الأعصر العصر العباسي الذي يعدّ ميداناً فسيحاً لهذا الفن من الشعر، والسبب في ذلك يرجع إلى: اندماج الناس في ديباج تلك الحضارة التي تلونت بها أذواقهم، والتي وجدت يد صانعة متقنة أضافت إلى ما أوجدته الطبيعة ما يظهرها في أثواب مختلفة، واهتم الناس ببناء القصور وتنسيق البساتين والزهور حتى يفسحوا بذلك ميادين الراحة والمتعة واللهو والنعيم، وغاص الشعراء في هذا الجو واستمدوا منه عناصر صورهم، وأضافوا إليها من خيالهم، وكان نتيجة ذلك أن جاءت أشعارهم موشية بمظاهر تلك الطبيعة الجميلة، وذلك بمثل ما نجده عند: ابن المعتز، وابن الرومي، والبحري، والصنوبري، وكشاجم، وغيرهم.

قال البحري في وصف الربيع:

أَتَاكَ الرَّبِيعُ الطَّلُقُ يَخْتَالُ ضَاحِكًا * مِنْ الحُسْنِ حَتَّى كَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَا
وَقَدْ نَبَّهَ النُّورُ فِي غَلَسِ الدُّجَى * أَوَائِلَ وَرِدٍ كُنَّ بِالْأَمْسِ نَوْمًا^(٣)

وقال ابن المعتز:

انظر إلى حسن هلال بدا * يهتك من أنواره الحندسا
كمنجل قد صيغ من فضة * يحصد من زهر الدجى نرجسا^(٤)

(١) نظرية الفن والأنواع الأدبية، لسوبر فيل، ط٤، ١٩٥٧م، ص ١١٧.

(٢) الشعر والشعراء، ص ٩٧.

(٣) راجع أخبار البحري، لأبي بكر محمد بن يحيى الصولي، ت صالح الأشتري، ١٩٥٨م، ص ١٦٧-١٦٨، ديوان البحري، ص ٨٠، ص ٨٢.

(٤) ديوان ابن المعتز، شرح يوسف شكري فرحات، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م، ص ٤١٥.

أما هذا الفن فقد وجد في رحاب الأمير سيف الدولة، كل المقومات التي جعلته كائناً سوياً ينهض بالحياة ويحيا ما بقي الدهر وخذل. فهذا الفن يعد فناً أصيلاً عند شعراء الأمير، فناً قائماً بذاته له كينونة خاصة وشخصية تنادي المطلعين والباحثين؛ ليتفحصوا ظلاله ويستمتعوا بمناظره الخلابة وينهلوا من مناهله العذبة ويحسوا بقيمة الحياة، ويغرقوا في مفاتن ذلك الجمال أحزانهم وهمومهم، ويقدرّون هؤلاء النفر من الشعراء الذين يقتلون بكلماتهم الساحرة الجميلة داء الكآبة والملل، ويدخلون في نفوس الحزاني البهجة والسرور.

فشعراء الأمير جددوا في موضوعات هذا الفن وأضافوا إليها، كما أدخلوا في صناعتها الشعرية أساليب جديدة تتناسب مع مظاهر الحياة في عصرهم ورسوموا لوحات فنية فريدة تكاد تنطق بالحياة.

وفي رأينا أن لازدهار هذا الفن في رحاب الأمير أسباب متعددة أهمها:

- تقدير سيف الدولة للفن والجمال ودليلنا على ذلك اهتمامه ببناء القصور، ومنها قصر "الحلبة" الذي يعد أسطورة الفن وأساس تكنولوجيا الهندسة المعمارية وقد ذكر أحد الذين شاهدوا ذلك القصر من المؤرخين البيزنطيين: أن الأسرى العديدين الذين بنوا هذا القصر من معماريين ومثالين ونقاشين وحائكين، كان الأمير يبذل لهم المكافآت السخية، وكان يحيطهم بالتعظيم، ويقدمهم في مواكب موسيقية، ويأمر ضباطه باحترامهم شأنهم شأن المحاربين المشاهير؛ لأنهم كانوا مبدعين للجمال الذي يقدره الأمير^(١).

- ما من شك في أن طبيعة الشام الساحرة الخلابة من أهم البواعث لهذا اللون من الفن، وهذا على سبيل العموم، أما على سبيل الخصوص فالطبيعة الحلبية لم يكن لها مثل في جمالها وبهائها، وعذوبة مائها، وطيب هوائها، وكثرة أشجارها، وتنوع خضارها، وجمال أزهارها وواضح أن للطبيعة أياد فنانة مبدعة أودعت ذلك الجمال في دواخل الشعراء

(١) الامبراطورية الرومية، طبع باريس ١٩٢٥م، ص ٢٢٤.

واختزلته في أرواحهم ففاضت به قرائحهم فأكسدوه في أشعار تترقق رقة
وعذوبة وتفيض بهاء ورواء.

■ عاش شعراء الأمير في ظلال نعيمة عيشه مترفة وتأثروا بالمشاهد
الجميلة التي وجدت في ذلك المجتمع، وارتقوا إلى مستوى حياة الملوك
والأمراء وكان لكل هذه الأشياء الأثر العميق؛ لأنها قدمت من الصور
والتماثيل للطبيعة ما زاد الشعور بجمالها.

قال دكتور مصطفى الشكعة: إذا تناولنا الفن عند شعراء بني حمدان
وجدنا له آفاقاً رحبة ومذاهب متعددة ولاحظنا أن هذا الفن قد تفرع إلى فروع
كثيرة، كل فرع يمثل موضوعاً بعينه فصار الشعراء يفردون باباً لكل فن فيه،
فأفردوا باباً للروضيات، وآخر للزهريات، ... وأبواباً أخرى للتلجيات
والمائيات....^(١).

اهتم شعراء الأمير جميعاً بهذا اللون من الشعر ولا سيما الصنوبري،
وكشاجم، والسرى الرفاء، والبيغاء. ويعدّ الصنوبري إمام هذه المدرسة وقد وصف
شعراء الأمير الطبيعة الساكنة باختلاف مناخها وأمطارها وتلجها وأنهارها
ورياضها ووصفوا المتحركة بحيواناتها أليفها ووحشيتها وبريها وبحريها وإن كان
ذلك قليل بالقياس إلى وصف الطبيعة الساكنة.

* الروضيات:

تعشق شعراء الأمير الرياض فأخذت ألسنتهم ترتل آيات هذا اللون من
الفن فيها هو كشاجم يقول:

وَرَوْضٍ عَن صَنِيعِ الْغَيْثِ رَاضٍ * كَمَا رَضِيَ الصَّدِيقُ عَنِ الصَّدِيقِ
يُغِيرُ الرِّيحَ بِالنَّفَّاتِ رِيحًا * كَأَنَّ ثَرَاهُ مِنْ مِسْكِ سَحِيقِ
كَأَنَّ الطَّلَّ مُنْتَثِرًا عَلَيْهِ * بَقَايَا الدَّمْعِ فِي خَدِّ الْمَشُوقِ
كَأَنَّ غُصُونَهُ سُقَيْتَ رَحِيقًا * فَمَا سَتَ مَيْسَ شُرَابِ الرَّحِيقِ
كَأَنَّ شَقَائِقَ النُّعْمَانِ فِيهِ * مُخَضَّرَةً كُؤُوسٌ مِنْ عَقِيقِ

(١) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين، ص ٤٨٨، بتصرف، طبعة عالم الكتب، بيروت، ١٩٨١م.

يُذَكِّرُنِي بِنَفْسِجُهُ بَقَايَا * صَنِيعِ اللَّطْمِ فِي الْخَدِّ الرَّقِيقِ (١)

في صورة تشبيهة نادرة شبه كشاجم رضا الروض عن الغيث برضا الصديق عن صديقه المخلص الوفي، وجاء في صورتين رائعتين بلغ فيهما الغاية في الدقة والنهاية في الحسن، الأولى: تشبيه الطل المنتشر على الأزهار ببقايا الدموع بالخد الجميل، والثانية: تشبيه زهرة البنفسج بآثار اللطم على الخد الرقيق، وبالأبيات صور أخرى إلا أنها مألوفة.

وهذا الصنوبري يدعو محبوبته؛ لتشاركه الاحتفال بعرس الطبيعة الجميلة -بعد قدوم الربيع- لعل بمشاركتها ووجودها تكتمل مراسم الفرح في دواخله وتتعدد مذاقات المتعة في نفسه:

يا ريمُ قومي الآن ويحكِ فانظري * ما للربى قد أظهرت إعجابها
كانت محاسنُ وجهها محجوبةً * فالآن قد كشفَ الربيعُ حجابها
وردُّ بدا يحكي الخدودَ ونرجسُ * يحكي العيونَ إذ رأت أحبَّابها
والسرُّ تحسبه العيونُ غوانياً * قد شمَّرت عن سوقها أثوابها
لو كنتُ أملكُ للرياضُ صيانةً * يوماً لما وطئُ اللئامُ ثرابها (٢)

ويبدو لنا مدى تقدير الشاعر للرياض وتقديسه لها من خلال البيت الأخير.

ويرى الدكتور درويش الجندي (٣) أن شعر الطبيعة بالرغم من أنه نهض وتألق عند شعراء الأمير سيف الدولة إلا أنه جاء في غالبه حسيّاً يخلو من الروح، فهذا القول في رأينا لا يبعد عن الحقيقة ولكن في قوله: فالطبيعة في أدبنا -على حد رأبي- لذة الحس لا لذة الروح كما هي عند أدباء الفرنجة لنا رأي مغاير لأنه هنا أوقف أثر الطبيعة على هذا الفن الشعري فقط على حين أن أثر الطبيعة لم يقف حده في حياة شعراء الأمير على ناصية هذا الفن وامتيازهم على أقرانهم به بعد أن جعلوه فناً قائماً بذاته -فحسب- ولكن الأمر تعدى ذلك

(١) ديوان كشاجم، ص ٢٨٦

(٢) ديوان الصنوبري، ص ٤٥٤

(٣) الشعر في ظل سيف الدولة، ص ٢٢٦-٢٢٧

بكثير، لأن الطبيعة من أهم العوامل التي أسهمت في توجيه ملكات الشعراء وفي ترفيق إحساسهم، وفي الذوق الفني الراقى الذي نلمحه في اختيار هؤلاء الشعراء لمفردات أشعارهم وفي أساليبهم السلسة العذبة وفي الخيال الذي أضفت عليه الطبيعة روحها فازداد خصوبة، وعمقاً، وبالرجوع إلى دواوين هؤلاء الشعراء ومراجعة بعض الفنون الشعرية..

وإن كان هذا الفن في غالبه حسياً فإن الذي جاء متصلاً بأرواح الشعراء منه ليس بالقليل فهذا الصنوبري يشخص الرياض والأرض والفرات ونهري دير ذكي في تشخيص بارع ذوّب فيه نفسه ووجدانه، فقال:

معاهدُ بل مآلف باقيات * بأكرم معهدين ومألفين
يُضحكها الفرات بكلّ فج * فيضحك عن نضارٍ أو لجين
كان الأرض م صُفّرٍ وحُمّر * عروسٌ تُجتلى في حُلتين
كان عناق نهري دير زكى * إذا اعتنقا عناق مُتيمين
أبا متزهي في دير زكى * ألم تك نزهتي بك نزهتين
أردد بين ورد نذاك طرُفاً * يُردد بين ورد الوجدتين^(١)

وقال الصنوبري أيضاً:

رياضُ فويق لا تزال مريضة * يجاورُ فيها أحمرُ الزهرِ أبيضه
يعارضُنا كافورُها كلّ شارقٍ * إذا ما الصبا مرّت بها متعرضه
إذا ما طفا النيلوفرُ الغضّ فوقه * مفتحةً أجفانه أو مغمّضه
حسبت نجوماً مذهباً تتابعت * فرادى ومثنى في سماءٍ مفضّضه^(٢)

* وصف الزهريات:

افتتن شعراء الأمير بالأزهار، وكتبوا فيها شعراً جميلاً، وقد كانوا كثيراً ما يصفون الأزهار والورود بلامح الجمال التي يعجبون بها في الحسنات، فعادة ما يشبهون حمرة الأقحوان، وشقائق النعمان بالخدود المحمرة من الخجل، ويشبهون النرجس والنور، بالثغور المبتسمة... وهكذا.

(١) ديوان الصنوبري، ص ٤٩٣ - ٤٩٤

(٢) ديوانه، ص ٢٥٦

قال الرفاء:

- لو رَحَبْتُ كاسَ بذي أوبَةٍ * لرحَبْتُ بالوردِ إذ زارها
جاءَ فخلناهُ خُدوداً بدتْ * مُضْرِمَةً من خَجَلٍ نارها
كأنما خَيْرَ في رَوْضَةٍ * طرائفَ الكُسوةِ فاخترها
وعطَّرَ الدُّنيا فطابت به * لا عَدِمْتَ دنياءَ عَطَّارها (١)

وقال الصنوبري في محاوراة طريفة أجراها على لسان النرجس والورد:

- يخجلُ الوردُ حين عارضه النر * جسُّ من حُسنه وغار البهار
فعلتْ ذاكَ حمرةً وعلتْ ذا * حيرةً واعترى البهارَ اصفرار
وغدا الأقحوانُ يضحكُ عجباً * عن ثنايا لثائهنَّ نُضار
عندها أبرز الشقيقُ خدوداً * صار فيها من لَطْمِهِ آثار
وأضرَّ السَّقَامُ بالياسمينِ ال * غَضُّ حتى أذابه الإضرار (٢)

ويبدو أن الشاعر كان يفضل النرجس على كل الورد والأزهار قال في

أبيات تؤكد ذلك:

- أرأيتَ أحسنَ من عيونِ النرجسِ * أم من تلاحظهنَّ وسطَ المجلس
درُّ تشقَّقَ عن يواقيتِ على * قُضْبِ الزمردِ فوقَ بسطِ السُّندسِ
أجفانُ كافورٍ حُبِينِ بأعينِ * من زعفرانِ ناعماتِ الملمسِ
وكأنَّها أقمارُ ليلٍ أهدقتْ * بشموسِ دجنٍ فوقَ عُصنِ أملسِ
فإذا تَغَشَّتْها الرياحُ تَنَفَّستْ * عن مثلِ ريحِ المسكِ أيَّ تنفُّسِ
وحكى تداني بعضها من بعضها * يوماً تداني مؤنسٍ من مؤنسِ
هذا وذاك تعانقا في مجلسِ * عشقاً وتلك تعانقتْ في مَعرسِ
وإذا نعستَ من المدامِ رأيتها * ترنو إليك بأعينٍ لم تَنعَسِ (٣)

قال السري الرفاء في اللينوفر:

(١) ديوان السري الرفاء، ص ١٣٥

(٢) ديوان الصنوبري، ص ٧٨

(٣) ديوان الصنوبري، ص ١٨٠-١٨١

يا حُسْنَ لَيْتُوفِرَ شُغِفْتُ بِهِ * يَمْنَحُهُ الْمَاءُ صَفْوً مَشْرُوبَةً
كَأَنَّهُ عَاشِقٌ بِهِ ظَمًا * تَوْهَمَ الْمَاءِ رَيْقَ مَحْبُوبَةٍ^(١)

* الأثمار:

لم يترك شعراء الأمير سيف الدولة ثمرة من الأثمار بلا وصف وانفعلوا بحسنها وبجمالها انفعالاً صادقاً فصاغوا ألفاظهم من جمالها وبهائها وأخذوا معانيهم من حسنها وروائها.

وصف السرى النارنجة فقال:

وبديعة أضحى الجمال شعارها * صَبَغَ الْحِيَاءُ رِدَاءَهَا وَإِزَارَهَا
حَلَّتْ نَسِيمَ عِقَالِهَا وَتَوَشَّحَتْ * بِالْأَرْجُونَ وَشَدَّدَتْ أَزْرَارَهَا
فَالْعَيْنُ تَحْسِرُ إِنْ رَأَتْ إِشْرَاقَهَا * وَالنَّفْسُ تَنْعَمُ إِنْ بَلَّتْ أَخْبَارَهَا
فَكَأَنَّهَا فِي الْكَفِّ وَجَنَّةُ عَاشِقٍ * عَيْتَ الْحِيَاءِ بِهَا فَأَضْرَمَ نَارَهَا
مَحْمُولَةٌ حَمَلَتْ عَجَاجَةَ عَنَبٍ * فَإِذَا سَرَى رَكْبُ النَّسِيمِ أَثَارَهَا
عَشِقَتْ مُحَاسِنَهُ الْعَيُونُ فَلَوْ رَنْتَ * أبدأ إليه لما قَصَّتْ أوطارها^(٢)

وقال الصنوبري في السفرجل:

لك في السفرجل منظرٌ تحظى به * وَتَفَوِّزُ مِنْهُ بِشَمِّهِ وَمِذَاقِهِ
هو كالحبيب سعدت منه بحسنه * مَتَأَمَلًا وَيَأْتِمُهُ وَعِنَاقِهِ
يحكي لنا الذهب المصفى لونه * وَتَزِيدُ بِهَجْتِهِ عَلَى إِشْرَاقِهِ^(٣)

شبه السرى الرفاء الليمون بالنجوم وبالأكبر الفضية، فقال:

واصططحبناها على نه * رِ بَصَفِ الْمَاءِ يَجْرِي
ظَلَّلْتُهَا شَجَرَاتٍ * عِطْرُهَا أَطْيَبُ عِطْرِ
فَأَنَّكَ أَنْجُمُهُ اللَّي * مَوْنٌ مِنْ بَيْضٍ وَخَضِرِ
أَكْرُ مِنْ فِضَّةٍ قَدْ * شَابَهَا تَلْوِيحُ تَبْرِ^(٤)

(١) ديوان السرى، ص ٦٢

(٢) المصدر السابق، ص ١٤١

(٣) المصدر السابق، ص ٤٨٣

(٤) ديوان السرى، ص ١٣٣

وقال أبو فراس في وصف الزمان:

وَجُنَّارٍ مُشْرِقٍ * عَلَى أَعَالِي شَجَرِهِ
كَأَنَّ فِي رُؤُوسِهِ * أَصْفَرَهُ وَأَحْمَرَهُ
فُرَاضَةً مِّنْ ذَهَبٍ * فِي خِرْقٍ مُّصْفَرِهِ^(١)

وصف المائيات:

المقصود بها: السحاب والمطر والأنهار والثلج، والبرك والسواقي وغيره

قال الصنوبري في وصف الثلج:

تَعَالَى اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ * بِقُدْرَتِهِ وَيَارِي كُلَّ نَفْسٍ
لَقَدْ أَضْحَى جَمِيعُ الْأَرْضِ تَجْرِي * كَوَاكِبُهُ بِسَعْدٍ لَا بِنَحْسٍ
أَلَمْ تَرَ كَيْفَ قَد لَبَسَتْ رُبَاهَا * مِنَ الثَّلْجِ الْمَضَاعِفِ أَيِّ لَبْسٍ
ثِيَاباً لَا تَزَالُ تَذُوبُ لَيْناً * إِذَا الْأَيْدِي عَرَضْنَ لَهَا يَلْمَسُ^(٢)

وقد كان لنهر قويق الذي أجراه سيف الدولة بداخل قصره، نصيب كبير

في شعر الشعراء، قال كشاجم:

لِلنَّهْرِ نَهْرٌ قُوقِي * عِنْدِي يَدٌ لَيْسَ تُجْعَدُ
ثم قال واصفاً تعرجه واعتداله:
وَالنَّهْرُ بَيْنَ اعْتِدَالٍ * مِنْ سَيْرِهِ أَوْ تَأْوُدٍ
كَأَفْعُونَ تَلْوَى * ثُمَّ اسْتَوَى وَتَمَدَّدَ
كَأَنَّ فِيهِ سُيُوفاً * مُهَنَّدَاتٌ تُجْرَدُ
فَتَارَةٌ هِيَ تُضَي * وَتَارَةٌ هِيَ تُغَمَّدُ^(٣)

والقصيدة في الديوان طويلة وملينة بالصور البلاغية.

ووصف الصنوبري نهر قويق مبيناً أنه نهر ضحل في مداعبة لطيفة

توضح مدى انحساره في فصل الشتاء، فقال:

(١) ديوان أبي فراس، ج ٢، ص ١٩٤

(٢) ديوان الصنوبري، ص ١٧٩

(٣) ديوان كشاجم، ص ١٣١، ١٣٢

- قويقُ إذا شمَّ ريحَ الشتاءِ * أظهرَ تيهاً وكبراً عجيباً
 وإن أقبَلَ الصيفُ أبصرتهُ * ذليلاً حقيراً حزيناً كئيباً
 إذا ما الضفادع نادينه * قويق قويق أبي إن يجيبا
 وتمشي الجرادةُ فيه فلا * تكادُ قوائمها أن تغيبا (١)

شخص الشاعر النهر في البيتين الأول والثاني واستخدم أسلوب التورية بطريقة ساحرة في قوله "قويق" فالمعنى القريب نقيق الضفادع والمعنى البعيد نهر قويق، وكذلك استخدم أسلوب الكناية في مداعبة لطيفة تدل على مدى ضحالة النهر في البيت الأخير.

وقال الصنوبري في وصف بركة:

- سقى حلباً سافكاً دمعهُ * بطيءُ الرقوعِ إذا ما سفاكُ
 ترى الريحَ تنسجُ من مائه * دروعاً مضاعفةً أو شبك
 كأن الزجاج عليها أذيب * وماءَ اللجين بها قد سبك (٢)

* وصف الفصليات:

في موازنة لطيفة بين الفصول الأربعة يجريها الصنوبري ويفضل فيها الربيع على بقية الفصول، يقول:

- إن كان في الصيفِ ريحانٌ وفاكهةُ * فالأرضُ مستوقدٌ والجوُّ تنورُ
 وإن يكن في الخريفِ النخلُ مخترفاً * فالأرضُ عزيانةً والجوُّ مقرور
 وإن يكن في الشتاءِ الغيثُ متصلاً * فالأرضُ محصورةً والجوُّ محصور
 الأرضُ ياقوتةٌ والجوُّ لؤلؤةُ * والنبتُ فيروزجٌ والماءُ بلور
 هذا البنفسجُ هذا الياسمينُ وذا ال * نسرينُ ذا سوسنٌ في الحُسنِ مشهور
 من شمَّ ريحَ تحياتِ الربيعِ يقلُّ * لا المسكُ مسكٌ ولا الكافورُ كافور (٣)

*

(١) ديوان الصنوبري، ص ٤٥

(٢) ديوانه، ص ٤٨٤

(٣) ديوانه، ص ٤

الطبيعة المتحركة:

لم يهتم شعراء الأمير بوصف الطبيعة المتحركة، اهتمامهم بوصف الطبيعة الساكنة.

قال الصنوبري في وصف يوم جميل صافٍ اجتمعت فيه أنواع مختلفة من الشمس بما فيها شمس السماء، وفرسه يعدو به بسرعة مذهلة والجو تظله الغيوم الماطرة فظل ينثر الندى الذي كان امتزج بكافور غباره الذي يعلو الفضاء والطيور تغرد مطربة بغير مزار:

- * أنيسُ ظباءٍ كوحشِ الظباءِ
- * وصبغُ حياً مثلُ صبغِ الحياءِ
- * ويوم يكالسه بالشمس
- * صفاء الهوى في صفاء الهواء
- * فشمسُ الجنانِ وشمسُ الدنانِ
- * وشمسُ القيانِ وشمسُ السماءِ
- * واسحمَ ينثر من طأئه
- * على درّ نواره درّ ماءٍ
- * وأصبح ركضُ صباه يثيرُ
- * عجاجةً كافوره في الفضاءِ
- * تظللُ به الطيرُ مشغولةً
- * وتروّفك بالصوتِ من غير عودٍ
- * وتصيبك بالزّميرِ من غير ناء^(١)

وقال يصف الديك:

- * مُغرّدُ الليل ما يألوك تغريدا
- * ملّ الكرى فهو يدعو الصبحَ مجهودا
- * حالي المقلّد لو قيست قلادته
- * بالورد قصّر عنها الوردُ توريدا
- * تقولُ هذا عقيدُ الملك منتسباً
- * في آل كسرى عليه التاجُ معقودا^(٢)

أهدى سيف الدولة إلى ابن نباتة السعدي فرساً جميلاً المنظر، فقال في

ذلك الفرس:

- * يا أيها الملك الذي أخلاه
- * من خلقه ورواؤه من رائه
- * قد جاعني الذي أهديت
- * هاديه يعقد أرضه بسمائه
- * متمهلاً والبرق من أسمائه
- * متبرقعاً والبدر من أكفائه

(١) ديوان الصنوبري، ٤٤٨

(٢) المصدر السابق، ص ٤٧٣

لا يكمل الطرف المحاسن كلها * حتى يكون الطرف من أسرائه^(١)
وصف مظاهر الحياة الاجتماعية:

ووصف الآثار الإنسانية:

اشتمل الوصف على مظاهر متعددة في الحياة الإنسانية عامة وفي الحياة الاجتماعية على وجه الخصوص لدى شعراء الأمير سيف الدولة ولا شك في أن هؤلاء الشعراء قد مثلوا الحياة بأكملها أروع تمثيل فوصفوا أدوات الكتابة، ووصفوا أدوات الحضارة، ووصفوا أدوات الموسيقى والغناء، بل ووصفوا جميع مرافق الحياة العامة؛ فعكسوا بذلك صورة الحياة في عصرهم بأدق تفاصيلها وجزئياتها، في صور جلية واضحة.

ومن الآثار الإنسانية التي وصفها شعراء الأمير وُصِفَ الصنوبري لجامع حلب فقال:

حَبَّذا جامعها الجا * مع للنفس تقاها
قبلية كرمها الله * بنورٍ وحبَّاهَا
ورآها ذهباً في * لازوردٍ من رآها
ومراقبي منبر أعظم * شيءٍ مُرتَقَاهَا
وذرى منذنة طبا * لت ذرى النجم ذراها^(٢)

ووصف أحد الخالدين "قلعة حلب"، تلك القلعة التي يقال عنها: إن حلب القديمة كلها بنيت عليها^(٣)، وهي قلعة عريقة وأثر من المآثر التاريخية الخالدة التي استوقفت العديد من الأثريين.

وخرقاء قد قامت على من يرومها * بمرقبها العالي وجانبها الصعب
يجر عليها الجو جيب غمامة * ويلبسها عقداً بالأنجم الشهب

(١) بيتمة الدهر، ج ٢، ص ٤٥٠.

(٢) ديوان الصنوبري، ص ٥٠٦، ٥٠٧.

(٣) سيف الدولة، لسامي الكيالي، ص ٦١.

* يقول الأثرى الفرنسي بلوادي روتر إن تاريخ هذه القلعة يرجع إلى خمسة آلاف سنة خلت، وقال اشترك في بنائها كثير من الأمم أخصها بالذكر: الحيثيون والفرس واليونانيون والرومانيون والعرب. الخطط،

إذ ما سرى برق بدت من خلاله * كما لاحت العذراء من خلل السحب
فكم من جنود قد أماتت بغصة * وذي سطوات قد أبانت على عقب^(١)
وصف كشاجم جانباً مهماً في الحياة الاجتماعية في ذلك العصر وهو:
اهتمام العامة والخاصة بمجالس العلم التي انتشرت فقال:

حسبي من اللهو وآلات الطرب * ومن ثراءٍ وعَتَادٍ ونَشَبِ
مجالسِ مَصُونَةٍ عن الرِّيبِ * مَعْمُورَةٍ من كل علم يُطَلَّبِ
تكادُ من حرِّ الحديثِ تلتهبُ * شعراً وأخباراً ونحواً يقتضبِ
ولغةً تجمع ألفاظَ العربِ * وفقراً كالوعد في قلب المُحِبِ^(٢)

اهتم الناس في هذا العصر بالقراءة والكتابة، لذا نجد الشعراء يكتبون من
وصف أدوات القراءة والكتابة في أشعارهم قال السرى الرفاء يصف قلماً:

له قَلَمٌ تجري النجومُ بجريه * يُطِيعُ له حَتَمَ القَضَاءِ وَيَسْمَعُ
يُدِيرُ سُعوداً أو نُحوساً وإنه * من الفلكِ الدَّوَارِ في الجَوِّ أَسْرَعُ
إذا ما امتطى منه ثلاثُ أناملٍ * بدا ساجداً من تحتها وهي رُكْعُ^(٣)
وقال كشاجم في وصف محبرة:

صِيَّنتُ بِمَرْفَعِهَا الدَّوَاةُ فَأَصْبَحَتْ * مِنْ شَرِّ آفَاتِ التَّبَذْلِ سَالِمَةٌ
فَكَانَتْهَا مَلِكٌ عَلَى كُرْسِيِّهِ * أَوْ عَادَةٌ وَسَطَ الأَرِيكَةِ نَائِمَةٌ
زُنْجِيَّةٌ عَجْمَاءُ إِلَّا أَنَّهُمَا * بِجَلِيلِ تَدْبِيرِ البَرِيَّةِ عَالِمَةٌ^(٤)

وكان كشاجم أكثر شعراء الأمير اهتماماً بوصف أدوات الحضارة،
فوصف البركار وهو يبدو من خلال وصفه له من الأدوات الهندسية "الحسابية":

جُد لي بِبِرْكَارِكَ الَّذِي صَنَعْتَ * فِيهِ يَدَا قَيْنِهِ الأَعَاجِيْبَا
مُلْتَمِ الشَّفَرَتَيْنِ مَعْتَدِلٌ * مَا شَيْنَ من جَانِبٍ وَلَا عِيْبَا
الحقُّ فِيهِ فَإِنْ عَدَلْتُ إِلَى * سِوَاهِ كَانَ الحِسَابُ تَقْرِيْبَا

(١) ديوان الخالدين

(٢) ديوان كشاجم، ص ١٣

(٣) ديوان السرى، ص ١٧٠

(٤) ديوان كشاجم، ص ٣٦٢

لو عين إقليدس به بصُرت * خرَّ له بالسُّجود مكبوباً^(١)
 ووصف كشاجم أداة أخرى من أدوات علم الفلك تسمى "الاصطرلاب"
 فقال:

وَمُسْتَدِيرِ كَجِرْمِ الْبَدْرِ مَسْطُوحٍ * عن كُلِّ رَائِعَةٍ الْأَشْكَالِ مَصْفُوحٍ
 كَأَنَّمَا السَّبْعَةُ الْأَفْلَاقُ مُحَدَّقَةٌ * بِالنَّارِ وَالْمَاءِ وَالْأَرْضَيْنِ وَالرِّيْحِ
 تُنْبِئُكَ عَنِ طَالِعِ الْأَبْرَاجِ هَيْئَتُهُ * بِالشَّمْسِ طَوْرًا وَطَوْرًا بِالمَصَابِيحِ
 وَإِنْ مَضَتْ سَاعَةٌ أَوْ بَعْضُ ثَانِيَةٍ * عَرَفْتَ ذَاكَ بِعِلْمٍ فِيهِ مَشْرُوحٍ
 نَتِيجَةُ الذَّهْنِ وَالتَّفْكِيرِ صَوْرَهُ * ذُوو العُقُولِ الصَّحِيحَاتِ المَرَاجِيحِ^(٢)

وقال كشاجم واصفاً جانباً من مظاهر الحياة يتمثل في بيوت الغناء
 والطرب:

وجارية تَتَالُ النَّفْسُ مِنْهَا * بِلِحْظِ العَيْنِ غَايَةً مَا تَمَنَّتْ
 تُرِيكَ الحُسْنَ وَالِإِحْسَانَ وَقَفَاءً * إِذَا بَرَزْتَ لَنَا وَإِذَا تَغَنَّتْ
 كَأَنَّ العُودَ حِينَ تَجُسُّ مِنْهُ * يَعْبُرُ عَنِ سِرَائِرِ مَا أَجَنَّتْ
 كَتَيْتُ عَنِ اسْمِهَا وَالِإِسْمُ بَادٍ * إِذَا مَا الْإِسْمُ أَصْدَرَ مَنْ تَجَنَّبَ^(٣)
 وقال أيضاً في وصف الطنبور:

ذُو لِسَانَيْنِ فَوْقَهُ * عَدَلًا مِنْ مَقَادِرِهِ
 أَنْطَقَتْهُ يَدُ امْرِئٍ * فَاتِرِ اللَّخْظِ سَاحِرِهِ
 فَحَكَى عَنِ ضَمِيرِهِ * مَا جَرَى فِي خَوَاطِرِهِ^(٤)

وقال كشاجم واصفاً بعض أدوات الترف فقال في الشمعة:

وهيفاء من ندماء الملوك * صفراء كالعاشق المدنف
 تكيد الظلام إذا كادها * فتغنى وتغنيه في موقف^(٥)

(١) ديوانه، ص ٢١، ٢٢

(٢) ديوان كشاجم، ص ٨١، ٨٢

(٣) ديوانه، ص ٤٦

(٤) ديوانه، ص ٢٠٠

(٥) ديوانه ص ٤٥٧

ووصف السرى طبيب يقال له ابن قرّة، فقال:

هَلْ لِلْعَلِيلِ سِوَى ابْنِ قُرَّةَ شَافِي * بَعْدَ الْإِلَهِ وَهَلْ لَهُ مِنْ كَافِي
فَكَأَنَّهُ عَيْسَى بْنُ مَرْيَمَ نَاطِقاً * يَهَبُ الْحَيَاةَ بِأَيْسَرِ الْأَوْصَافِ
يَبْدُو لَهُ الدَّاءُ الْخَفِيُّ كَمَا بَدَا * لِلْعَيْنِ رَضْرَاضُ الْغَدِيرِ الصَّافِي^(١)

* شعر الحرب والجهاد:

تقع أمانة الحمدانيين في الحدود الفاصلة بين بلاد الإسلام، وأمبراطورية الروم العظيمة التي كانت تتنافس الخلافة الإسلامية في أيام عزتها وشموخها، في العصر العباسي الأول.

حاول الروم استغلال ضعف الخلافة في أواخر العصر العباسي الثاني، فأخذوا يناوشون العرب من فترة لأخرى، وظنوا أن الفرصة مؤاتية والوقت مناسب؛ لتحقيق حلمهم القديم، فرسموا الخطط للاستيلاء على بيت المقدس، ولكن الأمير سيف الدولة وقف سداً منيعاً حال دون تطلعاتهم ورداهم على أعقابهم خاسرين، بعد أن لقنهم أقسى الدروس الحربية في ساحات المعارك التي دارت سجالاتاً بينهما، وكان الأمير في أكثر الأحيان منتصراً ظافراً - بإذن الله - ويارادته القوية وإيمانه القوي - والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف - هذا كان في الوقت الذي وهنت فيه دولة الخلافة الإسلامية وذهبت فيه هيبتها هباء منثوراً، ولا شك في أن الله قد أعز الإسلام والخلافة بسيف الدولة الذي استطاع أن يحقق لنفسه مجداً خالداً، ومنزلة تقاصر عن بلوغها كل السراة والملوك في المجتمع العربي والإسلامي يومذاك.

كبر الأمير مقاماً في نظر المسلمين جميعاً وأتْلج صدورهم بعد أن أعلن الجهاد وجعله سبيله الأوحى في منازل الروم ففخر به التاريخ الإسلامي وأفرد له سجلاً من السجلات الفوَّاحة بعبير البطولات والأمجاد.

ويقول شلمبرجر مشيراً إلى سيف الدولة: "المتصفح لمقتطفات التاريخ البيزنطي في منتصف القرن العاشر ولأكثر من عشرين عاماً من ٣٣٤ -

(١) ديوان السرى، ص ١٧٤.

٣٥٦هـ، ٩٤٥ - ٩٦٧م، يجد اسماً وحيداً -وأكرر ذلك- يطفو على كل صفحة من صفحات ذلك التاريخ كإنسان شجاع لا يكل ولا يتعب، وكان عدواً لدوداً للامبراطورية البيزنطية، ذلك هو أمير حلب سيف الدولة ابن حمدان... وكان يتمتع بشجاعة فائقة لا يعرف الخور إليها سبيلاً^(١).

ذكرنا في فصل مضى أن الروم ما كانوا أعداء الأمير وحدهم، بل كانت له حروب مع أطراف مختلفة، مثل: الأخاشدة، وبني بويه، وبعض القبائل العربية النائرة. فأمر الأخاشدة قد حسمته الأقدار بمعاهدة أوقفت الحرب بينهما، وأمر القبائل العربية فكان كثيراً ما يؤول إلى الصلح بعد تأديبهم، أما أمر الروم فقد كان الأمر العظيم الذي استوجب الجهاد.

ففي هذا الباب فإن كان الأمر تمجيد الأمير ووصف شجاعته ومكارمه لاكتفينا بما مدح به الشعراء الأمير من صفات المدح والمروءة في فصل المديح/ ولكن -في رأينا- أن الأمر أكبر من ذلك فنحن في هذا الباب أمام نوع جديد من الشعر -وإن لم يكن جديداً كل الجدة- شعر يمجّد البطولة ويصف المعارك وصفاً دقيقاً، حتى صار هذا الفن فناً ركيناً لا نستطيع أن ندرجه تحت مظلة المديح أو الفخر، وهذا ما جعلنا نصلح على تسميته "بشعر الحرب والجهاد".

ولا يساورنا أدنى شك في أن الحمية التي كتب بها شعراء الأمير قصائدهم الجهادية في المعارك الحربية التي خاضها الأمير ضد الروم لم يكن مبعثها إلا الولاء لله ولرسوله أولاً، ثم الانتماء للعروبة والوطن ثانياً ويبدو لنا مدى إعجاب هؤلاء الشعراء بفروسية الأمير وبشجاعته وإقدامه من خلال أشعارهم، ولا غرو في ذلك فالشخصيات البطولية تستهوي جميع الناس وتملأ نفوسهم بالإعجاب منذ عهد عنتر بن شداد وإلى يومنا هذا.

فدولة أمراؤها أبطال يعشقون البطولة ولا يهابون الموت، وقواد جيوشها عنوان للمروءة والاستبسال فلا بد أن تكون مفخرة لشعبها، وعز لمن ينتمي إليها، ويمكننا أن نضرب المثل في البطولة والشجاعة بأبي زهير مهلهل بن عم

(١) الامبراطورية البيزنطية، لشلمبرجر، باريس، ١٨٩٠، ص ١٢١

الأمير وقائد من قواده الأفضاذ، وقد قال وهو يعالج لحظات الموت الأخير في
الموقعة التي استشهد فيها بحصن الصفصاف:

لقد سخنت عيون الروم لما * فتحنا عنوة حصن العيون
وبالصفصاف جرنا علوجاً * شداد منهم كأس المنون
وروضنا بلادهم بجرد * سواهم شرّب قب البطون
عليها من ربيعة كل قرم * فقيد المثل منقطع القرين^(١)

كان أبو العشائر ابن عم سيف الدولة وعامله على أنطاكية شاعراً وأديباً،

وهو كذلك قتل في بلاد الروم، ومن المأثور من شعره قوله:

أخا الفوارس لو رأيت موافقي * والخيل من تحت الفوارس تنحط
لقرأت منها ما تخط يد الوغى * والبيض تشكل والأسنة تنقط^(٢)

وقال أبو فراس:

يمنون أن خلوا ثيابي وإنما * علي ثياب من دمائم حمر
يقولون لي بعت السلامة بالردى * فقلت أما والله ما نالني خسر
هو الموت فاختر ما علا لك ذكره * فلم يمت الإنسان ما حيى الذكر^(٣)

كان شعراء الأمير يؤمنون بأن الأمير صاحب مبدأ وعقيدة، وأنه فوّت
الفرصة على أعدائهم الصليبيين بزوده عن دينه وعرضه، فتلك الحروب في
حقيقتها لم تخرج عن كونها حرب صليبية أي "النواة الأولى لها" فالروم كانوا
يلقبون الأمير سيف الدولة "بالكافر الحمداني"^(٤)، كما أنهم وصفوه في كتبهم
بأنه: "المحارب الوحيد الأعظم السامي الذي أعلن الحرب المقدسة على
النصرانية"^(٥). ولم يفت هذا الأمر على شعراء الأمير قال السري في إحدى
قصائده:

(١) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين، ص ١١٩

(٢) المصدر السابق

(٣) ديوان أبي فراس، رواية ابن خالويه، ص

(٤) شعر الحرب في أدب العرب، لزكي المحاسني، دار المعارف، مصر، ١٩٦١م، ص ٢٤٧

(٥) شعر الحرب في أدب العرب، لزكي المحاسني، ص ٢٤٧

رمى الصَّالِبَ وأبناء الصَّالِبِ فلم * تُغْمَدُ صَوَارِمُهُ إِلَّا وَهُمْ رِمَمٌ
بِالْبَيْضِ تُنْكَرُهَا الْأَعْمَادُ مُغْمَدَةً * وَالْجُرْدُ تَعْرِفُهَا الْغِيطَانُ وَالْأَكْمُ^(١)

كما ذكر المتنبي أن هذه المعارك لم تكن مجرد معارك بين ملكين
انتصر أحدهما وانهزم الآخر، وإنما هي معارك بين الشرك والإسلام كما أنها
شرف للعنصر العربي كله وفخر للعنصر وللناس أجمعين فقال:

وَأَسْتَمَلِكاً هَازِماً لِنَظِيرِهِ * وَكَانَكَ التَّوْحِيدُ لِلشَّرِكِ هَازِماً
تَشَرَّفَ عَدَنَانٌ بِهِ لَا رَيْبَةَ * وَتَفْتَخِرُ الدُّنْيَا بِهِ لَا الْعَوَاصِمُ^(٢)

فشعراء الأمير لم يتركوا كبيرة أو صغيرة حول تلك المعارك إلا وصورها
في شعر انفعلا فيه انفعالاً صادقاً، فصوروا الهزيمة بمشاعر غاضبة حزينة،
قال المتنبي في معركة انهزم فيها الأمير:

بِالْجَيْشِ تَمْتَعُ السَّادَاتُ كُلُّهُمْ * وَالْجَيْشُ بِأَبْنِ الْهَيْجَاءِ يَمْتَعُ
قَادَ الْمَقَانِبَ أَقْصَى شُرْبِهَا نَهْلٌ * عَلَى الشَّكِيمِ وَأَدْنَى سَيْرِهَا سِرْعٌ
لَا يَعْتَقِي بَلَدٌ مَسْرَاهُ عَنِ بَلَدٍ * كَالْمَوْتِ لَيْسَ لَهُ رِيٌّ وَلَا شِبَعٌ
حَتَّى أَقَامَ عَلَى أَرِيَاضِ خَرَشَنَةَ * تَشْقَى بِهِ الرُّومُ وَالصُّلْبَانُ وَالْبَيْعُ
لِلسَّبِيِّ مَا نَكَحُوا وَالْقَتْلِ مَا وَادُوا * وَالنَّهْبِ مَا جَمَعُوا وَالنَّارِ مَا زَرَعُوا
مُخْلِئاً لَهُ الْمَرْجُ مَنْصُوباً بِصَارِحَةٍ * لَهُ الْمَنَابِرُ مَشْهُوداً بِهَا الْجَمْعُ
يُطَمِّعُ الطَّيْرَ فِيهِمْ طَوْلُ أَكْلِهِمْ * حَتَّى تَكَادَ عَلَى أَحْيَائِهِمْ تَقَعُ^(٣)

ابتدأ المتنبي قصيدته بالحديث عن شخصية سيف الدولة القيادية متحدثاً
عن انتصاراته وتوغله في بلاد الروم، واصفاً شجاعته بحس دقيق وخيال مدرك
مصوراً بذلك همته وعزيمة جيشه الذي لا يقهر وهو يسير من بلد إلى بلد فاتحاً
بلدان الأعداء، مشبهاً له بالموت الذي يعم البشر جميعاً دون أن يرتوي أو
يشبع.

(١) ديوان السري، ص ٢٤٦

(٢) شرح ديوان المتنبي، شرح البرقوقى، ج ٣، ص ٩٥

(٣) المصدر السابق، ص ٣٣٣

ويقول المتنبي أن الطيور قد اعتادت أن تطعم لحومهم ولكثرة هزائمهم المتلاحقة، كادت أن تقع على أحيائهم، ثم قال:

إِذَا دَعَا الْعِلْجُ عِلْجاً حَالَ بَيْنَهُمَا * أَظْمَى تَفَارِقُ مِنْهُ أُخْتَهَا الضِّلْعُ
أَجَلٌ مِنْ وَلَدِ الْفُقَّاسِ مُنْكَتِفٌ * إِذْ فَاتَهُنَّ وَأَمْضَى مِنْهُ مُنْصَرِعٌ
وَمَا نَجَا مِنْ شِفَارِ الْبَيْضِ مُنْقَلِتٌ * نَجَا وَمِنْهُنَّ فِي أَحْشَائِهِ فَرْعٌ
يُبَاشِرُ الْأَمْنَ دَهْرًا وَهُوَ مُخْتَبِلٌ * وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ حَوْلًا وَهُوَ مُمْتَقِعٌ
كَمْ مِنْ حُشَاشَةٍ بِطَرِيقِ تَضَمَّنَهَا * لِلْبَاتِرَاتِ أَمِينٌ مَالَهُ وَرَعٌ
يُقَاتِلُ الْخَطْوَةَ عَنْهُ حِينَ يَطْلُبُهُ * وَيَطْرُدُ النَّوْمَ عَنْهُ حِينَ يَضْطَجِعُ
تَعْدُو الْمَنِيَا فَلَا تَنْفَكُ وَإِقْفَةٌ * حَتَّى يَقُولَ لَهَا عَوْدِي فَتَنْدَفِعُ^(١)

وصف الشاعر هزيمة الروم بأسلوب ساخر موضحاً هروب قائدهم وكيف أن جنودهم خروا صرعى، ويقول: أما الذين نجوا من حد السيوف منهم فقد ظلوا يعيشون في حالة قلق وخوف حتى في أيام السلام.

صوّر المتنبي في هذه القصيدة أول معركة شهدتها من معارك الأمير في سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة، وكان النصر في أولها حليف المسلمين ولكن الروم غيروا خططهم فانتصروا على المسلمين فقال معللاً لتلك الهزيمة في حنكة بالغة ومنطق ذكي:

قُلْ لِلدُّمُسْتَقِ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ لَكُمْ * خَانُوا الْأَمِيرَ فَجَازَاهُمْ بِمَا صَنَعُوا
وَجَدْتُمُوهُمْ نِيَامًا فِي دِمَائِكُمْ * كَأَنَّ قَتْلَكُمْ إِيَّاهُمْ فَجَعُوا
ضَعْفَى تَعَفُّ الْأَيْدِي عَنْ مِثَالِهِمْ * مِنَ الْأَعَادِي وَإِنْ هَمَّوْا بِهِمْ نَزَعُوا
لَا تَحْسَبُوا مَنْ أَسْرْتُمْ كَانَ ذَا رَمَقٍ * فَلَيْسَ يَأْكُلُ إِلَّا الْمَيْتَ الضَّبْعُ
وَإِنَّمَا عَرَّضَ اللَّهُ الْجُنُودَ بِكُمْ * لِكَيْ يَكُونُوا بِلَا فَسَلٍ إِذَا رَجَعُوا^(٢)

قال صاحب تجارب الأمم إنهم: "وصلوا صارخة وهي غير بعيدة عن القسطنطينية، وظفر سيف الدولة وغنم غنيمة كبرى، ولكنه عندما أراد الخروج

(١) ديوان المتنبي، شرح البرقوقى، ج ٢، دار البيان، ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م، ص ٣٣٧

(٢) ديوان المتنبي، شرح البرقوقى، ج ٢، ص ٢٣٨ - ٢٣٩

أخذوا عليه الدرب فقتل خلق كثير من جيش سيف الدولة وكاد سيف الدولة نفسه يهلك، وسميت تلك الغزوة بغزوة "المصيبة"^(١).

وأخيراً قال الشاعر مؤاسياً الأمير:

يَمْشِي الْكِرَامُ عَلَى آثَارِ غَيْرِهِمْ * وَأَنْتَ تَخْلُقُ مَا تَأْتِي وَتَبْتَدِعُ
وَهَلْ يَشِينُكَ وَقْتُ كُنْتَ فَارِسَهُ * وَكَانَ غَيْرَكَ فِيهِ الْعَاجِزُ الضَّرْعُ
مَنْ كَانَ فَوْقَ مَحَلِّ الشَّمْسِ مَوْضِعَهُ * فَلَيْسَ يَرْفَعُهُ شَيْءٌ وَلَا يَضَعُ
الدَّهْرُ مُعْتَذِرٌ وَالسَّيْفُ مُنْتَظِرٌ * وَأَرْضُهُمْ لَكَ مُصْطَافٌ وَمُرْتَبَعُ
إِنَّ السِّلَاحَ جَمِيعُ النَّاسِ تَحْمِلُهُ * وَلَيْسَ كُلُّ ذَوَاتِ المِخْلَبِ السَّبْعُ^(٢)

ولا شك في أن المتنبي كان مبدعاً في الوصف والتعليل وفي مؤاساة الأمير ولا شك أنه قد آسى أميره الذي أحبه بحس الطبيب النفسي، وروح الحكيم الذكي انظر قوله:

وَهَلْ يَشِينُكَ وَقْتُ كُنْتَ فَارِسَهُ * وَكَانَ غَيْرَكَ فِيهِ الْعَاجِزُ الضَّرْعُ
مَنْ كَانَ فَوْقَ مَحَلِّ الشَّمْسِ مَوْضِعَهُ * فَلَيْسَ يَرْفَعُهُ شَيْءٌ وَلَا يَضَعُ

والحق أن المتنبي جاء رائداً في هذا الفن، وينتوّه الأمير أبي فراس، والسبب في رأينا لا يحتاج إلى تعمق في التفكير، فالمتنبي كان يرى في شخصية سيف الدولة صدى نفسه الثائرة الراضة لحياة الذل والاستسلام، والتي تنتزع دائماً إلى الثريا، وقد كان فارساً له نظرته الخاصة ورؤاه الثاقبة، فهو من دعاة القومية العربية والوحدة الإسلامية في شعره الجهادي. أما أبو فراس فقد كان أميراً فارساً وبطلاً مغواراً وقد كان الجهادهم الأول والأخير والحروب حياته التي نشأ وترعرع في أحضانها، ومحبوبته التي عشقها أيما عشق. وقد شهد له معاصروه بذلك، فما هو القاضي "أبو الحصين" قاضي سيف الدولة في حلب يقول عن أبي فراس:

الحرب نزهته، والبأس همته * والسيف عزمته والله ناصره^(٣)

(١) تجارب الأمم، ج٢، ص ١٢٥

(٢) ديوان المتنبي، بشرح البرقوق، ج٢، ص ٣٤٠ - ٣٤٣

(٣) راجع يتيمة الدهر، ج١، ص ١٢٧

وفي سنة ٣٤٢هـ أغار الروم على بعض الأطراف الإسلامية فبلغ الخبر سيف الدولة، وطاردهم وأوقع بهم هزائم نكراء بعد أن أسروا ابن القائد، فتسابق الشعراء إلى تصوير تلك الانتصارات، فقال المتنبي:

هُمَامٌ إِذَا مَا هَمَّ أَمْضَى هُمومَهُ * بِأَرْعَنَ وَطْءُ المَوْتِ فِيهِ ثَقِيلُ
وَخَيْلٍ بَرَاهَا الرِّكْضُ فِي كُلِّ بِلْدَةٍ * إِذَا عَرَّسَتْ فِيهَا فَلَيْسَ ثَقِيلُ
فَلَمَّا تَجَلَّى مِنَ دَلْوِكَ وَصَنْجَةٍ * عَلَتْ كُلُّ طَوْدٍ رَايَةً وَرَعِيلُ
فَمَا شَعَرُوا حَتَّى رَأَوْهَا مُغِيرَةً * قِبَاحاً وَأَمَّا خَلْفُهَا فَجَمِيلُ
سَحَابٌ يُمِطِرُنَ الحَدِيدَ عَلَيْهِمْ * فَكُلُّ مَكَانٍ بِالسُّيُوفِ غَسِيلُ
وَأَمْسَى السَّبَايَا يَتَّحِبْنَ بِعَرْقَةٍ * كَأَنَّ جُيُوبَ الثَّائِلَاتِ ذُيُولُ
وَعَادَتْ فَظَنُّوْهَا بِمَوْزَارٍ فُقُلاً * وَلَيْسَ لَهَا إِلَّا الدُّخُولَ فُقُولُ
فَخَاضَتْ نَجِيعَ الجَمْعِ خَوْضاً كَأَنَّهُ * بِكُلِّ نَجِيعٍ لَمْ تَخْضَهُ كَفِيلُ
تُسَاطِرُهَا النِّيرانُ فِي كُلِّ مَسَلِكٍ * بِهِ القَوْمُ صَرَعى وَالدِّيَارُ طُلُولُ

إلى أن قال:

فَوَدَّعَ قَتْلَهُمْ وَشَيَّعَ فَالَهُمْ * بِضَرْبِ حُزُونِ البَيْضِ فِيهِ سُهُولُ
عَلَى قَلْبِ قُسْطَنْطِينٍ مِنْهُ تَعَجُّبٌ * وَإِنْ كَانَ فِي سَاقِيهِ مِنْهُ كُبُولُ^(١)

صور المتنبي - في هذه القصيدة التاريخية - بريشة مفرداته الدقيقة صورة واقعية لمعارك الأمير التي انتصر فيها على الروم في ذلك العام وركّز الشاعر جلّ اهتمامه على وصف تلك الخيول التي انطلقت كالسهام منتصرة، تخوض نجيع الدم منتقلة من بلد إلى بلد ثم تعلق الرايات والأعلام رؤوس الأجيال خافقة بالنصر، تتبعها النيران التي يشعلها الجنود فتصير الديار طولاً وخراباً ويصير السواد بياضاً، انظر كيف أن الشاعر صور الخيل في صورة الفرسان الشجعان، وكيف أنه أكمل لوحة النصر بأسر قسطنطين ابن الامبراطور.

وقال المتنبي مهدداً وواعداً الروم مخاطباً الدمستق قائد الروم:

رَضِينَا وَالدُّمُسْتُقُّ غَيْرُ رَاضٍ * بِمَا حَكَمَ القَوَاضِبُ وَالْوَشِيحُ

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي، شرح العكبري، ج٣، ص ٩٥ و ص ١٠٨

فَإِنْ يُقَدِّمُ فَقَدْ زُرْنَا سَمَدُو * وَإِنْ يُحْجِمُ فَمَوْعِدُهُ الْخَلِيجُ^(١)

والخليج هو خليج البسفور ويعنى به "القسطنطينية" عاصمة الروم.
لا شك أن المتنبى شاعر مبدع في تصويره للمعارك الحربية وأنه كان
سباقاً والشعراء منقطع أنفاسها خلف غباره انظر قوله:

سَرَيْتَ إِلَى جِيحَانٍ مِنْ أَرْضِ آمِدٍ * ثَلَاثًا لَقَدْ أَدْنَاكَ رَكْضٌ وَأَبْعَدَا
فَوَلَّى وَأَعْطَاكَ ابْنَهُ وَجِيوشَهُ * جَمِيعاً وَلَمْ يُعْطِ الْجَمِيعَ لِيُحْمَدَا
عَرَضَتْ لَهُ دُونَ الْحَيَاةِ وَطَرْفِهِ * وَأَبْصَرَ سَيْفَ اللَّهِ مِنْكَ مُجَرِّدَا
وَمَا طَلَبْتَ زُرْقُ الْأَسِنَّةِ غَيْرَهُ * وَلَكِنَّ قُسْطَنْطِينَ كَانَ لَهُ الْفِدَا
فَأَصْبَحَ يَجْتَابُ الْمُسُوحَ مَخَافَةً * وَقَدْ كَانَ يَجْتَابُ الدِّلاصَ الْمُسَرِّدَا
وَيَمْشِي بِهِ الْعُكَّازُ فِي الدَّيْرِ تَائِباً * وَمَا كَانَ يَرْضَى مَشْيَ أَشْقَرٍ أَجْرَدَا
وَمَا تَابَ حَتَّى غَادَرَ الْكُرَّ وَجْهَهُ * جَرِيحاً وَخَلَّى جَفْنَهُ النَّقْعُ أَرْمَدَا^(٢)

انتدب الروم برداس فوكاس القائد المشهور، والذي كان يسمى بالقائد
المظفر؛ ليحارب سيف الدولة فهزمه سيف الدولة، وهرب القائد بعد أسر ابنه
قسطنطين، وكان سيف الدولة يحسن معاملة، قسطنطين الذي في الأسر إلى أن
مات من علة اعتلها، وكانت تلك المعركة أكبر ما مرّ على البيزنطيين من
نكبات، وبعدها حزن برداس فوكاس حزناً شديداً على أمر ولده، ودخل الدير
مترهباً^(٣).

قال النامي في تلك الحادثة ٣٤٢هـ:

لكنه طلب الترهّب خيفة * ممن له تتقاصر الأعمارُ
فمكّان قائم سيفه عكازه * ومكان ما يتمنطق الزنار^(٤)

(١) ديوان أبي الطيب المتنبى، شرح العكبري، ص ٢٣٩ - ٢٤٠

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبى، شرح العكبري، ج ١، ص ٢٨٤

(٣) زبدة الحلب، ج ١، ص ١٢٣.

(٤) زبدة الحلب، ج ١، ص ١٢٤

وقال أبو فراس في قصيدته "لعل خيال العامرية" التي سبق أن ذكرنا أبياتاً منها في فصل "المديح" واصفاً أسر قسطنطين وفرار الأمبراطور جريحاً:
وَأَبْنُ بَقْسَطَنْطِينٍ وَهُوَ مُكَبَّلٌ * حُفُّ بَطَارِيقٍ بِهِ وَزَارُورٌ
وَوَلَّى عَلَى الرَّسْمِ الدُّمُسْتَقُ هَارِباً * وَفِي وَجْهِهِ غُذْرٌ مِّنَ السَّيْفِ عَاذِرٌ^(١)

ووصف ابن نباته تلك الانتصارات بفلسفة جديدة وخيال رائع فقال:

وطُوفَ فِي بِلَادِ الرُّومِ حَتَّى * تَوَهَّمْنَاهُ قَدْ ضَلَّ السَّبِيلَا
وَكَيْفَ يَضِلُّ فِي سَبِيلِ المَعَالِي * فَتَى جَعَلَ الحُسَامَ لَهُ دَلِيلَا
كَأَنَّ حَصُونَهُمْ نَادَتْ نِدَاهُ * أَوْ اخْتَارَتْ لِسَاكِنِهَا بَدِيلَا
كَأَنَّ بِلَادَهُمْ ضَمَّتْ عَلَيْهِ * جَوَانِحَهَا مَخَافَةً أَنْ يَزُولَا^(٢)

ويشير إلى فرح الروم بالهجوم على بعض الثغور الإسلامية التي سرعان

ما أرجعها سيف الدولة إلى ملكه فقال:

فَمَا ضَحِكْتَ بِحِصْنِ الرَّانِ حَتَّى * بَكَتْ حَلْبٌ وَرَجَعَتْ العَوِيلَا
فَكَرَّتْ نَحْوَ عَوَلْتِهَا رُجُوعاً * كَتَكَرَّرِ اللِّيُوْثِ حَمَتْ شُبُولَا
إِلَى بَحْرِ بَمَرْعَشٍ مِنْ حَدِيدٍ * فَأُورِدَهَا شَرَائِعَهُ سُيُولَا
فَقَالُوا هَاكَ قُسْطَنْطِينٌ خُذْهُ * وَنَهْنَه مِنْ أَعْنَتِهَا قَلِيلَا

وقال شاكراً دفاعه عن الإسلام:

حَمِيَتْ يَا صَارِمَ الإِسْلَامِ حُوْزَتَهُ * بِصَارِمِ الحَدِّ حَتَّى عَزَّ جَانِبَهُ
رَفَعْتَ بِالحَدِّثِ الحِصْنَ الَّذِي خَفَضْتَ * مِنْهُ الحَوَادِثُ حَتَّى ذَلَّ رَاتِبَهُ
أَعَدَّتْهُ بَعْدُوياً فِي مَنَاسِبِهِ * مِنْ بَعْدِ مَا كَانَ رُومياً مَنَاسِبِهِ
يَا نَاصِرَ الدِّينِ لِمَا قَلَّ نَاصِرُهُ * وَخَاطَبَ المَجْدَ لِمَا قَلَّ خَاطِبُهُ
حَتَامَ سَيْفِكَ لَا تَرْدِي مَضَارِبَهُ * مِنْ الدَّمَاءِ وَلَا تَقْضِي مَضَارِبَهُ^(٣)

وفي سنة ٣٤٥هـ غزا سيف الدولة الروم في عقر دارهم وهزمهم وعاد

إلى حلب ظافراً غانماً فقال فيه المتنبي:

(١) ديوان أبي فراس، ت. الدهان، ج ٢، ص ١١٧

(٢) الشعر في رحاب سيف الدولة، ص ١٦٨

(٣) ديوان السري، ص ١٨

الرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ * هُوَ أَوَّلُ وَهْيِ الْمَحَلِّ الثَّانِي
فَإِذَا هُمَا اجْتَمَعَا لِنَفْسٍ مِرَّةٍ * بَلَغَتْ مِنَ الْعِلْيَاءِ كُلَّ مَكَانٍ^(١)

ثم قال شاكرًا جهاده ومساعيه:

خَضَعْتَ لِمُنْصَلِكِ الْمُنَاصِلِ عَنَوَةً * وَأَذَلَّ دِينُكَ سَائِرَ الْأَدْيَانِ
وَعَلَى الدُّرُوبِ وَفِي الرُّجُوعِ غَضَاضَةً * وَالسَّيْرِ مُمْتَبِعٌ مِنَ الْإِمْكَانِ
وَالطَّرِيقُ ضَيِّقَةٌ الْمَسَالِكِ بِالْقَتَا * وَالْكَفْرُ مُجْتَمِعٌ عَلَى الْإِيمَانِ^(٢)

وقال واصفًا جينهم:

إِنَّ السُّيُوفَ مَعَ الَّذِينَ قُلُوبُهُمْ * كَقُلُوبِيهِنَّ إِذَا التَّقَى الْجَمْعَانِ
تَلَقَى الْحُسَامَ عَلَى جَرَاءَةِ حَدِّهِ * مِثْلَ الْجَبَانِ بِكَفِّ كُلِّ جَبَانِ

في سنة "٣٣٧هـ" خرب الروم قلعة الحدث، فأعاد سيف الدولة بناءها في سنة "٣٤٣هـ" فأعد برداس فوكاس القائد المشهور جيوشاً متعددة الأعراف والأجناس لمحاربة الأمير، وبلغ عدد جنده خمسين ألفاً، فهزمهم الأمير وعرفت تلك المعركة بمعركة الحدث، فتبارى الشعراء في وصف ذلك الحدث التاريخي المهم فقال المتنبي:

هَلِ الْحَدَثُ الْحَمْرَاءُ تَعْرِفُ لَوْنَهَا * وَتَعْلَمُ أَيُّ السَّاقِيَيْنِ الْعَمَائِمُ
سَقَّتْهَا الْعَمَامُ الْعُرُّ قَبْلَ نُزُولِهِ * فَلَمَّا دَنَا مِنْهَا سَقَّتْهَا الْجَمَاجِمُ
بَنَاهَا فَأَعْلَى وَالْقَنَا تَقَرَّعُ الْقَنَا * وَمَوْجُ الْمَنَايَا حَوْلَهَا مُتَلَاظِمُ
وَكَمَانَ بِهَا مِثْلُ الْجُنُونِ فَأَصْبَحَتْ * وَمِنْ جُثَّتِ الْقَتْلَى عَلَيْهَا تَمَائِمُ
وَكَيْفَ تُرْجِي الرُّومُ وَالرُّوسُ هَدْمَهَا * وَذَا الطَّعْنُ آسَاسٌ لَهَا وَدَعَائِمُ
وَقَدْ حَاكَمَوْهَا وَالْمَنَايَا حَوَاكِمُ * فَمَا مَاتَ مَظْلُومٌ وَلَا عَاشَ ظَالِمٌ^(٣)

وقال أبو فراس:

وَحَسْبِي بِهَا يَوْمَ الْأَحْيَدِ وَقَعَةٌ * عَلَى مِثْلِهَا فِي الْعِزِّ تُثْنَى الْخَنَاصِرُ

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي، شرح العكبري، ج ٤، ص ١٨٤ وما بعدها

(٢) المصدر السابق

(٣) ديوان المتنبي بشرح البرقوق، ج ٣، ص ٩٤ وما بعدها

عَدَلْنَا بِهَا فِي قِسْمَةِ الْمَوْتِ بَيْنَهُمْ * وَالسَّيْفِ حُكْمٌ فِي الْكَتِيبَةِ جَائِرُ
إِذِ الشَّيْخُ لَا يَلْوِي وَنَقْفُورٌ مُجَرَّرٌ * وَفِي الْقَيْدِ أَلْفٌ كَاللُّيُوثِ قَسَاوِرُ
وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صِهْرُهُ وَابْنُ بِنْتِهِ * وَثَوَّرَ بِالْبَاقِينَ مَنْ هُوَ ثَائِرٌ^(١)

وقال السرى الرفاء:

فَتَحَّ أَعَزَّ بِهِ الْإِسْلَامُ صَاحِبَهُ * وَرَدَّ ثَاقِبَ نُورِ الْمُلْكِ ثَاقِبَهُ
سَارَتْ لَهُ الْبُرْدُ مَنْشُورًا صَحَائِفُهُ * عَلَى الْمَنَابِرِ مَحْمُودًا عَوَاقِبَهُ
فَكُلُّ ثَغْرِ لَهُ ثَغْرٌ يُضَاحِكُهُ * وَكُلُّ أَرْضٍ بِهَا رَكْبٌ يَصَاحِبُهُ
عَادَ الْأَمِيرُ بِهِ خُضْرًا مَكَارِمُهُ * حَمْرًا صَوَارِمُهُ بِيضًا مَنَاقِبَهُ
مُؤَيَّدًا يَتَحَامَى الدَّهْرُ صَوْلَتَهُ * فَلَيْسَ يَلْقَاهُ إِلَّا وَهُوَ هَائِبُهُ
سَلِّ الدُّمُسْتَقَّ هَلْ عَنَّ الرَّقَادُ لَهُ * وَهَلْ يَغْنُّ لَهُ وَالرُّعْبُ صَاحِبُهُ^(٢)

ثم قال:

لَمَا تَرَأَى لَكَ الْجَمْعُ الَّذِي نَزَحَتْ * أَقْطَارُهُ وَنَاتَتْ بَعْدًا جَوَانِبُهُ
تَرَكَتْهُمْ بَيْنَ مَصْبُوغِ تَرَائِبِهِ * مِنْ الدِّمَاءِ وَمَخْضُوبِ نَوَائِبِهِ
فَحَائِدٌ وَشِهَابُ الرُّمَحِ لَا حَقُّهُ * وَهَارِبٌ وَذُبَابُ السَّيْفِ طَالِبُهُ
يَهْوِي إِلَيْهِ بِمِثْلِ النَّجْمِ طَاعِنُهُ * وَيُنْتَحِيهِ بِمِثْلِ الْبَرْقِ ضَارِبُهُ
يَكْسُوهُ مِنْ دَمِهِ ثَوْبًا وَيَسْلُبُهُ * ثِيَابَهُ فَهُوَ كَاسِيَهُ وَسَالِبُهُ

بعد أن دخل سيف الدولة حلب مد سلطانة إلى شمالي سوريا، وأقام الدعوة فيها للخليفة المستكفي، ولأخيه ناصر الدولة، ولنفسه^(٣).

حاول سيف الدولة توسيع أراضيه في سوريا - على حساب الدولة الإخشيدية - إلا أن الإخشيديين تصدوا له بقيادة كافور الإخشيدية فانتصر سيف الدولة وفر كافور إلى دمشق، ثم دارت الحرب بينهما مرة أخرى فانتصر سيف

(١) ديوان أبي فراس، شرح يوسف شكري، ص ١٣٣

(٢) ديوان السرى، ص ١٧

(٣) مصر في عهد الإخشيديين، ص ٣٩٣

الدولة أيضاً، واضطر الإخشيد إلى الخروج بنفسه في هذه المرة في جحفل كبير استطاع أن ينتصر على سيف الدولة، لكنه سرعان ما أيقن أن لا جدوى من انتصاره عليه؛ لأن سيف الدولة لم يكن الخصم الذي يستسلم أبداً، وكذلك لقربه من سوريا، وربما أراد الإخشيد أن يجعله الحصن الذي يحول بين دولته ودولة الروم، أرسل الإخشيد لسيف الدولة طالباً الصلح فقبل سيف الدولة المصالحة مقابل جزية تدفع له، وتزوج ابنة أخ الإخشيد فقال في ذلك أبو فراس:

فلما رأى الإخشيد ما قد أطال * تلافاه يثني غربه ويكاسر
رأى الصهر والرسل الذي هو عاقد * ينال به ما لا تنال العساكر^(١)
وقال المتنبي:

كيف لا تعمل العراق ومصر * وسراياك دونها والخيول^(٢)

وقال المتنبي في قبيلة بني كلاب التي خرجت على الأمير بعد أن أنست في نفسها المقدرة على الاستقلال:

بغيرك راعياً عِبَثَ الذنابُ * وَغَيْرِكَ صارماً ثَلَمَ الضِرابُ
وَتَمَلِكُ أَنْفُسَ الثَّقَلَيْنِ طُرّاً * فَكَيْفَ تَحَوُّزُ أَنْفُسَهَا كِلَابُ
وَمَا تَرَكَوكَ مَعْصِيَةً وَلَكِنْ * يُعَافُ الْوَرْدُ وَالْمَوْتُ الشَّرَابُ
طَلَبْتَهُمْ عَلَى الْأَمْوَاهِ حَتَّى * تَخَوَّفَ أَنْ تُفْتَشَّهُ السَّحَابُ
يَهْزُ الْجَيْشُ حَوْلَكَ جَانِبِيهِ * كَمَا نَفَضَتْ جَنَاحِيهَا الْعُقَابُ
فَقَاتَلَ عَنْ حَرِيمِهِمْ وَفَرَّوْا * نَدَى كَفَّيْكَ وَالنَّسَبُ الْقُرَابُ
وَحَفِظْتُكَ فِيهِمْ سَلْفِي مَعَدُّ * وَأَنَّهُمُ الْعَشَائِرُ وَالصَّحَابُ^(٣)

تعجب الشاعر من هذه القبيلة التي خرجت على الأمير الذي تدين له الدنيا بما فيها من الأنس والجن وكيف تحدثها نفسها بهذا الأمر الذي لا يليق، ويقول أن الأمير بحث عنهم في مواقع الأمواه كلها حتى خافوا أن يبحث عنهم

(١) ديوان أبي فراس، رواية ابن خالويه

(٢) ديوان المتنبي، شرح العكبري، ج ٣، ص ٩٦ وما بعدها

(٣) ديوان أبي الطيب المتنبي، شرح العكبري، ج ١، ص ٧٦

في ماء السحاب، ويقول مبرزاً نزعته القومية أن الأمير حمى أعراض هذه القبيلة وحفظ نسائها عندما هرب الرجال خوفاً من بطشه.

وتبدو لنا نزعته القومية في قوله:

فكيف يتم بأسك في أناس * تصيبهم فيؤلمك المصاب

وقال أبو فراس مؤكداً أصالة الأمير وتمسكه بالأعراف العربية السمحة

والقيم الدينية الكريمة:

وَمَا زِلْتَ مُذْ كُنْتَ تَأْتِي الْجَمِيلَ * وَتَحْمِي الْحَرِيمَ وَتَرَعَى النَّسَبَ

وَتَغْضَبُ حَتَّى إِذَا مَامَلَكْتَ * أَطَعْتَ الرِّضَا وَعَصَيْتَ الْعُضْبَ

فَكُنْتَ أَخَاهُنَّ إِذْ لَا أَخٌ * وَكُنْتَ أَبَاهُنَّ إِذْ لَيْسَ أَبٌ^(١)

فالشاعر هنا عبر عن مدى إعجابه بأخلاق الأمير ومكارمه، وإحسانه

وحسن كرمه للنساء الأسيرات من نساء القبائل العربية التي خرجت عليه.

(١) ديوان أبي فراس، شرح يوسف شكري فرحات، ص ٢٥ - ٢٦

المبحث الرابع

الخصائص الفنية (الموضوعية والأسلوبية)

للشعر في ظلال سيف الدولة

مما لا شك فيه ان للشعر شخصية متميزة في حلب في عهد الامير سيف الدولة بن حمدان وذلك، لانه يمثل كيانا اقليميا وادبيا خاصا. وفي تقديرنا ان السمات والخصائص التي تميز هذه الشخصية لا تختلف كثيرا عن خصائص الشعر في القرن الرابع الهجري عامة؛ ولكننا علي الرغم من ذلك كله سنبدل قصاري جهدنا في استخلاص الخصائص الموضوعية والأسلوبية التي يتفرد بها الشعر في بلاط الامير سيف الدولة في حلب.

اعترف الثعالبي بان شعراء الشام اشعر من شعراء العراق فقال: "لم يزل شعراء عرب الشام وما يقاربها اشعر من شعراء عرب العراق وما يجاورها والسبب في تبريزهم قديما وحديثا في الشعر قريبهم من خطط العرب ولا سيما عرب الحجاز، وبعدهم عن بلاد العجم وسلامة السننهم من الفساد العارض لالسنة اهل العراق بمجاورة الفرس وغيرهم ومدخلتهم إياهم؛ ولما جمع شعراء العصر من اهل الشام بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة ورزقوا ملوكا وامراء من آل حمدان وبني ورقاء، هم بقية العرب والمشغوفون بالادب، والمشهورون بالمجد والكرم والجمع بين اداب السيف والقلم وما منهم الا اديب جواد يحب الشعر ويثيب علي الجيد منه فيجزل ويفضل، وفانبعثت قرائح الشعراء علي الاجادة، وقادوا محاسن الكلام بالين زمام واحسنوا وابدعوا ما شاءوا"⁽¹⁾.

تعددت الطرق والفنون التي سلكها شعراء الامير سيف الدولة في تشكيل واخراج اغراضهم الشعرية، لانهم اردوا ان ياتوا بالجديد المبتكر ومن فاتهم ان يجددوا في غرض ما اعتمدوا علي اشراق الديباجة وانتقاء المعاني والتلاعب بالالفاظ

(1) يتيمه الدهر، ج ١، ص ٣٣-٣٤

والاشفاق واوردوا تلك المعاني المطروقة من قبل في اثواب جديدة وصور فريدة، فهي تكاد لشدة براعتهم فيها وحسن اعتنائهم بها، ان تفوق ما هو مستحدث.

هناك اثر فعال اثر في اشعار شعراء الامير جميعا لابد لنا من ان نقف عنده ونبين كيفية تاثيره، وهذا الاثر برزت ملامحة بصورة جلية واضحة في جميع اغراض الشعراء الشعرية وخاصة في شعر المديح؛ لأنه اضفي علي مدائح شعراء الأمير من السمات مالم نجده لدي شعراء الممالك الاخري ولا حتي في سمات المديح التي مدح بها الشعراء الخلفاء الذين عاصروا سيف الدولة في ذلك العصر وذلك الاثر هو: شخصية الامير سيف الدولة التي كانت تعتمد علي محورين اساسيين هما: براعته الحربية، ولباقته الادبية.

أما براعته الحربية فقد كانت مثار اعجاب الاعداء والاصحاب علي حد سواء، وكانت مصدراً مهماً من مصادر الهام شعرائه بالألفاظ القوية الجزلة والمعاني الرائعة والافكار البديعة المبتكرة، أما لباقتة الادبيه فقد اسهمت اسهاما كبيرا في بناء الشخصية الفنية لشعرائه وقد تطرقنا الي ذلك بالتفصيل في فصل معني من هذا البحث ووضحنا ان الشاعر في بلاط الامير سيف الدولة لم يكن امام امير فحسب وانما كان أمام ناقد واديب ملك ناصية لا يستهان بها في مجالي الادب والثقافة وكانت لديه المقدرة على: النقد والتمييز والفصل كما كان حاضر الذهن متقد القريحة، سريع الالتقاط للمعاني، مما دعا شعراءه الي ان يجهدوا اذهانهم ويعملوا علي حوك المعاني، لياتوا بما يليق بعبقرية ذلك الامير الذي يستحق منهم كل الثناء والتقدير وكان لابد من ان يكون شعرهم فيه اقوي وافضل مما قاله الشعراء في بغداد وغيرها في ملوك كانوا اقل مكانة ومقاما منه وكان لابد لهم ايضا ان يرتقوا بمستوي اشعارهم الي ما يليق بمستوي مكانته الساميه وشرفه العالي وذوقه الرفيع وهذه الامور مجتمعه كفيلا بان ترسم شخصية متفردة للخصائص الشعر عند شعراء الامير سيف الدولة في حلب.

* الخصائص الموضوعية:

الملاحظ أن شعراء الأمير سيف الدولة تصرفوا تصرف الحاذق اللبق بفن المديح، فكان المديح بالبأس والشجاعة عندهم غير المديح باللباقة والكرم، قال الجرجاني: لا أمرك باجراء انواع الشعر كله مجري واحد، ولا ان تذهب بجميعة مذهب بعض بل اري لك ان تقسم الالفاظ علي رتب المعاني، فلا يكون غزلك كافتخارك، ولا مديحك كوعيدك، ولا هجاؤك كاستبطائك، ولا هزلك بمنزلة جدك، ولا تعريضك مثل تصريحك، بل ترتب كل مرتبته وتوفيه حقه فتلطف اذا تغزلت وتفخم اذا افتخرت وتتصرف للمديح باللباقة والظرف ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمدام فلكل واحد من الامرين نهج هو املك به وطريق لا يشاركه الآخر فيه.

اختار شعراء الأمير سيف الدولة الألفاظ القوية المججلة التي تبعث في نفس المتلقي الإحساس بالحماسة والرغبة والإعجاب بشجاعة الأمير وشخصيته الفذة، في مدحهم له بصفة الشجاعة.

قال المتنبّي:

لُكُلِّ إمْرِيٍّ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا * وَعَادَتُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الطَّعْنَ فِي العِدَا
وَأَنْ يُكْذِبَ الإِرْجَافَ عَنْهُ بِضِدِّهِ * وَيُمْسِي بِمَا تَنْوِي أَعَادِيهِ أَسْعَدَا
وَرَبِّ مُرِيدٍ ضَرَّهُ ضَرَّ نَفْسَهُ * وَهَادٍ إِلَيْهِ الجَيْشَ أَهْدَى وَمَا هَدَى
وَمُسْتَكْبِرٍ لَمْ يَعْرِفِ اللّٰهَ سَاعَةً * رَأَى سَيْفَهُ فِي كَفِّهِ فَتَشَهَّدَا⁽¹⁾⁽¹⁾

وقال ابن نباتة السعدي مخاطب سيف الدولة:

سيوفك امضي في النفوس من الردي * وخوفك امعني من سيوفك في العدا⁽²⁾

واختاروا الألفاظ القوية الجزلة في حماسة الفخر أيضاً قال أبو فراس:

دِيَارُهُمْ اِنْتَزَعْنَاهَا اِنْتِزَاعاً * وَأَرْضُهُمْ اِغْتَصَبْنَاهَا اِغْتِصَاباً
وَلَوْ شِئْنَا حَمَيْنَاهَا البَوَادِي * كَمَا تَحْمِي أُسُودُ الغَابِ غَاباً⁽³⁾

(1) شرح العكبري ، ص ٢٨١ ، شرح البرقوني ، ج ٢ ، ص ٣-٤-٥

(2) المصدر السابق، ص ٤-٥ .

(3) ديوان ابي فراس شرح ابن خالدون ، ج ١ ، ص ١٨

وقال:

أَلَمْ تَرْنَا أَعَزَّ النَّاسِ جَارًا * وَأَمْرَعُهُمْ وَأَمْنَعُهُمْ جَنَابًا؟^(١)

وقال:

وَنَحْنُ أَنْاسٌ لَا تَوَسُّطَ عِنْدَنَا * لَنَا الصَّدْرُ دُونَ الْعَالَمِينَ أَوْ الْقَبْرِ
أَعَزُّ بَنِي الدُّنْيَا وَأَعْلَى ذَوِي الْعُلَا * وَأَكْرَمُ مَنْ فَوْقَ الثَّرَابِ وَلَا فَخْرُ^(٢)

وقال:

فَإِذَا بَطِشْتَ بِطِشْتِ لَيْثًا بِاسِلًا * وَإِذَا نَطَقْتَ نَطَقْتَ عَنْ تَبْيَانٍ
وَإِذَا قَصِدْتَ لِحَاجَةٍ لَمْ تَنْتَبِهْ * خَوْفَ الرَّدِيِّ وَتَصْرِفِ الْإِزْمَانِ^(٣)

ويقول:

لَا أَقْتَنِي الصَّرُوفَ دَهْرِي عِدَّة * حَتَّى كَانَ خَطُوبِهِ احْتِلَافِي^(٤)

الحق ان ابا فراس في فخره حاز علي مرتبة الشرف الاولي بامتيازه علي جميع شعراء الامير وغيرهم من الشعراء قال الدكتور شوقي ضيف: ان فخرا ابي فراس يمتلئ بالحيوية لانه يصور واقعا لاوهما من اوهام الخيال.
ان من افخر الابيات في الشعر العربي قول ابي فراس:
ومكاري عدد النجوم ومنزلي ماوي الكرام ومنزل الاضياف⁶
قال دكتور مصطفى الشكعة: لعله من اجمل ما قيل في الفخر بنبل المحتد وكرم الضيافه.

ويبدو أثر البيئة الحربية في حلب واضحا على هذين الغرضين. أما في مدح الشعراء للأمير سيف الدولة بصفة الكرم فقد اختلف الأمر اختلافاً؛ لأنهم اختاروا الألفاظ التي تلامس القلب بشفافية وتنساب في النفس برقة ويسر؛ لتنعش فيها الإحساس بالمتعة والدهشة والجمال، ومن ذلك قول أبو الفرج الببغاء:

(١) ديوان ابي فراس شرح ابن خالدون ، ج١، ص ١٤

(٢) المصدر السابق ص ١٦١

(٣) الديوان بتحقيق سامي الدهان، ج٢، ص ٤١٥

(٤) ديوان ابي فراس شرح ابن خالدون ص ٦٩

فَصِرْتُ أَمْسِكَ عَن أَوْصَافِ نِعْمَتِهِ * عَجْزاً وَيَنْطِقُ مِن آثَارِهَا حَالِي
 وَوَأَصَلَّتْني صِلَاتٌ مِنْهُ رِحَتْ بِهَا * أَخْتَالُ مَا بَيْنَ عِزِّ الْجَاهِ وَالْمَالِ
 رُوَيْدَ جَوْدِكَ قَدْ ضَاقَتْ بِهِ هِمَمِي * وَرَدَّ عَنِّي بِرَعْمِ الدَّهْرِ إِقْلَالِي
 لَمْ يَبْقَ لِي أَمَلٌ أَرْجُو نِدَاكَ بِهِ * دَهْرِي لِأَنَّكَ قَدْ أَفْنَيْتَ آمَالِي (١)

وقال السري الرفاء واصفا هيبه الامير وشجاعته وكرمه:

حَضَرْنَا وَالْمَلُوكُ بِهِ قِيَامٌ * تَغُضُّ نَوَاطِرًا فِيهَا انْكَسَارُ
 فَكَانَ لَجُوهْرِ الْمَجْدِ انْتِظَامٌ * وَكَانَ لَجُوهْرِ الْحَمْدِ انْتِشَارُ
 فَعِشْتَ مَخِيْرًا أَعْلَى الْأَمَانِي * وَكَانَ عَلَى الْعَدُوِّ لَكَ الْخِيَارُ
 وَضَيْفُكَ لِلْحَيَا الْمَنْهَلُ ضَيْفٌ * وَجَارُكَ لِلرَّبِيْعِ الطَّلُقُ جَارٌ (٢)

يبدو مدي ابتكار شعراء الامير للمعاني ابرز ما يكون في حماسة المديح

والشعر الجهادي وفي ذلك تكثر النماذج نختار منها:

قول المتبني مبينا حصده لأرواح اعدائه الروم:

نَهَبْتَ مِنَ الْأَعْمَارِ مَا لَوْ حَوَيْتَهُ * لَهُنَّتِ الدُّنْيَا بِأَنَّكَ خَالِدٌ (٣)

قال ابن جني: لو لم يمدح ابو الطيب سيف الدولة الا بهذا البيت لكان أبقى فيه
 مالا يخلفه الزمان.

وقول ابن نباته (٤):

إِذَا مَا أَرْسَلُوا جَيْشًا إِلَيْنَا * رَدَدْنَا مِنْ دِمَائِهِمْ رَسُولًا
 يَسِيلُ إِلَيْهِمْ فَإِذَا أَتَاهُمْ * رَأَوْا فِيهِ الْجَمَاجِمَ وَالْخَصِيْلَا
 فَسَأَلْتَهُمْ وَلَمْ يَتْرِكْ فِتَاةً * وَحَارِبَهُمْ وَلَمْ يَتْرِكْ حَلِيْلَا
 وَمَنْ أَوَالِهِمْ فَكَّ الْأَسَارِي * وَعَنْ أَزْوَاجِهِمْ أَعْطَى الْبُعُولَا
 فَأَنْتَ خَلَقْتَهُمْ خَلْقًا جَدِيدًا * وَصَيَّرْتَ السَّمَاخَ بِهِمْ كَفِيْلَا (٥)

(١) بيتيمه الدهر، ج١، ص ٣٠٤

(٢) المصدر السابق، ص ٣٩-٤٠

(٣) المصدر السابق، ج١، ص ٢٢٩

(٤) الشعر في رحاب سيف الدولة، ص ١٦٨

(٥) المصدر السابق، ص ١٦٨

وقول النامي في استفهام رائع:

هذا عجاج فأين الأفق وهو قنا * وتلك خيل فأين الأرض وهي دم^(١)

فالشاعر يثير وجداننا وبنبه فكرنا بهذا الاستفهام الرائع الذي يأتي به تبياناً للحقيقة ودفعاً للشك والارتياب.

وقول ابي فراس:

نَشَدْتُكَ اللَّهُ لَا تَسْمَحْ بِنَفْسٍ عَلَا * حَيَاةُ صَاحِبِهَا تَحْيَا بِهَا الْأُمَّمُ^(٢)

وواضح هنا ان شجاعة الامير الحربية اذكت في نفوس شعرائه حماسة الشاعرية والهبت قرائحهم بالمعاني السحرية واوحت اليهم بفيض رقرق من الصور الفنية.

هناك ملاحظة كان لا بد من الاشارة اليها تختص بالشعر الجهادي وهي: ان شعراء الأمير سيف الدولة ابتعدوا في الغالب عن المقدمات الغزلية والطليلية وهذا في رأينا فعل يجانب الصواب، لان مقام الحماسة يوجب الشعور بروح الفروسية فتفيض هذه الروح المعنوية واقعا ماديا ملموسا في ابيات شعرية تزخر بالبأس والقوة والمعاني الحماسية.

وقال ابن نباتة السعدي في مدح كرم الامير:

**قد جُدَّتْ لي باللهَا حتى ضجرتُ بها * وكدتُ من ضجري أُنْثِي على البُخْلِ
إن كنتَ ترغِبُ في هذا النوالِ لنا * فاخلُقْ لنا رغبةً أو لا فلا تُثِلْ
لم يُبقِ جودك لي شيئاً أوْمُلُهُ * تركتني أصحبُ الدنيا بلا أمل^(٣)**

لا شك في ان مثل هذا الابداع الفني لا يتاتي الا لشاعر موهوب الهمة الله بسطة في العقل وخصبا في التفكير ولا شك في ان هؤلاء الشعراء عملوا عمل السخر في تاليف المتباينات وابرار خفايا المعاني وفي التلاعب بالالفاظ وفي صياغة التراكيب وجمال الاساليب. فصوروا بصدق انفعالهم الوجداني وعمق تجاربهم الشعورية افاقا من الرؤي التي يحترار امامها الفكر العادي وكسى

(١) بيتمة الدهر، ج١، ص ٢٨٢

(٢) شرح الديوان ابن خالدون، ص ٣٦٠

(٣) بيتمة الدهر ، ج٢، ص ٤٥٨

خيالهم الخصب تلك الصور الجميلة ابهة ورفع من اقدارها وضاعف من تأثيرها في تحريك النفوي وهز القلوب واستتارة الافئدة.

ولا اظن اننا في حاجة الي ان نضيف او نستعين بشاهد في هذا الجانب اقوي وادل مما استعنا به.

ومما يجدر الاشارة اليه اشتقاق الشعراء للمعاني المولدة والمشتقة من اسم الامير سيف الدولة في مدح الامير بالباس والشجاعة قال المتنبي:

لَقَدْ سَلَّ سَيْفَ الدَّوْلَةِ المَجْدُ مُعْلِمًا * فَلَ المَجْدُ مُخْفِيهِ وَلَا الضَّرْبُ ثَالِمُهُ
عَلَى عَاتِقِ المَلِكِ الأَعْرَجِ نِجَادُهُ * وَفِي يَدِ جَبَّارِ السَّمَوَاتِ قَائِمُهُ
وَإِنَّ الَّذِي سَمَى عَلِيًّا لَمُنْصِفًا * وَإِنَّ الَّذِي سَمَاهُ سَيْفًا لَطَّالِمُهُ
وَمَا كُلُّ سَيْفٍ يَقْطَعُ الهَامَ حَدُّهُ * وَتَقْطَعُ لَزِيَّاتِ الزَّمَانِ مَكَارِمُهُ (١)

وقال الرفاء:

وَرَأَيْتُ سَيْفَ الدَّوْلَةِ السَّيْفَ الَّذِي * يَزْدَادُ فِي ظَلَمِ الكَرِيهَةِ رَوْنِقًا (٢)

وقال ابو فراس:

وَهَلْ عُذْرٌ وَسَيْفُ الدِّينِ رُكْنِي * إِذَا لَمْ أَرْكَبِ الخُطَطَ العِظَامَا (٣)

وقال المتنبي:

فَلَا تَعْجَبَا إِنَّ السُّيُوفَ كَثِيرَةٌ * وَلَكِنَّ سَيْفَ الدَّوْلَةِ اليَوْمَ وَاحِدٌ (٤)

وقال:

يَسْمَى الحُسَامَ وَلَيْسَتْ مِنْ مُشَابِهَةٍ * وَكَيْفَ يَشْتَبَهُ المَخْدُومُ وَالخَادِمُ
كُلُّ السُّيُوفِ إِذَا طَالَ الضَّرَابُ بِهَا * يَمْسُهَا غَيْرَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ السَّامُ (٥)

(١) بيتيمه الدهر، ج١، ص ٢٣١

(٢) ديوان السري، ص ١٨٤

(٣) بيتيمه الدهر، ج١، ص ٦٢

(٤) ديوان المتنبي، المكتبة الثقافية بيروت، ص ٣١٩

(٥) بيتيمه الدهر، ج١، ص ٢٣١

كان لشخصية سيف الدولة اثر بالغ في استحداث بعض الخصائص الفنية لدي بعض الشعراء وخاصة المتنبى شاعره الاول.

قال الثعالبي: ان من محاسن المتنبى التي تفرد بها مخاطبة الممدوح من

الملوك بمثل مخاطبة المحبوب والصديق كقوله لسيف الدولة:

مالي أكتّم حُباً قد برى جسدي * وتدعي حُبَّ سيفِ الدولةِ الأُممِ
إن كان يجمعنا حُبُّ لغزته * فليت أنا بقدرِ الحُبِّ نقسِمُ^(١)

وقوله:

تركت السري خلفي لمن قل ماله * وانعلت افراسي بنعماك عسجدا
وقيدت نفسي في هواك محبة * ومن وجد الاحسان قيذا تقيدا^(٢)

المعروف انه في هذا العصر قل شعر البطولة وشاع شعر المقطعات الصغيرة، والاوزان القصيرة، والعبارات السهلة، وقد اشترك العديدون من شعراء سيف الدولة مع نظرائهم في الاقاليم الاخرى في هذه السمة؛ لكنهم قد اختلفوا عنهم في قوة الالفاظ وطول النفس وخاصة في الشعر الجهادي وفي المديح وفي الفخر وهذه خصصة تفرد بها شعراء سيف الدولة علي غيرهم.

اتسم شعر الجهاد عند شعراء الامير بالطابع القصصي، فالمتنبى مثلاً في وصفه لوقائع معارك الامير يحكي تفاصيل المعركة وكأنه ينقلنا الي ساحتها، ويرى الدكتور عبد الوهاب عزام ان: المتنبى بلغ في شعره هذا الغاية التي ليس بعدها متقدم لشاعر او تاجر وانه يعسر علي الباحث ان يختار له مقدارا مماثلا من الشعر الحماسي البليغ مثل الملاحم الكبيرة مثل الاياداة اليونانية والشاهنامة الفارسية او المهابهارتا الهندية^(٣) ولايضاح وتاكيد ما ذكرنا نختار قصيدة الحدث المشهورة وفيها وصف الشاعر تفاصيل المعركة علي نحو شعر الملاحم، والقصيدة طويلة جدا راينا ان نختار من ابياتها القدر الذي يفي بابلاغ الغرض والابيات التي اخترناه هي:

(١) بيتيمة الدهر، ج ١، ص ٢٣٠

(٢) ديوان المتنبى، المكتبة الثقافية، بيروت، ص ٣٧٣

(٣) زكري ابي الطيب المتنبى بعد الف عام، ص ٩١

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ * وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ
 وَتَعْظُمُ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا * وَتَصْغُرُ فِي عَيْنِ الْعَظِيمِ الْعَظَائِمُ (١)
 يَكْلَفُ سَيْفُ الدَّوْلَةِ الْجَيْشَ هَمَّهُ * وَقَدْ عَجَزَتْ عَنْهُ الْجُيُوشُ الْخَضَارِمُ
 وَيَطْلُبُ عِنْدَ النَّاسِ مَا عِنْدَ نَفْسِهِ * وَذَلِكَ مَا لَا تَدَّعِيهِ الضَّرَاعِمُ
 تَقْطَعُ مَا لَا يَقْطَعُ الدِّرْعُ وَالْقَنَا * وَفَرٌّ مِنَ الْأَبْطَالِ مَنْ لَا يُصَادِمُ
 وَقَفَّتْ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لَوَاقِفِ * كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمُ
 تَمُرُّ بِكَ الْأَبْطَالُ كَلِمَى هَزِيمَةً * وَوَجْهُكَ وَضَاحٌ وَتَغْرُوكَ بِاسِمُ
 نَثَرْتَهُمْ فَوْقَ الْأَحْيَادِ كُلِّهِ * كَمَا نَثَرْتَ فَوْقَ الْعُرُوسِ الدَّرَاهِمُ
 تَدُوسُ بِكَ الْخَيْلُ الْوُكُورَ عَلَى الذَّرَى * وَقَدْ كَثُرَتْ حَوْلَ الْوُكُورِ الْمَطَاعِمُ
 هَلِ الْحَدَثُ الْحَمْرَاءُ تَعْرِفُ لَوْنَهَا * وَتَعْلَمُ أَيُّ السَّاقِيَيْنِ الْغَمَائِمُ
 سَقَتْهَا الْغَمَامُ الْغُرُّ قَبْلَ نُزُولِهِ * فَلَمَّا دَنَا مِنْهَا سَقَتْهَا الْجَمَاجِمُ
 بَنَاهَا فَأَعْلَى وَالْقَنَا تَقْرَعُ الْقَنَا * وَمَوْجُ الْمَنِيَا حَوْلَهَا مُتَلَاظِمُ
 وَكَانَ بِهَا مِثْلُ الْجُنُونِ فَأَصْبَحَتْ * وَمِنْ جُنْثِ الْقَتْلِ عَلَيْهَا تَمَائِمُ
 أَتُوكَ يَجْرُونَ الْحَدِيدَ كَأَنَّهُمْ * سَرَوْا بِجِيَادٍ مَا لَهْنٌ قَوَائِمُ
 خَمِيسٌ بِشَرْقِ الْأَرْضِ وَالْغَرْبِ زَحْفُهُ * وَفِي أُذُنِ الْجَوَازِ مِنْهُ زَمَائِمُ
 تَجَمَّعَ فِيهِ كُلُّ لِسَانٍ وَأُمَّةٍ * فَمَا تُفْهَمُ الْحُدَاثُ إِلَّا التَّرَاجِمُ
 وَلَسْتَ مَلِيكاً هَازِمًا لِنَظِيرِهِ * وَلَكِنَّكَ التَّوْحِيدُ لِلشَّرِكِ هَازِمُ (٢)

في الأبيات السابقة صور ابو الطيب المتنبي ما تحلى به الامير سيف
 الدولة من: شجاعة لا مثيل لها، ويطولة لا نظير لها، وجرأة لا تدانيها جرأة،
 واقدام لا يماثله إقدام، في جو ملحمي لا تسمع فيه سوى: صليل السيوف،
 وصهيل الخيول وتساقط القتلى، وصراع الجيوش، وصدق ابن الاثير². حين
 قال عن المتنبي: انه اذا خاص في وصف معركة كان لسانه امضي من
 نصالها واشجع من ابطالها وقامت اقواله للسامع مقام افعالها حتي تظن الفريقين

(١) ديوان المتنبي شرح الرقوقى، ج٣، ص ٩٤

(٢) شرح البرقوقى، ج٣، ص ٩٤

قد تقاتلا والسلاحين قد تواملا ولا شك انه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة فيصف لسانه ما ادي عيانه^(١).

اعترف المنتبي بان سيف الدولة قد ألهمه ببطولاته الفائقة نظم هذه المعاني الرائعة التي كانت بمثابة عقد منثور لم يتوان الشاعر عن جمعه وترتيبه ثم نظمه بدقة متناهيه وذلك في قوله:

لك الحمد في الدر الذي لي نظمه * فانك معطيه وانني لناظمه

ومن الشعراء الذين نهجوا نهج الملاحم في اشعارهم ابو فراس الذي سكب عصارة من الاحاسيس المتاجبة والمشاعر الملتهبة، في تلك الاشعار وفي راينا ان ابا فراس كان الند الاول للمنتبي في هذه الزاوية من الشعر، ولا عجب في ذلك فابو فراس فارس تاصلت معاني الفروسية في نفسه، وجرت في دمائه وكانت امه روميه وربما تاتر في نهجه الملحمي بالروم وقصيدته الرائية المشهورة التي زاد عدد ابياتها عن المائتي بيت، اقوي دليل علي ذلك وقد اوردنا عددا من ابياتها في باب الفخر.

ومن الخصائص الموضوعية التي ظهرت في شعر شعراء البلاط كثرة المقطوعات الشعرية في دواوين الشعراء، وقد بدأ انتشار هذه الخصصية منذ اوائل العصر العباسي الاول، ولعل لحركة الموسيقى والغناء اكبر الاثر في انتشار هذا النوع من الشعر كان ابو فراس خير من يمثل هذا الاتجاه حيث بلغت قصائده فيه مائتين وستين مقطوعة، بينما بلغ عدد القصائد عنده ثلاث عشرة ومائة قصيدة وتكثر المقطوعات ايضا في شعر الواواء وقد بلغت عنده علي ما يزيد عن ثلاثمائة بينما بلغ عدد قصائده ما يقارب الثلاثين قصيدة فقط. ونلاحظ كذلك انها تنتشر في شعر كل من: الرفاء، والصنوبري، وكشاجم، والنامي، والمقطوعة عادة ما تكون اقل من سبعة ابيات، ومثال ذلك قول ابي فراس:

الشِعْرُ دِيـوَانُ الْعَرَبِ * اَبْدًا وَعُنْدًا وَانُ الْاَدَبِ

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لضياء الدين بن الأثير، تحقيق بدوي طبانة، ١٩٥٩م، ص ٤٧١

لَمْ أَعُدْ فِيهِ مَفَاخِرِي * وَمَدِيحَ آبَائِي النَّجُوبِ
وَمَقْطَعَاتِ رُيَمَاءِ * حَلَيْتُ مِنْهُنَّ الْكُتُوبِ
لَا فِي الْمَدِيحِ وَلَا الْهَجَاءِ * وَلَا الْمُجُونِ وَلَا اللَّعِبِ^(١)

وقال محمد بن هشام الخالدي: كان أبي صديق الصنوبري وكنت وانا

غلام أميل إليه وأكتب شعره فاهدت إليه يوماً نبياً وورداً، فكتب إلي:

أَهْدِي إِلَيَّ فَأَيَّ حَسَنِ مَعْجَبٍ * أَوْ مَعُوزٍ فِي غَيْرِهِ لَمْ يَهْدِهِ
الرَّاحُ تَضْحَكُ عَنْ عَتِيقِ فَرْنَدَا * وَالْوَرْدُ يَضْحَكُ نَ حَدِيثِ فَرْنَدِهِ
فَكَأَنَّ حَمْرَةَ وَرَدَهُ مِنْ رَاحِهِ * وَكَأَنَّ نَكْهَةَ رَاحِهِ مِنْ وَرْدِهِ
وَكَأَنَّ هَذَا تَمْتَرِي مِنْ رَيْقِهِ * وَكَأَنَّ هَذَا تُجْتَنِي مِنْ خَدِهِ^(٢)

من الظواهر الموضوعية الجديدة عند شعراء الامير: مزج الغزل

بالحماسة وشعر المديح وهو كذلك اثر من مآثر البيئة الحربية الحلبية، ومن

الشعراء الذين اكثروا من هذا المزج الامير ابو فراس، ومما قاله:

هَوَانَا غَرِيبٌ شُرْبُ الْخَيْلِ وَالْقَنَا * لَنَا كُتُبٌ وَالْبَاتِرَاتُ رَسَائِلُ
أَعْرَنَ عَلَى قَلْبِي بِجَيْشٍ مِنَ الْهَوَى * وَطَارَدَ عَنْهُنَّ الْعَزَالُ الْمُغَازِلُ
بِأَسْهُمٍ لَفْظٍ لَمْ تُرَكَّبِ نِصَالُهَا * وَأَسْيَافٍ لَحْظٍ مَا جَلَّتْهَا الصِّيَاقِلُ
وَقَائِعُ قَتْلَى الْحُبِّ فِيهَا كَثِيرَةٌ * وَلَمْ يَشْتَهَرْ سَيْفٌ وَلَا هُزُّ ذَابِلُ^(٣)

وقال المتنبي:

أَعْلَى الْمَمَالِكِ مَا يَبْنِي عَلَيَّ الْإِسْلَمِ * وَالطَّعْنَ عِنْدَ مَحْبِيهِنَّ كَالْقَبْلِ^(٤)

وقال النامي:

سَلَاهَا لَمْ أَسْوَدِ الْهَوَى فِي ابْيَاضِهِ * وَإِلَّا سَلَانِي كَيْفَ بُيِّضَ مَسْوَدِي

كَأَنَّ بَرَأْسِي عَسْكَرِينَ تَحَارِبَا * فَقَدْ كَثُرَ اسْتِثْمَانُ جُنْدِ أَلِي جُنْدِ^(٥)

(١) ديوان أبي فراس، رواية ابن خالويه، ص ٢٢

(٢) ديوان الصنوبري، ص ٤٧٤

(٣) ديوان أبي فراس شرح ابن خالد، ص ٢١٥

(٤) بيتيمة الدهر، ج ١، ص ٢١٧

(٥) بيتيمة الدهر، ج ١، ص ١٦٨

وكان شعراء الامير سيف الدولة يكثرون من مزج الغزل بالخمير ومزج الغزل بوصف الطبيعة ومزج الخمر بوصف الطبيعة وكان بعضهم يجيئ بكل هذه الاغراض في قصيدة واحدة.

مزج الغزل بالخمير: قال الواواء:

وَسَاقِ حَكَى الْبَدْرِ وَالْغُصْنِ لِي * فَذَا بِالتَّمَامِ وَذَا بِالقَوَامِ
سَقَانِي بِكَاسَيْنِ فِي مَجْلِسِ * بِكَاسِ المُدَامِ وَكَاسِ العَرَامِ⁽¹⁾

وقال ابوبكر الخالدي:

أَهْلًا بِشَمْسِ مُدَامٍ مِنْ يَدِي قَمَرٍ * تَكَامَلَ الحُسْنُ فِيهِ فَهُوَ تَيَّاهُ
كَأَنَّ خَمْرَتَهُ إِذْ قَامَ يَمْرُجُهَا * مِنْ خَدِّهِ اغْتَصِرَتْ أَوْ مِنْ ثَنَائِيهِ
إِذَا سَقَّتْكَ مِنَ المَمْرُوجِ رَاحَتَهُ * كَأَسَا سَقَّتْكَ كُؤُوسَ الصَّرْفِ عَيْنَاهُ⁽²⁾

مزج الخمر بوصف الطبيعة:

الست تري الظلام وقد تولى * وعنقود الثريا قد تدلي
فدونك قهوة لم يبق منها * تقادم عهدا الا قليلا
بذلنا دنها والليل داج * فصيرت الدجا شمس وظلا³

وهذه الاغراض الثلاثة اسماها د. درويش الجندي شعر الترف وهي بالفعل تمثل نشوة العزة بالجاء اذا ليس بغريب ان تجتمع هذه الاغراض في قصيدة واحدة. قال الواواء:

وَمُهْفَهَفٍ كَالْغُصْنِ هَزَّتْهُ الصَّبَا * فَصَبَا إِلَيْهِ مِنَ الفُتُونِ هَوَائِي
يُوهِيهِ حَمْلٌ وَشَاحِهِ فَتْرَاهُ مِنْ * تَرَفِ النَعِيمِ يَنْنُ فِي إِخْفَاءِ
تَدْمَى سَوَالْفُهُ إِذَا لَاحَظْتَهَا * بِخَفِيٍّ كَرَّ اللَّحْظِ وَالْإِيمَاءِ
فَأَمْرُجُ بِمَائِكَ خَمْرَ كَأْسِكَ وَاسْقِنِي * فَلَقَدْ مَزَجْتُ مَدَامِعِي بِدَمَائِي
وَاشْرَبْ عَلَيَّ زَهْرَ الرِّيَاضِ مُدَامَةً * تَنْفِي الهمومَ بِعَاجِلِ السَّرَاءِ

(1) ديوان الواواء ص ٢٠٧

(2) ديوان الخالديين ص ١٠٢

(3) المصدر السابق ص ٨١، ٨٢

لَطْفَتْ فَصَارَتْ مِنْ لَطِيفٍ مَحَلَّهَا * تجري مجاري الرُّوحِ فِي الأَعْضَاءِ
وَكَاثَمَهَا وَكَأَنَّ حَامِلَ كَأْسِهَا * إِذِ قَامَ يَجْلُوهَا عَلَى النَّدْمَاءِ

ومن الخصائص الموضوعية المهمة لدي شعراء الامير سيف الدولة جميعا اهتمامهم البالغ بفن الوصف، الذي يعد اصلا لكل الفنون الشعرية. الملاحظ ان شعراء الأمير اهتموا بوصف مظاهر الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية، كما اهتموا بوصف مظاهر الحياة الحضارية الجديدة وبلغوا الذروة التي ما بعدها مبتغي في وصف الطبيعة، وقسموها الي انواع متعددة علي حسب ما جاء في توضيحنا لذلك في باب الاغراض الشعرية، ويكفي الامير سيف الدولة شرفا انه عندما عدد الخوارزمي امير شعراء العربية اختار شاعرين من شعرائه هما: الصنوبري وكشاجم ذاكرا تميز الصنوبري بروضيانه وتميز كشاجم بلطائفه وطرائفه^(١).

اعتنى شعراء الامير سيف الدولة برسم اللوحات التصويرية المعبرة عن مدي امتزاج ارواحهم بالطبيعة بمختلف اشكالها والوانها والوصف كما ذكر ابن رشيق لا يستغني عن التشبية في كل الاحوال ويقول الزمخشري: "كذلك لضرب الامثال واستحضار المثل والنظائر شان ليس بالخفي في ابراز خبئات المعاني ورفع الاستار عن الحقائق حتي يريك المتخيل في صورة المحقق والمتوهم في معرض المتيقن والغائب كانه مشاهد"^(٢) ويمكننا ان نري ذلك من خلال قول ابي بكر الخالدي:

وصبغ شَقَائِقِ النُّعْمَانِ تَحْكِي * يَوَاقِيَتَا نَظْمِنَ عَلَى أَقْتِرَانِ
وَأَحْيَانَا تُشَبِّهُهَا خُدُودَا * كَسَّتْهَا الرَّاحُ ثُوبَ الأَرْجَوَانِ
شَقَائِقُ مِثْلَ أَفْدَاحِ مِلاءِ * وَخَشْخَاشِ كَفَارِغَةِ القَتَانِ
وَلَمَّا غَازَلَتْهَا الرِّيحُ خَلْنَا * بِهَا جَيْشِي وَغَى يَتَقَاتِلَانِ

(١) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، للثعالبي، ت محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة،

ص ٢١٦

(٢) الكشف للزمخشري مكتبة البابي الحلبي الطبعة الاخيرة ج ١ ص ٨

تَخَالُ بِهِ تُغَوَّرًا بِاسِمَاتٍ * إِذَا مَا افْتَرَّ نُورُ الْأُقْحَوَانِ (١)
وقول الواواء:

وَلَيْلٍ كَلِيلِ الثَّامَلَاتِ لِبَسْنَتُهُ * مَشَارِقُهُ لَا تَهْتَدِي لِلْمَغَارِبِ
كَأَنَّ اخْضِرَارَ الْجَوْ صَرْحُ زَبْرَجِدٍ * تَنَاطَرُ فِيهِ الدُّرُّ مِنْ جِيدِ كَاعِبِ
كَأَنَّ نَجُومَ اللَّيْلِ سِرْبٌ رَوَاتِعُ * لَهَا الْبَدْرُ رَاعٍ فِي رِيَاضِ السَّحَابِ
كَأَنَّ خَفِيَّاتِ الْكَوَاكِبِ فِي الدُّجَى * بِيَاضٌ وَلاَءٍ لَاحٍ فِي قَلْبِ نَاصِبِي (٢)

لا يمكننا ان نعزل فن الطرد عن الوصف في الدراسة الفنية الموضوعية لاتفاق الغاية فيهما، وقد اكثر شعراء الأمير من الوصف في شعر المطارذ وخاصة في تتبعهم للصيد والجوارح، كما اكثروا من استخدام التشبيهات التي تعد لازمة من لوازم الوصف، ولم يهتموا بعلم البديع واختاروا البحور الخفيفة وخاصة بحر الرجز الذي يناسب السرعة والحركة والاضطراب، وقد اتسم هذا الفن بالصبغة القصصية وخير مثال لذلك ارجوزة أبي فراس المشهورة التي منها قوله:
أُنَعْتُ يَوْمًا مَرَّ لِي بِالشَّامِ * أَلَدُّ مَا مَرَّ مِنَ الْايَامِ
وفي البيت ما يوحي بدلالة هذه الصبغة القصصية.

ومن الخصائص الموضوعية -الحرية بالذكر- ارتقاء شعراء الأمير بفن الهجاء، وهذا اثر من مآثر الأمير المهمة التي خلفها في هذا الغرض؛ وذلك لأن الشعراء في رحابه ابتعدوا كل البعد عن: ذكر المعاييب الخلقية، وشتم الأنساب. ونلاحظ أن العديدين منهم كانوا لا يلتزمون هذا السلوك قبل اتصالهم به، وبعضهم عاود سيرته القديمة بعد مفارقتة للأمير. وعلى أية حال فهذه محمدة للأمير؛ لأن الهجاء في ظلاله كان خفيف الظل يميل إلى الدعابة ولا يخلو من سخرية لاذعة.

قال السري الرفاء مخاطباً أبا الخطاب الفضل الضبي وكان قد سمع بأن الخالدين يريدان الرجوع إلى بغداد، وذلك في أيام الوزير المهلبى:

(١) ديوان الخالدين ص ٩٩

(٢) ديوان الواواء ، ص ١٨

- بكرة عليك مغيرة الأعراب * فاحفظ ثيابك يا أبا الخطاب
 ورد العراق ربيعة بن مكرم * وعتيبة بن الحارث بن شهاب
 أفعدنا شك بأنهما هما؟ * في الفتك لا في صحة الأنساب
 شنا على الآداب أقبح غارة * جرحت قلوب محاسن الآداب
 لا يسلبان أخوا الثراء وإنما * يتناهبان نتائج الألباب
 إن عز موجود الكلام عليهما * فأنا الذي وقف الكلام ببابي^(١)

هجا السري الخالدين في أسلوب ساخر لم يחדش به وجه الادب وذلك

من خلال قوله:

وَرَدَ الْعِرَاقَ رَبِيعَةُ بْنُ مُكْرَمٍ * وَعُتَيْبَةُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ شِهَابٍ
 وهما من فتيان العرب الأشداء.

يبدو ذوقه الراقى واخلاقه السامية في قوله:

أَفْعُدْنَا شَكًّا بِأَنْهَمَا هُمَا * فِي الْفَتَكِ لَا فِي صِحَّةِ الْأَنْسَابِ
 وقوله:

لَا يَسْلُبَانِ أَخَا الثَّرَاءِ وَإِنَّمَا * يَتَنَاهَبَانِ نَتَائِجَ الْأَلْبَابِ
 ففي البيت الاول احتفظ لهما بحقهما الاجتماعي في اعترافه بأنهما من
 نسب كريم صحيح. وفي البيت الثاني تغني عنهما صفة السرفه واللصوصية
 المفهومة في المجتمع واثبتها لهما نفى الأدب والشعر.

وقد هجا المنتبي الامير سيف الدولة بعد ان فارقه وجاء هجاؤه تلميحا لا
 تصريحاً موضحاً في هجائه أن الأمير سمح لرجاله أن يذيعوا خبر موت المنتبي
 مرات متعددة وفي كل مرة يتفاجأ الناس بأن المنتبي لا يزال حياً وقال في ذلك:
 إن كانت تلك رغبة الأمير ورجاله فقد تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن.

يَا مَنْ نُعِيتُ عَلَى بُعْدِ بِمَجْلِسِهِ * كُلُّ بِمَا زَعَمَ النَّاعُونَ مُرْتَهَنُ

(١) يتيمة الدهر، ج٢، ص ١٧٠

* ربيعة بن مكرم من فرسان مضر المعدودين وشجعانهم المشهورين ذكره صاحب الأغاني يوم الكديد،
 راجع مختار الأغاني في الأحبار والتهاني، لابن منظور، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، الدار
 المصرية للترجمة والتأليف، ط٤، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٨٥هـ-١٩٦٥م، ص ٣.

كَمْ قَدْ قُتِلْتُ وَكَمْ قَدْ مُتُّ عِنْدَكُمْ * ثُمَّ انْتَفَضْتُ فَزَالَ الْقَبْرُ وَالْكَفْنُ
قَدْ كَانَ شَاهِدًا دَفَنِي قَبْلَ قَوْلِهِمْ * جَمَاعَةٌ ثُمَّ مَاتُوا قَبْلَ مَنْ دَفَنُوا
مَا كُلُّ مَا يَتَمَنَّى الْمَرْءُ يُدْرِكُهُ * تَجْرِي الرِّيحُ بِمَا لَا تَشْتَهِي السُّفُنُ

ويتضح أسلوب السخرية في قوله: ثم انتفضت فزال القبر والكفن.

وصار البيت الأخير مثلاً مألوفاً يتمثل به الناس في المواقف المشابهة.

من الخصائص الموضوعية التي لا يستطيع ان يغفل عنها دارس أو باحث تطور فن الخمر في ظلال الأمير سيف الدولة تطوراً شمل جوانب متعددة وتبدو ملامح هذا التطور في المعاني التي تطرق لها الشعراء وفي موضوعات الخمر التي تناولوها وفي استخدامهم لبعض الألفاظ التي ارتبطت بالخمر مثل الأديرة وغيرها.

وبصورة عامة يمكننا أن نقول بأن الشعراء في هذا الفن مالوا إلى استخدام الألفاظ الرقيقة والأساليب الشفيفة والاوزان الخفيفة؛ لذا جاءت قصائدهم غنائية تتناسب وطبيعة هذا الفن التي لا تحتل الجمود.

الجدير بالذكر أن أثر سيف الدولة على هذا الفن جاء بصورة غير مباشرة؛ لأنه كان منشغلاً بتدبير شؤونه الحربية، وقد كان يؤثر مجالسة الشعراء والعلماء على منادمة الأمراء والرؤساء، قال المتنبي:

ألهي الممالك عن فخر قفلت به * شرب المدامة والأوتار والنغم^(١)
وقال:

ما الذي عنده تدار المنايا * كالذي عنده تدار الشمول^(٢)

يقول د. مصطفى الشكعة: كان للترف الذي وجد حول سيف الدولة والمقربين إليه أثراً واضحاً فيما شاع من ألوان اللهو والمجون، والتي من بينها معاقرة الخمر والحفاوة بمجالسها وفي طرق الشعراء لوصف هذا اللون من

(١) ديوان المتنبي، شرح البرقوقي، ج ٤، ص ١٨٠.

(٢) ديوان المتنبي، شرح البرقوقي، ج ٤، ص .

المجون وفيما استحدثوه في ذكر ما يجري في مجالسها من ظرف وأدب ومنادمة
وفيما ابتدعوه من طرائف الكدية في استجدائها واستهائها^(١).

ومن طرائف اكدية في الاستجداء بالخمير قول السري الرفاء:

تَجَبَّبَنِي حُسْنُ الْمُدَامِ وَطَيْبُهَا * فَقَدْ ظَمَمْتُ نَفْسِي وَطَالَ شُحُوبُهَا
وَعِنْدِي ظُرُوفٌ لَوْ تَظَرَّفَ دَهْرُهَا * لَمَّا بَاتَ مُغْرَى بِالْكَآبَةِ كُوبُهَا
وَشُعْتُ دِنَانِ خَاوِيَاتٍ كَانَتْهَا * صُدُورُ رِجَالٍ فَارَقَتْهَا قَلُوبُهَا
فَسُقْيَاكَ لَا سُقْيَا السَّحَابِ فَإِنَّهَا * هِيَ الْعِلَّةُ الْقُصُوى وَأَنْتَ طَبِيبُهَا^(٢)

ومن طرائف الكدبة في الاستهزاء بالخمير قوله أيضاً:

أَبَا الْحُسَيْنِ دَعَتْ نَفْسِي أَمَانِيهَا * إِلَى يَدِ مِنْكَ مَشْهُورِ أَيَادِيهَا
فَصَرَّمِ الصَّوْمَ عَنَّا بَعْدَمَا ظَمَمْتَ * لَهُ النُّفُوسُ وَفَقَدُ الرِّاحِ يُظْمِيهَا
فَجُدْ بَعْدَ رَاءِ مِثْلِ الشَّمْسِ نَعْدِزْهَا * إِنْ أَظْهَرْتَ صَلْفًا لِلْحُسْنِ أَوْ تِيهَا
وَاعْلَمْ بِأَنَّ ظُرُوفَ الرِّاحِ إِنْ كَبُرَتْ * عِنْدَ الْهَدِيَّةِ أَبَدَتْ ظَرْفَ مُهْدِيهَا^(٣)

وخلاصة القول: أن هذا الفن عند شعراء الاجر جاء متأثراً بمجموعة من

العوامل أهمها:

الثقافة الشعرية الخمرية الموروثة من العصر العباسي الاول قال الرفاء:

سَأْتُرُّكَ مَنْ أَهْوَى بِمَا هُوَ أَهْلُهُ * وَلَوْ كَانَ مَنْ أَهْوَى يُشَاكِلُهُ الْبَدْرُ
وَأَصْبُو إِلَى قَوْلِ الَّذِي قَدْ عَرَفْتَمَا * أَلَا سَقَّنِي خَمْرًا وَقَلَّ لِي هِيَ الْخَمْرُ^(٤)

الترف الذي وجدته الشعراء في اكناف الامير سيف الدولة قال البيضاء:

وَوَاصَلْتَنِي صَلَاتٍ مِنْهُ رَحَتْ بِهَا * اخْتَالَ مَا بَيْنَ عِزِّ الْجَاهِ وَالْمَالِ^(٥)

وقال ابن نباته السعدي:

لَمْ يُبْقِ جُودُكَ لِي شَيْئًا أَوْمَلُهُ * تَرَكْتَنِي أَصْحَبُ الدُّنْيَا بِلَا أَمَلِ^(١)

(١) فنون الشعر ٣٣٤ وما بعدها

(٢) بيتيمة الدهر ، ج٢ ، ص ٢٤ ، ٢٠٥

(٣) المصدر السابق

(٤) ديوان السري ص ١٤٩

(٥) بيتيمة الشعر ، ج١ ، ص ٣٠٤

انتشار الاديرة قال ابوبكر الخالدي:

مَحَاسِنُ الدَّيْرِ تَسْبِيحِي وَمَسْبَاحِي * وَخَمْرُهُ فِي الدُّجَى صُبْحِي وَمِصْبَاحِي
أَقَمْتُ فِيهِ إِلَيَّ أَنْ صَارَ هَيْكَلُهُ * بَيْتِي وَمِفْتَاحُهُ لِلْأُنْسِ مِفْتَاحِي
مُنَادِمًا فِي قَلَالِيهِ رَهَابِنَةً * رَاحَتْ خَلَائِفُهُمْ أَصْفَى مِنَ الرِّيحِ (١)

جمال الطبيعة في بلاد الشام قال الواواء دمشقي:

زَمَانُ الرِّيَاضِ زَمَانٌ أَنْيَقُ * وَعَيشُ الخَلَاعَةِ عَيشٌ رَقِيقُ
وَقَدْ جَمَعَ الوَقْتُ حَالِيَهُمَا * فَمَنْ ذَا يُفِيقُ وَمَنْ يَسْتَفِيقُ (٢)

اصاله الشام الخمرية فهي معروفة منذ قديم الزمان بالعنب وبالكروم
وبكثرة الخمر وكان العرب في الجاهلية يسمونها بلاد الخمر قال عمر بن
كلثوم:

وَكَأْسٍ قَدْ شَرِبْتُ بِبَعْبَاكُ * وَأُخْرَى فِي دِمَشْقَ وَقَاصِرِينَا (٣)

تعدد الأجناس في ذلك المجتمع وتباين الثقافات.

وكثرة ما كان هذا الغرض أصيلاً عند شعراء الأمير، وألف كشاجم كتاب أدب
النديم الذي بين فيه القواعد والآداب التي كانت تتبع في مجالس شرب الخمر.
ومن الفنون الشعرية التي ذاع صيتها وانتشر صداها عند شعراء الأمير
الشعر الشيعي.

كان معظم شعراء الأمير إن لم يكن جميعهم يميلون إلى المذهب الشيعي
في غير مغالاة؛ ولذلك كثرت عندهم القصائد المادحة لآل البيت والتوسل بهم
والبكاء علي الحسين عليه السلام وقد هجا بعضهم بني أمية وبني العباس لانهم
كانوا يرون أنهم قد اغتصبوا الخلافة من مستحقيها. وقد أوردنا في فصل التشيع
نماذج مختلفة تكفيها ملل التكرار.

(١) بيتيمة الدهر، ج٢، ص ٤٥٨

(٢) ديوان الخالدين ص ٣٧

(٣) ديوان الواواء ص ١٠٠، ١٠٦

(٤) السبع الطوال الجاهليات للنباري، ص ٥

مما يجدر بنا أن نذكره تأثر بعض شعراء الأيد بمهتهم فالرفاء على سبيل المثال كان رفاء، فلذلك تجده يكثر من ذكر الملابس والجيوب والازرار في شعره وذلك مثل قوله:

وبديعةٍ أضحى الجمالُ شِعَارَهَا * صَبَغَ الحِيَاءُ رِدَاءَهَا وَإِزَارَهَا^(١)
حَلَّتْ نَسِيمَ عِقَالِهَا وَتَوَشَّحَتْ * بِالْأَرْجُوَانِ وَشَدَّدَتْ أَرْزَارَهَا

وأبو فراس كان فارساً فلذلك كان يكثر من ذكر معاني الفروسية وأدوات الحرب، فيقول على سبيل المثال:

هذا وكم من غمة كشفتها * بشبا الظبا وتوقد الخرصان
متجرداً فرداً بغير مساعد * غير الجواد ومرهف وسنان^(٢)

والوواء كان فاكهياً؛ فلذا تجده يكثر من ذكر الرياض والأزهار ومن ذلك قوله:

لما تَأَمَّلْتُ الرِّيَاضَ وَزَهْرَهَا * يَجْلُو مَحَاسِنَهُ عَلَى قُصَادِهَا
شَاهَدْتُ فِيهِ بَدَائِعاً وَغَرَائِباً * فِيهَا لِأَوْصَافِي أَتَمُّ مُرَادِهَا^(٣)

من الخصائص الفنية لدي شعراء الأمير سيف الدولة التأثير بالموروث من الشعر التقليدي ولا عجب في ذلك؛ لأن خصائص الأدب والشعر في أي فترة من فترات التاريخ مرتبطة تمام الارتباط بما قبلها من فترات، وأن الأدباء عادة ما يستفيدون مما هو موروث أو يتأثرون به، وقديما قال عنتر بن شداد:

هَلْ غَادَرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ مُتَرَدِّمٍ * أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُمٍ^(٤)

كان بعض شعراء الأمير يترسمون خطي الشعراء القدامى، في ابتداء بعض قصائدهم بالوقوف على الأطلال، وقد أوردنا في حديثنا عن الغزل نماذج توضح ذلك لكن الغريب في الأمر أن يحن بعض شعراء الأمير من أبناء القصور إلى البادية والي اساليب الشعراء القدامى، حتى تظن وأنت تقرأ بعض

(١) ديوان السري، ص ١٤٢

(٢) ديوان ابي فراس شرح وتحقيق الدهان ، ج٢، ص ٣٤٣

(٣) ديوان الوواء ، ص ٩٠، ٩١

(٤) شرح السبع الطوال الجاهليات ، الانباري، ت عبد السلام هارون، ط دار المعارف ، ط٥، ص ٢٩٥

قصائدهم أنهم من شعراء الجاهلية وكأنَّ لا علاقة لهم بالعصر العباسي، ومن أولئك أبو فراس، وقد اخترنا جزءاً من قصيدته:

البين بيِّن ما يجن جناني * والوجد جدد بعدكم أحزاني
ويلى الرسوم الدارسات بذى الغضا * أغرى بي الكمد الذى أبلاني
لو أنها غنيت بأنس قطينها * غنيت مدامعها عن الهملان
قل للديار بجانب الصَّمان * بلسان دمع لا يلفظ لسان
آسى بأن أبكيت عيني لا بكت * عيني عليك بغير دمع قان^(١)
أو ما رأيت غداة محنية اللوي * ما بي من البرحاء والأشجان
ولقد سألت الربيع عن مكانه * لو كان يخبرني عن السكان
وسؤال ما لا يستطيع إجابة * لمسائل ضرب من الهذيان^(٢)

أما مظاهر التجديد في الشعر التقليدي لدى شعراء الأمير سيف الدولة فإنها تبدو في انتقاء شعرائه لألفاظهم، وفي اختيارهم للأساليب الرشيقة التي تتناسب وروح عصرهم ومن ذلك نختار قول الرفاء:

أجانبُها حذاراً لا اجتنبها * وأعتبُ كي تُنازعني العتابا
وأبعدُ خيفةً الواشين عنها * لكي أزدادَ في الحبِّ اقترابا
وتأبى عبرتي إلا انسكابا * وتأبى لوعتي إلا التهابا
مرزنا بالعقيقِ فكم عقيقٍ * ترققَ في محاجرنا فذابا^(٣)
وقول أبي فراس:

فَلَمَّا لَاحَ بَعْدَ الْأَيْنِ سَلْعٌ * ذَكَرْتُ مَنَازِلِي وَعَرَفْتُ دَارِي
أَلَمْ يَنْبَأِ وَجُنْحُ اللَّيْلِ دَاجٍ * خَيْالٌ زَارَ وَهْنًا مِنْ نَوَارِ
أَبَاخِلَّةٌ عَلَيَّ وَأَنْتِ جَارٌ * وَوَصِلَةٌ عَلَيَّ بَعْدِ الْمَزَارِ^(٤)

(١) شرح الدهان ، ج٢ ، ص ٢٤٤ وما بعدها

(٢) شرح الدهان، ج٢، ص ٢٤٣

(٣) ديوان السري، ص ١٤

(٤) شرح ابن خالون ، ص ١٦٨

ومن ملامح التجديد في شعر الفخر التغني بالمثل العليا والاعتزاز بالقيم الرفيعة، وخير من يمثل هذا الاتجاه الشاعر الأمير أبو فراس الحمداني، ومن ذلك قوله:

غَيْرِي يُغَيِّرُهُ الْفَعَالُ الْجَافِي * وَيَحُولُ عَن شِيمِ الْكَرِيمِ الْوَافِي
لَا أَرْتَضِي وَدًّا إِذَا هُوَ لَمْ يَدُم * عِنْدَ الْجَفَاءِ وَقَلَّةِ الْإِنْصَافِ
إِنَّ الْغَنِيَّ هُوَ الْغَنِيُّ بِنَفْسِهِ * وَلَوْ أَنَّهُ عَارِي الْمَنَابِ حَافِ
مَأْكُلٌ مَافُوقَ الْبَسِيطَةِ كَافِيًا * فَإِذَا قَنِعْتَ فَكُلْ شَيْءٍ كَافِ
وَتَعَاْفُ لِي طَمَعُ الْحَرِيصِ أَبُوتِي * وَمُرُوعَتِي وَقَتَاعَتِي وَعَفَافِي
مَاكَثَرَتْهُ الْخَيْلُ الْجِيَادِ بِزَائِدِي * شَرَفًا وَلَا عَدَدُ السَّوَامِ الضَّافِي
خَيْلِي وَإِنْ قَلَّتْ كَثِيرٌ نَفْعُهَا * بَيْنَ الصَّوَارِمِ وَالْقَتَا الرَّعَافِ
لَا أَقْتَنِي لِصُرُوفِ دَهْرِي عُدَّةً * حَتَّى كَأَنَّ صُرُوفَهُ أَحْلَافِي
شِيمٍ عُرِفَتْ بِهِنَّ مُذْ أَنَا يَافِعٌ * وَلَقَدْ عَرَفْتُ بِمِثْلِهَا أَسْلَافِي^(١)

من الخصائص الموضوعية ميل الرثاء في مجمله الي العزاء وذلك باستثناء مرثيات أبي فراس:

من الخصائص التي نلاحظها أيضا لدي شعراء الأمير في أشعارهم الإكثار من استخدام المصطلحات العلمية بما في ذلك آثار المعارف الدينية.

قال الوأواء:

لَهَا حُكْمٌ لُقْمَانٍ وَصُورَةٌ يُوسُفِ * وَنَعْمَةٌ دَاوُدَ وَعِقْفَةٌ مَزِيمِ
وَلِي سُقْمٌ أَيُّوبَ وَغُرْبَةٌ يُونُسِ * وَأَحْزَانٌ يَعْقُوبَ وَوَحْشَةٌ آدَمِ^(٢)

وقال كشاجم:

نَمَّتْ مَلَا حَتُّهُ وَقَامَ بِقَدِّهِ * فِي التَّيِّهِ إِنَّ الْحُسْنَ مِنْهُ يَتِيمِ
فَشَرِبَتْهَا مِنْ طَرْفِهِ وَإِنَاوَهَا * فِي كَفِّهِ وَرَحِيقُهَا مَخْتُومِ
رَاحًا كَأَنَّ نَسِيمَهَا مُتَوَلَّدٌ * مِنْ نَشْرِهِ وَمَرْجُهَا تَسْنِيمِ^(٣)

(١) ديوانه شرح ابن خالويه، ص ١٩١

(٢) ديوان الوأواء ص ٢٧٦

(٣) ديوان كشاجم، ص ٣٥١

فالمعني مقتبس من قوله تعالى: (يسقون من رحيق مختوم) وقوله:

(ومزاجه من تسنيم).

وقال كشاجم في عشور القرآن:

وهي مشكولةٌ بِعِدَّةِ أَشْكَا * لِ وَمَقْرُوءَةٌ عَلَى أَنْحَاءِ
فَإِذَا شَتَّتْ كَانَ حَمَزَةٌ فِيهَا * وَإِذَا شَتَّتْ كَانَ فِيهَا الْكَسَائِي (١)

وقال:

ومريضةٌ الْأَحَاطِ فَاتِنَةٌ * نَفَاطَةٌ بِالسَّحْرِ فِي الْعَقْدِ (٢)
أخذ المعني رأي اقتبسه من قول تعالى: (ومن شر النفاثات في العقد).

وقال المتنبّي:

إذا كان ما تنويه فعلا مضارعا * مضي قبل ان تلقي عليه الجوازما (٣)
وقال أبو بكر الخالدي:

قد عدلوا ثقل أديان بمعرفه * فيهم بخفة أبدان وأرواح
في طب بقراط لحن الموصلي وفي * نحو المبرد أشعار الطرماح (٤)

وقال الواواء:

فَكَأَنَّهَا فَلَكُ يَدُورُ وَعُلُوهُ * يَرْمِي الْقَرَارَ بِكُلِّ نَجْمٍ طَالِعِ (٥)

وقال كشاجم:

فَإِذَا طَرِبْتَ إِلَى السَّمَاعِ تَرْتَمَتْ * بِيضَاءِ ذَاهِبَةٍ بِعَقْلِكَ دَاهِيَةٍ
تَصِلُ الْغَنَاءَ يَمِينَهَا بِشَمَالِهَا * كَمَثَلِ أَضْلَاعِهِ مُتَسَاوِيَةٍ (٦)

(١) ديوان كشاجم، ص ٧

(٢) ديوان كشاجم ، ص ١٢٨

(٣) ديوان المتنبّي دار الجيل بيروت ص ٣٨٦

(٤) ديوان الخالدين ص ٣٧

(٥) ديوان الواواء ص ٢٧٥

(٦) ديوان كشاجم ص ٤١٦

لا يخلو شعر شعراء الأمير من نزعات فلسفية وإن كانت ملامح هذه النزعة تبدو باهته إذا ما قارناها بحجم الثقافات المتباينة التي كانت منتشرة في ذلك العصر، والتي كانت في متناول الجميع وذلك باستثناء المتنبّي الذي نبغ في هذا الجانب نبوغ شعره وفاق الشعراء جميعاً لأنه كان أبعدهم تفكيراً، وأسدّهم رأياً، وأكثرهم حكمة ومثلاً ولا اتصال أدبه بالإنسانية وتعبيره عن أحاسيسها راضية وغازية.

قال المتنبّي:

إِذَا أَنْتِ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكْتَهُ * وَإِنْ أَنْتِ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَدَا
وقال:

إِذَا غَامَرْتَ فِي شَرْفِ مَرُومٍ * فَلَا تَقْنَعِ بِمَا دُونَ النُّجُومِ
فَطَعْمُ الْمَوْتِ فِي أَمْرِ صَغِيرٍ * كَطَعْمِ الْمَوْتِ فِي أَمْرِ عَظِيمِ
وقال:

يَهُونُ عَلَيْنَا أَنْ تُصَابَ جُسُومُنَا * وَتَسْلَمَ أَعْرَاضُ لَنَا وَعُقُولُ
وقال:

إِذَا اعْتَادَ الْفَتَى خَوْضَ الْمَنِيَا * فَاهُونَ مَا يَمُرُّ بِهِ الْوَصُولُ
وقال في سيف الدولة:

الرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ * هُوَ أَوَّلُ وَهْيِ الْمَحَلِّ الثَّانِي
وقال:

لَوْلَا الْعُقُولُ لَكَانَ أَدْنَى ضَيْغَمٍ * أَدْنَى إِلَى شَرْفٍ مِنَ الْإِنْسَانِ^(١)
وقال: في التمييز بين اخلاق السادة والعبيد:

وَمَا فِي سَطْوَةِ الْأَرْبَابِ عَيْبٌ * وَلَا فِي نِزْلَةِ الْعُبدَانِ عَارٌ^(٢)
وقال ابو فراس:

إِنَّ الْغَنِيَّ هُوَ الْغَنِيُّ بِنَفْسِهِ * وَلَوْ أَنَّهُ عَارِي الْمَنَاكِبِ حَافٍ

(١) يتيمة الدهر، ج١، ص ٢٦٠

(٢) يتيمة الدهر، ج١، ص ٢٥٩

مَأْكُلٌ مَأْفُوقَ الْبَسِيطَةِ كَأَفِيأً * فَأِذَا قَنَعَتْ فَكُلُّ شَيْءٍ كَأَفٍ (١)

وقال الرفاء:

إِن الْبِنَاءَ إِذَا مَا أَنهَدَ جَانِبَهُ * لَمْ يَأْمَنِ النَّاسُ أَنْ يَنْهَدَ بَاقِيَهُ (٢)

وقال أبو بكر الخالدي:

مَا عُنْرُنَا فِي حَبْسِنَا الْأَكْوَابَا * سَقَطَ النَّدَى وَصَفَا الْهَوَاءُ وَطَابَا

وقال الصنوبري:

فَشَمْسُ الْجَنَانِ وَشَمْسُ الدَّنَانِ * وَشَمْسُ الْقِيَانِ وَشَمْسُ السَّمَاءِ

بجانب استخدام شعراء الامير للافاظ المنتقاة الرقيقة والمعاني النادرة

الرشيقة فقد كانوا بكل حق بارعين في استخدام الأساليب والتعابير الأنيقة قال

الصنوبري مصورا شجاعة الأمير:

بِأَيْمَنِ طَائِرٍ وَأَصْحٍ فَالٍ * وَأَسْعَدِ كَوَكِبٍ يَغْزُو الْأَمِيرُ

يُوَيِّدُ جَيْشَهُ بِجِيُوشِ نَصْرِ * تَسِيرُ عَلَى النِّجَاحِ إِذَا تَسِيرُ

إلى أن قال:

تَرَكْتَ الرُّومَ بَعْضُهُمْ قَتِيلٌ * يَمْجُ دَمًا وَبَعْضُهُمْ أُسِيرُ

وَلَمَّا طَارَ بِأَسْكَ أَمْسَ فِيهِمْ * هَفَّوْا جَزَعًا كَمَا تَهْفُؤُ الطَّيُورُ (٣)

(١) شرح ابن خالون ص ١٩١

(٢) ديوان السري، ص ٢٧٥

(٣) ديوان الصنوبري ص ٧٤

المبحث الثاني الخصائص الأسلوبية

قال أبو منصور الثعالبي:

كانت أشعار الإسلاميين أرق من أشعار الجاهليين، وأشعار المحدثين أطف من أشعار المتقدمين، وأشعار المولدين أبداع من أشعار المحدثين، وكانت أشعار العصرين أجمع النوادر المحاسن وأنظم للطائف البدائع من سائر المذكورين، لانتهائها إلى أبعد غايات الحسن وبلوغها أقصى نهاية الجودة والظرف تكاد تخرج من باب الإعجاب إلى الإعجاز، ومن حد الشعر إلى حد السحر، فكأن الزمان ادخر لنا من نتائج خواطرمهم، وثمره قرائنهم، وأبكار ألفاظهم، أتم الألفاظ والمعاني واستيفاء لأقسام البراعة وأوفرها نصبا في كمال الصنعة ورونق الحلاوة^(١).

هذه شهادة عظيمة في حق أولئك العصريين. قال أبو فراس:

عَذِيرِي مِنْ طَوَالِعِ فِي عِذَارِي * وَمِنْ رَدِّ الشَّابَابِ الْمُسْتَعَارِ
وَتُوبٍ كُنْتُ أَلْبَسُهُ أَنْيَقِ * أَجْرَرُ ذَيْلَهُ بَيْنَ الْجَوَارِي
وَمَا زَادَتْ عَلَى الْعِشْرِينَ سِنِّي * فَمَا عَذْرُ الْمَشِيبِ إِلَى عِذَارِي
وَمَا اسْتَمْتَعْتُ مِنْ دَاعِي التَّصَابِي * إِلَى أَنْ جَاءَنِي دَاعِي الْوَقَارِ
أَيَا شَيْبِي ظَلَمْتُ وَيَا شَبَابِي * لَقَدْ جَاوَرْتُ مِنْكَ بِشَرِّ جَارِ
يُرْحَلُ كُلُّ مَنْ يَأْوِي إِلَيْهِ * وَيَخْتَمُّهَا بِتَرْحِيلِ الدِّيَارِ^(٢)

قال كشاجم:

بِاللَّهِ يَا مَتْفِرِدَا بِجَمَالِهِ * وَمِقَابَا هَارُوتَ بَيْنَ مُحَاجِرِهِ
وَمَحْكَمَا أَرْدَافَهُ فِي خَصْرِهِ * وَمَصَافِحَا خُلْخَالِهِ بِضَفَائِرِهِ
لَا تَغْضِبْنِ عَلَيَّ فَتَيَّ يَرْضَى بِمَا * أَوْلَيْتَهُ وَلَوْ انْتَعَلْتَ بِنَازِرِهِ

(١) يتيمة الدهر

(٢) شرح ابن خالدين ص ١٦٧

ويكتم الأسرار حتى أنه * ليصونها عن أن تمر بخاطره
وواضح أن هذا الأسلوب يميل إلى الدعابة ومع ذلك فهو لا يخلو من
أسلوب المبالغة في انفعال الناظر وصون الأسرار حتى عن الخاطر.

وقال أبو بكر الخالدي:

أَنْبَاكَ شَاهِدُ أَمْرِي عَنْ مُغِيبِهِ * وَجَدَّ جِدُّ الْهَوَى بِي فِي تَلْعُوبِهِ
يَا نَارِحاً نَزَحْتُ دَمْعِي قَطِيعَتُهُ * هَبْ لِي مِنَ الدَّمْعِ مَا أَبْكِي عَلَيْكَ بِهِ^(١)

وقال أيضاً:

رُوحِي الْفِدَاءُ لِظَاعِنِينَ رَحِيأَهُمْ * أَنْكَى وَأَفْسَدَ فِي الْقُلُوبِ وَعَاثَا
فَلْيَفِضْ عِدَّتَهُ السُّرُورُ فَإِنِّي * طَلَّقْتُ بَعْدَهُمُ السُّرُورَ ثَلَاثَا

وقال الواواء:

يَا مَنْ أَقَامَ قِيَامَتِي بِصُدُودِهِ * الْجِسْمُ يَنْحَلُ وَالْفَوَادُ يَذُوبُ
وَبَكَيْتُ مِنْ جَزَعٍ عَلَيْكَ بِحُرْقَةٍ * أَسْفَاً عَلَيْكَ كَمَا بَكَى يَعْقُوبُ

وقال:

وَلِي فَوَادٌ إِذَا طَالَ الْعَذَابُ بِهِ * هَامَ اشْتِيَاقاً إِلَى نُفْيَا مَعْدِيهِ
يَفْدِيكَ بِالنَّفْسِ صَبًّا لَوْ يَكُونُ لَهُ * أَعَزُّ مِنْ نَفْسِهِ شَيْءٌ فِدَاكَ بِهِ

والنماذج السلسلة الأنيقة كثيرة جدا في دواوين الشعراء ولكننا رأينا أن نكتفي بهذا
القدر.

ومن الأساليب المميزة لشعر شعراء الأمير أسلوب البديع:

يتصل البديع اللفظي اتصالاً وثيقاً بموسيقى الألفاظ، وهو ليس في
الحقيقة إلا تفنناً في طرق ترديد الأصوات في الكلام حتى يكون له نغم
موسيقى، وحتى يسترعي الأذان بألفاظه كما يسترعي العقول بمعانيه فهو مهارة
في نظم الكلمات وبراعة في ترتيبها وتنسيقها، ومهما اختلفت أصنافه وتعددت
طرقه يجمعها جميعاً أمر واحد وهو العناية بحسن الجرس ووقع الألفاظ في

(١) ديوان الخالدين ٢٩

الأسماع، ومجيئه في الشعر يزيد من موسيقاه؛ وذلك لأن الأصوات التي تتكرر في حشو البيت أشبه بفاصلة موسيقية متعددة النغم مختلفة الألوان يستمتع بها من له دراية بهذا الفن ويرى فيها المهارة والمقدرة الفنية.

وشعراء الأمير سيف الدولة كانوا يهتمون بالجرس الموسيقي للفظه كثيراً ولا يستخدمون الألفاظ المبتذلة التي لا يرتاح إليها الذوق الشعري^(١). ومما استخدموه في هذا الأسلوب حسن التقسيم، الجناس، الطباق، المقابلة، المبالغة.

وقد تأثروا بمدرسة الترسل الصناعي خاصة في الأزواج أو ما يعرف بالتقسيم الموسيقي.

أما التقسيم الموسيقي فنعني به أن تتوازن الجمل في الأسلوب وتسير وفق نسق فني متساوي المقاطع^(٢)، ويعرف أيضاً بحسن التقسيم ومثال ذلك قول الصنوبري*:

لا تبكين على الأطلال والدمن * ولا علي منزل أقوى من السكن
وقم بنا نصطح صهباء صافيه * تنفي الهموم ولا تبقي من الغزل
بكرًا معتقة عذراء واضحة * تبدو فتخبرنا عن سالف الزمن
خمرا مروقة صفراء فاقعة * كأنما مزجت من طرفك الوسن
يسعي بها غنج في خده ضرج * في ثغره فلج ينمي إلى اليمن
في ريقه عسل قلبي به خبل * في مشيه ميل أربى إلى الغصن
كأنه قمز ما مثله بشر * في طرفه حور يرنو فيجرحني
سبحان خالقه يا ويح عاشقه * يهدي لرامقه ضعفا من الشجن
في روضة زهرت بالنبت قد حسنت * كأنها فرشت من وجهه الحسن
يا طيب مجلسنا والظير يطربنا * والعود يسعدنا مع منشد لسن

(١) موسيقى الشعر، لإبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٦، ١٩٨٨م، ص ٤٤-٤٥.

(٢) الوزراء والكتاب للجهاشاري، مصطفى السقا وآخرين، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ١٣٥٧-

١٩٣٧م، ص ٧٢٢٩

* ديوان الصنوبري ص ٤٩٧

وقال النامي:

كأنه أجمل أو طرفه وجل * أو سيفه قدر في الروح يحتكم⁽¹⁾

وقال المنتبي:

ضاقَ الزمانُ ووجهُ الأرضِ عن ملكٍ * ملءِ الزمانِ وملءِ السهلِ والجبلِ

فَنَحْنُ في جَدَلٍ والرومُ في وجَلٍ * والبرُّ في شُغْلٍ والبحرُ في حَجَلٍ⁽²⁾

وقال:

الدَّهْرُ مُعْتَذِرٌ وَالسَّيْفُ مُنْتَظِرٌ * وَأَرْضُهُمْ لَكَ مُصْطَافٌ وَمُرْتَبِعٌ

لِلسَّبِيِّ مَا نَكَحُوا وَالْقَتْلِ مَا وَاَدُوا * وَالنَّهْبِ مَا جَمَعُوا وَالنَّارِ مَا زَرَعُوا⁽³⁾

وقال ابو فراس:

فَالنَّفْسُ جَاهِدَةٌ وَالْعَيْنُ سَاهِدَةٌ * وَالْجَيْشُ مِنْهُمْ كُ وَالْمَالُ مُبْتَدَلٌ⁽⁴⁾

الملاحظ أن شعراء الأمير كانوا يكثرون من التصريح والتصریح وحسن

التقسيم، يزيدان الشعر بجمال ما يصدر منهما من موسيقى، ومثال التصريح:

قول السري:

أَعْرَتْكَ الشَّهَابُ أَمِ النَّهَارُ * وَرَاحَتْكَ السَّحَابُ أَمِ الْبِحَارُ⁽⁵⁾

وقول أبي فراس:

عَذِيرِي مِنْ طَوَالِعِ فِي عِذَارِي * وَمِنْ رَدِّ الشَّابَابِ الْمُسْتَعَارِ

وقوله:

أَرَاكَ عَصِيَّ الدَّمْعِ شِيمَتُكَ الصَّبْرُ * أَمَا لِلْهَوَى نَهْيٌ عَلَيْكَ وَلَا أَمْرُ

وقد أكثروا من الجناس إلا أنه مع كثرته في أشعارهم جاء جارياً مع

الطبع لا تكلف فيه، وقد أضفى إيقاعاً بهياً ورونقاً طلياً على موسيقاهم الداخلية

وإيقاعهم الشعري.

(1) يتيمة الدهر، ج ١، ص ٢٨١

(2) اليتيمة الدهر، ج ١، ص ٢٤٢

(3) المصدر السابق

(4) شرح ابن خالد ص ٢٢٠

(5) يتيمة الدهر، ج ١، ص ٣٩

قال السري في سيف الدولة:

خُلِفَتَ مَنِيَّةً وَمُنَى فَأُضْحَتَ * تَمُورُ بِكَ البَسِيطَةُ أَوْ تُمَارُ
تُحَلِّي الدِّينَ أَوْ تَحْمِي حِمَاه * فَأَنْتَ عَلَيْهِ سُورٌ أَوْ سِوَارٌ^(١)

جانس الشاعر بين (منية - ومنى) وتمور وتمر، وسور، وسوار:

جانس بين سلاف وسالف:

وقال الواواء:

وَمُهَفَّهَفٍ كَالْغَصَنِ هَزَّتْهُ الصَّبَا * فَصَبَا إِلَيْهِ مِنَ الْفُتُونِ هَوَائِي^(٢)
جانس بين (الصبا-وصبا).

وقال السري في وصف دير:

أَهْوَاءُ رِقِّ فِي أَرْجَائِهِ * أَمْ هَوِي رَاقٍ فَمَا فِيهِ كَدْرٌ^(٣)
جانس بين الهواء وهوي ورق راق.

كما استخدموا التضاد في إبراز أعرق المعاني وأجملها، مستقلين ما في التضاد
من تصوير خيالي. قال الصنوبري في سيف الدولة:

أَمِيرٌ أَوْسَعُ الْأَمْرَاءِ صَدْرًا * إِذَا ضَاقَتْ بِمَا تَسَعُ الصُّدُورُ^(٤)
طابق بين اوسع وضاق:

وقال:

وَقَدْ أَقْعَدْتُ أَسْيَافَهُ كُلَّ قَائِمٍ * لَقَدْ أَرْجَلْتُ أَرْمَاحَهُ كُلَّ رَاكِبٍ^(٥)

طابق بين أقعدت وقائم، وأرجلت وراكب.

وقال السري في الأمير أيضاً:

يَسَارٌ مِنْ سَجِيَّتِهَا الْمَنَايَا * وَيَمْنِي مِنْ عَطِيَّتِهَا يَسَارٌ^(٦)

(١) ديوان السري، ص ١٠٥.

(٢) ديوان الواواء ص ٣

(٣) ديوان السري، ص

(٤) ديوان الصنوبري، ص ٧٤.

(٥) المصدر السابق، ص

(٦) ديوان السري، ص ١٠٦.

طابق السري بين (يسار ويمني)

وقال كشاجم:

وَأَعْجَبُ مِنْ زَمَنِ مَانِحٍ * وَأَخْرَ يَسْأَبُ تِلْكَ الْمِنَحِ

طابق بين مانح ويسلب.

وقال المتنبي:

وما انتفاع اخي الدنيا بناظره * اذا استوت عنده الانوار والظلم^(١)

طابق بين الانوار والظلم:

وقال:

أنا الذي نظرت الأعمى إلى أدبي * وأسمنت كلماتي من به صمم

أنام ملء جفوني عن شواردها * ويسهر الخلق جزاها ويختصم^(٢)

قابل بين أسمنت وصمم وأنام ويسهر:

وقال كشاجم:

غيم مدامعه تقيض * وثياببه سؤود ويبيض

بيبي فيضحك من طوي * ل بكائه الروض الأريض^(٣)

قابل بين (سود وبيض) (وبيكي ويضحك).

والحق أعجبت بهذا الفن أشد الإعجاب عند أبي فراس فهو عنده جاء

من عفو خاطر وبلغ به الغاية في التعبير عن عواطفه واستغل التضاد لإبراز

مكونات نفسه في صدق لا نظير له انظر قوله:

بدوت وأهلي حاضرون لأنني * أرى أن داراً لست من أهلها فقر

تسألني من أنت وهي عليمه * إذا ماعداها البين عذبها الهجر

فلا تكررني يا ابنة العم إنه * وهل بفتي مثلي على حاله نكر

ولا تكررني إنني غير منكر * ليعرف من أنكرته البدو والحضر

(١) بيتمة الدهر، ج ١، ص ٢٣٨.

(٢) ديوان المتنبي، شرح البرقوق، ج ٤، ص

(٣) ديوان كشاجم، ص ٢٣٤.

وَتَهْلِكُ بَيْنَ الْهَزْلِ وَالْجَدِّ مُهَجَّةٌ
فَأَظْمَأُ حَتَّى تَرْتَوِي الْبَيْضُ وَالْقَنَا

وقال في الأمير:

فليتك تحلو والحياة مريرة * وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر * وبينني وبين العالمين خراب^(٢)

وقال المنتبي في كافر:

أزورهم وسواد الليل يشفع لي * وانثنى وبياض الصبح يغري بي^(٣)

وقال أبو فراس في صديق له جفا:

وما لم أؤخذك بالجفاء لآني * واثق منك بالوفاء الصّحيح
فجميل العدو غير جميل * وقبيح الصديق غير قبيح^(٤)

وقال:

أضحك مأسور وتبكي طليقه * ويسكت محزون ويندب سال^(٥)

وقال:

فإن يك ما قال الوشاة ولم يكن * فقد يهدم الإيمان ما شيد الكفر^(٦)

وقال كشاجم في الحسين بن علي "رضي الله عنه":

لئن دلّ فيه عزيز الدموع * لقد عزّ فيه دليل العزاء^(٧)

وقال:

حبيب كنت أن وارىت شخصي * رأيت عيناك شخصي في ثيابه
حمامي في تنائيه ولكن * حياتي حين يقرب باقترابه

(١) شرح ابن خالويه، ص ١٥٨، وما بعدها

(٢) شرح ابن خالويه، ص ٢٧

(٣) يتيمة الدهر، ج ١، ص ١٧٠

(٤) شرح ابن خالويه، ص ٧٠

(٥) المصدر السابق، ص ٢٣٨

(٦) شرح ابن خالويه، ص ١٥٨

(٧) ديوان كشاجم، ص ٣

وأطفأ برد وصلك حر هجير * تلهبت الجوانح بالتهابه^(١)

المبالغة والغلو:

تضاربت آراء الأدباء والمفكرين في الغلو فمنهم من يحمده ويعتبره فن، ومنهم من يذمه ويعتبره بعد عن صدق العاطفة.

يقول قدامة بن جعفر والغلو عندي اجود المذهبين وهو ما ذهب اليه الفهم بالشعر والشعراء قديما وقد بلغني عن بعضهم انه قال: اعذب الشعر اكذبه وكذا يري فلاسفة اليونان^(٢).

الصدق شقان: فني وواقعي والفني تتدرج تحت قائمته المبالغة، يقول العقاد: إن الصدق يتمثل في تعبير الشاعر عن عاطفته بغذاء من حرارتها لا بوقود من خارجها^(٣).

ويقول: فالمبالغة ليست عيباً مادام الشاعر ملتزماً للحقيقة الفنية ويفسر رأي العقاد قول الدكتور محمد النويهي الذي يري: أنه يجب أن يصدق الأديب في التعبير عن عاطفته التي أحس بها فعلاً وليس معني ذلك أن ينقل نقلاً حرفياً عن الواقع الخارجي^(٤).

ويقول دكتور محمد غنيمي هلال: تكون المبالغة مقبولة إذا لم تزيّف الحقائق ولم تصور غير الواقع ويرى أنها في هذه الحالة تكون دعامة الصدق الغني لتصوير المعني وإثارة الفكر والخيال وتوصيل أعمق الحقائق إلى العقل والقلب^(٥).

والذي خرجنا به من كل هذه الآراء أن المبالغة يجب أن تكون أداة يفرغ بها الأديب ما في دواخله من أحاسيس ورؤى يصور فيها الواقع كما يراه هو لا كما

(١) ديوان كشاجم، ص

(٢) نقد الشعر لقدامة بن جعفر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، ص ٢٤

(٣) مطالعات في الكتب والحياة للعقاد، المكتبة التجارية الكبيرة القاهرة، ط٢، ١٩٩٢م، ص ٢٨٦

(٤) ساعات بين الكتب للعقاد مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٠٩م، ص ١٢٢

(٥) في النقد الادبي، لمحمد غنيمي هلال، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٩م، ص ٢٢٤

يجب أن يكون وليس معني هذا أن يطلق حريته في التصوير الي حد الإنفصام التام عن الحقيقة المادية وإلا صار ذلك ضرباً من تصورات الحس. المبالغة من السمات المميزة لشعر شعراء العصر العباسي باثره بما فيهم شعراء الأمير سيف الدولة وقد كانت في كثير من الأحيان وسيلتهم التي صوروا بها شجاعته ومبلغ كرمه فأصابوا أحياناً كثيرة. قال المتنبي:

إن كان قد ملك القلوب فإنه * ملك الزمان بأرضه وسماته
الشمس من حساده والنصر من * قرنايه والسيف من أسمائه
أين الثلاثة من ثلاث خصاله * من حسنه وإبائه ومضائه
مضت الدهور وما أتين مثله * ولقد أتى فعجزن عن نظرائه^(١)
قال ابن نباته:

إذا ما أرسلوا جيشاً إلينا * رددنا من دمائهم رسولا
يسيل إليهم فإذا أتاهم * رأوا فيه الجماجم والخصيلا^(٢)

وقال المتنبي في سيف الدولة:

أرجو نذاك ولا أخشى المطال به * يا من إذا وهب الدنيا فقد بخل^(٣)
وقال:

كفى بجسمي نحولاً أنني رجل * لولا مخاطبتي إياك لم ترن^(٤)

امتلاّت المآثر الأدبية التي خلفها شعراء الأمير سيف الدولة بالسحر البياني الذي يختلب الألباب والأسماع، والذي كان من أهم مقاييس تفضلهم على أقرانهم وأندادهم من الشعراء لأن استخدامهم له لم يأت بصورة مبتذلة، هذا بجانب أنهم كانوا يمكنون المعنى في نفس المتلقي كتمكنه في أنفسهم في صورة جميلة ومعرض حسن.

(١) ديوان المتنبي شرح الدررقي، ج ١، ص ١٣٧

(٢) الشعر في رحاب سيف الدولة، ص

(٣) ديوانه، شرح البرقوق، ج ٤، ص ١٩١.

(٤) ديوانه، ج ٤، ص ٣١٩.

أما ميزة شعراء الأمير في أنهم كانوا يفيضون على تشبيهاتهم من العواطف ما يلبسها ثوب الحيوية. وهم به عبروا عن سائر الحياة في دولة الأمير بأبلغ تعبير وأسرع عبارة وجاءوا بما يستحق من الإعجاب.

قال أبو الطيب المتنبي عن شجاعة الأمير التي فاقت حد التصوير:

وَقَفْتَ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لَوَاقِفٍ * كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهَوَ نَائِمٌ^(١)

وقال مستعظفاً الأمير؛ ليعفو عن بني كلاب:

تَرَفَّقَ أَيُّهَا الْمَوْلَى عَلَيْهِم * فَإِنَّ الرِّفْقَ بِالْجَانِي عِتَابٌ

وَأِنَّهُمْ عَبِيدُكَ حَيْثُ كَانُوا * إِذَا تَدَعَوْ لِحَادِثَةٍ أَجَابُوا

وَأَنْتَ حَيَاتُهُمْ غَضِبْتَ عَلَيْهِم * وَهَجَرُ حَيَاتِهِمْ لَهُمْ عِقَابٌ^(٢)

التشبيه البليغ من أبلغ التشبيهات وما اسمه إلا دليلاً عليه، وهو يعتمد على فكر المتلقي في اكتشافه؛ لأن حذف الأداة ووجه الشبه يزيد جمالاً وروعة وبلاغة وغموضاً.

ومن أجمل أوجه التشبيهات تلك التي تأتي مكسوة بدبياج الحكمة، يقول قدامه بن جعفر: فأما الحكماء والأدباء فلا يزالون يضربون الأمثال، يبينون للناس تصرف الأحوال، بالنظائر والأشباه والأشكال، ويرون هذا النوع من القول أنجح مطلباً وأقرب مذهباً^(٣)، ولذلك قال الله عز وجل: (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن (من كل شيء مثلاً).

قال المتنبي مبيناً بعض صفات الأمير:

رَأَيْتُكَ مَحْضَ الْحِلْمِ فِي مَحْضِ قُدْرَةٍ * وَلَوْ شِئْتَ كَانَ الْحِلْمُ مِنْكَ الْمُهْتَدَا

وَمَا قَتَلَ الْأَحْرَارَ كَالْعَفْوِ عَنْهُمْ * وَمَنْ لَكَ بِالْحُرِّ الَّذِي يَحْفَظُ الْيَدَا

وَوَضِعَ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السِّيفِ بِالْغَلَا * مُضِرٌّ كَوْضِعِ السِّيفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى^(٤)

وقال:

(١) بيتمة الدهر، ج ١، ص ٤٣

(٢) ديوان المتنبي، شرح البرقوق، ج ١، ص ٢٠٨ - ٢٠٩

(٣) كتاب نقدالنثر، لقدامة بن جعفر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م، ص ٦٦

(٤) شرح البرقوق، ج ٢، ص ١١

بِذَا قَضَتِ الْأَيَّامَ مَا بَيْنَ أَهْلِهَا * مَصَائِبُ قَوْمٍ عِنْدَ قَوْمٍ فَوَائِدُ
فَأَنْتَ حُسَامُ الْمَلِكِ وَاللَّهِ ضَارِبٌ * وَأَنْتَ لَوَاءُ الدِّينِ وَاللَّهِ عَاقِدٌ^(١)
بِذَا قَضَتِ الْأَيَّامَ مَا بَيْنَ أَهْلِهَا * مَصَائِبُ قَوْمٍ عِنْدَ قَوْمٍ فَوَائِدُ
فَأَنْتَ حُسَامُ الْمَلِكِ وَاللَّهِ ضَارِبٌ * وَأَنْتَ لَوَاءُ الدِّينِ وَاللَّهِ عَاقِدُ
وَقَالَ: فَطَعَمَ الْمَوْتَ فِي أَمْرٍ صَغِيرٍ * كَطَعَمَ الْمَوْتَ فِي أَمْرٍ عَظِيمٍ^(٢)

الحق أن المتنبي مطبوع على اكتشاف جمال ما تؤديه مكنونات الألفاظ
من وظائف جمالية ودلالات لغوية ومعاني سحرية.

ولا شك أن شعراء الأمير كتبوا أشعاراً لا تعد ولا تحصى في وصف
الأمير ودولته مليئة بالتشبيهات الرائعة ولكن الحق يقال إن تشبيهات الشعراء
تتضاءل قيمتها الفنية أمام تشبيهات المتنبي وهذا ما جعلنا نسلط الأضواء على
تشبيهاته أكثر من غيره قال المتنبي واصفاً جبن الروم.

إِنَّ السُّيُوفَ مَعَ الَّذِينَ قُلُوبُهُمْ * كَقُلُوبِهِنَّ إِذَا التَّقَى الْجَمْعَانِ
تَلَقَى الْحُسَامَ عَلَى جِرَاءَةِ حَدِّهِ * مِثْلَ الْجَبَانِ بِكَفِّ كُلِّ جَبَانٍ^(٣)

يقول المتنبي: إن السيوف تصبح لا قيمة لها إلا إذا جردها شجعان لهم
قلوب صلبة كصلابة السيوف، والسيوف القاطع على حدته يصير جباناً إذا
استخدمه الجبان.

يقول الشاعر: إن كتب سيف الدولة التي يبعث بها إلى أعدائه؛ ليدعوهم
إلى طاعته هي السيوف، والرسل التي تحمل تلك الكتب أي "السيوف" هم
الجيوش.

وقال:

إِذَا الدَّوْلَةُ اسْتَكْفَتْ بِهِ فِي مَلْمَةِ * كَفَاهَا فَكَانَ السِّيفُ وَالْقَلْبُ^(٤)

(١) بيتمة الدهر، ج ١، ص ٣٨، ٣٩

(٢) شرح العكبري، ج ٤، ص ١١٩

(٣) شرح البرقوق، ج ٤، ص ٣١٦، ٣١٧

(٤) ديوان المتنبي بشرح العكبري، ج ١، ص ٦١

يقول إن الأمير هو سيف الدولة والكف التي تضرب الأعداء بذلك
السيف والقلب الجريء الذي يقتحم المعارك^(١).

يقول أن الأمير في حال صفائه كالبحر الذي تقتنص منه الدرر وفي
حال كدره لا يأمن أحد غضبته.

وقال فيه:

أَيَّنْ أَزْمَعْتَ أَيُّهَذَا الْهَمَامُ * نَحْنُ نَبْتُ الرُّبَى وَأَنْتَ الْغَمَامُ^(٢)

يقول المتنبي في استفهام رائع للأمير: كيف ترحل عنا؟ نحن لا يمكننا
العيش إلا بك؛ لأنك كالغمام الذي يحمي الأرض بعد موتها ونحن كالنبت الذي
لا حياة له بغير الغمام.

وقال في حسنه وبهائه وكرمه:

كَالْبَدْرِ مِنْ حَيْثُ التَّقَاتِ رَأَيْتَهُ * يُهْدِي إِلَى عَيْنِكَ نَوْرًا ثاقِبًا

كَالْبَحْرِ يَقْدِفُ لِلْقَرِيبِ جَوَاهِرًا * جُودًا وَيَبْعَثُ لِلْبَعِيدِ سَحَابًا

كَالشَّمْسِ فِي كِبَدِ السَّمَاءِ وَضَوْوُهَا * يَغْشَى الْبِلَادَ مَشَارِقًا وَمَغَارِبًا^(٣)

وقال:

أَرَى كُلَّ ذِي مُلْكٍ إِلَيْكَ مَصِيرُهُ * كَأَنَّكَ بَحْرٌ وَالْمُلُوكُ جَدَاوِلُ^(٤)

وتكمن بلاغة التشبيهات عند المتنبي في كونه يرسم صورته التشبيهية
ممزوجة بشيء من الخيال بعيدة المرمى توضح الشيء وتقرب صورته في
الأذهان.

وقد مدح الشعراء الأمير بصور تشبيهية جميلة، ومن ذلك ما قاله

البيغاء.

نَدَاكَ إِذَا ضَنَّ الْغَمَامُ غَمَامٍ * وَعَزَمَكَ إِنْ فُلَّ الْحُسَامُ حُسَامًا^(٥)

(١) المصدر السابق، ج١، ص ٢٨٢

(٢) ديوان المتنبي، شرح البرقوقى، ج٣، ص ٢٤٣

(٣) بيتمة الدهر، ج١، ص ٢٣٢

(٤) المصدر السابق، ص ٢٣

(٥) بيتمة الدهر، ج١، ص ١١

وقال الصنوبري في الحمدانيين:

مَتَى عُدَّ الْكَوَاكِبُ مِنْ مَعَدٍّ * فَأَنْكُمُ شَمُوسٌ لَا بَدُورٌ^(١)

وقال ابن نباته واصفاً همة الأمير:

فَتَى يَتَحَاشَى لَذَّةَ النَّوْمِ جَفْنَهُ * كَأَنَّ لَذِيذَ النَّوْمِ فِي جَفْنِهِ قَذَى^(٢)

وقال أبو فراس في الدمستق وقد هرب من ميدان المعركة تاركاً ابنه:

فَدَى نَفْسَهُ بِأَبْنٍ عَلَيْهِ كَنَفْسِهِ * وَلِلشِدَّةِ الصَّمَاءِ تُقْنَى الذَّخَائِرُ^(٣)

وقال مفتخرًا:

لَا أَقْتَنِي لِصُرُوفِ دَهْرِي عُدَّةً * حَتَّى كَأَنَّ صُرُوفَهُ أَحْلَافِي^(٤)

وقال السري في الأمير:

هُوَ الْحَيَا وَالغِنَى مَا انْهَلَّ عَارِضُهُ * وَهُوَ الرَّدَى مَا ارْتَدَى بِالسَّيْفِ وَالْعَدَمُ^(٥)

وقال النامي:

أَطَعْتَ الْعِلَا حَتَّى كَأَنَّكَ عَبْدُهَا * وَإِنْ كُنْتَ مَوْلَاهَا وَكُنْتَ لَهَا ابْنُهَا^(٦)

استخدم شعراء الأمير التشبيه في وصف مظاهر الحياة الاجتماعية

فوصفوا الشموع والأقلام والمروحة والحمام وغيره.

قال السري الرفاء في وصف شمعة:

مَفْتُولَةٌ مَجْدُولَةٌ * تَحْكِي لَنَا قَدَّ الْأَسَلِ

كَأَنَّهَا عُمُرُ الْفَتَى * وَالنَّارُ فِيهَا كَالْأَجَلِ^(٧)

يصف الشاعر الشمعة بأنها محكمة تحكي في قامتها الرمح المستقيم

وكانها في سرعة احتراقها عمر الفتى الذي يموت وهو غض الشباب وشبه النار

التي تستعر فيها بالأجل المحتوم.

(١) ديوان الصنوبري، ص ٧٤

(٢) يتيمة الدهر، ج ٢، ص ٤٥٨

(٣) المصدر السابق، ج ١، ص ٥١

(٤) شرح ابن خالويه، ص ٦٩

(٥) ديوان السري، ص ٢٤٥

(٦) يتيمة الدهر، ج ١، ص ٢٨٣

(٧) ديوان السري، ص ٢٢٩

وقال:

برك تجلت بالكواكب أرضها * فارتد وجه الأرض وهو سماء^(١)
فالشاعر هنا أسرت نفسه صورة الكواكب التي بدت على سطح الماء
فصار وجه الأرض في البركة سماء.
وقال واصفاً أشعاره:

كانها نفس الريحان يمزجه * صبا الأصائل من أنفاس توّ
وقال الصنوبري:

وردأً بدا يحكي الخدود ونرجس * يحكي العيون إذا رأّت أحبابها^(٢)
وقال السرى الرفاء يصف نارنجة:

وبديعة أضحى الجمال شعارها * صَبَغَ الحياءُ رِداءَها وإزارها
فكأنها في الكفّ وَجَنَّةُ عاشِقٍ * عَبَثَ الحياءُ بها فأضرمَ نارها
وكأنما صافحتَ منها جَمْرَةً * أَمَنْتَ يَمِينُكَ حَرَّها وشرارها^(٣)
وقال الوأواء:

لا تُتَكِرِي ما بي فَلَيْسَ بِمُنْكَرٍ * عِنْدَ التَّفَرُّقِ حَيْرَةٌ المُتَحَيِّرِ
ها هذه رُوحِي إِلَيْكَ هَدِيَّةً * فَتَجَمَّلِي فِي أَخْذِها أَوْ فاعْذِرِي
وتَأَمَّلِي غَيْرَ الزَّمَانِ فَإِنَّهُ * يَحْكِي تَغْيِيرَ عَهْدِكَ المُتَغَيِّرِ
فَلَرُبَّ لَيْلٍ ضَلَّ عَنْهُ صَباحُهُ * فَكَأَنَّه بِكَ خَطرَةٌ المُتَفَكِّرِ^(٤)

يكمن سر إبداع هذا الشاعر الذي تفرد في كثير من الأحيان على أقرانه
من الشعراء بتشبيهاته البارعة، وأصيلته الرائعة، وابتكاراته الفائقة، وهو مطبوع
على رسم صور تشبيهية يعقد فيها المشابهة بين شيئين أو حالين ما كان يخطر
بالبال تشابههما. ومن ذلك قوله:

(١) ديوان السرى، ص ٩

(٢) ديوان الصنوبري، ص ٤٥٤

(٣) ديوان السرى، ص ١٤٢

(٤) ديوان الوأواء، ص ١٠٧، ١٠٨

وليلٍ طويلٍ كانَ لَمَّا قَرَنَتْهُ * بِرؤيةٍ من أهوى قصيرِ الجوانبِ
كخفقةٍ قلبٍ أو كقُبلةٍ عاشقٍ * عَلَى حَذَرٍ أو رَدِّ طَرْفِ المراقبِ
كواكبِهِ تبكي عليه كأنَّما * تُكَلِّنُ الدُّجَى أو ذُقْنَ هجرَ الحبابِ^(١)

كان شعراء الأمير يتفنون في إخراج صورهم التشبيهية ويتلاعبون بالخيال في حشد صور متعددة في بيت واحد.

وشعر المتنبي - أحياناً - يوافق بعض الحقائق العلمية التي أثبتتها العلماء حديثاً، وذلك مثل قوله:

تكسب الشمس منك النور طالعة * كما تكسب منها نوره القمر^(٢)
ولا شك في أن الخيال الواسع الخصيب من المعينات التي تجوز بالشاعر إلى ما وراء المسلمات اللغوية، فيتجاوز الشاعر حدود الواقع المادي إلى خيال مبدع يماثل بين الأشياء ويوفق بينها، بحيث أننا نحس بأن وجه الشبه في الصورة التمثيلية صورة منتزعة من متعدد.

قال المتنبي في سيف الدولة:

فبت ليالياً لا نوم فيها * تحف بك المسومة الحرابا
يهز الجيش حولك جانبيه * كما نفضت جناحها العقاب^(٣)
شبه المتنبي ميمنة جيش الأمير سيف الدولة وميسرته وما فيهما من حركة واضطراب بصورة عقاب تنفض جناحها.

وقال أبو فراس:

والماء يفصلُ بينَ زهـ * برِ الرَوْضِ في الشَّطِينِ فَصَلا
كِبْسَاطٍ وَشَيِّ جَرَدَت * أَيدي القُيُونِ عَلَيْهِ نَصَلا
وقال أحد الخالدين:

وتمائلُ الجوزاءِ يحكي في الدُّجَى * مِيلانَ شاربِ قَهْوَةٍ لَمْ تُمَرِّجِ
وَتَنَقَّبَتْ بِخَفِيفِ غَيْمٍ أَبْيَضِ * هِيَ فِيهِ بَيْنَ تَخْفَرٍ وَتَبَرِّجِ

(١) ديوان الوأواء، ص ٢٦

(٢) يتيمة الدهر، ج ١، ص ١٧٠

(٣) ديوان المتنبي، بشرح العكبري، ج ١، ص ٧٦

كَتَنَفْسِ الْحَسَنَاءِ فِي الْمِرَاةِ إِذْ * كَمَلَتْ مَحَاسِنَهَا وَلَمْ تَتَزَوَّجِ (١)

ذلك أن الحسناء التي تمت محاسنها ولم تتزوج متى رأت جمالها في المرآة تهتت، فيغشى المرآة غيم رقيق يلوح وجهها من تحته كالبدر في نقابة العتم.

وقال الواواء:

وَالْبَدْرُ أَوْلَ مَا بَدَا مُتَأْتِمًا * يُبْدِي الضِّيَاءَ لَنَا بِخَدِّ مُسْفِرِ

فَكَأَنَّمَا هُوَ خُوذَةٌ مِنْ فِضَّةٍ * قَدْ رُكِبَتْ فِي هَامَةٍ مِنْ عَنَبِرِ (٢)

ومن الأساليب التي لا نستطيع أن نغفل عنها في شعر شعراء الأمير سيف الدولة الأساليب المنطقية ومنها التشبيه الضمني. ولا شك في أن الذي حققته التحولات الحضارية من تطور في الأذواق، ورهافة في الحس، وما ارتادته الحياة العقلية الجديدة في هذا العصر من آفاق فكرية ومنطقية، ترك آثاره في نفوس الشعراء، فتوسعت عندهم مدارك التخيل، والتصوّر، والتمثيل، فتطلعوا إلى آفاق ذهنية جديدة، هذا إلى جانب قدرتهم بالإتيان بالصور الحسية.

قال أبو فراس وهو في الأسر:

سَيَذْكُرُنِي قَوْمِي إِذَا جَدَّ جِدُّهُمْ * وَفِي اللَّيْلَةِ الظُّلَمَاءِ يُفْتَقَدُ الْبَدْرُ (٣)

وقال:

وَلَوْ سَدَّ غَيْرِي مَاسَدَتْ إِكْتَفَاؤًا بِهِ * وَمَا كَانَ يَغْلُو التَّبِيرُ لَوْ نَفَقَ الصُّفْرُ (٤)

قال أبو فراس: إن قومي لن يجدوا من يسد مسدى في الحرب ومن يقوم مقامي في المجتمع وهل يغني الوضع عن الرفيع؟ فإن النحاس الرخيص في قيمته لا يحل محل الذهب الثمين الغالي.

وقال:

تَهَوَّنْ عَلَيْنَا فِي الْمَعَالِي نُفُوسُنَا * وَمَنْ خَطَبَ الْحَسَنَاءَ لَمْ يُغْلِهَا الْمَهْرُ (١)

(١) ديوان الخالدين، ص ٢٤

(٢) ديوان الواواء، ص ١٠٨

(٣) شرح ابن خالويه، ص ١٦١

(٤) المصدر السابق

يقول نحن قوم نبذل أرواحنا رخيصة من أجل ارتقاء المعالي وبلوغ
الغايات الساميات كما يبذل خاطب الحساء المهر غالياً.

وقال المتنبي مخاطباً سيف الدولة:

فإن تفق الأنام وأنت منهم * فإن المسك بعض دم الغزال^(٢)

وقال فيه -أيضاً- مخاطباً من يستعجب من بلوغ الأمير تلك المكانة

السامية:

خذ ما تراه ودع شيئاً سمت به * في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل^(٣)

وقال في إباء الضيم:

من يهن يسهل الهوان عليه * بالجرح بميت إيلام^(٤)

يقول المتنبي: إن الذي يعود نفسه على تحمل الذل وتقبله يسهل عليه

تحمله ولا يتألم لذلك فالميت إذا جرح لا يتألم.

ويدخل في الأساليب المنطقية حسن التعليل.

ومن أبلغ ما قيل في حسن التعليل قول ابن نباتة السعدي في فرس أهده

له سيف الدولة:

وأدهم يستمدُّ الليلُ منه * وتطلع بين عينيه الثريا

سرى خلف الصباح يطير مشياً * ويطوي خلفه الافلاك طياً

فلما خاف وشك الفوت منه * تشبث بالقوائم والمحييا^(٥)

يدعي الشاعر علة أدبية طريفة للبياض الذي كان على جبين الفرس

وفي قوائمه وقال أنه لم يكن طبيعة خلق بها وإنما كان ذلك الفرس يسابق

الصباح ولما خاف الصباح أن يسبقه الفرس مسك بجهته وقوائمه حتى يمنعه

السبق وقال ابن نباتة -أيضاً-:

(١) شرح ابن خالويه، ص ١٦١

(٢) بيتمة الدهر، ج ١، ص ١٦٢

(٣) ديوان المتنبي، شرح العكبري، ج ٣، ص ٨١

(٤) المصدر، السابق، ج ١، ص ٢٥٠

(٥) بيتمة الدهر، ج ٢، ص ٤٦٢-٤٦٣

لم يزلُ جودُهُ يجورُ على الما * ل الى أن كسا النُّصارَ اصْفِراراً
* الاستعارة:

من الأساليب الراقية التي أكثر من استخدامها شعراء الأمير سيف الدولة الاستعارة. فهي من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها ونزلت موضعها؛ لأنها تكسب المعنى قوة وجمالاً وروعة تأثير. كما تبرز الأفكار في لوحات ذهنية تصويرية بديعة تبدو على صفحاتها ملامح الفن والإبداع... وتخلق بالسامع في سماء الخيال فتصور له الجماد حياً ناطقاً والزهر باسماء والماء ضاحكاً، إلى غير ذلك من الصور الجميلة التي رسمتها يد الاستعارة فرفعتها إلى أعلى مراتب الجمال^(١).

من أهم خصائصها ومميزاتها: الترتيب؛ والتجميل، والاختصار والإيجاز والجدة والإيضاح^(٢).

انظر قول الوأواء دمشقي:

وَأَمْطَرْتُ لَوْلُؤًا مِنْ نَرْجِسٍ وَسَقَّتْ * وَزِدًا وَعَضَّتْ عَلَى الْغَنَابِ بِالْبَرْدِ^(٣)

استعار الشاعر اللؤلؤ للدمع، والنرجس للعيون، والورد للخدود، والعقاب للشفاة، والبرد للأسنان.

قال أحد الخالدين شاكرًا الأمير سيف الدولة:

خَوَّلْتَنَا شَمْسًا وَبَدْرًا أَشْرَقَتْ * بِهِمَا لَدَيْنَا الظُّلْمَةُ الْحَنْدِيسُ^(٤)

استعار البدر للوصيف والشمس للوصيفة.

وقال المتنبي يصف دخول رسول ملك الروم على سيف الدولة:

وَأَقْبَلَ يَمْشِي فِي الْبَسَاطِ فَمَا دَرَى * إِلَى الْبَحْرِ يَمْشِي أَمْ إِلَى الْبَدْرِ يَرْتَقِي^(٥)

(١) راجع الاستعارة نشأتها وتطورها، لمحمود السيد شيخون، مكتبة الكليات الأزهرية، ط٢، ١٤٠٤هـ -

١٩٨٤م، ص ١٠٣ بتصرف

(٢) البلاغة فنونها وأفنانها، ص ٤٣٤

(٣) ديوان الوأواء، ص ٨٤

(٤) يتيمة الدهر، ج١، ص ٤٥

(٥) ديوان المتنبي، ج٢، ص ٣١٢

استعار المتنبي للأمير لفظتين الأولى البحر والثانية البدر وذلك ليوضح مدى كرمه وعطائه ومدى سموئه وبهائه.

وقال في مدح الأمير أيضاً:

أَمَا تَرَى ظَفَرًا حُلُومًا سِوَى ظَفَرٍ * تَصَافَحَتْ فِيهِ بَيْضُ الْهِنْدِ وَاللِّمَمِ (١)

حذف المتنبي المشبه وهو "تلاققت" بادعاء أن المشبه به هو المشبه.

وقال فيه:

أُحِبُّكَ يَا شَمْسَ الزَّمَانِ وَبَدْرَهُ * وَإِنْ لَامَنِي فِيكَ السُّهَى وَالْفِرَاقِدُ (٢)

شبهه بالشمس والبدر في الرفعة والعلو، وشبه من هم دونه بالسها والفرقاد.

قال المتنبي في مدح سيف الدولة:

أَلَا أَيُّهَا السَّيْفُ الَّذِي لَيْسَ مَغْمَدًا * وَلَا فِيهِ مِرْيَابٌ وَلَا مِنْهُ عَاصِمٌ (٣)

وقال أبو فراس في رثاء ابنه الأمير:

هَلْ تَبْلُغُ الْقَمَرَ الْمَدْفُونَ رَائِعَةً * مِنْ الْمَقَالِ عَلَيْهَا لِلْأَسَى حُلٌّ؟
أَيْنَ اللَّيْثِ الْتِي حَوْلِكَ رَابِضَةً * أَيْنَ الصَّنَائِعُ أَيْنَ الْأَهْلِ مَا فَعَلُوا؟
أَيْنَ السُّيُوفِ الْتِي يَحْمِيكَ أَقْطَعُهَا * أَيْنَ السَّوَابِقُ أَيْنَ الْبَيْضِ وَالْأَسَلُ (٤)

قال المتنبي:

الْمَجْدُ عَوْفِي إِذْ عَوْفِيَتِ وَالْكَرْمُ * وَزَالَ عَنكَ إِلَى أَعْدَائِكَ الْأَلْمُ
صَحَّتْ بِصِحَّتِكَ الْغَارَاتُ وَابْتَهَجَتْ * بِهَا الْمَكَارِمُ وَأَنْهَلَتْ بِهَا الدِّيمُ (٥)

وقال أبو فراس:

أَرَاكَ عَصِيَّ الدَّمْعِ شَيْمَتَكَ الصَّبْرُ * أَمَا لِلْهَوَى نَهْيٌ عَلَيْكَ وَلَا أَمْرُ
إِذَا اللَّيْلُ أَضْوَانِي بَسَطَتْ يَدَ الْهَوَى * وَأَدْلَلْتُ دَمْعًا مِنْ خَلَائِقِهِ الْكِبْرُ (٦)

(١) ديوان المتنبي، شرح البرقوق، ج٤، ص ٨٢

(٢) يتيمة الدهر، ج١، ص ٣٩

(٣) ديوان المتنبي، ج٣، ص ٣٩٢

(٤) شرح ابن خالويه، ص ٢٠٥

(٥) ديوان المتنبي، شرح العكبري، ج١، ص ٣٧٥

(٦) شرح ابن خالويه، ص ١٥٧

وقال:

وَلَا رَاحَ يُطغِينِي بِأَثوابِهِ الغِنَى * وَلَا باتَ يَتِينِي عَنِ الكَرَمِ الفَقْرُ^(١)

وقال:

يَقولونَ لي بَعَثَ السَّلَامَةَ بِالرَدَى * فَقلْتُ أَمَا وَاللَّهِ ما نالني خُسْرُ^(٢)

وقال:

وَتَعافُ لي طَمَعَ الحَرِيسِ أُبوْتِي * وَمُروعَتِي وَقَناعَتِي وَعِفاْفِي^(٣)

وقال كشاجم في مدينة حلب:

أرْتَكُ يَدَ الغَيْثِ آثارَها * وَأَعْلَنْتُ الأَرْضَ أسرارَها

يُفْتَحُ فِيها نَسِيمُ الصَّبَا * جَناها فِيها فِيهْتِكُ أسْتارَها

تَغْضُ لِنَرْجِسِها أَعْيُنًا * وَطَوْرًا تُحَدِّقُ أَبْصارَها^(٤)

ومن مظاهر التصوير عند شعراء الأمير التشخيص والتجسيم في المعنويات وبث الحركة والحياة في الجمادات فتحول الصورة من شكل صامت إلى شكل متحرك... وإن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها قد جسّمت حتى رأتها العين^(٥).

وقال كشاجم واصفاً الثلج عند نزوله:

الثَّلْجُ يَسْنَقُطُ أَمْ لُجَيْنٌ يُسْبِكُ * أَمْ ذَ حَصَى الكَافُورِ ظَلٌّ يُفَرِّكُ

شَابَتْ مَعارِفُها فَبَيَّنَ ضِحْكَها * طَرَبًا وَعَهْدِي بِالْمَشِيبِ يُنَسِّكُ^(٦)

قال الواواء واصفاً شجاعة الأمير:

إلى مَنْ يَرى أَنَّ الدَرُوعَ غلائِلُ * وَأَنَّ رِكابَ المَوْتِ خَيْرُ المَراكِبِ

فَتَى أَلْبَسَ الأَيامَ ثوبَ شَبِيبَةٍ * وَكانتُ قَدِماً في جَلابِيبِ شائِبِ

(١) المصدر السابق، ص ١٦٠

(٢) المصدر السابق

(٣) المصدر السابق

(٤) ديوان كشاجم، ص ١٧٧ وما بعدها

(٥) أسرار البلاغة، لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، تحقيق محمد عبد العزيز النجار،

مطبعة الترقى، د. ت، ص ٤٣

(٦) المصدر السابق، ص ٣٠٧، ٣٠٤

وَقَدْ كَتَبْتُ أَيْدِي الْمَنَايَا وَأَعْرَبْتُ * إِذَا خَطَرَ الْخَطِّيُّ بَيْنَ الْكُتَائِبِ
تَنْظُلُ الْمَنَايَا تَحْتَ ظِلِّ سَيُوفِهِ * بِشَكْلِ الْعَوَالِي فَوْقَ خَطِّ الْقَوَاضِبِ
إِذَا أَبْرَقَتْ ضَرْبًا سَيُوفُكَ أَمْطَرْتُ * رُؤُوسَ الْأَعَادِي فَوْقَ أَرْضِ الْمَصَائِبِ
تَمُرُّ بِكَ الْأَيَّامُ وَهِيَ شَوَاهِدٌ * بِأَنَّكَ مَا أَبْقَيْتَ عَتَبًا لِعَاتِبٍ^(١)

من الأساليب التي برع شعراء الأمير في استخدامها أسلوب الكناية.

مما لا شك فيه أن للكناية دور حيوي في التعبير الأدبي، ووظيفتها ترتبط كثيراً بالإقناع العقلي وإثبات الصفة بإثبات دليلها فهي: أقرب إلى الحجاج العقلي من التعبير الوجداني. "فالكناية بنت الفكر بينما التشبيه والاستعارة من بنات الوجدان"^(٢).

الكناية فن تعبيرى والخفاء والغموض فيها مظهر فني: وهي غاية لا يصل إليها إلا من لطف طبعه وصفت قريحته. يكمن جمالها في كثرة أوجه دلالاتها سواء أكان ذلك بالتعريض أم بالإشارة أم بالرمز^(٣). وليس معنى ذلك أنك إذا كنييت عن المعاني زدت في ذاتها بل أنك زدت في إثباتها فجعلتها أبلغ، وأكد، وأشد^(٤).

استخدم شعراء الأمير أسلوب الكناية في تصوير آفاق الحياة في دولة الأمير وأكثرها من وصف انتصاراته على أعدائه وخاصة الروم. قال المتنبي في وصف بني كلاب بعد أن صدهم سيف الدولة وأرجعهم إلى ملكه:

فَمَسَّاهُمْ وَبَسَطَهُمْ حَرِيرٌ * أَمْ ذَا حَصَى الْكَافُورِ ظِلٌّ يُفَرِّكُ
وَصَبَّحَهُمْ وَبَسَطَهُمْ تُرَابٌ^(٥) * طَرِبًا وَعَهْدِي بِالْمَشِيبِ يُنْسِكُ^(٦)

(١) ديوان الواواء، ص ٢٠ وما بعدها

(٢) التشبيه والكناية بين التطبيق والنظرية، لعبد الفتاح عثمان، مكتبة الشباب، د.ت، ص ١٧٣

(٣) علم البيان، لبيدي طبانة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٢م، ص ١٧٣ - ١٧٥

(٤) دلائل الإعجاز، للشيخ الإمام أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، علق عليه محمود

محمد شاكر، مطبعة المدني، د.ت، ص ٥٨، بتصرف

(٥) شرح العكبري، ج ١، ص ٨٥

(٦) المصدر السابق، ص ٣٠٧، ٣٠٤

وصفهم الشاعر بأنهم كانوا يرفلون في عيش رغيد وكنى عن ذلك بقوله: "بسطهم حرير" وهي كناية عن صفة الترف والنعيم وفي قوله: "بسطهم تراب" كناية عن صفة الخراب والدمار التي تحولوا إليها. وقال:

مَنْ كَانَ فَوْقَ مَحَلِّ الشَّمْسِ مَوْضِعَهُ فَلَيْسَ يَرْفَعُهُ شَيْءٌ وَلَا يَضَعُهُ^(١)
ففي البيت كناية عن صفة السمو والعلو.

والمقصود أن سيف الدولة هو سيف الدولة لا ينقص من قدره أنه انتصر أم أنه أخفق مرة من المرات.

وكتب أبو فراس إلى سيف الدولة من الأسر:

مَتَى تُخَلِّفُ الْأَيَّامُ مِثْلِي لَكُمْ فَتَى * طَوِيلَ نِجَادِ السِّيفِ رَحْبَ الْمُقَلَّدِ^(٢)
قال أبو فراس في سيف الدولة وناصر الدولة:

هُمَا وَآمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مُشَرَّدٌ * أَجَارُهُ لَمَّا لَمْ يَجِدْ مَنْ يُجَاوِرُ
وَرَدَّاهُ حَتَّى مَلَّكَاهُ سَرِيرَهُ * بَعِشْرِينَ أَلْفًا بَيْنَهَا الْمَوْتُ سَافِرُ^(٣)
وقال:

وَنَحْنُ أَنَاسٌ لَا تَوَسُّطَ عِنْدَنَا * لَنَا الصَّدْرُ دُونَ الْعَالَمِينَ أَوْ الْقَبْرِ^(٤)
فالصدر كناية عن السيادة والملك.

وقال: مخاطباً أمه وهو في الأسر:

وَعَابَ حَبِيبُ قَلْبِكَ عَن مَكَانٍ * مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ بِهِ حُضُورُ
حَرَامٌ أَنْ يَبِيتَ قَرِيرَ عَيْنٍ * وَلَوْ أَنَّ يُلِمُّ بِهِ السُّرُورُ^(٥)
"قرير عين" كناية عن صفة السعد.

(١) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٣٢

(٢) الديوان، ج ٢، ص ٧٩

(٣) شرح ابن خالويه، ج ١، ص ١١٢

(٤) المصدر السابق، ص ١٦١

(٥) ديوان أبي فراس، شرح وتعليق عباس إبراهيم، دار الفكر العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٤م، ص ٩٠

قال الوأواء عن الخيل التي أوصلت إلى سيف الدولة:
فلما أجزأها بساحة طاهر * زهبن بنا في مذهبات المذاهب
إلى كعبة الآمال والمطلب الذي * به خلئت أجياد عطل المواكب
في قوله "كعبة الآمال" كناية عن موصوف وهو سيف الدولة^(١).

وقال الصنوبري مصوراً انتصارات الأمير على الروم:
بأيمن طائر وأصح فال * وأسعد كوكب يغزو الأمير
يؤيد جيشه بجيوش نصر * تسير على النجاح إذا تسير
أمير أوسع الأمراء صدراً * إذا ضاقت بما تسع الصدور
أيا ابن القائمين بكل دهر * إذا قعدت ولم تقم الدهور^(٢)
• في قوله "أيمن طائر" وأسعد كوكب كناية عن صفة السعد والنصر
واليمين.

• وفي قوله "تسير على الجناح" كناية عن صفة السرعة.
• وفي قوله "أوسع الأمراء صدراً" كناية عن صفة اللحم.
• وفي قوله "ابن القائمين بكل دهر" كناية عن موصوف وهم بنو
حمدان.

وقال المنتبي في رثاء خولة شقيقة سيف الدولة:
أرى العراق طویل الليل مُذ نُعِيَتْ * فكيف ليل فتى الفتیان في حلب^(٣)
"طول الليل" كناية عن صفة الحزن والضيق والسهد.
وقال:

ومن في كفه منهم قنأة * كمن في كفه منهم خضاب^(٤)
كنى الشاعر عن جبنهم بقوله: "كمن في كفه منهم خضاب وهي كناية
عن موصوف مقصود به المرأة.

(١) ديوان الوأواء، ص ٢٠

(٢) ديوان الصنوبري، ص ٧٤

(٣) شرح العكبري، ج ١، ص ٨٦

(٤) شرح العكبري، ج ١، ص ٨٥

وقال كشاجم:

إذا مزنة سكت ماءها * لى بقعة أشعلت نارها^(١)
"فالنار" هنا "كنى بها الشاعر عن زهر الشقيق الذي تمتلئ به أرض
حلب في الربيع.

ومن صور الكناية وخواصها "التعريض" فالكناية تمكّن الأديب من أن
يقتص لنفسه ويشفي غليله من خصمه، دون أن يذكر اسمه أو يجعل له
سبيلاً.

ومن ذلك اخترنا قصيدة للمتنبى يمدح فيها كافوراً ويعرّض بسيف الدولة
فيقول:

رَحَلْتُ فَكَمَ بَاكِ بِأَجْفَانِ شَادِنِ * عَلَيَّ وَكَمَ بَاكِ بِأَجْفَانِ ضَيْغَمِ
فَلَوْ كَانَ مَا بِي مِنْ حَبِيبٍ مُقَنَّعٍ * عَذَرْتُ وَلَكِنْ مِنْ حَبِيبٍ مُعَمَّمِ^(٢)

قال عندما رحلت عن سيف الدولة بكى على فقدي الرجال والنساء
وصور ذلك بأسلوب الكناية في قوله "باك" بأجفان شادن يقصد المرأة الحسنة
وفي قوله "باك بأجفان ضيغم" يقصد الرجل الشجاع. ومغزى القول: إنه فزع
لارتحاله الرجال والنساء.

ويقول: فلو أن الذي غدر به حبيب مقنع "ويكنى بذلك عن موصوف
وهو المرأة" لعذر؛ لأن في رأيه الغدر من شيم النساء، لكن الذي به من حبيب
معمم. وحبيب معمم كناية عن موصوف وهو "سيف الدولة".

ومن الأساليب المجازية التي استخدمها شعراء الأمير "المجاز المرسل":
قال المتنبى:

مَا زِلْتُ تُتَّبِعُ مَا تَوَلَّى يَدًا بِيَدٍ حَتَّى ظَنَنْتُ حَيَاتِي مِنْ أَيَادِيكَ^(٣)

"الأيادي" هنا استخدمت مجازاً لأن الشاعر قصد بها هنا "النعم"

وقال في الأمير أيضاً:

(١) ديوان كشاجم، ص ١٧٧.

(٢) شرح العكبري، ج ٤، ص ١٣٤

(٣) ديوان المتنبى، شرح البرقوقى، ج ٤، ص

فَعَلَّتْ بِنَا فِعْلَ السَّمَاءِ بِأَرْضِهِ * خَلَعُ الْأَمِيرِ وَحَقَّهُ لَمْ نَقْضِهِ

فالسماء هنا المقصود بها "السحاب" والعلاقة إما المحلية أو المجاورة،
والمجاورة في رأينا أولى.

وقال في سيف الدولة:

رَأَيْتُكَ مَحْضَ الْحِلْمِ فِي مَحْضِ قُدْرَةٍ * وَلَوْ شِئْتَ كَانَ الْحِلْمُ مِنْكَ الْمُهَنْدَا^(١)

يرى الشاعر أن الأمير لو أراد أن يجعل الحرب مكان الحلم لفعل
فالمجاز في لفظه المهند الذي يقصد به الشاعر الحرب، وذكر المهند لأنه آلة
الحرب فالعلاقة آلية.

من الأساليب التي لمسناها عند بعض شعراء الأمير الأسلوب الرمزي.
إن العديد من الناس يظنون أن الشعر الرمزي -خصيصة من خصائص
الشعر الغربي الرومانتيكي ويظن البعض أن العصور السابقة للعصر الحديث
من عصور الأدب العربي قد خلت من تلك الرمزية الممتعة، ولكننا نقول لهم:
إن شعراء الأمير سيف الدولة كانوا سابقين في هذا المجال بل في مجالات
أخرى متعددة تطرقنا إليها في أماكن مختلفة في هذا البحث.
قد كتب أبو فراس والمنتبي قصائد رمزية، تناقلتها الألسن ولكن حقيقة
تلك القصائد قد غابت عن الكثيرين حتى عن بعض ذوي الاختصاص في هذه
اللغة المطاطية الشاعرة.

من تلك القصائد قصيدة أبي فراس المشهورة والتي مطلعها:

أَرَاكَ عَصِيَّ الدَّمْعِ شِيمَتُكَ الصَّبْرُ * أَمَا لِلْهَوَى نَهْيٌ عَلَيْكَ وَلَا أَمْرُ^(٢)

ولعل هذا المطلع الرمزي الجميل، الذي يختلب الأبواب ويلفت انتباه
الذين يجيدون السباحة في بحور الشعر العربي، جاء متفرداً في المعنى وفي
التشخيص اللطيف الذي اعتدنا أن نجد له صوراً تكاد أن تكون متكررة في
العديد من المطالع وهي: أن يجرد الشاعر من نفسه شخصاً آخرأ يخاطبه -وهذا
أسلوباً معتاداً- أما شاعرنا هنا فقد عكس الصورة، وهنا يكمن سر جمال هذا

(١) ديوان المنتبي، شرح العكبري، ج ، ص

(٢) ديوان أبي فراس، رواية ابن خالويه، ص ١٥٧.

المطلع وتفرده؛ لأن الشاعر جرد من نفسه صاحباً وجعل ذلك صاحب المتخيل يخاطبه متسائلاً ومتعجباً ومستفهماً عن أمر صبره، وشدة جلده، وعصيان الدموع له، أمام ثورات العشق والهوى التي عادة ما تبعثر دواخل العشاق، فتختل موازين القوى والتماسك في نفوسهم، فيبدون في حالة من الوهن والضعف والاستسلام لا تخفى على الناظرين. ويجب أبو فراس بقوله:

بلى أنا مُشْتاقٌ وَعِنْدِي لَوْعَةٌ * وَلَكِنَّ مِثْلِي لَا يُدَاعُ لَهُ سِرٌّ
إِذَا اللَّيْلُ أَضْوَانِي بَسَطَتْ يَدَ الْهَوَى * وَأَنْذَلْتُ دَمْعاً مِنْ خَلَائِقِهِ الْكِبْرُ
تَكَادُ تُضِيءُ النَّارَ بَيْنَ جَوَانِحِي * إِذَا هِيَ أَدَكَّتْهَا الصَّبَابَةُ وَالْفِكْرُ^(١)

أهم ما يعنينا في هذا الحوار الجميل أن هذه الأبيات مدخلنا إلى الرمزية التي أردنا أن نوضحها في هذه القصيدة. فالشاعر أراد أن يوضح أنه إنسان مرهف تهزه نوائب الدهر وعواديته وتؤثر في دواخله -مثله مثل الآخرين-؛ ولأنه صبور جلد لا يبكي بدموع تثرى وإنما يبكي بدموع من المشاعر الشفيقة التي تختلج بين جوانحه وتضطرم في حناياه، حتى تكاد أن تضيء من شدة اتقادها. وقد عمد الشاعر إلى الرمزية في الأبيات الآتية فقال:

مُعَلَّلْتِي بِالْوَصْلِ وَالْمَوْتُ دُونَهُ * إِذَا مِتَّ ظَمَاناً فَلَا نَزَلَ الْقَطْرُ
حَفِظْتُ وَضَيَّعْتُ الْمَوَدَّةَ بَيْنَنَا * وَأَحْسَنَ مِنْ بَعْضِ الْوَفَاءِ لَكَ الْغَدْرُ
تَرَوُّعٌ إِلَى الْوَاشِينَ فِيَّ وَإِنَّ لِي * لِأُنْذَأُ بِهَا عَنْ كُلِّ وَاشِيَةٍ وَقُرُ
وَحَارِبْتُ قَوْمِي فِي هَوَاكِ وَإِنَّهُمْ * وَإِيَّايَ لَوْلَا حُبُّكَ الْمَاءُ وَالْخَمْرُ
فَإِنْ يَكُ مَاقَالَ الْوُشَاةُ وَلَمْ يَكُنْ * فَقَدْ يَهْدِمُ الْإِيمَانَ مَا شِيدَ الْكُفْرُ

يقول الشاعر يقول مخاطباً محبوبته رامزاً بذلك إلى الأمير سيف الدولة: ممنيتي باللقاء وأسيف الموت مشرعة دون ذلك فإن لم نلتق فما عاش من يهنأ بك من بعدي. وقد كان الأمير سيف الدولة يمئى الشاعر بالفداء، وكان الشاعر يأمل في أن يخلصه الأمير من أنياب الموت التي كانت تلوح له أشباحه صباح مساء.

(١) ديوان أبي فراس، رواية ابن خالويه، ص ١٥٧ وما بعدها.

ويرى البعض أن العلاقة بين الأمير والأمير الشاعر قد شابهها شيء من الشك والارتياب ويؤكد ذلك بخلاف ما لمسناه في هذه القصيدة قول الشاعر في قصيدة أخرى:

أَمِنْ بَعْدِ بَذْلِ النَّفْسِ فِيمَا تُرِيدُهُ * أَثَابُ بِمُرِّ الْعَتَبِ حِينَ أَثَابُ
وَأَبْطَأَ عَنِّي وَالْمَنَايَا سَرِيعَةً * وَلِلْمَوْتِ ظُفْرٌ قَدْ أَطْلَّ وَنَابُ

وقوله أيضاً في موضع آخر:

زَمَانِي كُلُّهُ غَضَبٌ وَعَتَبٌ * وَأَنْتَ عَلَيَّ وَالْأَيَّامُ إِلْبُ
فَلَا تَحْمِلْ عَلَيَّ قَلْبَ جَرِيحٍ * بِهِ لِحَادِثِ الْأَيَّامِ نَدْبُ
أَمِثْلِي تُقْبِلُ الْأَقْوَالُ فِيهِ * وَمِثْلَكَ يَسْتَمِرُّ عَلَيْهِ كِذْبُ
فَلَمَّا حَالَتْ الْأَعْدَاءُ دُونِي * وَأَصْبَحَ بَيْنَنَا بَحْرٌ وَدَرْبُ
ظَلَلْتَ تَبَدَّلُ الْأَقْوَالُ بَعْدِي * وَيَبْلُغُنِي إِغْتِيَابُكَ مَا يُغِبُّ
فَقُلْ مَا شِئْتَ فِيَّ فَلَئِنْ لِسَانُ * مَلِيءٌ بِالنِّثَاءِ عَلَيْكَ رَطْبُ
وَعَامِلُنِي بِإِنصَافٍ وَظُلْمٍ * تَجِدُنِي فِي الْجَمِيعِ كَمَا تُحِبُّ^(١)

وقال:

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو غُصْبَةً مِنْ عَشِيرَتِي * يُسَيِّوُونَ لِي فِي الْقَوْلِ غَيْباً وَمَشْهَدًا^(٢)

لا شك في أن بلاط الأمير كان مشحوناً بالدسائس والوشايا وقد يكون الطريق سهلاً أمام الوشاة إذا ما أرادوا حوك الدسائس بينهما، وقد أفادت بعض المصادر بأن: أبا فراس كتب إلى سيف الدولة من الأسر يقول: "مفاداتي أن تعذرت عليك فأذن لي في مكاتبة أهل خراسان ومراسلتهم ليفادوني وينوبوا عنك في أمري". فأجابه سيف الدولة قائلاً: وَمَنْ يَعْرِفُكَ بِخِرَاسَانَ، فَرَدَّ عَلَيْهِ أَبُو فِرَاسٍ قَائِلاً:

وَإِنَّ خُرَاسَانَ إِنْ أَنْكَرَتْ * عَلَايَ فَقَدْ عَرَفْتَهَا حَلْبُ
وَمِنْ أَيْنَ يُكْرِنُنِي الْأَبْعَدُونَ * أَمِنْ نَقْصٍ جَدًّا أَمِنْ نَقْصِ أَبٍ^(٣)

(١) ديوان أبي فراس، رواية ابن خالويه، ص

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

قد تطرق أبو فراس لذات المعنى في قصيدته الرمزية مسهباً في القول ومعتزاً بشجاعته ومفتخراً بفروسيته ومؤكداً شهرته وقد وجد الشاعر في التباين الرمزي الملاذ الآمن لمعانيه التي قد تجر عليه ما لا يحمد عقباه إذا ما صاغها في أسلوب تقريرى مباشر وصريح، وذلك في قوله:

فَلَا تُكْرِنِي يَا ابْنَ الْعَمِّ إِنَّهُ * لِيَعْرِفُ مَنْ أَنْكَرْتَهُ الْبَدُوَ وَالْحَضْرُ
وَلَا تُكْرِنِي إِنِّي غَيْرُ مُنْكَرٍ * إِذَا زَلَّتِ الْأَقْدَامُ وَاسْتَنْزَلَ النَّصْرُ
تُسَائِلُنِي مَنْ أَنْتَ وَهِيَ عَلِيمَةٌ * وَهَلْ بِفَتَى مِثْلِي عَلَى حَالِهِ نُكْرٌ^(١)

وملامح الرمزية في هذه الأبيات تبدو في أوضح وأبهى صورة لها. وقد جرت عادة أبي فراس على أن يبدأ قصائده في الفخر بالنسيب، وكان يختار محبوبته -دائماً- من قبيلة بني عامر فيقول -على سبيل المثال- العامرية... ولكنه في هذه الرومية اختارها "ابنة عمه" عله بذلك قصد تقريب خطوط الصورة الرمزية وتبيين ظلالها؛ لتكون أكثر وضوحاً في ذهن المتلقي.

لم يكن ما سقنا أبيات هي الشواهد وحدها بل هناك العديد من الأبيات

التي تشير إلى هذه الرمزية في القصيدة ومنها قوله:

فَقَالَتْ لَقَدْ أَرَى بِكَ الدَّهْرُ بَعْدَنَا * فَقُلْتُ مَعَاذَ اللَّهِ بَلْ أَنْتِ لَا الدَّهْرُ
وَمَا كَانَ لِأَحْزَانِ لَوْلَاكَ مَسَلْكَ * إِلَى الْقَلْبِ لَكِنَّ الْهَوَى لِلْبَلَى جِسْرُ
وَتَهْلِكُ بَيْنَ الْهَزْلِ وَالْجَدِّ مُهْجَةٌ * إِذَا مَا عَادَاها الْبَيْنُ عَذَّبَهَا الْهَجْرُ
فَأَيْقَنْتُ أَنْ لَا عَزْ بَعْدِي لِعَاشِقٍ * وَأَنْ يَدِي مِمَّا عَلَقْتَ بِهِ صَفْرُ
وَقَلَّبْتُ أَمْرِي لَا أَرَى لِي رَاحَةً * إِذَا الْبَيْنُ أَنْسَانِي أَلْحَ بِي الْهَجْرُ
فَعُدْتُ إِلَى حُكْمِ الزَّمَانِ وَحُكْمِهَا * لَهَا الذَّنْبُ لَا تُجْزَى بِهِ وَلِي الْعُذْرُ

الصورة الرمزية في هذه الأبيات لا تحتاج إلى شرح وتفصيل، وعلى

المتأمل الرائي أن يلمح المعنى الذي يقفز إلى الذهن من كل بيت من الأبيات.

فالشاعر أيقن من بعد هذه التجربة المريرة التي عاشها، أن العز لا يدوم،

وأنه صار صفر اليدين مما علقته به يدها من حياة الترف الرغيد، وعيشة النعيم

(١) ديوان أبي فراس، رواية ابن خالويه، ص ١٥٨.

السعيد، وأبهة الملك البهيج. فقال مخاطباً الأمير الذي كانت بيديه صروف الأمر -كله- إن شاء جد وإن شاء ماطل، ولا يستطيع أحد أن يعاتبه في ذلك أو يعاقبه؛ ولذا لم يكن أمام الشاعر سوى إيجاد العذر له وخضوعه إلى حكمه.

وأخيراً قال معزياً نفسه ومؤاسيها:

وَأَنِّي لَجَزَّارٌ لِكُلِّ كَتِيْبَةٍ * مَعْوَدَةٌ أَنْ لَا يُخِلَّ بِهَا النَّصْرُ
فَأَظْمَأُ حَتَّى تَرْتَوِي الْبَيْضَ وَالْقَنَا * وَأَسْغَبُ حَتَّى يَشْبَعَ الذَّنْبُ وَالنَّسْرُ
وَلَا أَصْبِحُ الْحَيَّ الْخَلُوفَ بَغَارَةً * وَلَا الْجَيْشَ مَا لَمْ تَأْتِهِ قَبْلِي النَّذْرُ
وَسَاحِبَةَ الْأَذْيَالِ نَحْوِي لَقَيْتُهَا * فَلَمْ يَلْقَهَا جَافِي اللَّقَاءِ وَلَا وَعْرُ
وَهَبْتُ لَهَا مَا حَازَهُ الْجَيْشُ كُلُّهُ * وَرُحْتُ وَلَمْ يُكْشَفْ لِأَبْيَاتِهَا سِتْرُ
وَلَا رَاحَ يُطْغِينِي بِأَثْوَابِهِ الْغَنَى * وَلَا بَاتَ يَتْنِينِي عَنِ الْكِرَمِ الْفَقْرُ
أَسْرْتُ وَمَا صَحْبِي بِغَزَلٍ لَدَى الْوَعَى * وَلَا فَرَسِي مَهْرٌ وَلَا رَبُّهُ غَمْرُ
وَقَالَ أَصِيحَابِي الْفِرَارُ أَوْ الرَّدَى * فَقُلْتُ هُمَا أَمْرَانِ أَحْلَاهُمَا مُرُ
وَلَكِنِّي أَمْضِي لِمَا لَا يُعْيِبُنِي * وَحَسْبُكَ مِنْ أَمْرَيْنِ خَيْرُهُمَا الْأَسْرُ
يَمْنُونَ أَنْ خَلُّوا نِيَابِي وَإِنَّمَا * عَلَيَّ نِيَابٌ مِنْ دِمَائِهِمْ حُمْرُ
هُوَ الْمَوْتُ فَاخْتَرْتُ مَا عَلَا لَكَ ذِكْرُهُ * فَلَمْ يَمِتِ الْإِنْسَانُ مَا حَيِّي الذِّكْرُ وَنَحْنُ أَنْاسُ
لَا تَوْسُطَ عِنْدَنَا * لَنَا الصَّدْرُ دُونَ الْعَالَمِينَ أَوْ الْقَبْرُ

مما يؤكد لجوء أبي فراس إلى الرمزية التي كان يعني بها الأمير لجوءه في آخر القصيدة إلى استخدام الأسلوب التقريري منوهاً بشجاعته، ومعتزلاً بفروسيته، ومشيداً بمواقفه النبيلة، ومتفاخراً بما كان يتحلى به من أخلاق سامية وقيم رفيعة موضحاً مراعاته لأخلاق المجتمع العربي الكريم، والتزامه وتمسكه بالأخلاق الدينية السمحة، وقد مثل الشاعر شخصه في أروع تمثيل لأنه أمير يتخلق بأخلاق السراة والأشراف.

قال: إنه لا يداهم الأعداء وهم في غفلة عن أمره، وإنما تسبقه الإنذارات والإشعارات التي توضح عزمه على محاربة من يريد أن يحاربهم، وأنه يتخلق بأخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم ويكرم النساء.

هذه القصيدة واحدة من فرائد الدهر التي قلما تجود بها قريحة شاعر، وإن كنا قد ركّزنا جل جهدنا على توضيح صورة الرمزية في هذه القصيدة وتمثيل الشاعر لشخصه، فالقصيدة فيها ما فيها من صور البيان البديع، وصور البديع البليغ. وإذا نظرت إلى المعاني والألفاظ فإنها لا تقل روعة وجمالاً عن مرثي الجمال المتعددة في الصور الجمالية الكثيرة الرائعة، والتصوير العميق لصوت المشاعر الجياشة المتباينة في الحوار اللطيف الذي أجراه الشاعر مع نفسه ومع محبوبته ومع أصحابه.

نجد أن الشاعر اختار ما لا يجزّ عليه المثالب وهو الأسر وأحيا بذلك لنفسه أطيّب الذكر على مدى الدهر، وظل بذلك الفارسي الذي نقش وجوده على جدران الزمان الأبية، وعاش مبنوث الذكر في جميع أقاليم البلاد العربية. وقد تطرقنا في فني الفخر والغزل إلى بعض ملامح الرمزية في شعر المتنبي وذاك يكفينا مؤونة التكرار.

الفصل الرابع توطئة:

استمر النثر في تطوره طيلة العصر العباسي وبلغ حداً من النضج والسلاسة والكمال وأصبح قادراً على أن يستوعب جميع الثقافات الموجودة في عصره والتي كانت محبوسة في الكتب وأصبحت تدون به المشاكل الفلسفية وتحلل به البحوث العلمية وغيرها^(١).

وقد كان النثر الإنشائي في الأعصر الأولى لا تكلف فيه لصحة طباع أهله، لكنه في العصر العباسي الثاني اعتمد على الصناعة والتنميق، وكانت المحسنات اللفظية والمعنوية السمة المطبقة لنثر الأدباء جميعاً. ويلحظ ذلك أكثر ما يلحظ عند ابن العميد والصاحب ابن عباد وغيرهم^(٢).

(١) تاريخ الأدب العربي، لعمر فروخ، دارالعلم للملبيين، ط٦، ج٣، ص ٦٢.

(٢) أدباء العرب في الأعصر العباسية، ج٢، ص ٣٧٧، وما بعدها بتصرف.

المبحث الأول الفارابي

هو أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان بن أولزع الفارابي^(١).
ولد بمدينة فاراب التركية في سنة ٢٥٩هـ، اتفق أغلب المترجمين له على أنه تركي الأصل، وذكر ابن أبي أصيبعة أنه فارسي، كما قال أن والده كان من قواد الفرس^(٢).

انتقل الفارابي إلى بغداد حوالي سنة ٣١٠هـ^(٣)؛ لينهل من فيض علومها، فدرس المنطق على يد بشر مّتي بن يونس وأحكم اللغة العربية على يد ابن السراج، كما درس في حران المنطق والطب على يد يوحنا بن حيلان^(٤).
استقر الفارابي ببغداد فترة من الزمان لكنّ المقام لم يطب له فيها لكثرة التيارات السياسية، فرحل إلى حلب متلمساً وجود ذاته في بلاط سيف الدولة وكانت حلب وقتئذٍ مزدهرة برجال الفكر والأدب والشعر والفنّ.

ومن أغرب ما حُكي عنه قول ابن خلكان: إنه ورد على سيف الدولة في ذي الترك وكان مجلسه عامراً بالأدباء والعلماء والفضلاء، فلما رآه الأمير قال له: أقعد فقال حيث أنا أم حيث أنت! فقال الأمير حيث أنلت، فتخطى الفارابي رقاب الناس حتى انتهى إلى مسند الأمير سيف الدولة وزاحمه فيه حتى أخرجه عنه، وكان على رأس سيف الدولة ممالك وله معهم لسان خاص فقال لهم بذلك اللسان الخاص: إن هذا الشيخ قد أساء الأدب وإني سائله عن أشياء إن لم يحبني فاخرقوا به، فقال له أبو نصر بذات اللسان أيها الأمير اصبر فإن الأمور بعواقبها فعجب منه سيف الدولة وقال له: أتحسن هذا اللسان فقال: نعم أحسن أكثر من سبعين لساناً، ثم أخذ يتكلم مع الحاضرين في المجلس في كل فن

(١) عيون الأنبياء في طبقات الأطباء، لابن أبي أصيبعة، ط١، ١٢٩٩هـ-١٨٨٢م، ص ٢٧٣.

(٢) المصدر السابق

(٣) نوابغ الفكر العربي "الفارابي"، لسعيد زايد، دار المعارف، مصر ط٢، ص ١٥

(٤) علماء العرب والمسلمين وأعلامهم، للدكتور مصطفى الحياوسي، الأردن، عمان، د.ت، ص ٢٨٤

وعلم؛ فلم يزل كلامه يعلو وكلامهم يخفت حتى صمتوا جميعاً، وبقي يتكلم وحده، ثم أخذوا يكتبون ما يقول فصرفهم سيف الدولة وخلا به وسأله عما إذا كان يسمع فأجاب بالإيجاب فأمر سيف الدولة بإحضار كل ماهر في هذه الصنعة، فلم يحرك أحد منهم آتته الموسيقي وإلا عابه أبو نصر وقال له أخطأت، وقال له سيف الدولة وهل تحسن في هذه الصنعة فقال نعم وأخرج عيداناً وركبها ولعب بها فضحك كل من كان بالمجلس ثم فكها وركبها تركيباً آخرًا فنام كل من كان بالمجلس حتى البواب فتركهم نياماً وخرج^(١).

فرحب به الأمير سيف الدولة ترحيباً حاراً وفي تلك المدينة التي كانت تحمل رسالة العلم للإنسانية أنشأ الفارابي رسالته العلمية التي بها صار علماً من أعلام الفلاسفة العرب والمسلمين وغيرهم^(٢).

سأله الأمير عن حاجته من المال، فقال له: يكفيني أربعة دراهم في اليوم^(٣). وعندما أراد سيف الدولة أن يزيد له قال له: يا أمير إذا لم تكفني هذه الدراهم المعدودة فمعنى ذلك أن جميع ما في الأرض ما يكفيني^(٤)، وواضح مما ذكرناه أنه كان زاهداً في الحياة فلم يتزوج ولم يقتن مالا، ويبدو أنه في زهده هذا كان متأثراً بأفلاطون ومنتشبهاً به. كما أنه كان يميل إلى العزلة ويؤثر الوحدة؛ ليخلو بنفسه إلى التأمل والتفكير، كما كان يقضي معظم أوقاته متجولاً في البساتين وحائماً على شواطئ الأنهار.

عاش الفارابي في أكناف سيف الدولة تسعة أعوام، تنقل خلالها بين حلب ودمشق كما سافر خلالها مرة إلى مصر. وكان يلبس الزي التركي دائماً^(٥).

وفي حلب أنشأ رسالته العلمية لتي بها صار علماً من أعلام الفلاسفة المسلمين والعرب.

(١) وفيات الأعيان، لابن خلكان

(٢) مشاهير الموسيقيين العرب، لفارق عبد الحكيم، ص ١٣ بتصرف

(٣) وفيات الأعيان، ج ٥، ص ١٥٦

(٤) مشاهير الموسيقيين العرب، لطارق عبد الحكيم، د. ت، ص ١٣٠

(٥) نوابغ الفكر العربي ٣١ الفارابي، لسعيد زايد، دار المعارف، ط ٤، ص ١٧

ومنذ صباه بدت عليه معالم النبوغ والعبقرية ولم يكن يقتنع بعلم واحد وإنما تتلمذ على أيادي الكثيرين من العلماء والفلاسفة والفنانين، فجال في الحكمة وصال في المنطق وأمعن في الطب وافتنّ في الموسيقى وبرع في اللغات.

أما مكانته العلمية فقد اعترف بها المتقدمون والمتأخرون والمشرقون. وكان القفطي يلقبه "بفيلسوف المسلمين"^(١)، وقال عنه ابن خلكان وابن سينا: إنه "من أكبر فلاسفة المسلمين"^(٢) ولقبه البيهقي^(٣) بالمعلم الثاني، وقال الحكماء.

وقال إن الحكماء أربعة: اثنان قبل الإسلام هما: أرسطو وبقرط، واثنان بعد الإسلام هما: أبو نصر وأبو علي، ويعني الفارابي وابن سينا. يعتبر الفارابي مؤسس الفلسفة العربية والإسلامية، قال فيه ابن سبعين، هذا الرجل أفهم فلاسفة الإسلام وأذكرهم للعلوم القديمة^(٤).

وكان علماء الغرب ينظرون إليه نظرة إجلال ويرونه قمة من قمم نوابغ الفكر الحضاري الإسلامي، قال عنه ما سينيون المستشرق الفرنسي، الذي كان مهتماً بالتراث العربي وبتحقيقه: "إنّ الفارابي أفهم فلاسفة الإسلام وأذكرهم للعلوم القديمة وهو الفيلسوف فيها لا غير"^(٥).

وقال "روجر باركن: "إن مؤلفات الفارابي مهّدت السبيل لظهور ابن سينا وابن رشد، وكانت نبراساً لحكماء الشرق والغرب، وسراجاً وهّاجاً يستضيئون بنوره، ويسيروا على هداه.

وقال "وى فو" إن الفارابي شخصية قوية وغريبة حقاً وهو عندي أعظم جاذبية وأكثر طرافة من ابن سينا؛ لأن روحه كانت أوفر تدفقاً وجيشاناً، ونفسه

(١) العلماء العرب والمسلمين، لعائدة مفلح الجبور، وفاطمة علي العويدي، دار الخليج للنشر، ط١،

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، ص ٢٥٥

(٢) وفيات الأعيان، ج٥، ص ١٥٦

(٣) العلماء العرب والمسلمين، لعائدة مفلح الجبور، وفاطمة علي العويدي، ص ٢٥٦

(٤) المصدر السابق، ص ٢٥٥

(٥) علماء العرب والمسلمين وأعلامهم، ص ٢٨٦

أشد تأججاً وحماساً، ولفكره وثبات كوثبات الفنان وله منطق مرهف بارع، ولأسلوبه مزية الإيجاز والعمق^(١).

يعتبر الفارابي أعظم العلماء في صناعة الموسيقى وقيل إنه في صغره كان يضرب بالعود ويغني ولما التحى وجهه قال: كل غناء يخرج من بين شارب ولحيه لا يستظرف فنزع عن ذلك وأقبل على كتب المنطق والفلسفة والعلوم النظرية والأخلاقية^(٢).

وفاته:

يظهر أن الفارابي لم يقض آخر أيامه في القصر بل قضاها خالياً بنفسه بين مظاهر الطبيعة، وقد ذكر أنه مات بدمشق^(٣) وهو في صحبة الأمير سيف الدولة في سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة، وعمره قد قارب الثمانين وصلى عليه الملك سيف الدولة.

(١) علماء العرب والمسلمين وأعلامهم، ص ٢٨٦

(٢) الموسوعة الذهبية، العلماء العرب والمسلمين، لعائدة مفلح وعائدة علي، ص ٢٥٦

(٣) سير أعلام النبلاء، للذهبي، ج ١٥، ص ٤١٨

المبحث الثاني

ابن جني، وابن خالويه، وأبو علي الفارسي

٣- أبو الفتح عثمان بن جني:

هو أبو الفتح عثمان بن جني الموصلية^(١)، ولا يعرف من نسبه غير ذلك. كان أبوه جني مملوكاً لسليمان بن فهد بن أحمد الأزدي^(٢). ولذا كان ازدياً بالولاء.

كان أبوه رومياً ولفظه "كنى" بالرومية تعني في العربية "فاضلاً".

أشار ابن جني إلى ضعف نسبه في قوله:

فإن أصبح بلا نسب * فعلمي في الوري نسبي
على أنني أول إلى * قروم سادة نجب
قياصرة إذا نطقوا * أرم الدهر ذو الخطب
أو لأك دعا النبي لهم * كفى شرفاً دعاء نبي^(٣)

لعله يشير بالبیت الأخير إلى ما روي أن: "رسول الله صلى الله عليه وسلم" لما جاءه جواب كسرى قال: مَرَّقَ اللهُ ملكه ولما جاءه جواب هرقل قال ثبت الله ملكه^(٤).

اتفق كُتَّاب التراجم^(٥) على أنه ولد بالموصل قبل الثلاثين والثلاثمائة من الهجرة. ويقول أبو الفداء^(٦) أنه وُلِدَ في سنة ٣٠٢هـ.

(١) تاريخ بغداد، ج ١١، ص ٣١٢، وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٢٤٦، معجم الأديباء، ج ١١، ص ٨١

(٢) معجم الأديباء، ج ١١، ص ٨١.

"جنى" بكسر الجيم، وكسر النون مشددة، وسكون الياء، فلا تشدد الياء كياء النسب، إذ ليست بها، لأنه غير منسوباً بل هو معرباً

(٣) معجم الأديباء، ج ١٢، ص ٨١، ونزهة الألباء، ص ٢٤٤

(٤) زاد المعاد، لابن القيم الجوزية، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١٤، ١٤٠٧هـ - ج ١، ص ١٢٨

(٥) وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٢٤٦، البداية والنهاية، ج ١١، ص ٣٣١، إنباه الرواة على أنباه النحاة، للوزير جمال الدين أبي

الحسن علي بن يوسف القفطي، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ج ٢،

ص ٣٣٣، البلغة في تاريخ أئمة اللغة، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، تحقيق محمد المصري، منشورات وزارة

الثقافة، دمشق، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م، ص ١٣٧، الأعلام، ط ١٠، ج ٤، ص ٢٠٤.

(٦) البداية والنهاية، ج ١، ص ٣٣١.

أما عن أسرته فلا يعرف عنها شيئاً، لأن والده لم يكن له شأن وإنما كان مملوكاً.

ذكر صاحب معجم الأدباء^(١) أنه نشأ بالموصل وتلقى مبادئ تعليمه بها.

ومنها رحل في سبيل العلم إلى أمصار متعددة.
وذكر ابن كثير^(٢) أنه أقام ببغداد ودرس العلم بها.

من أهم شيوخه وأساتذته:

أبو علي الفارسي وأبو بكر المقسم، وأبو الفرج الأصبهاني، وأحمد بن عيسى الربيعي.

أخذ عن أبي علي الفارسي، وصحبه أربعين سنة، وكان سبب صحبته إياه، أن أبا علي الفارسي قد سافر إلى الموصل، فدخل إلى الجامع، فوجد أبا الفتح عثمان بن جني يقرئ النحو وهو شاب، وكان يتكلم في مسألة في التصريف "قلب الواو الفا" فاعترض عليه أبو علي فوجده مقصراً، فقال له زببت قبل أن تحصرم. ثم قام أبو علي ولم يعرفه ابن جني، فوجده ينزل في السميرية يقصد بغداد فنزل معه في الحال، ولزمه وصاحبه من حينئذٍ إلى أن مات أبو علي^(٣).

وكان أبو علي من أكثر أساتذته تأثيراً على علمه وشخصيته.

طاف ابن جني في البلاد فذهب إلى الشام^(٤)، وحلب^(٥)، وواسط^(٦) وغيرها.

ومما يؤثر عن أخلاقه أنه كان رجل وقور جاد الطبع عفاً للسان صادق في قوله وفعله، ولم يؤثر عنه ما أثر عن غيره من رجال عصره من اللهو والمجون.

(١) معجم الأدباء، ج ١٢، ص ٨٢

(٢) البداية والنهاية، ج ١١، ص ٣٣١

(٣) نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ص ٢٢٤

(٤) الخصائص، ج ٢، ص ٨٨

(٥) إنباه الرواة، ج ٢، ص ٣٤٠

(٦) الخصائص، ج ٣، ص ٢٧٠

ومن سماته الخُلقية قيل^(١) إنه كان يتمتع بإحدى عينيه ويؤيد ذلك قول ابن الأنباري الذي قال أن من شعره في العتب على صديق له:

صدودك عني ولا ذنب لي * يدك على نيّة فاسدة
وقد وحياتك مما يكيّت * خشيت على عيني الواحدة
ولولا مخافة أن لا أراك * لما كان في تركها فائدة

قال وإنما قال: "خشيت على عيني الواحدة" لأنه كان أعوراً^(٢)، قال الخطيب البغدادي: إن ابن جني كان يقول الشعر ويجيد نظمه لكنه كان مقللاً^(٣) وقال الثعالبي: كان الشعر أقلّ خلاله^(٤).

وقال الباخري^(٥): ما كنت أعلم أنه ينظم القريض.. حتى قرأت: "مرثيته في المتنبي" إذ يقول:

غاض القريض وأودت نضرة الأدب * وصيحت بعد ريّ دوحة الكتب^(٦)

تتلذ على يد ابن جني مجموعة من العلماء منهم الشريف الرضي وعلي بن يزيد القاشاني والسهمي.

اشتهر ابن جني، بابن جني النحوي، وشهد له مترجموه بأنه كان إماماً في النحو والصرف.

قال الأنباري: إنه كان متبحراً في علم التصريف؛ لأن السبب في صحبته أبا علي وتغريه عن وطنه، ومفارقة أهله، مسألة صرفية فحمله ذلك على التبخر والتدقيق فيه^(٧). ونسب إليه بعض المحققين الإخفاق في النحو وهذا بالطبع غير صحيح.

(١) معجم الأدياء، ج ١٢، ص ٩٠

(٢) نزهة الألباء، ص ٢٢٤، راجع المرجع السابق

(٣) تاريخ بغداد، ج ١١، ص ٣١٢

(٤) يتيمة الدهر، ج ١، ص

(٥) راجع إنباه الرواة، ج ٢، ص ٣٣٨، ودمية القصر، للباخري، طبع حلب، ١٤٤٩هـ - ١٩٣٠م، ص ٤٣٥.

(٦) المصدر السابق.

(٧) نزهة الألباء في طبقات الأدياء، ص ٢٤٥

ذكر محقق "الخصائص"^(١) د. النجار أن ابن عقيل في شرحه لألفية ابن مالك في مبحث الابتداء قال أن أبا الفتح سأله ولده عن إعراب بيت أبي نواس:
**غير مأسوف على زمن * ينقضي بالهم والحزن
فأرتبك في إعرابه^(٢).**

وقد ذهب محقق^(٣) المحتسب الأستاذ محمد عبد القادر عطا إلى القول ذاته.

عندما وقفت على هذا القول ترددت في قبوله؛ فرجعت إلى شرح ابن عقيل كي يطمئن قلبي فوجدت أن السائل هو ابن جني وليس ولده، وإليك نص قوله:

"قد سأل أبو الفتح ولده عن إعراب هذا البيت فارتبك"^(٤).

أما عن مذهبه الكلامي فالراجح أنه كان معتزلياً قال أحمد أمين عن المعتزلة: ... إنهم حكّموا العقل حتى في باب اللغة والنحو، وكانوا يميلون إلى القياس، فزعيم القائلين بالقياس واستعمال ما لم يرو عن العرب قياساً على ما روه هو: أبو علي الفارسي وتلميذه ابن جني، وهما: من المعتزلة^(٥). وقال صاحب إنباه الرواة من شيوخه الذين أخذ عنهم ولازمهم أبو علي الفارسي، وكان متهماً بالاعتزال^(٦). وقال السيوطي أن ابن جني كان معتزلياً^(٧).

أما مذهبه النحوي، فقد كان ينتمي إلى المذهب البصري، مثل شيخه أبي علي^(٨).

(١) الخصائص مقدمة التحقيق، للنجار، ج ١، ص ٤٧

(٢) شرح ابن عقيل، ج ١، ص ١٨١

(٣) المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإفصاح عنها، لابن جني، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٩ هـ.

(٤) شرح ابن عقيل، ج ١، ص ١٨١

(٥) ظهر الإسلام، لأحمد أمين

(٦) إنباه الرواة، ج ١، ص ٢٧٤

(٧) المزهر في علم اللغة، وأنواعها للسيوطي، ت محمد أحمد جاد المولى، وعلي محمد البجاوي، دار إحياء التراث العربي، مصر، مطبعة الباوي الحلبي، ج ١، ص ٧.

(٨) الخصائص، ج ١، ص ١٨٦

بلغ ابن جني مكانة علمية سامية اعترف بها المتقدمون والمتأخرون على حد سواء فكان مثار إعجاز لكل من يقرأ له.

قال عنه ياقوت^(١): إنه من أحذق أهل الأدب وأعلمهم بالنحو والتصريف، وصنّف في ذلك كتباً أبرّ بها على المتقدمين وأعجز بها المتأخرين، وذهب الأنباري إلى القول نفسه.

وقال عنه الثعالبي^(٢): "هو القطب في لسان العرب وإليه انتهت الرياسة في الأدب".

وقال ابن ماكولا^(٣): وكان نحويّاً حاذقاً ومجوداً ومما يدل على مكانته السامية: أنه خلف أستاذه أبو علي في التدريس في بغداد بعد وفاته^(٤). وهذا شرف استأثر به ابن جني عن سائر أصحاب أبي علي على كثرتهم.

قدم ابن جني إلى بلاط الأمير سيف الدولة بطلب^(٥) بصحبة أستاذه أبي علي وهناك اجتمع بالمتنبي وأعجب به، وعقد معه صحبه حميمة وكانت الخصومات محتدمة، فمال ابن جني إلى فريق المتنبي وأقام فترة في بلاط الأمير لكن المقام لم يطب له خاصة بعد أن غادر المتنبي حلب، فذهب أبو علي إلى شيراز وهناك التقى بالمتنبي عند عضد الدولة مرة ثانية^(٦).

ذكر ابن جني المتنبي في كتبه كثيراً، وأثنى عليه وعلى شاعريته وتوقد ذكائه، كما كان المتنبي مجلاً له عارفاً بقدره معترفاً بفضله وكان يقول: "ابن جني أعرف بشعري مني"^(٧).

تكاد تجمع المصادر على أن وفاة ابن جني كانت سنة ٣٩٢ ببغداد.

(١) معجم الأدباء، ج ١٢، ص ٨٠-٨١

(٢) بيتمة الدهر، للثعالبي

(٣) راجع الخصائص مقدمة التحقيق، للنجار، ج ١، ص ٢٤

(٤) نزهة الألباء، ص ٢٤٥

(٥) إنباه الرواة، ج ٢، ص ٣٤٠

(٦) الخصائص، مقدمة التحقيق، ج ١، ص ٢٢

(٧) المحتسب، مقدمة التحقيق، ج ١، ص ٤٨

١ - ابن خالويه:

اسمه ونسبه: يتفق الذين ترجموا لابن خالويه على أن اسمه الحسين بن أحمد بن خالويه بن حمدان^(١)، وأضاف بعضهم النحوي اللغوي المقرئ، الهمذاني، يخالفهم فقط القفطي، الذي ذكر في كتابه إنباه الرواة أن اسمه الحسين بن محمد بن خالويه^(٢).

كنيته: ذكرت كتب التراجم أنه كان يكنى "عبد الله" هذا باستثناء الذهبي -في كتابه العبر- الذي ذكر أنه كان يكنى "عبيد الله"^(٣). وجاء في البلغة^(٤) ولسان الميزان^(٥) أنه كان يلقب بذي النونين.

ولادته: لم أجد فيما قرأت من كتب التراجم تاريخاً لميلاده.

وقال السيوطي: إنه في سنة أربع عشرة وثلاثمائة دخل ابن خالويه بغداد طلباً للعلم؛ ليتلقى عن شيوخها ويأخذ عن أعلامها^(٦)، ولقي أكابر العلماء بها^(٧). تتلمذ ابن خالويه على أيادي علماء ثقافات متميزين، كان لهم أثر كبير في دفع عجلة الحركة العلمية والثقافية في ذلك العصر منهم: ابن مجاهد، وابن الأنباري وابن دُرَيْد.

بلغ ابن خالويه منزلة رفيعة شهدت له بها كتب التراجم والطبقات والمفسرين، فهو يُعدُّ من الرواة الأوائل في علم النحو واللغة.

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ج ٢، ص ١٧٩. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للسيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة المصرية، ج ١، ص ٥٢٩، شذرات الذهب، الحنبلي، مكتبة القدس، ط ١، ج ١٣، ص ٧١-

٧٢، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، لابن الأنباري، تحقيق إبراهيم السامرائي، ص ٢٣٠ - ٢٩١

(٢) إنباه الرواه على أنباه النحاة، للقفطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، بيروت، ط ١، ١٩٨٦م، ج ١١، ص ١٣٥

(٣) العبر في خبر من غير، للذهبي، ضبط وتحقيق، أبو هاجر محمد سعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ج ٢، ص ١٣٥

(٤) البلغة في تاريخ أئمة اللغة، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، ت محمد المصري، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م، ص ٦٧.

(٥) لسان الميزان، لابن حجر، مطبعة دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد، طبع ١٣٢٩هـ، ج ٣، ص ٩٣

(٦) بغية الوعاة، ج ١، ص ٥٢٩

(٧) نزهة الألباء، ص ٢٩١

قال فيه صاحب مرآة الجنان: "ابن خالويه صاحب التصانيف وشيخ أهل اللغة والأدب"^(١).

ونعته الذهبي في العبر "بأنه إمام اللغة العربية وغيرها من العلوم الأدبية، وقال: إنه لغوي، وأدبي، ومقريء، وشيخ، وإمام"^(٢).
وقال عنه حاجي خليفة في كشف الظنون: "إنه أحد العلماء المشهورين، والأدباء المصنفين"^(٣).

وشهد له صاحب إشارة التعيين^(٤)، وياقوت^(٥)، وابن الأثير^(٦): "بأنه من كبار أهل اللغة العربية".

ومن خلال ما ذكرت عنه كتب التراجم والطبقات ثبت لنا أن الحسين بن خالويه دخل بغداد سنة أربع عشرة وثلاثمائة، وحلّ بها وأخذ في طلب العلم من أشهر شيوخها، ثم انتقل إلى الشام ماراً بالموصل وميفارقين ثم حمص، وأخيراً استوطن بحلب وقد أجمعت المصادر التي ترجمت له على أنه دخل حلب وحطّ رحاله بها وعاش في كنف سيف الدولة الذي جعله من كبار شيوخه واختصه ببنيه وقرأ عليه آل حمدان، وكانوا يكرمونه ويجلونّه، فانتشر علمه تدريجاً وتألّيفاً وذاع صيته وفضله، وصار بحلب أحد أفراد الدهر في كل قسم من أقسام الأدب عالماً بالعربية بصيراً باللغة ثقة مشهوراً وكان ممن ازدان بهم بلاط سيف الدولة مشاركاً في المناقشات اللغوية والأدبية التي كانت تدور في مجلسه.

ويقول صاحب وفيات الأعيان عنه، وله شعر حسن ورد في بيتيمة الدهر

منه قوله:

إذا لم يكن صدر المجالس سيد * فلا خير فيمن صدرته المجالس

(١) مرآة الجنان وعبر اليقظان، لليافعي، مطبعة دائرة المعارف، ط١، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م، ج١، ص ٣٩٤

(٢) العبر في خبر من غير، ج٢، ص ١٣٥

(٣) كشف الظنون، لحاجي خليفة، منشورات مكتبة المنير، بغداد، ج٥، ص ٣٠٦

(٤) إشارة التعيين لتراجم النحاة واللغويين، لعبد الباقي بن عبد الحميد اليماني، تحقيق د. عبد المجيد

دياب، ج٢، شركة الطباعة العربية السعودية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ط١، ص ١٠٢ - ١٠٥

(٥) معجم الأدباء، لياقوت الحموي، دار المستشرق، ج٩، ص ٢٠٠

(٦) نزهة الألباء، لابن الأثير، ج٩، ص ٢٠٠

وكم قائل في مالي رأيتك راجلاً * فقلت له: من أجل أنك فارس^(١)

كان ابن خالويه حريصاً على طلب العلم والمطالعة، شغوفاً بالعلم والإفادة، وتشهد له بذلك مجالس العلماء ومؤلفاته الكثيرة، ونظراً لانتوع شيوخه وكثرتهم فهو عالم في النحو واللغة وما يتصل بهما. ولهذا عُرف بالنعوي اللغوي، المقرئ فهو مشارك في عدة فنون.

وكان رجلاً متواضعاً رُوي عنه أن قال له رجل: "أريد أن أتعلم من العربية ما أقيم به لساني، فقال له: "أنا منذ خمسين عاماً أتعلم العربية والنحو ما تعلمت ما أقيم به لساني"^(٢).

ذكر د. درويش الجندي أن حركة العلم ازدهرت وكُونت المعاجم وكان بكل من البصريين والكوفيين مذهب يتعصب له علماءه. كما قال: أشهر فرسان اللغة الذين ازدان بهم بلاط سيف الدولة من المدرسة البصرية: أبو علي الفارسي، وابن جني، ومن مدرسة الكوفة: أبو الطيب اللغوي، والمتنبي ومن المدرسة البغدادية التي خلطت بين المذهبين ابن خالويه^(٣).

وفاته:

تكاد تجمع المصادر على أنه توفي بحلب في سنة سبعين وثلاثمائة^(٤).

(١) يتيمة الدهر، ج٢، ص ١٧٨

(٢) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للسيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، تحقيق محمد أبي

الفضل إبراهيم، ط ١ ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م، ج ١، ص ٥٢٩

(٣) الشعر في ظلال سيف الدولة، ص ٨٨

(٤) بغية الوعاة، ج ١، ص ٥٢٩.

٣- أبو علي الفارسي:

نسبه: هو أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن محمد بن سليمان بن أبان^(١) الفارسي الفسوي^(٢).

وُلد بمدينة فسا التي تقع بالقرب من شيراز عاصمة بلاد فارس^(٣).

ذكر ابن خلكان في وفيات الأعيان: أنه وُلد سنة ثمانٍ وثمانين ومائتين من الهجرة^(٤)، وأَيده ابن العماد الحنبلي^(٥).

لم يذكر فيما قرأت له شيئاً عن نشأته واسرته.

هاجر أبو علي إلى بغداد قال الخطيب البغدادي:

عندما قدم أبو علي إلى بغداد نزل في صف سوينز الحي الذي يسكنه ابن درستويه^(٦)، ثم تطلّع بعد ذلك إلى تحقيق شخصيته وإثبات عبقريته. رحل أبو علي عن بغداد واستقر بالموصل في سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة من الهجرة^(٧).

ذكر ابن خلكان^(٨) وابن العماد الحنبلي^(٩)، أن أبا علي الفارسي قَدِم إلى حلب في سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة من الهجرة.

اندفع أبو علي إلى حلب بصحبة تلميذه عثمان بن جني لأسباب غير خافية وهناك استظل بظلال الأمير سيف الدولة، إلا أنه وجد منافساً خطيراً يجلّه الأمير ويقدره، ورأى أن المقام لا يجمعهما، وعلى أية حال فإن المقام لم

(١) معجم الأدياء، ج ٢، ص ٢٣٢، بغية الوعاة، ج ١، ص ٨٤ - ٨٥

(٢) نزهة الألباء، ص ٢٠٩

(٣) طبقات النحويين واللغويين، لأبي الحسن الزبيدي، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف،

مصر، ط ٢، ص ١٣٠

(٤) وفيات الأعيان، ج ١، ص ٣٦٣

(٥) شذرات الذهب، ج ٣، ص ٨٨

(٦) أبو علي الفارسي وأثاره، ص ٦٣

(٧) نزهة الألباء، ص ٢٢١

(٨) وفيات الأعيان

(٩) شذرات الذهب

يطب لأبي علي في حلب فأثر الرحيل على البقاء، وكانت عسارة جهده من العلم في تلك الفترة "المسائل الحلبية"^(١).

شدّ أبو علي رحاله وطاف في البلاد واستقر به المقام هذه المرة في دمشق، وكما عهدنا الرجل يسخو بعطائه النحوي حيث أسفرت إقامته، فكانت عسارة جهده من العلم "المسائل الدمشقية"^(٢).

التقى أبو علي بعضد الدولة في شيراز، واصطحبه عضد الدولة إلى فارس، وبلغ عنده شأواً بعيداً. وقد رفعته مكانته العلمية عند عضد الدولة حتى كان يقول: أنا غلام أبي علي النحوي الفسويّ في النحو^(٣).

رجع عضد الدولة إلى بغداد بعد أن قضى عشرين عاماً في شيراز، ففارق أبو علي شيراز ولحق بعضد الدولة^(٤). وهناك علا شأنه وصعد نجمه وكان واسطة العقد من بين أهل العلم^(٥).

وحينما ورد أبو علي العراق أُتيح له أن يتصل بطائفة من أهل العلم وأساتذة العصر يأخذ منهم ما شاء الله أن يأخذ من ألوان العلوم سواء أكان بالقراءة عليهم أم بالسماع منهم، كما أنه اطلع على كتب السابقين من الأئمة في علوم الدين واللغة^(٦).

اتصل أبو علي بعدد من الشيوخ منهم أبو بكر مجاهد الذي روى القراءة عليه وسمع منه كتاباً في معاني القرآن^(٧). كما اتصل بابن الخياط، وأبي بكر دُرَيْد الذي كتب كتابه في الاشتقاق إملاء عنه، ثم التقى بشيخه أبي بكر ميرمان وقرأ عليه كتاب سيبويه^(٨). وقرأ من كتب الأئمة السابقين مثل كتاب التصريف

(١) كشف الظنون، ج ١، ص ١٦٦٧

(٢) معجم الأدباء، ج ٧، ص ٧٤

(٣) إنباه الرواه، ج ١، ص ٣٠٨، ووفيات الأعيان، ج ٢، ص ٨٠

(٤) الامتاع والمؤانسة، لأبي حيان، ج ١، ص ١٣١

(٥) معجم الأدباء، لياقوت، ج ٧، ص ٢٥٥

(٦) الحجة في القراءات، للحسين بن أحمد بن خالويه، تحقيق عبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة،

ط ١، ١٤٢١هـ، ج ١، ص ١٤

(٧) الحجة، ج ١، ص ١٥

(٨) أبو علي الفارسي وآثاره في النحو، ص ٩١، ومعجم الأدباء، ج ٧، ص ٢٣٥، ٢٣٦

للفراء^(١). وإصلاح المنطق لابن السكيت^(٢)، والمقتضب^(٣) للمبرد، وغيره، وتلقى منه العلم العديد من العلماء على رأسهم ابن جنّي الذي صحبهم في أسفاره^(٤)، وعلي بن عيسى الربيعي الذي أقام معه عدة سنوات^(٥)، ومن شيوخه الذي أثروا في شخصيته: سيبويه، وأبو زيد سعيد بن أوس الأنصاري، والأخفش الأوسط (أبو الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعي).

وكانت له دار علم ببلده جعل فيها خزانة كتب في جميع العلوم وفقاً على كل طالب للعلم لا يمنع أحداً من دخولها ويسهل للمعسر^(٦).

ومما مكنّ له في العلم أنه أقام على أنسه به لا يشغله عنه شاغل، وقد صرح ابن جنّي بأن أبا علي استطاع بجدارة فائقة أن يكون من أئمة العربية وأغزرهم مادة وأوسعهم اطلاعاً، كما أشار إلى كتبه التي تعتبر من أجلّ الكتب، وأحفلها بالبحوث الوافية والآراء الناضجة.

لم يكن أبو علي شاعراً، ولكنه كان يهوى الشعر ويغبط الشعراء عليه، ويود لو كان شاعراً مثلهم.

حكى أبو القاسم أحمد بن الأندلسي فقال: جرى ذكر الشعر بحضرة أبي علي وأنا حاضر، فقال: إني لأغبطكم على قول الشعر فإن خاطري لا يوافقني على قوله مع تحقيقي العلوم التي هي من مواده، فقال له الرجل: فما قلت قط شيئاً منه؟ قال: ما أعلم أن لي شعراً إلا ثلاثة أبيات في الشيب، وهي قولي:

**خضبت الشيب لما كان عيباً * وخضب الشيب أولى أن يعابا
ولم أخضب مخافة هجر خل * ولا عيباً خشيت ولا عتابا**

(١) نزهة الألباء، ص ١٢٦

(٢) النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ٣١٧

(٣) طبقات النحويين واللغويين، ص ١٠٨

(٤) سر صناعة الإعراب، لابن جنّي، تحقيق حسن هندأوي، دار العلم، دمشق، دار العلوم الثقافية،

بيروت، ط ٢، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م، ج ١، ص ١٠

(٥) إنباه الرواة، ج ٢، ص ٢٩٧

(٦) معجم الأبداء، ج ١٥، ص ٥١

ولكن المشيب بدا ذمياً * فصيرت الخضاب له عقاباً^(١)

وقد كان أبو علي موضع احترام العلماء والناس في عصره أثنوا عليه وأكثروا من الإشادة به، قال عنه ياقوت: "إنه واحد زمانه في علم العربية انتهت إليه رياسة النحو وانفرد به، وقصده الناس من الأقطار، وعلت منزلته وحاز قصب السبق في أربعين سنة"^(٢).

وقال ابن خلكان: كان إمام وقته في علم العربية وكان عالي المنزلة عند عضد الدولة مكرماً لديه^(٣). وقال الخطيب أبو علي فوق المبرد وأعلم منه.

علت منزلته في النحو حتى فضله كثير من النحويين على أبي العباس المبرد^(٤)، وقال أبو طالب العبدي ما كان يتبين سيئويه وأبي علي أفضل منه^(٥).

وفاته:

توفي أبو علي سنة سبع وسبعين وثلاثمائة، وله تسع وثمانون سنة^(٦).

(١) وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٨٠-٨١

(٢) التكملة، لأبي علي الفارسي، تحقيق شاذلي فرهود، الشركة السعودية للطباعة، ط ١، ص ٢

(٣) وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٨١

(٤) تاريخ بغداد، ص ٢٧٥

(٥) طبقات الأدباء، ص ٢٣٢

(٦) شذرات الذهب، ج ٣، ص ٨٨

المبحث الثالث

أبو بكر الخوارزمي وأبو فرج الأصبهاني

١- أبو بكر الخوارزمي:

أبو بكر محمد بن عباس الخوارزمي. أصله من طبرستان، ومولده ومنتشؤه خوارزم، وكان يتسم الطبري، ويعرف بالخوارزمي، ويلقب بالطبرخزمي^(١).

هو ابن أخت محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ^(٢) فارق أبو بكر الخوارزمي وطنه وهو في ريعان عمره وحادثة سنة، وهو قوي المعرفة، قويم الأدب، نافذ القريحة، حسن الشعر، ولم يزل يتقلب في البلاد، ويدخل كور العراق والشام، ويأخذ عن العلماء، ويقتبس من الشعراء، ويستفيد من الفضلاء، حتى تخرج وخرج فرد الدهر في الأدب والشعر.

لقى سيف الدولة وخدمه، واستفاد من يمن حضرته ومضى على غلوائه في الاضطراب والاعتراب. وشرّق بعد أن غرّب وورد بخارى وصحب أبا علي البلعمي فلم يحمد صحبتته وفارقه وهجاه بقوله:

إن ذا اليلعمي والعين غين * وهو عار على الزمان وشين

إن يكن جاهلاً بخفى حنين * فهو الخف والزمان حنين

ووافى نيسابور فاتصل بالأمير أبي نصر الميكالي، ومدحه، ثم قصد سجستان وتمكن من واليها أبي الحسين طاهر بن محمد وأخذ صلته، ثم هجاه وأوحشه حتى أطال سجنه؛ وقال في تلك النكبة قصيدة كتب بها إلى الأمير أبي نصر الميكالي^(٣):

كتابي أبي نصر إليك وحالتي * كحال فريس في مخالب ضيغم

أرق من الشكوى وأدجى من النوى * وأضعف من قلب المحب المتيم

(١) بيتمة الدهر، ج٤، ص ٢٢٣

(٢) شرح ديوان المتنبي، البرقوقي، ط دار البيان، بيروت، ج١، ص ١٠٢

(٣) بيتمة الدهر، ج٤، ص ٢٣٤، ٢٣٥

غدوت أخا جوع ولست بصائم * ورحت أخا عرى ولست بمحرم
وقعت بفتح الخوف في يد طاهر * وقوع سليك في حبائل خثعم

يعني سليك بن سلكة السعدي حين أسره أنس بن مالك الخثعمي انتهب الخوارزمي الفرصة، ليمدح أبا نصر الميكالي علة يفرج عنه تلك الكربة فقال:
ما كنت في ترككك إلا كتارك * يقينا وراضٍ بعده بتوهم
إلى أن قال:

وأشد في ذكرى لدارك باكياً * (ألا أنعم صباحاً أيها الربيع وأسلم)
ولا أجد بحوى مفاتيح جنة * ويقرع بالتطفيل باب جهنم
وقد عاش بعد الخلد في الأرض آدم * فإن شئت فاعذرنى فإني ابن آدم^(١)

جعل له الله من مضيق الحبس مخرجاً إلى طبرستان، وكانت حاله مع صاحبها "شار" كهى مع طاهر. فمن قوله فيه:

ألا أبلغ "بني شار" كلامي * ومن لم يلقيهم فهو السعيد
وقال:

الله في كل ما قضاه * لطائف تحتها بدائع
سبحان من يطعم ابن شار * ويترك الكلب وهو جائع^(٢)

وجاء في وفيات الأعيان أنه بعد ذلك قصد حضرة صاحب بن عبّاد وهو بأرّجان، فلما وصل إلى بابه قال لأحد حجّابه؛ قل للصاحب ابن عبّاد، على الباب أحد الأدباء، وهو يستأذن في الدخول، فدخل الحاجب وأعلمه، قال صاحب: قل له قد ألزمت نفسي ألا يدخل عليّ من الأدباء إلا من يحفظ عشرين ألف بيت، فخرج إليه الحاجب وأعلمه بذلك، فقال له أبو بكر: ارجع إليه وقل له: أهذا القدر من شعر الرجال أم النساء^(٣)!.

وقد ذكر الثعالبي أنه عاود نيسابور، وأقام بها إلى أن وفق التوفيق كله يقصده حضرة صاحب بأصبهان والتقاء ومدحه فنجحت سفرته، ورحبت

(١) بيتمة الدهر، ج٤، ص ٢٣٦

(٢) المصدر السابق، ص ٢٣٧

(٣) وفيات الأعيان، ج ، ص

تجارته، وسعد جده بخدمته، وصار من جملة ندمائه المختصين به، وتزود منه بكتاب إلى حضرة عضد الدولة بشيراز، ما كان سبباً لارتياشه ويساره، فإنه وجد قبولاً حسناً، واستفاد مالا كثيراً.

ولما انقلب منها بالغنيمة الباردة إلى نيسابور، استوطنها، واقتنى بها ضياعاً وعقاراً، ودرت عليه أخلاف الدنيا من الجهات وحين عاود شيراز ورد منها عللاً بعد نهل، فأجرى له عند انصرافه رسماً يصل إليه في كل سنة بنيسابور مع المال الذي كان يحمل من فارس إلى خراسان، ولم يزل يحسن حال من رواء وثروة واستظهار، يقيم للأدب سوقاً ويعيده غضاً وريقاً، ويدرس ويملى، ويشعر ويروى، ويقسم أيامه بين مجالس الدرس ومجالس الأُنس.

وكان يتعصب لآل بويه تعصباً شديداً، ويغض من سلطان خراسان ويطلق لسانه بما لا يقدر عليه، إلى أن كانت أيام تاش الحاجب الذي رجع من خراسان إلى نيسابور منهزماً، فشمّت به وجعل يقول: قبحاً له وللوزير أبي الحسن التعبي فبلغ العتبي أبياتاً منسوبة إلى الخوارزمي في هجائه ولم يكن قائلها - منها^(١):

قل للوزير أزال الله دولته * جزيت صرفاً على قول ابن منصور

فكتب الوزير إلى تاش في أخذه ومصادرته وقطع لسانه، وإلى أبي المظفر الرعيني في معناه، وكان يلي البندرة بنيسابور إذ ذاك، فتولى حبسه وتقييده وأخذ خطه بمائتي ألف درهم واستخرج بعض المال وأذن له في الرجوع إلى منزله مع الموكلين به؛ ليحمل الباقي، فاحتال عليهم ذات يوماً، وشغلهم بالطعام والشراب وهرب متنكراً إلى حضر الصاحب بجرجان، فتجلت عنه قمة الخطب وانتعش في ذلك الفناء الرحب، وقتل العتبي وحل محله أبي الحسن المزني، وكان من أشد الناس حباً للخوارزمي، فاستدعاه وأكرم مورده ومصدره وكتب إلى نيسابور في رد ما أخذ منه عليه ففعل وزادت حاله وثبت قدمه ونظر

(١) بيتمة الدهر، ج٤، ص ٢٣٨.

إليه ولاية الأمر بنيسابور بعين الحشمة والاحتشام والإكرام والإعظام، فارتفع
مقداره وطاب عيشه^(١).

مكانته وعلمه:

قال عمر فروخ: هو أديب شاعر وناثر، لقد كان إماماً في اللغة عالماً
بأشعار العرب عارفاً بأنسابها وأخبارها، كثير الحفظ للأشعار، أما شعره القليل
الذي سلم من الضياع فهو أقرب إلى شعر العلماء منه إلى شعر الشعراء
المطبوعين، وشعره مع هذا حسن المعاني قوي السبك صافي الأسلوب... ومن
فنون شعره الهجاء، المديح، الرثاء. أما نثره فكان ترسلاً وكان أسمى طبقة من
شعره، وكان يتكلف الصناعة في رسائله لكنه يصيبها أحياناً كثيرة ويقصد إلى
الفكاهة والتهكم ويجيدهما^(٢).

وقال عنه الثعالبي: باقة الدهر وبحر الأدب وعلم النثر والنظم وعالم
الفضل والظرف، وكان يجمع بين الفصاحة العجيبة والبلاغة المفيدة، ويحاضر
بأيام العرب وأخبارها ودواوينها، ويدرس كتب النحو واللغة والشعر، ويتكلم بكل
نادرة، ويبلغ في محاسن الأدب كل مبلغ، ويغلب على كل محسن بحسن
مشاهدته، وملاحة عبارته، ونعمة نعمته، وبراعة جده، وحلاوة هزله، وديوان
رسائله مخد سائر، وكذلك ديوان شعره^(٣).

وكان في عصره أمير الأدباء، وكان حاضر البديهة، سريع الحفظ، وقد
نقل عنه الثعالبي ويبدو ذلك من خلال كتابه يتيمة الدهر، كما نقل عنه
آخرون.

(١) يتيمة الدهر، ج٤، ص ٢٣٨

(٢) تاريخ الأدب العربي، لعمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ط٦، ١٩٩٧م، ج٢، ص ٥٤٤

(٣) يتيمة الدهر، ج٤، ص ٢٢٣

٢- أبو الفرج الأصبهاني:

علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم بن عبد الرحمن بن مهران بن عبد الله بن مروان بن معمر بن مروان بن الحكم أبو الفرج الأموي الكاتب المعروف بالأصبهاني^(١).

وُلِدَ بأصبهان^(٢)، وكان ميلاده سنة أربع وثمانين ومائتين^(٣) نشأ ببغداد^(٤) في بيت يتذوق أهله الأدب ويجعلونه أحاديثهم.

من أساتذته: عبد الله بن سعد الوراق، ومحمد بن القاسم بن مهرويه، ومحمد بن سعد الكراشي^(٥)، ومنهم كذلك ابن دريد والطبري، وابن الأنباري، والأخفش وغيرهم، وكان لهؤلاء العلماء أثر كبير على عبقريته^(٦).

قال عنه الثعالبي: إنه من أعيان أدباء بغداد وإفراد مصنفيهها^(٧) وله شعر يجمع إتقان العلماء وإحسان ظرفاء الشعراء.

وقال الخطيب البغدادي: حدثنا التتوخي عن أبيه فقال: ومن الرواة المتسعين الذين شاهدناهم أبو الفرج الأصبهاني فإنه كان يحفظ من الشعر والأغاني الأخبار والآثار، والحديث المسند، والنسب، ما لم أر قط من يحفظه مثله، وكان شديد الاختصاص بهذه الأشياء، ويحفظ دون ما يحفظ منها علوماً أخر منها: اللغة، النحو، السير، المغازي، الخرافات، ومن آلة المنادمة شيئاً كثيراً مثل: علم الجوارح، والبيطرة، والطب، والنجوم، والأشربة، وغير ذلك^(٨).

قال الخطيب البغدادي: حدثنا أبو عبد الله الحسين بن محمد بن طباطبا العلوي قال: سمعت أبا محمد الحسن بن الحسين النوبختي يقول:

(١) تاريخ بغداد، ج ١١، ص ٣٩٧

(٢) الأعلام، ج ٢، ص ٦٦٦، وأبو الفرج الأصبهاني، لمحمد أحد خلف الله، مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٣م، ص ١٥

(٣) تاريخ بغداد، ج ١١، ص ٣٩٩

(٤) يتيمة الدهر، ج ٣، ص ١٢٧، بغدادي المنشأ

(٥) أبو الفرج الأصبهاني، لمحمد أحمد خلف الله، ص

(٦) أبو الفرج الأصبهاني، لشفيق صديري، دار المعارف، مصر، ص ٨٠

(٧) يتيمة الدهر، ج ٣، ص ١٢٧

(٨) تاريخ بغداد، ص ٣٩٨

كان أبو الفرج الأصبهاني أكذب * الناس، كان يدخل سوق الوراقين وهي عامرة والدكاكين مملوءة بالكتب فيشتري شيئاً كثيراً من الصحف ويحملها إلى بيته ثم تكون رواياته كلها فيها.

كان الأصبهاني منقطعاً إلى الوزير المهلبي مختصاً به وأورد فيه معظم أشعاره في المدح، ومما مدح به الوزير المهلبي قوله:

لما انتجعنا لأندين بظله * أعان وما عني ومنّ وما منّا
وردنا عليه مقترين فراشنا * وردنا نداءه مجدبين فأخصبنا^(١)
وقال واصفاً قلمه:

وأجرى ظبا أقلامه وتدفتت * بديهته كالمستجير من البحر
رأيت نظام الدر في نظم قوله * ومنثوره الرقراق في ذلك النثر^(٢)
وعلى حسب ما ورد له من أشعار في يتيمة الدهر يبدو أنه كتب الشعر في أغراض مختلفة.

ورد في تاريخ بغداد، أن أبو الفرج الأصبهاني قال: بلغ أبو الحسن بن جحظة أن مدرك بن محمد الشيباني الشاعر ذكره بسوء في مجلس كنت حاضرة فكتب إلي:

أبا الفرج أهجى إليك ويعتدي * عليّ فلا تحمي لذاك ويغضب
لعمرك ما أنصفتني في مودتي * فكن معتباً أن الأكارم تعتب
فكتبت إليه:

عجبت لما بلّغت عني باطلا * وظني بي فيه لعمرك أعجب
ثكلت إذا نفسي وعزي وأسرّتي * بفقدي وما أدركت ما كنت أطلب
فكيف بمن لاحظ لي في لقائه * وسيان عندي وصله والتجنب
فثق بأخ أصفاك محض مودة * تشاكل فيها ما بدا والمغيب^(٣)

(١) يتيمة الدهر، ج٣، ص ١٢٨

(٢) المصدر السابق، ج٣، ص ١٢٨

(٣) تاريخ بغداد، ج١١، ص ٢٩٨

نبه ذكره وظهر فضله، والشرق تتنازعه دول مختلفة فاستطاع أن يتقلب بين هؤلاء الخصوم، ويفيدهم بأدبه ويستفيد من مالهم، ويتقوى بنفوذهم وسلطانهم، وكان كاتباً لركن الدولة بن بويه حظياً عنده، وما كان عطاء ملوك الشرق ليكفيه، فكان يؤلف الكتب للأمويين بالأندلس^(١) سراً فينعمون عليه، وكان يجاهر بالتشيع.

وكان أكثر الناس حذباً عليه وإيثاراً له الوزير المهلبي، فانقطع إليه ونادمه حتى موته^(٢).

كان أبو الفرج على أدبه وظرفه، سليط اللسان مخشى البادرة، تتقيه الملوك والأمراء، لعلمه بالأنساب ومثالب البيوت، وكان قدر الهيئة رث الثوب لا يغسله ولا يبدله، وكان الوزير المهلبي، يحتمل كل هذا منه لعلمه وحسن حديثه، كما كان الناس يحذرون لسانه ويتقون هجاءه ويصبرون على معاشرته ومواكلته ومشاربته وعلى كل صعب من أمره، وكانت له بعض الأمزجة الغريبة وكان شراً شاذاً في أكله، وقد كان كما قدمنا، ملماً بأشتات العلوم، راوياً لمختار المنثور والمنظوم، ثقة فيما يحدث ناقداً لما يسمع، ولم يكن أبو الفرج شاعراً مطبوعاً، وإنما كان كاتباً معدوداً، ومؤلفاً قديراً، ومصنفاً مجيداً، وراويَةً أميناً، وحسبه ميزة وشرفاً كتابه المسمى "بالأغاني"^(٣).

(١) أبو الفرج الأصبهاني، لشفيق صديري، ص ٨٠

(٢) تاريخ الأدب العربي، لأحمد حسن الزيات، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٨م، ص ٤١٣

(٣) المصدر السابق

المبحث الرابع ابن نباته الفارقي

الخطيب أبو يحيى عبد الرحيم بن محمد بن إسماعيل بن نباته الحذاقي الفارقي^(١).

وحذاقه: بطن من قضاة وقبيلة من إياد^(٢).

والفارقي نسبة إلى بلده مبافارقين^(٣).

قال ابن خلكان: هذا الخطيب لم أر أحداً من المؤرخين ذكر تاريخه في الميلاد والوفاة سوى ابن الأزرقي في تاريخه، فإنه قال: ولد في سنة خمس وثلاثين وثلثمائة، وتوفى في سنة أربع وسبعين وثلثمائة بمبافارقين ودفن بها^(٤).

لم يذكر عن أحداث حياته إلا أنه كان خطيباً للملك سيف الدولة^(٥).

مكانته: قال عنه الذهبي: إنه الإمام الأوحده خطيب زمانه صاحب الديوان الفائق في الحمد والوعظ، وكان فيه خير وصلاح، وكان فصيحاً مفوهاً بديع المعاني جزل العبارة رزق سعادة تامة في خطبه^(٦).

وقال عنه ابن خلكان: الخطيب صاحب الخطب المشهورة وكان إماماً في علوم الأدب ورزق السعادة في خطبه التي وقع الإجماع على أنه ما عمل مثلها وفيها دلالة على غزارة علمه وجودة قريحته، وكان خطيب حلب، وكان سيف الدولة كثير الغزوات، فلهذا أكثر الخطيب من خطب الجهاد ليحث الناس عليه ويحثهم على نصرته سيف الدولة وكان رجلاً صالحاً^(٧).

(١) وفيات الأعيان، ت إحصان عباس، ج٣، ص ١٥٦

(٢) المصدر السابق، ص ١٥٨

(٣) تاريخ الأدب العربي، لعمر فروخ، ج٢، ص ٥٢٧

(٤) وفيات الأعيان، ج٣، ص ١٥٨

(٥) وفيات الأعيان، ج٣، ص ١٥٦، تاريخ الأدب العربي، لعمر فروخ، ج٢، ص ٥٢٧، وسير أعلام

النبلاء، للذهبي، ج١٦، ص ٣٢١

(٦) سير أعلام النبلاء ج١٦، ص ٣٢١ - ٣٢٢

(٧) وفيات الأعيان، ج٣، ص ١٥٦

ذكر ابن خلكان في وفيات الأعيان أن الشيخ تاج الدين الكندي ذكر بإسناده المتصل إلى الخطيب ابن نباته أنه قال: لما عملت خطبة المنام وخطبتُ بها يوم الجمعة رأيت ليلة السبت في منامي كأني بظاهر ميفارقين عند الجبّانة، فقلت ما هذا الجمع؟، فقال لي قائل هذا النبي "صلى الله عليه وسلم" ومعه أصحابه فقصدت إليه أسلم عليه، فلما دنوت منه التفت رأني فقال: مرحباً يا خطيب الخطباء، كيف تقول وأوماً إلى القبور، فقلت: لا يخبرون بما إليه ألوا، ولو قدروا على المقال لقالوا، قد شربوا من الموت كأساً مرّة، ولم يفقدوا من أعمالهم ذرة، وآلى عليهم الدهر إليه بره، ألا يجعل لهم إلى دار الدنيا كره، كأنهم لم يكونوا للعين قرّة، ولم يعدوا في الأحياء مرة، أسكتهم والله الذي أنطقهم، وأبادهم الذي خلقهم ويجدّهم كما أخلقهم ويجمعهم كما فرقهم ويوم يعيد الله العالمين خلقاً جديداً، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقوداً، يوم تكونون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً، وأومات عند قولي "تكونون شهداء على الناس" إلى الصحابة بقولي شهيداً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً فقال لي: أحسنت ادنِ فدنوت منه صلى الله عليه وسلم فأخذ وجهي وقبّله ثم ثقل في فيّ وقال لي: وفقك الله، قال: فانتبهت من النوم وبني من السرور ما يجل عن الوصف فأخبرت أهلي بما رأيت. قال الكندي: وبقي الخطيب بعد هذا المنام ثلاثة أيام لا يطعم طعاماً ولا يشتهي، ويوجد في فيه رائحة المسك، ولما استيقظ من منامه كان على وجهه أثر نور وبهجة لم تكن قبل ذلك وقعت رؤياه على الناس وقال سماني رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً وعاش بعد ذلك ثمانية عشر يوماً وهذه الخطبة التي فيها هذه الكلمات تعرف بالمنامية^(١).

ذكر ابن خلكان: أنه رأى في بعض المجاميع أن الوزير أبو القاسم بن المغربي قال: رأيت الخطيب ابن نباته في المنام بعد موته فقلت له ما فعل الله بك؟.

(١) وفيات الأعيان، ج٣، ص ١٥٦ - ١٥٧

فقال: دفع لي ورقة فيها سطران بالأحمر:

قد أمن لك من قبل ذا * واليوم أضحي لك أمنان
والصفح لا يحسن عن محسن * وإنما يحسن عن جاني^(١)

قال: فانتبهت من النوم وأنا أكررهما.

يقول د. مصطفى الشكعة: "وابن نباته الفارقي هو أبلغ خطباء القرن الرابع على الإطلاق ويتلوه في الترتيب ابنه أبو طاهر يحيى بن عبدالرحمن بن نباته. والحق أن أبا يحيى بن نباته هو المجدد لشباب فن الخطابة بعد أن يبس عودها وصوّحت نضرتها، بل هو واضع أصولها ومقعد قواعدها، وكان الناس انصرفوا عن الخطابة منذ أن زالت دولة بني أمية، ومنذ أن قضى الخلفاء الأوائل من بني العباس وصار الحكم إلى أبناء الإمام من فرس وترك وعجم^(٢)، وإذا كان قد قيل قديماً إن بني أمية نصرُوا بالحجاج وعبد الحميد، ومؤخراً قيل: إن صلاح الدين نصر بقلم القاضي الفاضل، فإنه من الإنصاف أن يقال: إن سيف الدولة نُصر بخطب ابن نباته الفارقي. وقد تحمّل ابن نباته هذه الرسالة العظيمة وهو في الخامسة عشرة وكان ذلك في سنة ٣٤٨هـ حين أحرز الروم بعض الانتصارات على سيف الدولة^(٣).

ممن تتلمذ على ابن نباته شريفي بغداد وأدبيها الكبيرين الرضي والمرتضى.

خلف ابن نباتة ديوان خطبه الذي يعدُّ واحداً من الآثار الأدبية الرفيعة التي خلفها العصر الحمداني وحظى هذا الديوان بشروح مهمة ومتعددة من أئمة الأدب أهمهم: العكبري، وعبد اللطيف البغدادي والشيخ طاهر الجزائري وغيرهم. ومن أنواع الخطب التي اشتهر بها ابن نباته الخطب المنبرية، وخطب الجهاد.

(١) وفيات الأعيان، ج٣، ص ١٥٧-١٥٨

(٢) سيف الدولة الحمداني، لمصطفى الشكعة، الدار المصرية اللبنانية، ط٣، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، ص ٣٠١

(٣) المصدر السابق، ص ٣٠٤

لم يكن ابن نباته من المعمرين بل مات في ريعان الشباب، في ميافارقين وعمره تسعة وثلاثون عاماً وخلف للأدب علمين كبيرين من أعلامه هما ولده أبو طاهر الخطيب، وأحد أحفاده جمال الدين بن نباته الشاعر المصري.

المبحث الخامس مفكرون آخرون

١- ابن كشكرايا (طبيب سيف الدولة):

هو أبو الحسن ابن كشكرايا طبيب عالم درس الطب على يد سنان ثابت بن قرّة، وكان من أنبه تلاميذه.

كان متقناً لصناعة الطب، دخل في خدمة سيف الدولة حتى بنى عضد الدولة "البيمارستان" المنسوب إليه ببغداد استخدمه فيه، وقد كان مترجماً إلى اللاتينية والعبرية.

ساعده والده في ارتقاء المراتب الاجتماعية والحكومية كما ساعده على بلوغ هذه المنزلة في الطب؛ لأن والده كان طبيباً للرشيد، والمأمون، والمعتصم، والواثق والمتوكل، وقد عهد إليه هارون الرشيد ترجمة ما وُجد من كتب الطب القديمة في أنقره، وعمورية، وبلاد الروم وجعله أميناً للترجمة.

مؤلفاته:

لابن كشكرايا أربعين كتاباً في الطب معظمها رسائل أهمها:

- كناشة المعروف "بالحاوي" وهو أشهر وأهم كتبه.

- كتاب الكامل في الطب.

- كتاب دفع مضار الأغذية.

- الأدوية المسهلة.

- علاج الصداع.

- تركيب طبقات العين.

- جوهرة الطب المفردة بصفاتنا ومعانيها.

- الفصد والحجامة.

- علاج النساء اللاتي لا يحبلن.

- كتاب القولنج.

- كتاب في الجذام.

- كتاب في التشريح.

- كتاب في المايخوليا وأسبابها وعلاماتها^(١).

٢- أبو الطيب اللغوي:

هو عبد الواحد علي العسكري الحلبي المعروف بأبي الطيب اللغوي، ولد بعسكر مكرم وهو بلد من نواحي خزستان والأهواز - وتعلم القراءة والكتابة ومبادئ العلوم بها. ولذلك يعرف بالعسكري. ونُسب إلى مكرم بن معزاء بن الحارث صاحب الحجاج بن يوسف^(٢).

انتقلت أسرة أبا الطيب إلى بغداد، وقرأ العلم فيها على أبي عمر الزاهد، ومحمد بن يحيى الصولي، قال أبو الطيب قرأت على أبي عمر "الفصيح"، وإصلاح المنطق حفظاً^(٣).

وأصبح مدينة زاهرة بحضارتها وعمرانها.

قدم أبو الطيب إلى حلب وأقام بها في ظلل الأمير سيف الدولة، وكانت بينه وبين ابن خالويه منافسة، فوقف بجانب المنتبي وابن جني في وجه ابن خالويه وأنصاره، وفي حلب عرف بلقب اللغوي الحلبي^(٤).

أبو الطيب اللغوي من علماء اللغة الكبار، وعلم الصرف خاصة وقد خلع عليه بعد موته لقب "حجة العرب" وكان لأبي الطيب شعر يسير هو من شعر العلماء، يضعف فيه العنصر الوجداني ويبرز فيه أثر الثقافة وكان في سبجه متأثراً بالجاحظ؛ لأنه كان من المعجبين به^(٥).

(١) علماء العرب والمسلمين، لمصطفى الجبوسي، ص ٦٥.

(٢) معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة، ط بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م، ج ٢، ص ٣٣٤، وترجمته كذلك في إشارة التعيين وتراجم النحاة واللغويين، لعبد الباقي بن عبد المجيد اليماني، ت عبد المجيد دياب، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ص ١٩٧.

(٣) الوافي بالوفيات، للصفدي، ت أحمد الأرناؤوط، وزكي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج ١٩، ص ١٧٣.

(٤) تاريخ الأدب العربي، لعمر فروخ، ج ٢، ص ٤٥٥.

(٥) المصدر السابق، ص ٤٥٦.

وفي أواخر سنة ٣٥١هـ هاجم الروم حلب ودخلوها وأكثروا القتل في أهلها، فقتل أبو الطيب اللغوي في ٢١ من ذي القعدة سنة ٣٥١هـ^(١). وبذلك ضاعت أكثر مؤلفاته ومن تصانيفه: الإبدال، وشجر الدر والأضداد في كلام العرب^(٢) وقال صاحب إشارة التعيين عنه الإمام الأوحى له التصانيف الجليلة منها: كتاب مراتب النحويين، وكتاب الاتباع على حروف المعجم^(٣)، وكتاب شجر الدر، ومنها المثني، والفرق أو الفروق، وطبقات الشعراء^(٤) وضاعت أكثر مؤلفاته.

٣ - كشاجم:

عاش كشاجم في بلاط سيف الدولة بالقرن الرابع وترك في صفحات الأدب نثره وشعره، أثراً خالداً لا يمحي فارتفع به العصر وازدهى به الأدب واعتزت به الثقافة^(٥).

وقد تفرغ للتأليف والكتابة والشعر وآلف كتاب "أدب النديم"، وقد جمع في كتابه "أمثال الحكماء ومنظوم الشعراء، ومنثور البلغاء، وأخبار الظرفاء، وأودع في "أدب النديم" ما لا يستغنى عنه شريف، ولا يجوز أن يخلّ به ظريف. والكتاب قليل الحجم كثير النفع، لغته متينة وألفاظه مختارة، وجمله قصيرة، يغلب عليها الإيحاء في التعبير والتوفيق في الاختيار، فهو يرسم العصر في أيامه، والمجالس في زمانه^(٦).

(١) معجم المؤلفين، ج ٢، ص ٣٣٤، وتاريخ الأدب العربي، لعمر فروخ، ج ٢، ص ٤٥٥.

(٢) معجم المؤلفين، ج ٢، ص ٣٣٤.

(٣) إشارة التعيين، ص ١٩٧.

(٤) الأدب العربي، لعمر فروخ، ج ٢، ص ٤٥٥.

(٥) قدمات ومعاصرون، ص ١٦ وما بعدها.

(٦) المصدر السابق.

المبحث الأول

ملامح الإنتاج الفكري والجهود العلمية عند الفارابي

قرأ الفارابي الفلسفة اليونانية وتأثر بها في فلسفته ومنهجه، واهتماماً بالغاً بشرح وتفسير آراء أرسطو وغاص في أعماقها وفهم أسرار أغوارها فوجدها أكبر مما تستطيع أن تستوعبه عقول العلماء^(١). قال ابن سينا: اطلّعت على كتاب "ما وراء الطبيعة" وقرأته أربعين مرة ولم أفهم منه شيئاً إلا من بعد اطلّاعي على كتاب الفارابي "أغراض كتاب ما وراء الطبيعة".

كان الفارابي لا تستوقف فكرة الموضوعات العادية وكان يقرأ كتب أرسطو العديد من المرات وذكر أنه وجد كتاب النفس لأرسطو وعليه بخط يد أبي نصر قد قرأت هذا الكتاب مائة مرة^(٢).

ويقال: إنه أثر عن الفارابي قوله قرأت السماع الطبيعي لأرسطو طاليس الحكيم أربعين مرة وارى أنني محتاج إلى معاودة قراءته^(٣).

إن جهود الفارابي لم تتوقف عن حدود التفسير بل تعدّت ذلك إلى الإدلاء بآراء ووجهات نظر خاصة به وقد اعتبر المنطق آلة الفلسفة وأداتها التي يمكن بواسطتها الوصول إلى التفكير الصحيح.

فلسفة الفارابي ومنهجه:

الفلسفة بمعناها الواسع الذي كان مستخدماً في عصر الفارابي "في القرنين الثالث والرابع الهجريين" هي: العلم الجامع الذي يضع أمامنا صورة شاملة للكون^(٤).

(١) إخبار الحكماء بأخبار العلماء، لجمال الدين أبو الحسن بن علي بن يوسف القاضي، الملقب

بالقطني، مطبعة الخانجي، ١٣٢٦هـ.

(٢) علماء العرب والمسلمين وأعلامهم، ص ٢٨٥

(٣) المصدر السابق

(٤) المصدر السابق، ص ٢٨٥

ولذا تعمق الفارابي في التحليل والتفسير وفي القراءة والبحث وفي التنقيب عن الحقائق، واستندت أفكاره على الفلسفة اليونانية وبخاصة أرسطو وأفلاطون وأخضع تلك الأفكار إلى واقعه وعقيدته وطبّعها بطابع إسلامي، وأثبت الفارابي أن الفلسفة لا تتعارض مع الشريعة الإسلامية، فالفلسفة والدين عنده أمران متفقان لأنه كان يؤمن بجلال الفلسفة من جهة وكمال الإسلام من جهة أخرى؛ لأن كلاهما حق والحق لا يعارض الحق، فالدين يلجأ في الوصول إلى الحقيقة بطرق الإقناع النفسي والتأمل وغيره والفلسفة تسعى في الوصول إلى الحقيقة عن طريق البرهان المنطقي^(١).

كما كان يشترط في دارس الفلسفة أن يبدأ بتعليم الهندسة والأخلاق ثم المنطق؛ ليكون قوي البرهان سليم الاستنتاج.

المنطق: عرّف الفارابي المنطق بأنه العلم الذي نعلم به الطرق التي توصلنا إلى تصور الأشياء وإلى تصديق تصورها على حقيقتها.

قال القفطي: "إنه برز على أقرانه وأرى عليهم في التحقيق في شرح الكتب المنطقية وأظهر غامضها وكشف سرها، وقرب متناولها وجمع ما يحتاج إليه منها في كتب صحيحة العبارة لطيفة الإشارة منبهة على ما أغفله الكندي وغيره من صناعة التحليل وإنحاء التعليم وأوضح القول فيها من مواد المنطق الخمس وأفرد وجوه الانتفاع بها وعرف طرق استعمالها، وكيف تعرف صور القياس في كل مادة منها فجاءت كتبه في ذلك الغاية الكافية والنهائية الفاصلة^(٢).

ومن هنا نخلص إلى أن المنطق عنده:

قانون للتعبير بلغة العقل الإنساني عند جميع الأمم.

وقال ابن خلكان عندما قارنه بفلاسفة المسلمين... لم يكن فيهم من بلغ

رتبته في فنونه والرئيس ابن سينا بكتبه تخرج وبكلامه انتفع^(٣).

(١) الموسوعة الذهبية، العلماء العرب والمسلمين، ص ٢٥٦

(٢) إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ١٨٢.

(٣) وفيات الأعيان، ج ٥، ص ١٥٦.

الأخلاق:

أما الأخلاق من وجهة نظر الفارابي تتفق مع شرائع الإسلام، ويرى أن شأن التجربة والعمل في الأخلاق أكبر مما هو في المنطق، وفي معالجته للأخلاق يوافق أفلاطون تارة وأرسطو تارة وقد يتجاوز آراءهما في نزعة تصوف وزهد. إلا أن المعرفة عنده أرفع شأنًا من الأعمال الخلقية^(١).

السياسة أو مدينة الفارابي الفاضلة:

اهتدى الفارابي في آرائه السياسية بأنوار المدينة الفاضلة التي بناها قبله أفلاطون.

ومن كتب الفارابي الجديرة بالذكر "آراء أهل المدينة الفاضلة" الذي بث فيه مذهبه الفلسفي وآرائه في الإلهيات والنفس الإنسانية والأخلاق والسياسة ومدينة الفارابي ليست كما يتصور البعض صورة مصغرة لجمهورية أفلاطون اليوناني على الرغم من بعض التشابه بينهما فقد استعان الفارابي بفلسفة اليونان وجمهورية أفلاطون كما استعان بالإسلام وأحكامه وأضاف مدينة جديدة أحسن فيها الاختيار والافتباس، فظهرت فيها قواعد سامية وأصول علمية يجدر بكل أمة السير عليها والاقتراب من نموذجها^(٢).

يرى الفارابي لا بد أن يكون رئيس المدينة فيلسوفاً وأن الناس قد دعتهم الضرورة إلى الاجتماع يخضعون لرئيس واحد تتمثل فيه المدينة بخيرها وشرها فهي خيرة إن كان الرئيس عالماً بالأخلاق، وهي فاسدة إن كان الرئيس جاهلاً بقوانين الخير والشر أو فاسداً أو ضالاً.

ويشترط في رئيس المدينة اثنتي عشرة خصلة: أن يكون تام الأعضاء جيد الفهم والتصور، جيد الحفظ لما يفهمه ولما يراه ولما يسمعه ولما يدركه جيد الفطنة ذكياً، وأن يكون حسن العبارة ومحققاً للتعليم، وغير شره على المأكول والمشروب والمنكوح، وأن يكون محباً للصدق متعصباً للكبر، وأن يكون كبير النفس محباً للكرامة، محتقراً لأغراض الدنيا وخاصة المال، وأن يكون محباً

(١) تاريخ الفلسفة الإسلامية، لدى يور، ترجمة أبي ريدة، مكتبة النهضة المصرية، ط ٥، ص ٢١٦ وما بعدها

(٢) علماء العرب والمسلمين وأعلامهم، ص ٢٠٩

للمعدل وأهله مبغضاً للظلم والظالمين وأن يكون عدلاً غير صعب القياد ولا جموحاً ولا لجوجاً، ثم يجب بعد ذلك أن يكون قوي العزيمة جسوراً مقداماً^(١).

الذات الإلهية:

يذهب الفارابي فيما يتعلق بالموجودات إلى أن الموجودات إما أن تكون ممكنة الوجود وإما أن تكون واجبة الوجود ولا ثالث لهذين الرأيين^(٢).
وواجب الوجود إما أن يكون واجب الوجود بذاته، أو واجب الوجود بغيره وهو الممكن إذا وُجد^(٣).

ولما كان ممكن الوجود يحتاج إلى علة والعلل لا يمكن أن تتسلسل إلى غير نهاية^(٤)؛ فلا بد للأشياء الممكنة من انتهائها إلى شيء واجب له غاية الكمال والجمال ولا برهان عليه بل هو برهان على كل شيء، وهو العلة الأولى والواحد الذي لا شريك له وهو الله^(٥). وهذا الاستنتاج فيما يبدو لي أن الفارابي أخذ من قوله: ﴿قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد﴾^(٦).

وهنا أعانته ثقافته الدينية إلى ما توصل إليه وهو بذلك فاق فلاسفة اليونان وغيرهم.

النفس الإنسانية:

النفس الإنسانية عند الفارابي ليست متساوية^(٧).

وتتنقسم إلى القوة الغازية وهي الرئيسة التي يتغذى بها الإنسان والقوة الحاسة التي يحس بها الأشياء ويتذوقها، والقوة المتخيلة وهي التي يحفظ بها ما

(١) آراء أهل المدينة الفاضلة، ص ١٩٧ وما بعدها.

(٢) فنون الشعر، ص ١٠٢

(٣) الثمرة المرضية في بعض الرسائل الفارابية، طبعة ليدن، عيون المسائل، ص ٥٧

(٤) نوابغ الفكر العربي، الفارابي، ص ٣٨

(٥) الموسوعة الذهبية، ص ٢٥٦

(٦) سورة الإخلاص (١-٥)

(٧) نوابغ الفكر العربي، ص ٤٧

ارتسم في نفسه من المحسوسات بعد غيبتها عن مشاهدة الحواس لها، القوة الناطقة بها يعقل المعقولات، والقوة النزوعية التي تشتاق وتكره^(١).

العقل:

العقل هو القوة الناطقة عند الإنسان والذي به يتميز عن سائر الحيوان. والعقل عند الفارابي كما هو عند أرسطو عقلان: عقل عملي ووظيفته معرفة الصناعات والمهن. وعقل نظري "ويجوز به الإنسان المعرفة، ويقول إذا كانت النفس كمال الجسم، فإن العقل كمال النفس، وما الإنسان إلا العقل على الحقيقة.

كتاب إحصاء العلوم:

كان الفارابي عظيماً في فلسفته عظيماً في منطقة عظيماً في حكمته، ولم يأت تلقبيه بالمعلم الثاني عن طريق المصادفة، وكانت نفسه تنزع إلى البحث عن الحقائق المجردة، كما كان لا يروى ظماً نفسه النظر إلى علم واحد ولذلك كان فكره موسوعة علمية فكرية شاملة لكل العلوم والفنون، وبالنظر في كتابه إحصاء العلوم يتبين لنا ذلك؛ لأنه قسّمه إلى فصول متعددة تحدث فيها عن علوم اللسان وفروعه من: نحو وصرف وبيان وشعر، وأسس القراءة والكتابة وهذا الفصل الأول أما الفصل الثاني فتحدث فيه عن المنطق، والثالث تحدث فيه عن علم التعاليم ويقصد علم الرياضيات، والرابع تحدث فيه عن العلم الإلهي والطبيعي، والخامس تحدث فيه عن العلم المدني^(٢).

قال د. إبراهيم مذكور: "إحصاء العلوم محاولة تعدُّ الأولى في بابها في تاريخ الفكر الإسلامي^(٣).

فبكل حق هذه العقلية الجبارة تستحق منا كل الإجلال والتقدير والإعجاب.

(١) آراء أهل المدينة الفاضلة، للمعلم الثاني الفارابي، القدس للدراسات والبحوث لطفه حبيشي، المكتبة

الأزهرية للتراث، ص ١٣٩ وما بعدها بتصريف.

(٢) راجع علماء العرب والمسلمين وأعلامهم، ص ٢٩

(٣) في الفلسفة الإسلامية، لإبراهيم مذكور، ص

التنجيم:

ومن أهم ما خرج به الفارابي في رأيه رؤاه الخاصة به في علم التنجيم وذلك من خلال ما جاء به في رسالة أسماها "النكت فيما يصح وفيما لا يصح من أحكام النجوم"^(١).

وبين في تلك الرسالة فساد علم أحكام النجوم، ووصفها بأنها تجلب السعادة أو الشقاء. لأنه يرى أن الممكن متغير فلا يمكن معرفته معرفة يقينية. ومما خرجنا به من فهمه لهذا العلم أن هناك معرفة برهانية كاملة اليقين في علم النجوم التعليمي، ومعرفة ظنية لا قيمة لها وذلك من خلال قوله: أما دراسة خصائص الأفلاك وفعلها في الأرض -مثلاً كالربط بين ظاهرة الخسوف أو الكسوف بموت عظيم- فلا تظفر منها إلا بمعرفة ظنية ودعاوى المنجمون وتبوءاتهم لا تستحق منا إلا الشك والارتياب.

الموسيقى عند الفارابي:

كان الفارابي موسيقياً مبدعاً تشهد له بذلك مؤلفاته الموسيقية. ذكر ابن خلكان: إنه مخترع آلة "القانون" كانت مؤلفاته الموسيقية بالغة في العمق لا يفهمها إلا المتضلعون في أعمال الموسيقى. والفارابي كان منذ صباه يحب الموسيقى ويعزف على العود كما ذكرنا آنفاً وعندما نضج وكوّن فلسفته الخاصة عد الموسيقى جزءاً من علم التعاليم، وهي العلم الذي تعرف به صناعة الألحان والموسيقى عنده قسمان قسم نظري وقسم عملي.

وقد كتب الفارابي عدداً من المؤلفات الموسيقية إلا أنها في عداد المفقودات، ما عدا كتاب واحد اسمه كتاب الموسيقى الكبير الكتاب موجود بإيطاليا والجدير بالذكر أن هذا الكتاب نظراً لقيمته قد ترجم إلى معظم اللغات الحية، الإيطالية، والإنجليزية، والفرنسية وغيرها^(٢).

(١) علماء العرب والمسلمين وأعلامهم، ص ٢٩٠

(٢) راجع مشاهير الموسيقيين العرب، لطارق عبد الحكيم، د. ت، ص ١٣٣

استوفى الكتاب شتى نواحي فن الموسيقى فتحدث فيه عن الآلات الموسيقية، وأنواع الأنغام، وتوافق الأصوات والأوزان والكثير مما لا تفهمه عن عالم الموسيقى.

مما عرف عن الفارابي أنه لم يقلد أحداً في الموسيقى وإنما كان مبتكراً متفرداً، واسم كتاب الموسيقى الكبير يدل على أن له مما عُدَّ في عداد المفقودات كتاب يسمى "الموسيقى الصغير" وله بعض المآثر الموسيقية في كتابه "إحصاء العلوم" وبه فصلاً ممتعة عن هذا الفن.

مؤلفات الفارابي:

وضع الفارابي ما يزيد عن المائة مؤلف ورسالة تناول فيها نواحي المعرفة المختلفة من فلسفة ورياضية وعلوم وموسيقى، وللأسف ضاعت أكثر تلك المؤلفات أثناء الفتن والاضطرابات التي تعرضت لها الدول العربية والإسلامية ولم يسلم منها إلا القليل^(١). ومن هذا القليل ترجم الأوروبيون ما وقع في أيديهم، ومنهم من نقل محتويات بعض رسائله وأدعاها لنفسه، ثم ظهر فيما بعد أنها مأخوذة من الفارابي، ولم يصل إلينا من هذه المؤلفات إلا أربعين مؤلفاً منها اثنان وثلاثون في أصلها العربي، وست رسائل مترجمة إلى العبرية واثنان مترجمتان إلى اللاتينية، وقد طبع نصف المؤلفات المكتوبة باللغة العربية في كل من ليدن، وحيدر أباد، والقاهرة، وبيروت، وغيرها وما زال الباقي مخطوطاً وأهمها^(٢):

- ١- كتاب الاحد والوحدة.
- ٢- كتاب الزمان.
- ٣- كتاب المكان.
- ٤- كتاب الجوهرة.
- ٥- عيون المسائل.
- ٦- كتاب تحصيل السعادة.

(١) مشاهير الموسيقيين العرب، ص ١٣٣

(٢) المصدر السابق، ص ١٣٤

- ٧- الجمع بين آراء أرسطو وأفلاطون.
- ٨- كتاب السياسات المدنية.
- ٩- كتاب صناعة علم الموسيقى.
- ١٠- كتاب إحصاء العلوم^(١).

(١) علماء العرب والمسلمين وأعلامهم، ص ٢٨٦ - ٢٨٧

المبحث الثاني

ملاح الإنتاج الفكري والجهود العلمية عند ابن جني

وابن خالويه وأبي علي الفارسي

ابن جني:

كتب ابن جني إجازة للشيخ أبي عبد الله الحسن بن أحمد بن نصر
"تلميذه" أن يروي عن مصنفاته، وقد وردت هذه الإجازة في معجم الأدباء ومنها:

- ١- الخصائص.
- ٢- المحتسب.
- ٣- تفسير ديوان المتنبّي.
- ٤- كتاب مختصر العروض والقوافي.
- ٥- سر الصناعة.
- ٦- المنصف.
- ٧- المذكر والمؤنث.
- ٨- التمام في تفسير أشعار هذيل.
- ٩- تفسير القصائد العلويات للشريف الرضي وهي أربع قصائد.
- ١٠- كتاب الغرف.
- ١١- اسما لمفعول المعتل من الثلاثي.
- ١٢- كتاب اللمع في العربية.
- ١٣- الوقف والابتداء.

كان الخوارزمي صاحب رسائل مشهورة وقيّمة وكان مقدماً ولم تبهت
مكانته إلا بعد ظهور بديع الزمان الهمداني ولولا وجود الهمداني لسد عبر
الأزمان مخذ الذكر. وكانت بعض رسائله تجري مجرى الأمثال وما وجدنا له
من رسائل في يتيمة الدهر كثيرة جداً ورأينا أن نختصر منها بعض النماذج التي
تفي بالغرض. ومن ذلك الكثير نختار له: "السكر على قدرا لإحسان، والسلع

بإزاء الأثمان والأذكار حيث التناسي، والتقاضي حيث التغاضي. النفس مائلة إلى أشكالها والطير واقعة إلى أمثالها العشرة مجاملة لا معاملة، والمجاملة لا تسع الاستقصاء والكشف ولا تحتمل الحساب والصرف، والدواء لغير حاجة إليه داء كما أنه عند الحاجة إليه شفاء الحر كريم الظفر إذا نال أنالها واللئيم سيء الظفر إذا نال استطال. الغيرة على الكتب منا لمكارم بل هي أخت الغيرة على المحارم، والبخل بالعلم على غير أهله اقضاء لحقه، ومعرفة بفضلها، والرجل إذا قيد عقل الوجل لم ينطلق نحو مطية الأمل^(١).

والكريم تاجر جمال لا تاجر مال، والحر وقاية الحر من فقره وسلاحه على دهره، الجواد يجري على عتقه والعرق ينزع إلى عرقه وكيف يخالف الإنسان مقتضى نسبه ويطلب الثمر من خبت تربته، الغضب ينسى الحرمات، ويدفن الحسنات ويخلق للبريء صايات. المدح الكاذب ذم والبناء على غير أساس هدم والدهر يبلى الآمال والأبدان ويلحق من يكون بمن كان، الإنسان بالإحسان، والإحسان بالسلطان، والسلطان بالزمان، والزمان بالإمكان، والإمكان على قدر المكان، الدنيا عروس كثيرة الخطاب والملك سلعة كثيرة الطلاب، الحق حق وإن جهله الورى والنهار نهار وإن لم يره الأعمى، العذل طلاق الرجال، والمجنة صيقل الأحوال وشاهد الأحوال أعدل من شاهد الأقوال، ثمرة الأدب العقل الراجح وثمره العلم العمل الصالح.

باب الإحسان مفتوح لمن شاء دخله وحى الجميل مباح لمن اشتهى فعله، وليس على المكارم حجاب ولا يغلق دونها باب أوجع الضرب مالا يمكن منه البكاء، وأشدّ البلوى مالا يخففه الاشتاء، أبى الله أن يقع في البئر إلا من حفر وأن يحيق المكر السيء إلا بمن مكر.

(١) راجع يتيمة الدهر، ج٤، ص ٢٢٣-٢٢٥

غرر من رسائله:

نعم جنة المرء من سهام دهره نزوله عند قدره ونعم السلم إلى الأرزاق
طلبها عن طريق الاستحقاق.

الرجال حصون يبنيها الإحسان ويهدمها الحرمان، وإنه لا مال إلا
بالرجال، ولا صلح إلا بعد قتال، والجبان مقتول بالخوف قبل أن يقتل بالسيف،
والشجاع حي وإن خانته العمر وحاضر وإن غيبه القبر.

إفراط الزيادة يؤدي إلى النقصان والمثل في ذلك جار على كل لسان
ولذلك قالوا: صبوة العفيف، وسطوة الحليم وضربة الجبان ودعوة البخيل وجواب
السكيت ونادرة المجنون، وظرف الأعراب^(١).

مختارات من شعره:

قال الخوارزمي في الغزل:

وشمس ما بدت إلا أرتنا * بأن الشمس مطلعها فضول

تزيد على السنين ضباً وحسناً * كما رقت على العتق الشمول

وقال في آل بويه:

سل الله واسأل آل بويه أنهم * بحار المعالي لا بحار الدراهم

نحبهم البلدان وهي نواشز * على كل زوج بعدهم أو محارم

إذا رامها أعداؤهم تركتهم * يطول بحفظي لا بالتمائم

ومن ملحه قوله:

ولي والله إخوان كثير * نصيبي من فعالهم سواء

ولكني رأيتك من أناس * إذا لم يحسنوا فلقد أساءوا^(٢)

أبو علي الفارسي:

تدل المآثر التي خلفها أبو علي، على ثقافة بارعة وهي ثروة علمية هائلة أهمها:

١- الإيضاح والتكملة.

٢- الحجة في علل القراءات.

(١) بيتيمة الدهر، ج٤، ص ٢٢٧-٢٢٨

(٢) المصدر السابق، ص ٢٢٩

- ٣- مختصر عوامل الإعراب.
- ٤- المسائل الحلبية.
- ٥- المسائل البصرية.
- ٦- المسائل الذهبيات.
- ٧- المسائل الدمشقية.
- ٨- المسائل العسكرية (منسوبة إلى عسكر مكرم).
- ٩- المسائل الكرمانية.
- ١٠- المسائل القصيرية.
- ١١- المسائل الشيرازيات.
- ١٢- المسائل المصلحة.
- ١٣- نشأة النحو.
- ١٤- جواهر النحو.
- ١٥- العوامل المائة.

لابن خالويه ثروة عظيمة من فنون اللغة المختلفة وكثرة مؤلفاته تدل على
غزارة علمه وعلى عبقريته الفذة من أهمها:

- ١- الجمل في النحو.
- ٢- الاشتقاق.
- ٣- إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم.
- ٤- شرح ديوان أبي فراس.
- ٥- المقصور والممدود.
- ٦- المذكر والمؤنث.
- ٧- ليس في كلام العرب.
- ٨- البديع في القراءات.
- ٩- الألفات غيرها.

أبو الفرج الأصبهاني (كتاب الأغاني):

أجمع المؤرخون على أنه لم يصنف في بابيه مثله، وإن كل كتاب في
الأدب كل عليه، ولولاه لضاع كثير من أخبار الجاهلية وصدر الإسلام، وأيام

بني أمية ألفه في خمسين سنة وبناه على مائة الصوت التي اختيرت للرشيد، وزيدت للوثاق، وعلى ما تخيره هو من عيون الأغاني، فترجم بقائلها ومغنيها، وذكر ما يدخل فيها من حرب وحب وشعر وفكاهة، وحمله إلى سيف الدولة الحمداني وأهداه إليه، وأعطاه سيف الدولة ألف دينار واعتذر إليه^(١). وعندما بلغ هذا الصنيع أبي صاحب ابن عبّاد، لام سيف الدولة لأنه قصر في حق أبي الفرج لأن الكتاب يستاهل أضعافها^(٢).

قال صاحب بن عبّاد: لم يكن كتاب الأغاني بفارق عضد الدولة في سفره ولا حضره وإنه كان جليسه الذي يأنس إليه وخديجه الذي يرتاح نحوه^(٣). كان صاحب بن عبّاد إذا سافر حمل كتبه على ثلاثين جملاً فلما اغتناه استغنى به عنها، وهو أجزاء كثيرة طبع منها عشرون جزءاً في سنة ١٢٨٥هـ ثم عثر أحد المستشرقين على جزء في إحدى مكاتب أوروبا فكملت الأجزاء واحد وعشرين، وضع لها الأستاذ جويدي الإيطالي فهرساً أبجدياً مطوراً بالفرنسية طبع في ليدن سنة ١٩٠٠م ثم نقل هذا الفرس إلى العربية في مصر وطبع بها هذا الكتاب سنة ١٣٢٢هـ^(٤).

وورد في معجم الأدباء أن أبا الفرج كتب هذا الكتاب مرة واحدة في عمره وهي النسخة التي أهداها إلى سيف الدولة^(٥).

الغريب في الأمر أن ينقطع هذا الأديب للوزير المهلبي ويكون مقيماً ببغداد بها مآبها من ملوك ورؤساء ويهاجر يهودي بكتابه إلى سيف الدولة فإن دكت فعلته هذه على شيء فإنما تدل على مكانة سيف الدولة في أذهان الأدباء في عصره.

الجدير بالذكر أن كتاب الأغاني احتوى على أخبار مئات الشعراء والأدباء والمغنيين، والعشاق والخلفاء والقواد وأكثر أيام العرب وأخبار قبائلهم وأنسابهم ووقائعهم وغزواتهم وفيه خيرة أشعار الجاهلية والإسلام، وما كانوا

(١) تاريخ الأدب العربي، لأحمد حسن الزيات، ص ٤١٤

(٢) معجم الأدباء، ج ١٧، ص ٧

(٣) المصدر السابق، ص ٩٨

(٤) تاريخ الأدب العربي، لأحمد حسن الزيات، ص ٤١٤

(٥) معجم الأدباء، ج ١٧، ص ٩٨

يغنون به وآداب القوم في طعامهم وشرابهم واجتماعهم وحروبهم وزواجهم
وكلامهم وسائر أخبارهم.

وكان المؤلف يذكر أبياتاً على لحن ويعين نغمها ومن غناها ويذكر
ناظمها ويترجم له ويذكر الأحوال التي ذكرت فيها ومن شهد ذلك ويذكر تلك
التفاصيل بالدقة والإسناد^(١).

فأهمية الكتاب وساعة لما احتواه من تلك التراجم والأخبار التي كاد أن
يكون متفرداً بها، وكان لا يكتفي بالرواية فقط وإنما كانت له آراء نقدية^(٢).

ولم يبق أحد من ملوك ذلك العصر إلا اقتناه وجعله ذخراً له.

وصف صاحب معجم المؤلفين هذا الكتاب بأنه: جليل القدر شائع
الذكر، جم الفوائد عظيم العلوم، جامع بين الجد والبحث الهزل والنحت^(٣).

كان أبو الفرج من ظرفاء عصره ويبدو ذلك من خلال مطالعة كتاب
الأغاني، وكان الناس في عصره يخدرون لسانه ويتقون هجاءه ويصيرون على
معاشرته ومواكلته ومشاربه وعلى كل صعب من أمره^(٤). كما كانت له بعض
الأمزجة الغربية وكان شرها شاذاً في أكله. وكانت له عناية خاصة بالحيوان.
وكان كاتباً لركن الدولة ابن بويه حظياً عنده، وكان يصنف تصانيفه ويرسلها
إلى بني أمية في بلاد المغرب وكانوا يحسنون جائزته^(٥).

توفى أبو الفرج في سنة ست وخمسين وثلاثمائة^(٦).

(١) تاريخ اللغة العربية، لجرجي زيدان، ج ٢، ص ٢٨٤

(٢) المصدر السابق

(٣) معجم الأدباء، ج ١٧، ص ٩٨

(٤) المصدر السابق

(٥) أبو الفرج الأصبهاني، لشفيق صيري، ص ٨٠

(٦) تاريخ بغداد، ج ١١، ص ٣٩٩

المبحث الرابع

ملامح الإنتاج الفكري عند ابن نباتة الفارقي

كان للخطابة في عصر صدر الإسلام، والدولة الأموية، و صدر العصر العباسي، مكانة في النفوس وسلطان على القلوب، لاعتماد القوم عليها في توطيد الملك، وتحميس الجند، واستقبال الوفود، فلما قام الموالي بسياسة الدولة وقيادة الجيش، قلّ النضال باللسان واللسان، فضعت الخطابة؛ لضعف القدرة عليها، وقلّة الدواعي إليها^(١).

امتاز عصر سيف الدولة بكثرة الحروب مع الروم، فكان لا بد أن تتخذ الخطابة وسيلة لحضّ الناس على الجهاد، وحثهم على نصرّة سيف الدولة وحماية البلاد، فكان ذلك مدعاة إلى امتياز الخطابة في كنف هذا الأمير بميزة لم تتيسر لها في سائر الأقطار الأخرى^(٢).

ملامح الخطابة عند ابن نباتة:

يُعدّ ابن نباتة ثمرة من ثمرات العهد الحمداني، وأنه مجدد شباب فنّ الخطابة العربية؛ لأنه بها استطاع أن يصور الحياة الجهادية والحربية في بلاط الأمير سيف الدولة، كما صوّر بها جانباً من الحياة الدينية ومثل معدن شخصه خير تمثيل.

من أنواع الخطب التي اشتهر بها ابن نباتة خطب الجهاد والخطب المنبرية، والمقصود بالخطب المنبرية: الخطب التي تلقى في صلاة الجمعة، والعيدين، والنوازل العظيمة في الخسوف والكسوف، والزلازل، وعدم نزول المطر، والأوبئة العامة. وقد كان يستمد موضوعاته من الزمن الجاري، فلكل أسبوع من كل شهر خطبة خاصة، ولكل مناسبة دينية كعاشوراء ورمضان وغيره، هذا بالإضافة إلى ما يحدث في أثناء العام من الأحداث العارضة.

(١) تاريخ الأدب العربي، للزيات، ص ٢١٢، ٢١٣.

(٢) الشعر في ظل سيف الدولة، الجندي، ص ١٠٦.

أما موضوعات تلك الخطب فهي: التذكير بتقوى الله والموت، وأهمية الجهاد، والمعاد، والحث على طلب رضوان الله بالعمل الصالح، والزهد في الدنيا؛ لنيل السرور في الآخرة.

رأينا أن نختار من خطب ابن نباتة الجهادية ما يصور جانباً من الحياة الحربية في بلاط الأمير سيف الدولة، وهذه خطبة جهادية يدعو فيها ابن نباتة الناس لحماية الثغور، وردّ المعتدين مخاطباً القلوب والعقول -معاً- فقال في جزء منها^(١):

"الحمد لله العليّ عرشه، القويّ بطشه، الوفيّ وعده... وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، وأشهد أن محمداً "صلى الله عليه وسلم عبده"، الوجيه عنده، رسوله الحافظ عهده..."^(٢).

أيها الناس:

"فإن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم، فانفروا -رحمكم الله- جميعاً وثبات، وشنوا على أعدائكم الغارات، فإنه -والله- ما غزى قوم في عقر دارهم إلا ذلّوا، ولا قعدوا عن صون ذمارهم إلا اضمحلوا، وأعلموا أنه لا يصلح الجهاد بغير اجتهاد، كما لا يصلح سفر بغير زاد، فقدموا مجاهدة القلوب، قبل مشاهدة الحروب، ومغالبة الأهواء، قبل محاربة الأعداء؛ وليدفع القاعدون عن المجاهدين بالدعاء، ومن لم يستطع منكم سبيلاً إلى اللقاء، فاعتاضوا من حياة لا بد من فنائها، بالحياة التي لا ريب في بقائها، فإن للجنة باب صدوره تطهير الأعمال، وتشبيده إنفاق الأموال وساحته زحف الرجال إلى الرجال، فأوجبوا -رحمكم الله- صفقة البيع الرباح، بالثمن الجزيل الراجح، فقد ضمن الله لكم ذلك في نصّ كتابه، وبينه في محكم خطابه حيث يقول: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أموالهم وأنفسهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون، وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من

(١) راجع سيف الدولة الحمداني، لمصطفى الشكعة، ص ٣٠١ وما بعدها.

(٢) ديوان خطب ابن نباتة الفارقي، طبعة بيروت، ص ١٨٢.

الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم^(١) جعلنا الله وإياكم ممن غلب هواه، وسارع في مرضاة مولاه، وكانت الجنة منقلبه ومثواه^(٢).

المعروف عن جند سيف الدولة الشجاعة والبسالة والثبات في وجه البيزنطيين الذين شهدوا لهم بذلك فقال أحدهم^(٣): إنه لو حمى عشرة من فرسان سيف الدولة موقعاً، فإنه يستحيل سقوطه، تفاجأ ابن نباتة بهروب بعض الجبناء في معركة المصيبة بعد أن سقطت حلب في يد البيزنطيين، وكانوا بضعة محاربين، فصعد ابن نباتة المنبر وخطب قائلاً^(٤):

"الحمد لله مؤيد الصابرين بعزیز نصره، وميسر الشاكرين لحمد شكره، وموفق المختارين للقيام بأمره، وقاصم الجبارين بوبيل مكره، أحمده على ما أنعم، وأسلم لأمره فيما حكم وأبرم... وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. أيها الناس:

"سَمَّروا للجهاد عن ساق العزم الجليّ، وأقدموا على عدوكم إقدام الأتيّ، فإنه والله لأقرب أجل أحدكم الإقدام، ولا زاد في عمره الإحجام، وإنما هي آجال محدودة، وأنفاس معدودة، فأنفقوها في ابتغاء الخلف، ولا تمحقوها في سبيل التلف، ولا تكونوا من الذين اتخذوا الدنيا معقلاً، ورضوا بالعجز والتخلف موئلاً، فانفروا -رحمكم الله- رجالاً وركباناً، شيوخاً وشباناً مشمرين غير مقصرين، مقبلين غير مدبرين، مجدين في الطلب، غير راكنين إلى الهرب. فو الذي بعث محمداً بالحق رسولاً -قسماً- لا تجدون له تبديلاً، لئن نصرتم الله لينصركم... ولئن كفرتموه ليعذبنكم، إنه لا يخلف الميعاد ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره، إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة، فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾^(٥).

(١) سورة التوبة، الآية ١١١.

(٢) ديوان خطب ابن نباتة، طبعة بيروت، ص ١٨٢ بتصرف.

(٣) سيف الدولة، لمصطفى الشكعة، ص ٣٠٨.

(٤) ديوان خطب ابن نباتة، طبعة بيروت، ص ١٨٥، بتصرف.

(٥) سورة الأنفال، الآيتان ١٥، ١٦.

ومن الخطب المنبرية اخترنا له نصاً ابتدأ به خطبته في عيد الأضحى
بعد أن حمد الله وصلى على نبيه قال:

أيها الناس: "إنكم في يوم حرماته متضاعفة، وبركاته مترادفة، يوم الحج
الأكبر، وشعائر الدين الأزهر، تحيون فيه سنة أبيكم إبراهيم بما تريقونه من
الدماء في هذا اليوم العظيم..."^(١).

ومن خطب الزمن الجاري قال في خطبة في قدوم شهر محرم بعد أن
حمد الله وأثنى على نبيه الكريم:

أيها الناس قد دخل عليكم هذا العام فتلقونه بالترحيب والقبول والإكرام،
وعظّموا فيه حرّامات ربكم، واجتنبوا فيه كل فعل حرام، وتحببوا فيه إلى نبيكم
عليه أفضل الصلاة والسلام، واتبعوه فيما شرع لكم من الإيمان والإسلام
والأحكام، واعلموا أن أعمالكم تعرض عليه على ممرّ الدهور والأعوام، في كل
يوم خميس واثنين من الأيام... فاتقوا الله وأكثروا من طاعته في أول هذا الشهر
يُحسن إليكم في الختام، وصوموا التاسع والعاشر منه اقتداء بفعل النبي عليه
الصلاة والسلام..."^(٢).

(١) راجع ديوان خطب ابن نباتة، طبعة الخرطوم، ص ١٠٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٤ وما بعدها.

المبحث الخامس

الخصائص الفنية للنثر التأليفي والنثر الإنشائي

عند المفكرين في ظللال الأمير سيف الدولة

أ- خصائص النثر العلمي "التأليفي" عند المفكرين في بلاط الأمير سيف الدولة:

١- الفارابي.

٢- ابن خالويه، ابن جني، أبو علي الفارسي.

١- الخصائص الفنية: النثرية في فكر الفارابي وفلسفته:

- يهتم الفارابي باللفظ والمعنى، فقد جاءت ألفاظه دقيقة لا تترادف فيها ولا تكرر، ومعانيه واضحة تخاطب العقل.
- يستخدم ألفاظاً قليلة، تعطي معاني كثيرة.
- يميل إلى استخدام المصطلحات العلمية.
- في توضيح القضايا الفلسفية يتبع الطريقة التحليلية، ويسير من أبسط عناصر الكلام إلى أكثرها تعقيداً، ومن اللفظ المفرد إلى الجملة المركبة، إلى الخطاب المسهب إلى القضية، إلى القياس.
- القياس عنده خمسة أنواع: القياس البرهاني، القياس الجدلي، القياس الخطابي، القياس الشعري، القياس السوفسطائي^(١).
- يبتعد عن أساليب الخيال، لكنه يعمد إلى استخدام التشبيه؛ ليستعين به في توضيح منهجه؛ ولتقريب الأفهام، وذلك مثل: تشبيهه للمنطق بالنحو والعروض، إذ أوضح أن المنطق يبعد الرأي عن الخطل، كما يغني علم

(١) راجع دراسات في تاريخ الفلسفة الإسلامية وآثار رجالها، لعبده الشمالي، دار صادر، بيروت،

١٩٧٩م، ص ٢٧١ وما بعدها.

- النحو الأديب الوقوع في مخالافات لغوية، ويسدّد علم العروض خطاه في نظم الشعر والمحافظة على استقامة الوزن.
- استطاع أن يوفق بين لغة العقل ولغة القلب.
 - لديه اهتمام كبير بذكر المقابلات، فإذا خطرت له فكرة فلا بد أن يذكر مقابلاً لها.
 - استند إلى براهين منطقية وأدلة مقنعة في إثبات حاجة الكون إلى "إله واحد" ويسميه في فلسفته "بالعلة الأولى"^(١)، وقد مثّلنا لذلك في جهوده.
 - أثبت من خلال نظريته نظرية الوجود، صفتي الوجود والكمال لله - تعالى - ونفى تعدد القديم وأزلية المادة؛ ليصل^(٢) بالقارئ إلى نتائج مقنعة يفرق بها بين الواجب والممكن في فكره، وقد ساعدته نزعتة الصوفية على لتوصل إلى حقائق في الفلسفة الإسلامية، وانفرد بآراء تخدم الدين الإسلامي وذلك من خلال مدينته الفاضلة واستطاع بكل جدارة أن يثبت أن الفلسفة لا تتعارض مع الدين.
 - كما استفاد من العديد من الآراء والأفكار في الفلسفة اليونانية، وطبعها بطابع إسلامي خاص^(٣).
 - كان شديد التأثير بعلماء الفلسفة اليونانية وخاصة أرسطو، وأفلاطون، وأفلاطون، فكان يأخذ من أفكارهم ويشير إلى ذلك بكل أمانة، إلا أن إعجابه بأفكار أرسطو يبدو واضحاً في معظم آرائه.
 - كان رائداً في شرح غامض الفلسفة اليونانية، وفك طلاسمها ويبدو ذلك من خلال شرحه لكتاب ما وراء الطبيعة، الذي استعصى فهمه حتى على العلماء.

(١) آراء أهل المدينة الفاضلة، للفارابي، ص ٥٩ وما بعدها.

(٢) آراء أهل المدينة الفاضلة، للفارابي، ص ٣٩ وما بعدها.

(٣) العلماء العرب والمسلمين، ص ٢٥٦.

- أما الخطأ الذي وقع فيه الفارابي فهو ظنه أن أفلاطون وأرسطو الحكيمين لا يختلفان في آرائهما؛ ولهذا فقد بذل جهداً كبيراً في كتابه الجمع بين الحكيمين؛ ليرد على مَنْ قالوا بوجود خلاف بينهما.
- أهم ما يميّز فلسفته ثقافته الواسعة، فالرجل كان موسوعة علمية جمعت مجموعة من العلوم المختلفة، وفلسفته شاملة جامعة شملت علوم الدين، والفقه، والمنطق، والرياضيات، والفكر، والطب، والفلك، والاجتماع، والموسيقى، وغيره.

٢- خصائص النثر العلميّ التآلفيّ عند: ابن خالويه، وابن جنّي، وأبو علي الفارسيّ:

- نلاحظ أنّ هناك العديد من الخصائص المشتركة بينهم، فهم -جميعاً- من أئمة العلماء في القرن الرابع الهجريّ، وأن مصنفاتهم تحلّ موقعاً مرموقاً بين ذلك الكمّ الهائل من الإنتاج العلميّ والفكريّ ويمكننا أن نجمل تلك الخصائص فيما يأتي:
- كانوا على صلة وثيقة بالثروة العلمية "النحوية، واللغوية، والفقهية" التي خلفها السابقين لهم من العلماء والتي أنتجها علماء عصرهم.
- يأخذون عن الأئمة الفحول كالخليل وسيبويه ويستتبرون بهداهم، ويقومون على أساس ذلك بحوثاً كثيرة.
- يوردون آراء العلماء السابقين والمعاصرين، من: بصريين وكوفيين وغيرهم، تارة بالتفسير، وتارة بالتوجيه، وتارة بالنقد، ويخرجون في كثير من الأحيان بآراء جديدة.
- كتبهم ومصنفاتهم خير شاهد على طبيعة الثورة العلمية التي انتظمت القرن الرابع الهجري، وكذلك على طبيعة الدرس النحويّ.
- يهتمون بتوثيق قواعد اللغة العربية؛ لتكون أصول أساسية وقواعد موجهة ومفيدة لكل من يطلع عليها.
- الاهتمام بأصول الفقه وبراهين المتكلمين في استخراج أصول النحو.

- يعتمدون في آرائهم وقضاياهم النحوية، واللغوية وحتى القراءات، على الاستدلال بالشواهد، ويوردونها منظمة؛ حتى يستقيم الدليل أمام الباحث أو القارئ.
- يكثر من الاستشهاد بالقرآن الكريم، والحديث الشريف، وقد يستشهدون بالآية كاملة أو يقتبسونها منها كما يهتمون -في الغالب- برواية الحديث متناً وسنداً.
- جاء أكثر استدلالهم من الشواهد الشعرية.
- الاهتمام بالأدلة المختلفة لتأصيل الأصول سواء أكانت نقلية أم عقلية.
- فتحوا باب الاستشهاد بكلام المولدين وأشعارهم إذا علمت، فصاحتهم، لتقوية الحكم وتثبيت القاعدة^(١).
- يكررون الشواهد في الاستدلال إذا تطلبتها مقامات أخرى.
- يستعينون -أحياناً- بضرب الأمثال، وقد جاءت عندهم كما قال صاحب صبح الأعشى: "بالفاظها التي اشتهرت بها دون تبديل ولا تغيير فيها، واضحة مناسبة للمقامات التي سبقت فيها"^(٢).
- يميلون -في كثير من الأحيان- إلى الاستطراد والأطناب مما يجعل الباحث يبعد عن لب الموضوع.
- كانوا يستخدمون -في الغالب- أسلوب الحوار أي طريقة السؤال والجواب؛ لتقصي أطراف المسائل، والوصول فيها إلى نتائج مقنعة.
- يهتمون بتعليل الظواهر اللغوية والأحكام.
- استطاعوا أن يرسموا طريقاً للبحث النحوي، اعتمدوا فيه على الدقة في القياس، والقوة في الاحتجاج والاستدلال.
- لديهم اهتمامات بالدراسات القرآنية والقراءات.

(١) مناهج التأليف النحوي، ص ٢٢٦.

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، لأحمد بن علي الفلقشندي، شرح محمد حسين شمس الدين،

لبنان، دار الفكر، ط١، ١٩٨٧م، ج٦، ص ٢٦٣، ٢٦٤.

تميز ابن جني من خصائص منهجية وأسلوبية في مصنفاته:

- يعمل فكره ويبحث بدقة متناهية في الثروة اللغوية والمجهودات التي خلفها أسلافه العلماء فلا يخطئه السداد والتوفيق؛ فيأتي بنتائج قيّمة ذات فوائد عظيمة، مثل: دوران المادة حول معنى واحد، والاشتقاق الأكبر^(١).
 - استطاع أن يؤسس أصول لغوية عامة، وثق بها لقواعد اللغة العربية وبين أسرارها.
 - تمكن "بحسه الدقيق المرتب" أن يبين أسرار ارتباط الألفاظ بالمعاني^(٢)، وذلك في: الاشتقاق وغيره، وفي بحثه عن علل العربية وأبنيتها.
 - يستخدم -في كثير من الأحيان- طريقة الافتراض لتقصي أطراف المسألة التي هو بصدد مناقشتها؛ ليصل إلى نتائج مقنعة وحاسمة.
 - يسلك طريقي السماع والقياس، وذلك يتمثل فيما أجازته من تقديم المفعول معه على مصاحبه قياساً على تقديم المعطوف على المعطوف عليه.
 - يميل إلى استخدام طريق الاحتجاج القوي، والفلسفة اللغوية، كاستدلاله على شدة اتصال الفاعل بفاعله نحو: ضربتك، ونحو مررتُ بزيد^(٣).
 - يميل إلى كثرة الاستشهاد بما أخذه عن أستاذه أبي علي.
 - يستعمل منهج الاستقصاء في الدراسات الموضوعية.
 - يستعمل -أحياناً- اصطلاحات لم تعهد في اللغة والنحو من قبله كاستعماله لكلمة الأصلية، يريد بها المصدر.
 - ابن جني من أعمدة المدرسة البصرية، لكنه كان غير متعصب وخاصة في تقنين الأصول وتحديد صفاتها.
- أما المنهج الذي اتبعه في الاحتجاج للقراءات فقد جاء كالاتي:

(١) راجع عبقرى اللغويين والنحويين، لأبي الفتح عثمان بن جني، ٣٢١-٣٩٢هـ، لعبد الغفار حامد

محمد هلال، طبع دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٦م، ج١، ص ١٣٤، وما بعدها.

(٢) عبقرى اللغويين والنحويين، ص ١٣٥.

(٣) راجع عبقرى اللغويين والنحويين، ص ١٣٦، ١٤٨.

- في طريقة العرض يبدأ بذكر القراءة، وأقوال العلماء فيها - إذا كان فيها ذلك - ثم يناقشها، ويثبت آراءه بالبراهين المؤيدة بالقرآن، والحديث، وموثق كلام العرب شعراً ونثراً، والأصول العربية اللغوية والنحوية والصرفية والعروضية والبلاغية ما وجد إلى ذلك سبيلاً^(١).
ما تميّز به ابن خالويه من خصائص منهجية وأسلوبية في مصنفاته ونصوصه:

- اختار ابن خالويه لجميع مصنفاته ألفاظاً فصيحةً جزلة، وعبارات سلسة سهلة.
- اختار لمصنفاته المنهج الاستقرائي الوصفي التحليلي النقدي الموضوعي.
- يعدُّ من أعمدة المدرسة البغدادية التي قامت على أساس التكامل بين المدرستين البصرية والكوفية من حيث القواعد والتطبيق^(٢). قال صاحب الفهرست: ابن خالويه ممن خلط بين المدرستين^(٣).
- مصنفاته تدل على أنه مدرسة علمية متعددة الشعب.
- يشير - عادة - إلى المصادر التي يوثق بها مادته العلمية.
- يعدُّ ممن سنُّوا حرية الرأي في البحث، فمتى ما وجد الدليل الصحيح استعان به، ولا يلتفت بعد ذلك إلى خلاف أو وفاق.
- أسَّس مصنفاته على الوضوح، والدقة في التنظيم والترتيب.
- يهتم بتهديب مصنفات مشايخه^(٤).
- له جهود عظيمة في القراءات والدراسات الإسلامية.

(١) المرجع السابق، ص ١٦٠.

(٢) المدارس النحوية، لشوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط٦، ١٩٦٨م، ص ٣٤٥.

(٣) الفهرست، لابن النديم، ص ١٢٣.

(٤) راجع الحجة في القراءات، لابن خالويه، ت عبد العال سالم، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١هـ،

منهجه وأسلوبه في القراءات:

- يهتم برسم المصحف ولا يقبل مخالفته.
- يسند القراءات إلى أصحابها.
- يكثر من الإطناب والاستطراد.
- جاءت طريقة سرده في القراءات بأسلوب جذاب.
- ما تميز به أبو علي الفارسي من خصائص منهجية وأسلوبية في مصنفاته ونثره العلمي:
- سمى أبو علي العديد من مصنفاته بأسماء البلاد التي زارها وصنفها فيها.
- أبو علي بصري^(١)، ويظهر ذلك في: أنه لا يعتد إلا بالكثرة ويعدها من أسباب قوة القراءة ولا يقيس على الشاذ، ولا يعتد بالقليل، ويقول: (ترك القياس على القليل أولى من القياس عليه).
- يعتبر شيخ أهل القياس وهو يقول: "أخطئ في خمسين مسألة مما به الرواية، ولا أخطئ في واحدة مما به القياس"^(٢).
- يميل إلى كثرة الاستشهاد بما أخذه عن سيبويه، يقول مثلاً: وسألته عن كذا، أو يقول: وقال سيبويه كذا، أو يرى سيبويه كذا.
- كان يهتم بأن ينسب الشواهد إلى أهلها.
- يأتي أسلوبه في عرض القواعد النحوية واضحاً هادئاً وبيناً هادفاً.
- يميل إلى الجدل وذلك في مناقشاته للعديد من الآراء النحوية- ويستخدم المنطق فلا يسلم منطقاً من الغموض في كثير من الأحيان- وقد رماه ابن خالويه بأنه -أحياناً- لا يفهم أحداً بما يقول، وعلق - كذلك- ابن الشجري على أسلوبه قائلاً: يفسر أحياناً فيزيده تفسيره إشكالاً،

(١) المدارس النحوية، ص ٣٤٥.

(٢) معجم الأديباء، ج٧، ص ٢٥٤.

وأحياناً يلغز^(١). وقال در شلبي: ولئن كان أسلوب أبي علي في كتبه يبدو فيه الغموض فإنه في العسكريات أغمض^(٢).

- انفراد بمجموعة من المسائل النحوية التي أبدى فيها رأيه صراحة وخالف فيها الجمهور، كما كان على أكبر قدر من علمه بالفارسية مما جعله يربط بينها وبين اللغة العربية^(٣).

- هناك تشابه واضح بين نحو أبي علي وفقه أبي حنيفة.

- انتقد أبو علي الكثيرين من علماء عصره نقداً لا يليق بقاماتهم السامية ومن أولئك: الزجاجي، والرماني، والسيرافي، وابن خالويه.

- أثر في العديد من العلماء من بعده من أمثال: ابن جني، وابن الشجري، وأبي البركات الأنباري.

ب- خصائص النثر الفني "الإنشائي" في بلاط الأمير سيف الدولة، وهو يتمثل في: النثر الكتابي، والنثر الشفوي:

١- النثر الكتابي: من أعلامه في بلاط الأمير سيف الدولة، أبو بكر الخوارزمي، وأبو الفرج الأصبهاني.

أ- الخصائص: الفنية للكتابة عند أبي بكر الخوارزمي:

- لم يكن لأبي بكر صيغة معينة يبدأ بها رسائله، بل كان يبدأ كل رسالة بالصيغة التي يراها مناسبة لموضوعه.

- كان يكثر في رسائله من البسمة والتحميدات والصلوات على النبي، ولا يلتزم بذلك في الابتداء، بل يجيء به في ثنايا رسائله، كقوله: "... ثم قمت فصليت ركعتين، وختمت في كل ركعة منها ختمتين واستعدت بالله من الشيطان الرجيم، وقلتُ بسم الله الرحمن الرحيم^(٤).

(١) أمالي ابن الشجري، ت محمود محمد الطناجي، القاهرة، ج ١، ص ١٨٢.

(٢) أبو علي الفارسي، ص ٤٩٢.

(٣) الأبيات المشكلة الإعراب، أو إيضاح دمشق، دار العلوم والثقافة، بيروت، ت حسن هنداوي.

(٤) رسائل الخوارزمي، ص ١٠.

- كان يكثر من الجمل الدعائية، كقوله على سبيل المثال: "كتابي أطال الله بقاء سيدنا" أو يقول أصبحت "أيد الله الشيخ".
- كانت ألفاظه منتقاة بعناية فائقة كما كان يتعمق في المعاني والأخيلة قال في رسالة أرسلها إلى محمد العلويّ: "أتمنى لو كانت أعضائي كلها نواظر تبصره، وخواطر تتذكّره، وألسنة تكررّه، على شريطة أن يكون الناظر لا يمل لحظاً، والخاطر لا يكل حفظاً، واللسان لا يزل لفظاً"^(١).
- كانت ألفاظه صحيحة من الناحية اللغوية، وتراكيبه سليمة من الناحية النحوية، ومفرداته فصيحة من الناحية البلاغية.
- كان يعبر عن المعنى الواحد بعبارات مختلفة، وصور متنوعة.
- كان يكثر من المعاني التي توهم التناقض؛ ليثير الذهن، ويداعب الأخيلة، فيقول مثلاً: "أذكره وإن كنت لا أنساه، وألقاه بقلبي وإن كنت لا ألقاه"^(٢).
- يستعين في إبراز معانيه، وتصوير أفكاره بالخيال، فيكثر من ألوان البيان كقوله: لي من الصيانة رفيق وزميل، ومعني من العزم هادٍ ودليل^(٣).
- يكثر من المحسنات اللفظية والمعنوية التي كانت السمة المطبوعة لنثر الأدباء في ذلك العصر "فترف اللفظ يتبع ترف الحضارة"^(٤).
- يسيطر السجع على جميع رسائله، ويندر أن تجد عنده جملتين غير مسجوعتين وقد يبلغ عدد السجعات عنده أربع أو يزيد: قال في رسالة يعزّي فيها رئيس طوس: كتابي عن سلامة، وما سلامة من يرى كل يوم ركناً مهدوداً ولحداً ملحوداً، وأخاً مفقوداً، وحوضاً من المنية موروداً^(٥).

(١) رسائل الخوارزمي، ص ٢١.

(٢) رسائل الخوارزمي، ص ٩.

(٣) رسائل الخوارزمي، ص ١٠.

(٤) أدباء العرب في العصر العباسية، لبطرس البستاني، دار الجيل، بيروت، ج ٢، ص ٣٧٧، وما بعدها.

(٥) رسائل الخوارزمي، ص ١٥.

- يكثر من الطباق لتوكيد معانيه مثل التقدم للغاية تأخر عنها والزيادة على الكفاية نقصان منها^(١).
- كان يلجأ أحياناً إلى المبالغة.
- يميل في كثير من الأحيان إلى الإطناب والاستطراد.
- كانت رسائله تتفاوت طولاً وقصراً، جاءت إحدى رسائله في إحدى عشرة صفحة، وكتب أخرى في خمسة عشر سطرًا.
- كان يكثر من الاقتباس من القرآن الكريم، والحديث الشريف، قال في رسالة أرسلها إلى رئيس بهرة: سيجعل الله بعد عسر يسرا، "ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً"^(٢). وقال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الفأل ويكره الطيرة".
- كان يكثر من إيراد الشعر في رسائله، ويأتي به في مطلع الرسالة، وفي وسطها، وفي خاتمتها. قال في رئيس بهرة يعزيه:
إن الفجيرة بالرياضة نواضرا
لأشد منها بالرياض زوابلا
- وقد يحل البيت ويأتي بالمعنى، كقوله ليزيد صاحب سمرقند: لا خير في حب لا تحتمل أقدأوه، ولا يشرب على الكدر ماؤه. وهو حل لبيت بشار:
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى
ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه^(٣)
- يضمن رسائله بعض الحكم المشهورة، كقوله إلى وكيل الوزير ابن عباد:
"ولا تؤخر عمل اليوم إلى الغد"^(٤).
- كان ناقدًا معتدلاً منصفاً في نقده^(٥).

(١) يتيمة الدهر، ج٤، ص ٢٢٥.

(٢) رسائل الخوارزمي، ص ٢١.

(٣) ديوان بشار، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ج١، ص ٣٠٩.

(٤) رسائل الخوارزمي، ص ٥٥.

(٥) راجع رسائله، ص ٤٣ - ٤٤.

- كان لا يتقيد بصيغة معينة في خواتيم رسائله، لكنه كان يكثر من النصح والإرشاد، وهي عنده تدل على "مقدرته في انتقاء الألفاظ المعبرة عن الختام، واختيار العبارات التي تشعر بالنهاية وقرب التمام"^(١).

ثم يقول عبارة معهودة عنده "والسلام" أو والسلام على من قال آمين.

ب- خصائص الكتابة عند أبي الفرج الأصبهاني:

كانت ألفاظه رقيقة سهلة، ولغته سلسلة جزلة، يقول مثلاً: لو رأيتها ما شربت من يدها الماء، أو يقول: على بختي أنا.

كان موفقاً في اختيار الألفاظ التي تتاسب غاياته ومقاصده، ويتأنق في صوغ العبارات والجمل ويحكم الربط بينها، فتأتي جملة رشيقة حلوة، لا ليان فيها ولا جفاف.

- تفرّد في كتابه بحشد ثروة لغوية هائلة، وبشرح مفردات لا وجود لها في المعاجم اللغوية^(٢).

- كان يذكر ألفاظاً اصطلاحية كانت شائعة في الدولتين: الأموية والعباسية، لا نظير لها في كتب الأدب، وقد اصطلح البعض عليها اسم "اللغة المجردة، ومثال ذلك استخدامه لكلمة "العرسيات" وهي تعني: "الأكل الذي يقدم في الأعراس في العصر العباسي"^(٣) وقيمة تلك المفردات تكمن في أنها توضح بعض العادات الاجتماعية.

- كان أبو الفرج في كتابه الأغاني عالماً محققاً، مدققاً، حجة، ثقة، يهتم بصحة النقل وتحري الصواب، قال عنه ابن النديم^(٤): أكثر تعويله في

(١) فصوص الفصول، وعقود العقول، لابن سناء الملك، ت محمد عبد الجواد، طبع مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م، ص ٤٩٨.

(٢) أبو الفرج الأصبهاني وكتابه الأغاني، لمحمد عبد الجواد الأصمعي، دار المعارف، مصر، ط٢، ص ٢٧٧.

(٣) المصدر السابق.

(٤) الفهرست، ص ١١٥.

تصنيفه [يقصد في كتاب الأغاني] كان على الكتب المنسوبة الخطوط، أو غيرها من الأصول الجيّد.

- إذا حسّ بعدم الثقة في الرواية، يحقق في أخبار الرواية، ثم يروى ما يروى مرفقاً بالأسانيد المطولة، كان يهتم بإسناد ما أخذه إلى أصحابه، كقوله على سبيل المثال: أخبرني عمي، قال: حدثنا أبو الفضل الرياشي عن الأصمعي^(١) أو كقوله: أخبرني بخبره أحمد بن عبد الله بن عمار عن محمد بن الأزهر.

- تميّز عن أقرانه الكتاب بأن جعل كتابه هذا خزانة ملح، ونكت، ونوادر، وفصول في التاريخ والأدب العربي، منقولة عن أمهات الكتب والمراجع النادرة التي لا وجود لها الآن. وفوائد هذا الكتاب كما قيل: يجمل بالمتأدبين معرفتها، ويحتاج الأحداث إلى دراستها^(٢).

- لأبي الفرج انتقادات أدبية وآراء علمية، تدل على ثاقب فكره، وواسع علمه، وسعة أفقه، وكثرة اطلاعه، وخصوبة ذهنه، وقوة حفظه، وشدة ذكائه.

- كان -عادة- لا يعنون موضوعاته.

- يهتم بالتسلسل الموضوعي في قصصه ورواياته؛ ليستدرج القارئ بلطف إلى نهاية القصة أو الرواية.

- يميل إلى التنوع في أسلوب الرواية والقصة.

- يكثر من استخدام أسلوب الحوار في القصص القصيرة.

- يكثر من ضرب الأمثال.

- لديه مقدرة بارعة على التصوير وخاصة تصوير الحركات والجلسات، يقول على سبيل المثال: فخفق كما يخفق الطائر.

(١) راجع دراسة كتاب الأغاني ومنهج مؤلفه، لداؤود سلم، دار النهضة العربية، ١٩٧٧م، القاهرة، ص ٥٧.

(٢) أبو الفرج الأصبهاني، وكتابه الأغاني، للأصمعي، ص ٢٨٠.

- يدقق في الوصف ولديه المقدرة على الوصف بلفظة واحدة، كقوله مثلاً: كان لبّاساً، عطرأً.
- يستخدم -أحياناً- صيغ المبالغة فيستغني بها عن كثرة الخطوط والألوان كما مثلنا سابقاً.
- لولا كتاب الأغاني؛ لضاع معظم الشعر القديم، وفقدنا كثيراً من نصوص النثر العربي، وتلاشى وصف أشياء قيّمة عن الحضارة الإسلامية، والحياة الاجتماعية والعمرانية، كما يعدّ هذا الكتاب مدرسة تلقى عنها العلماء والأدباء الأدب العربي منذ ألف سنة^(١).

٢- الخصائص الفنية للخطابة "النثر الشفوي" عند ابن نباتة الفارقي:

- يبدأ خطبه بحمد الله -تعالى-، والثناء على رسوله الكريم، قال في خطبة في قدوم المحرم: "الحمد لله الذي شرفنا بهذا الشهر المبارك تشريفاً، وعرفنا ما فيه من الخيرات والبركات تعريفاً، وضاعف لنا فيه الحسنات والأعمال الصالحات تضعيفاً... وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله الذي كان بكل الخيرات موصوفاً..."^(٢).
- ينتقي الألفاظ القوية الجزلة المؤثرة، مثل قوله: أيها الناس، جافوا الجنوب عن وثير المهاد، وامنعوا العيون لذيد الرقاد، وشمّروا في سبيل ريكم تشمير الآساد، ويزدوا بجلاد عدوكم حرارة الأكباد^(٣).
- يكثر من الجمل القصيرة ذات الجرس الموسيقي الرخيم مثل قوله: أيها الناس: أشكروا الله فالرابع من شكره، وأشغلوا ألسنتكم بذكره فالسعيد من ذكره واقصدوه في طلب الحوائج فهو كريم لا يخيب من قصده...^(٤).
- كان بارعاً في تأليف المعاني المؤثرة، وخاصة في النصح والإرشاد ومن ذلك يمكننا أن نمثل بنص من خطبة ألقاها في رمضان فقال: عباد الله:

(١) أبو الفرج الأصبهاني، للأصمعي، ص ٢٩٣.

(٢) ديوان خطب ابن نباتة، طبعة الخرطوم، ص ٦، ٧.

(٣) ديوانه، طبعة بيروت، ص ٢٠٣.

(٤) ديوان خطبة، طبعة الخرطوم، ص ٨٦.

من أتعب نفسه في طاعة الله فقد أراحها، ومن قيدها بفعل الأوامر وترك
النواهي فقد أطلق سراحها،... واتقوا يوماً يؤخذ فيه بالنواصي والأقدام،
ولا تقولوا ذهب رمضان فتستحلوا فعل الحرام... واستقبلوا هذا الشهر بما
يرضي الملك الخلاق، وتقربوا إليه بالصدقة، والإنفاق"^(١).

- لديه مقدرة عجيبة على مخاطبة العقول والقلوب معاً، وفي ذلك يكثُر من
الأسلوب الخطابي والاستفهام، فيقول على سبيل المثال: أيها الناس: إن
الله أيه بكم فهل أنتم سامعون؟" وندبكم إلى طاعته فهل أنتم إليها
مسارعون؟ وزجركم عن معصيته فهل أنتم عنها راجعون؟ وجعل أثمانها
جنته فهل أنتم إليها نازعون. ويكثر من استخدام الإنشاء الطلبي فيقول
مثلاً: "بادروا فقد وضح السبيل، واستجيبوا فقد قام الدليل، وتزودوا فقد
أزف الرحيل، وقولوا عند كل شديدة حسبنا الله ونعم الوكيل".

- يميل إلى تكرار بعض المعاني؛ لتأكيد الأفكار وإقناع السامعين بها؛
وكذلك لاستنهاض العزائم، وشحن الهمم؛ ولإلهاب المشاعر وإشعال روح
الحماسة في النفوس، كقوله:
الجهاد الجهاد أيها المؤمنون.
الصبر الصبر أيها الصابرون.
الجنة الجنة أيها الراغبون.
النار النار أيها الهاربون.

- لديه مقدرة عجيبة في تناول الموضوع الواحد بصيغ متعددة.
- خطبة مواكبة لأحداث الحياة العامة وعاكسة لروحها.
- يكثُر في خطبه من التنبيه إلى قرب الموت والمعاد، بل لا تخلو خطبة
له من ذلك فيقول مثلاً: (أيها الناس): تجهزوا للرحيل فقد تداننت
الأعمار، واحذروا الكبائر فإنها أقبح الأوزار، واعتصموا بقية أعماركم ولا

(١) ديوان خطبة، طبعة بيروت، ص ١٨٢.

تغثروا بمهلة الانتظار، واعتبروا بمن مضى قبلكم فإنه غاية الاعتبار... (١).

- لا تخلو خطبة له من الاستشهاد بالقرآن والافتباس منه ويستشهد بالآية كاملة أو بعدد من الآيات، باعتبارها الدليل الأقوى الذي لا يحتاج بعده إلى التعليل.

- يستشهد -أحياناً- بالحديث الشريف أو يقتبس منه.

- تخلو خطبه من الاستشهاد بالشعر.

- يكثر من استخدام البديع وخاصة السجع الذي يستخدمه في جميع أجزاء الخطبة، والطباق الذي لا تخلو خطبة له منه: يقول على سبيل المثال: فإنه والله لأقرب أجل أحدكم الإقدام، ولا زاد في عمره الإحجام^(٢).

ويقول في مناهضة الروم: فإن الله يتولى إعزازكم وإذلالهم، ورفعكم وإخمالهم، وذلك بأن الله مولى الذين آمنوا، وأن الكافرين لا مولى لهم^(٣).

- يبدو تأثره في خطبه بالإمام علي بن أبي طالب "كرم الله وجهه" في أوضح صورة فهو يحفظ خطبه "عن ظهر قلب" فيقول مثلاً: ما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا، ولا قعدوا عن صون ذمارهم إلا اضمحلوا^(٤).

- خطبه تعكس روحه الوطنية وغيرته على الدين والعرض.

- خطبه من أهم العوامل التي نصرت سيف الدولة والمسلمين على البيزنطيين وكان عندما ينتهي من خطبته يسارع معظم الناس إلى ساحات القتال.

(١) ديوان خطبه، طبعة الخرطوم، ص ٤٧.

(٢) ديوانه، طبعة بيروت، ص ١٨٥.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق، ص ١٨٢.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على النبي المصطفى صاحب المعجزات.

أما بعد، فقد تم بعون الله وفضله هذا البحث "شعراء ومفكرون حول سيف الدولة"، وتتحصّر نتيجة ما توصلت إليه من نتائج وملاحظات، في عدد من النقاط، أهمها:

- تجلّت حكمة الله في أن يعيد التاريخ بعض جوانبه، ويلحظ ذلك من خلال الحياة في العصر العباسي الثاني، الذي آلت فيه مقاليد السياسة والحكم إلى الأعاجم، ولم يبق فيه لهيبة الخلافة شيئاً غير أسماء الخلفاء.

- اضطربت الحياة السياسية في كل جوانبها، وانقسمت الدولة إلى مجموعة من الدويلات، ولم تدع الجبهات المتصارعة، والأطراف المتنازعة مجالاً للهدوء في حياة العرب والمسلمين آنذاك، كما كثرت المصادرات في الأموال والحريات.

- أثرت الحياة السياسية تأثيراً كبيراً على الحياة الاجتماعية وكثرت المصادرات في الأموال والحريات فضعف الوازع الديني وأبيحت المنكرات، وتفشت الأوبئة والأمراض، وارتفعت الأسعار ووقعت المجاعات وعدت حياة الخلافة والمجون ترفاً حضارياً لا يستكره إلا القليل من الناس، وانقسم المجتمع إلى طبقتين الأولى مترفة غاية الترف والثانية ممعنة في الحرمان والفاقة وتمثل الأغلبية.

أما الحياة الثقافية والأدبية فقد تطورت تطوراً ملحوظاً؛ لأن تنافس الحكام، وتعدّد عواصم العلم التي نافست بغداد في مجدها العلمي عاد بالخير كل الخير على الآداب والعلوم والفنون.

- كان بلاط الأمير سيف مجمعاً لأكابر الشعراء والأدباء والعلماء والمفكرين والفلاسفة. كما كان مدرسة نموذجية تخرج فيها أميز علماء وشعراء العرب والمسلمين.
- المجد الذي حققه الأمير سيف الدولة في ميدان الساحة السياسية، لا يقل عن المجد الذي حققه في مجال العلم والأدب.
- كتب شعراء الأمير سيف الدولة في جميع الفنون الشعرية وعملوا على تطوير بعض الأغراض التقليدية كالهجاء والغزل وغيره كما استحدثوا بعض الأغراض مثل شعر الطبيعة، وشعر الجهاد والحرب. وقد تأثرت هذه الأغراض في مجملها بشخصية سيف الدولة وبيئته، ويبدو ذلك من خلال معاني الشعر وألفاظه وصوره وأخيلته.
- جاء استخدام الشعراء والعلماء -ممن هم حول الأمير- لقاموس اللغة العربية استخداماً متفرداً، يدل على عمق الفهم وسعة الاطلاع وخصوبة الفكر، وروعة الخيال.
- مال الشعراء والعلماء إلى استخدام الألفاظ الرقيقة والأساليب السلسة وأكثرها من المحسنات البديعية والتلوين، وانتشرت في دواوين الشعراء المقطوعات الشعرية.
- استطاع الشعراء والعلماء ممن كانوا في بلاط الأمير سيف الدولة أن يعكسوا روح الحياة في العصر العباسي الثاني وفي دولة الأمير سيف الدولة بمختلف جوانبها، وقد كان العلماء في ظلالة رواداً في التأليف والتصنيف، واستوعب نثرهم جميع الثقافات الموجودة ودونت به المشاكل الفلسفية، وكتبت به البحوث العلمية.

التوصيات

- يمثل كل واحد من الشعراء والمفكرين الذين كانوا موضع دراسة في هذا البحث بحثاً علمياً ثراً، يمكن للباحثين قراءته ودراسته من جوانب مختلفة.
- هذا البحث ينبه إلى بحوث متعددة، وإلى ملوك وحكام لهم أيادٍ بيضاء وبصمات واضحة في ازدهار الحياة الأدبية والثقافية في العصر العباسي الثاني، لم يحظوا بدراسات علمية منهجية -على حد علمي-.
- ومن أولئك على سبيل المثال: ابن العميد، والصاحب بن عباد، والوزير المهلبى نأخذ على سبيل المثال بحثاً بعنوان: أدباء حول الصاحب ابن عباد، أو الشعر في ظلال ابن العميد، أو شعراء حول عضد الدولة البويهى، وغيره.
- هناك شعراء لم يكن لهم حظاً موفوراً في الدراسة العلمية المنهجية نذكر على سبيل المثال: البيغاء، النامي، الواوادمشقي وغيرهم.
- إن الأعلام الذين وضعوا اللبنة الأولى للنحو والصرف من أمثال: سيويوه وابن جني وغيرهم يجهلهم أبناؤنا الطلاب في مراحل التعليم العام وغيره، أوصي بإدخال سيرتهم الذاتية في كتب المطالعة، حتى يربط الطالب بتراثه النحوي واللغوي، أو على الأقل يشار إلى أهم كتبهم في مداخل كتب النحو.
- وأخيراً أسأل الله أن يجعل جهدي هذا عملاً يرضي وجهه الكريم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.

حرف الألف

٢. آراء أهل المدينة الفاضلة ، الفارابي ، لطة حبيشي، القدس للدراسات والبحوث ، المكتبة الأزهرية للتراث ، د.ت.
٣. أبوبكر الخوارزمي حياته وأدبه، لأحمد أمين مصطفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥م.
٤. أبوعلي الفارسي ، حياته ومكانته بين أئمة التفسير ، وآثاره في القراءات والنحو ، لعبد الفتاح إسماعيل شلبي ، دار المطبوعات الحديثة ، مكة المكرمة ، ط٣ ، ١٤٠٩ هـ = ١٩٨٩م.
٥. أبو الطيب المتنبي في مصر والعراقين، د. مصطفى الشكعة، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م.
٦. أبوالفرج الأصبهاني ، لشقيق صبري ، دار المعارف ، مصر.
٧. أبوالفرج الأصبهاني ، لمحمد أحمد خلف ، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٥٣م.
٨. أبوالفرج الأصبهاني ، وكتابه الأغاني ، لمحمد عبد الجواد الأصمعي، دار المعارف مصر ، ط٢، د.ت.
٩. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، للمقدسي " شمس الدين أبوعبد الله محمد بن أحمد" ، مكتبة مديولي القاهرة، ط٣ ، ١٤١١ هـ = ١٩٩١م.
١٠. إحصاء العلوم، للفارابي، تحقيق د. عثمان أمين، ط٢، ١٩٤٩م.
١١. أخبار البحتري ، لأبي بكر محمد بن يحيى الصولي ، ت صالح الأشر، ١٩٥٨م.
١٢. إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، لجمال الدين أبو الحسن بن علي بن يوسف القاضي ، الملقب بالقفطي ، مطبعة الخانجي ، ١٣٢٦ هـ.

١٣. أخبار الدول وآثار الأول ، لأبي العباس أحمد بن يوسف الدمشقي المعروف بالقفطي ، طبع حجر بغداد ، ١٨٨٢م.
١٤. أدباء العرب في الأعصر العباسية ، لبطرس البستاني ، دار الجيل ، بيروت ، ج ٢.
١٥. الاستعارة نشأتها وتطورها ، لمحمود السيد شيخون ، مكتبة الكليات الأزهرية ، ط ٢ ، ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م.
١٦. أسرار البلاغة ، لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني ، ت ، محمد عبد العزيز النجار ، مطبعة الترقى ، د.ت.
١٧. إشارة التعيين وتراجم النحاة واللغويين ، لعبد الباقي بن عبد المجيد ، تحقيق ، عبد المجيد دياب ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.
١٨. أصول النقد الأدبي ، لأحمد الشائب ، دار الثقافة ، بيروت.
١٩. إعراب ثلاثين سورة من القرآن ، للحسين بن أحمد ، بن خالويه ، المكتبة الثقافية ، بيروت.
٢٠. إعراب القرآن ، لأبي جعفر النحاس ، تحقيق زهير غازي زاهد ، عالم الكتب ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٨٨م ، ج ٣.
٢١. إعراب القراءات السبع وعللها ، لابن خالويه ، ت ، عبد الرحمن بن سليمان العثيمين ، مكتبة الخانجي ، ط ١ ، مصر ، ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م.
٢٢. الأعلام " قاموس تراجم " لخير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٤ ، ج ٧ .
٢٣. إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، لمحمد راغب الطباخ ، ط ١ ، ١٣٤٢هـ = ١٩٢٣م.
٢٤. الأغاني ، لأبي الفرج الأصفهاني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٣٨٣هـ = ١٩٦٣م.

٢٥. الإمامة والسياسة ، لمحمد بن عبدالله الدنيوري ، تحقيق طه حمد الزيني ، مؤسسة الحلبي ، ج ١.
٢٦. أمالي ابن الشجري " هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة الحسيني " تحقيق محمود محمد الطناجي ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ج ١.
٢٧. الإمبراطورية البيزنطية ، لشلمبرجر ، طبع باريس ، ١٨٩٠م.
٢٨. الإمبراطورية الرومية ، طبع باريس ، ١٩٢٥م.
٢٩. الإيضاح ، لأبي علي الفارسي ، ت شاذلي فرهود ، الشركة السعودية للطباعة ، ط ١، ج ١.
٣٠. إنباه الرواه على أنباه النجاة ، للوزير جمال الدين أبي الحسن على ابن يوسف القفطي ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي القاهرة ، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦ ، ج ١.
- حرف الباء**
٣١. البداية والنهاية ، لعماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي ، ط ٢، ١٩٦٦م ، ج ١١.
٣٢. بغية الطلب في تاريخ حلب ، للصاحب كمال الدين بن العديم ، دار الكتب القاهرة، ودار الفكر بيروت ، ج ١.
٣٣. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، للسيوطي ، " جلال الدين عبد الرحمن " ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، ط ١ ، ١٣٨٤هـ = ١٩٦٤م.
٣٤. البلاغة فنونها وأفنانها ، للدكتور فضل حسن عباس ، دار الفرقان ، عمان ، الأردن ، ط ١، ١٤٠٧هـ .
٣٥. البلغة في تاريخ أئمة اللغة ، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي، تحقيق محمد المصري ، منشورات وزارة الثقافة دمشق ١٣٩٢هـ = ١٩٧٢م.
٣٦. البيان والتبيين ، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق فوزي عطوة ، ط ١، بيروت ١٩٦٨م.

٣٧. بين التشبيه والكناية والتطبيق والنظرية ، لعبد الفتاح عثمان ، مكتبة الشباب د.ت.

حرف التاء

٣٨. تاريخ آداب اللغة العربية ، لجورجي زيدان ، ج٢ ، مطبعة الهلال ، ١٩١١م.

٣٩. تاريخ الأدب العربي ، لأبراهيم علي أبي الخشب ، ط١ ، د.ت، ج١.

٤٠. تاريخ الأدب العربي ، لأحمد حسن الزيات ، دار الثقافة بيروت ، ١٩٧٨م.

٤١. تاريخ الأدب العربي ، لحنا الفاخوري ، المطبعة البوليسية ، بيروت، ط١٩٥٨م.

٤٢. تاريخ الأدب العربي، لعمر فروخ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط٦ ، ١٩٩٧م ، ج٢، ج٣.

٤٣. تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ، ترجمة عبد الحليم النجار، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٢م.

٤٤. تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، في العصر العباسي الثاني ، للدكتور حسن إبراهيم حسن ، مكتبة النهضة المصرية ، ط٢ ، ١٩٧٩م.

٤٥. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، للذهبي ، ت عمر عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي ، ط٢ ، ١٤١٥هـ=١٩٩٤م.

٤٦. تاريخ الشعوب الإسلامية ، لكارل بروكلمان ، بيروت ، ط٤ ، ١٩٦٥م، ج٢.

٤٧. تاريخ الأمم الإسلامية " الدولة العباسية" لمحمد الخضري بك ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، ١٩٧٠م.

٤٨. تاريخ بغداد ، للحافظ أبي بكر أحمد بن علي " الخطيب البغدادي " دار الكتب العلمية، بيروت.

٤٩. تاريخ ابن خلدون ، لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون المغربي ، دار الفكر ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م ج٤.
٥٠. تاريخ الخلفاء ، للسيوطي ، "جلال الدين عبد الرحمن" ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط٢ ، ١٣٧٨هـ = ١٩٥٩م.
٥١. تاريخ الفكر العربي ، لعمر فروخ ، دار العلم للملايين ، ١٣٩٢هـ=١٩٧٢م.
٥٢. تاريخ الفلسفة في الإسلام ، لدى بور ، ترجمة أبي ريذة ، مكتبة النهضة المصرية ، ط٥.
٥٣. تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام ، لمحمد علي أبي ريان ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧١م.
٥٤. تاريخ المذاهب الإسلامية ، لمحمد أبي زهرة ، طبع دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٩٦م.
٥٥. تاريخ الطبري ، لابن جرير "أبي جعفر محمد" ، ت محمد أبي الفضل إبراهيم ، دار المعارف مصر ، ط٣، ج٢.
٥٦. تجارب الأمم ، لأبي علي أحمد بن محمد المعروف بمسكوية ، مكتبة المثنى ، بغداد ، ١٣٣٣هـ.
٥٧. تجديد ذكرى أبي العلاء ، للدكتور طه حسين ، دار المعارف مصر ، ط٦ ، ١٩٦٣م.
٥٨. تطور الخمریات في الشعر العربي، لجميل سعيد ، مطبعة الاعتماد ، ١٩٤٥م.
٥٩. التكملة ، لأبي علي الفارسي، تحقيق شاذلي فرهود ، الشركة السعودية للطباعة ، ط١.

حرف الثاء

٦٠. الثقافات الأجنبية في العصر العباسي ١٣٢-٣٣٤هـ ، وصادها في الأدب ، لصالح آدم بيلو ، مكة المكرمة ، ط١ ، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.

٦١. ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، لأبي منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم.

حرف الحاء

٦٢. الحجة في القراءات ، للحسين بن أحمد بن خالويه ، تحقيق عبد العال سالم مكرم ، مؤسسة الرسالة ، ط ١ ، ١٤٢١هـ.

٦٣. حسن المحاضرة وأخبار المذاكرة ، للحافظ جلال الدين بن عبد الرحمن السيوطي ، تحقيق ، محمد أبي الفضل إبراهيم ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، ج ١.

٦٤. الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، لآدم متز ، ترجمة محمد عبد الهادي أبي ريدة ، ط ١، ج ١.

٦٥. الحيوان ، لأبي عثمان عمر بن بحر الجاحظ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ٣، ج ٣.

حرف الخاء

٦٦. خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب ، لعبد القادر بن عمر ، "البغدادي" تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مطبعة المدني ، مكتبة الخانجي، ج ٢.

٦٧. خزنة الأدب وغاية الأرب ، لتقي الدين أبي بكر علي الشهير بابن حجة الحموي ، طبع مصر ١٢٩١هـ.

٦٨. الخصائص ، لأبي الفتح عثمان ابن جني، تحقيق محمد علي النجار طبع دار الهدى ، بيروت ، ط ٢.

٦٩. خصائص التأليف النحوي في القرن الرابع الهجري ، للدكتور سعود ابن غازي أبي تاكي ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة، ط ١٤٢٥هـ.

٧٠. خطط الشام لمحمد كرد علي ، المطبعة الحديثة ، دمشق ١٩٢٥م.

حرف الدال

٧١. دراسة كتاب الأغاني ومنهج مؤلفه ، لداؤود سلوم ، دار النهضة العربية
القاهرة ، ١٩٧٧م.
٧٢. دراسات في تاريخ الفلسفة الإسلامية وآثار رجالها ، لعبده الشمالي ، دار
صادر ، بيروت ، ١٩٧٩م.
٧٣. دلائل الإعجاز، للشيخ الإمام أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن
الجرجاني ، علق عليه محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، د.ت.
٧٤. دمية القصر، وعصرة أهل العصر ، لأبي الحسن علي البخارزي، طبع
حلب، ١٩٣٠م.
٧٥. الديارات ، للشابشتي ، مكتبة المثنى بغداد ، ١٩٦٦م ، ١٣٨٦هـ.
٧٦. الدولة البيزنطية ، للبار العريني ، طبع دار النهضة العربية ، مصر
١٩٦٥م.
٧٧. ديوان ابن المعتز ، شرح يوسف شكري فرحات ، دار الجيل ، بيروت ،
ط ١٤١٥هـ=١٩٩٥م.
٧٨. ديوان أبي الطيب المتنبي، دار البيان، ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م.
٧٩. ديوان أبي الطيب المتنبي ، شرح عبد الرحمن البرقوقي ، دار الكتاب
العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٧هـ=١٩٨٦م.
٨٠. ديوان أبي الطيب المتنبي ، شرح العكبري ، تحقيق مصطفى السقا
وآخرين ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٥٦م.
٨١. ديوان أبي فراس ، رواية وشرح ابن خالويه ، دار صادر ، بيروت ،
١٣٨٥هـ=١٩٦٦م.
٨٢. ديوان أبي فراس ، شرح خليل النويهي ، دار الكتاب العربي ، ط ٤،
١٤٢٠هـ=١٩٩٩م.
٨٣. ديوان أبي فراس ، شرح عباس إبراهيم ، دار الفكر العربي ، بيروت،
ط ١، ١٩٩٤م.
٨٤. ديوان أبي فراس ، شرح كرم البستاني ، دار صادر ، بيروت ، ط ١،
١٩٩٢م.

٨٥. ديوان أبي فراس ،شرح يوسف شكري فرحان ، دار الجيل ، بيروت ، د.ت.
٨٦. ديوان خمريات أبي نواس، شرح علي نجيب عطوي، دار مكتبة الهلال، ط١، ١٩٨٦م.
٨٧. ديوان بشار بن بُرد ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، د.ت.
٨٨. ديوان الخالديين ، تحقيق سامي الدّهان ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، مصر ١٩٦٩م.
٨٩. ديوان خطب ابن نباتة ، دار نور الإسلام للتراث ، الخرطوم ، السوق العربي عمارة الأوقاف.
٩٠. ديوان خطب ابن نباتة الفارقي ، طبعة بيروت ، د.ت.
٩١. ديوان رسائل الخوارزمي ، مطبعة عبد الرحمن رشدي للطباعة والنشر ، د.ت.
٩٢. ديوان رسائل بديع الزمان الهمزاني ، طبعة الاستانة، د.ت.
٩٣. ديوان السري الرفاء ، عن نسختي : تيمور باشا والبارودي باشا، دار الجيل ، بيروت ، ١٤١٦هـ = ١٩٩١م.
٩٤. ديوان الشعر العربي ، لعلي أحمد سعيد " أونيس " منشورات المكتبة العربية ، حيدر أباد.
٩٥. ديوان الصنوبري ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان، ١٩٧٠م.
٩٦. ديوان كشاجم ، للنبيوي عبد الواحد شعلان ، مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر ، مكتبة الخانجي ، ط١ ، ١٤١٧هـ=١٩٧٧م.
٩٧. ديوان المتنبّي، دار الجيل، بيروت، د. ت.
٩٨. ديوان المتنبّي ، المكتبة الثقافية ، بيروت، د.ت.
٩٩. ديوان الوأواء الدمشقي ، تحقيق سامي الدّهان ، دار صادر بيروت ، ط٢ ١٤١٤هـ=١٩٩٣م.

حرف الذال

١٠٠. ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام ، لعبد الوهاب عزام ، ط٢، دار المعارف
مصر ١٩٥٦م.

حرف الراء

١٠١. رسالة الغفران ، لأبي العلاء المعري ، تحقيق عائشة عبد الرحمن "بنت
الشاطيء" ، دار المعارف ، مصر ، ط٤، ١٩٦٤م.

حرف الزاي

١٠٢. زاد المعاد ، لابن القيم الجوزية ، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة
الرسالة ، بيروت، ط٢، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م.

١٠٣. زبدة الحلب في تاريخ حلب، لابن النديم، تحقيق سامي الدّهان، طبع
دمشق، ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م.

حرف السين

١٠٤. ساعات بين الكتب، لعباس محمود العقاد، مكتبة النهضة المصرية،
القاهرة، ١٩٠٩م.

١٠٥. سر صناعة الأعراب ، لابن جني ، تحقيق حسن هنداوي ، دار العلم ،
دمشق ، دار العلوم الثقافية بيروت ، ط٢، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م.

١٠٦. سير أعلام النبلاء ، للإمام شمس الدين بن أحمد بن عثمان الذهبي ،
تحقيق شعيب الأناؤوط وآخرين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ط٧
١٤١٠هـ = ١٩٩٠م.

١٠٧. سيف الدولة وعصر الحمدانيين ، للدكتور سامي الكيالي ، طبع دار
المعارف ، مصر ، القاهرة ، ١٩٥٩م.

١٠٨. سيف الدولة الحمداني ، للدكتور مصطفى الشكعة ، الدار المصرية
اللبنانية ، ط٣ ، ١٤٢٠هـ = ٢٠٠٠م.

حرف الشين

١٠٩. شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، للمؤرخ الفقيه الأديب ، أبي الفلاح
عبد الحي بن العماد الحنبلي ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت.

١١٠. شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، للأنباري، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف مصر.
١١١. شعر الحرب في أدب العرب، لزكي المحاسني، دار المعارف، مصر، ١٩٦١م.
١١٢. الشعر والشعراء، لأبي محمد عبد الله مسلم بن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر، ١٩٦٦م.
١١٣. الشعر في رحاب سف الدولة، للدكتور سعود محمود عبد الجابر مؤسسة الرسالة.
١١٤. الشعر في ظل سف الدولة، للدكتور درويش الجندي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ١، ١٩٥٩م.

حرف الصاد

١١٥. صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، لأحمد بن علي القلقشندي، شرح محمد حسين شمس الدين، دار الفكر، لبنان، ط ١، ١٩٨٧م، ج ٦.
١١٦. الصبح المنبي عن حيثية المتنبى، ليوسف البديعي، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، دار المعارف، مصر.
١١٧. صحيح مسلم، للإمام أبي الحسن مسلم الحجاج القشيري، مطبعة الحلبي، ج ٤، د.ت.
١١٨. الصناعتين: الكتابة والشعر، لأبي هلال العسكري، تحقيق محمد علي البجاوي، ومحمد أبي الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب، ط ١، ١٩٥٢م.

حرف الطاء

١١٩. طبقات النحويين واللغويين، لأبي الحسن الزبيدي، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف مصر، ط ٢.
١٢٠. طبقات فحول الشعراء، لمحمد بن سلام الجمحي، شرح وتحقيق أحمد محمد شاكر، مطبعة القاهرة، ج ١.

حرف الظاء

١٢١. ظهر الإسلام ، لأحمد أمين ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٦٦م.

حرف العين

١٢٢. العالم الإسلامي في العصر العباسي ، لحسن أحمد محمود وإبراهيم الشريف ، دار الفكر العربي ، ط٥ ، د.ت.

١٢٣. العبر وديوان المبتدأ والخبر ، طبع بولاق ، ج٤ ، د.ت.

١٢٤. عبقرى اللغويين والنحويين ، أبو الفتح عثمان بن جني ، ٣٢١-٣٩٢ هـ ،
لعبد الغفار حامد محمد هلال ، طبع دار الفكر العربي ، القاهرة ،
١٤٢٦ هـ = ٢٠٠٦ م ، ج١-٢

١٢٥. العصر العباسي الثاني، لشوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٦.

١٢٦. العقد الفريد، لأحمد محمد بن عبد ربه، تحقيق محمد سعيد العريان،
طبعة دار الفكر، ج٣.

١٢٧. علم البيان، د. بدوي طبانة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٢م.

١٢٨. علماء العرب والمسلمين وأعلامهم، د. مصطفى الجيوسي، دار أسامة
للنشر، الأردن- عمان، د. ت.

١٢٩. العلماء العرب والمسلمين (الموسوعة الذهبية)، لعائدة مفلح الجبور،
وفاطمة علي العويدي، دار الخليج للنشر، ط١، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.

١٣٠. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لأبي الحسن علي بن رشيق
القيرواني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت،
ط٤، ١٩٧٢م، ج٢.

١٣١. عيون الأخبار، لابن قتيبة، طبع دار الكتب المصرية.

١٣٢. عيون الأنباء في طبقات الأطباء، لابن أبي أصيبعة، ط١، ١٢٩٩ هـ =
١٨٨٢م.

حرف الغين

١٣٣. الغدير في الكتاب والسنة والأدب، للأمني النجفي، دار الكتاب العربي،
بيروت، ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م، ط٢، ج٤.

حرف الفاء

١٣٤. فن الحرب الإسلامي في العصر العباسي، لبسام العسلي، دار الفكر للطباعة والنشر، ط١، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.
١٣٥. الفن ومذاهبه في الشعر العربي، لشوقي ضيف، طبع دار المعارف، مصر، ط٦.
١٣٦. فن الوصف وتطوره في الشعر العربي، لإيليا حاوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٧م، ط٢.
١٣٧. فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين، للدكتور مصطفى الشكعة، طبع مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٨م.
١٣٨. فوات الوفيات، لمحمد بن شاکر الکتبي، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج٢.
١٣٩. الفهرست، لأبي الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحق المعروف بالوراق (ابن النديم)، تحقيق رضا تجدد، دار المسرة، ط٣، طبع بيروت.
١٤٠. في الفلسفة الإسلامية، لإبراهيم مدكور، د. ت.
١٤١. في النقد الأدبي، لمحمد غنيمي هلال، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٩م.

حرف القاف

١٤٢. قداماء ومعاصرون، لسامي الدهان، دار المعارف مصر، ١٩٦١م.

حرف الكاف

١٤٣. الكامل في التاريخ، للشيخ العلامة، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير، دار صادر، بيروت، ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م. مجموعة من الأجزاء.
١٤٤. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، للحاج خليفة مصطفى بن عبد الله، مكتبة المثني، بغداد.
١٤٥. الكشف الزمخشري، عيسى البابي الحلبي، الطبعة الأخيرة.

١٤٦. الكشف عن مساوي شعر المتنبي ، للصاحب ابن عباد ، تحقيق محمد حسن آل ياسين ، مكتبة النهضة ، بغداد ، ١٣٨٥هـ=١٩٦٥م.

حرف اللام

١٤٧. اللباب في تهذيب الأنساب ، لعز الدين بن الأثير ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ، ج ١.

١٤٨. لسان العرب ، لابن منظور ، طبع دار المعارف ، دار صادر بيروت ، ١٩٦٢م.

١٤٩. لسان الميزان ، لابن حجر ، مطبعة دائرة المعارف النظامية ، حيدر أباد ، طبع ١٣٢٩هـ.

حرف الميم

١٥٠. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، لضياء الدين ابن الأثير ، تحقيق بدوي طبانة ، ١٩٥٩م.

١٥١. المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإفصاح عنها لابن جني ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٩هـ ، ج ١.

١٥٢. المحمدون من الشعراء ، وأشعارهم ، للوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف الشيباني القفطي ، تحقيق رياض عبد الحميد مراد ، دار ابن كثير ، دمشق ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠٨هـ=١٩٨٨م.

١٥٣. مختار الأغاني في الأخبار والتهاني ، لابن منظور المصري ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، الدار المصرية للترجمة والتأليف ، ط ٤ ، عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٣٨٥هـ=١٩٦٥م.

١٥٤. المختصر في أخبار البشر ، لعقاد الدين إسماعيل أبي الفداء ، المطبعة الحسينية المصرية ، ط ١ ، ج ١.

١٥٥. مجموع فتاوى ابن تيمية ، جمع وترتيب ، عبد الرحمن بن محمد النجدي ، مكتبة ابن تيمية لطباعة الكتب السلفية ، ط ٣ ، ١٤٠٣هـ.

١٥٦. المدارس النحوية ، لشوقي ضيف ، طبع دار المعارف ، مصر ، القاهرة.
١٥٧. مرآة الجنان ، وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، لليافعي ، مؤسسة الأعلمي ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٠م ، ج٢.
١٥٨. مروج الذهب ومعادن الجوهر، لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة القاهرة، .
١٥٩. المزهر في علوم اللغة ، للسيوطي تحقيق محمد أحمد جاد المولى ، وعلى محمد البجاوي، دار إحياء التراث العربي ، مصر ، مطبعة عيسى الياباني الحلبي.
١٦٠. المسالك والممالك ، لابن خردادبة ، "أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله" ، طبع ليدن ، ١٨٨٩م ، وطبع دار الفكر.
١٦١. مشاهير الموسيقيين العرب، لطارق عبد الحكيم، د.ت.
١٦٢. مطالعات في الكتب والحياة ، لعباس محمود العقاد ، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٩٢م.
١٦٣. مع المتنبى ، لطف حسين ، دار المعارف ، مصر، القاهرة، ط١٠.
١٦٤. معجم الأدباء ، لشهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي، دار الفكر ، ط١١ ، ج١٧.
١٦٥. معجم البلدان ، لشهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت ط٢ ، ١٩٩٥م، المجلد الثاني.
١٦٦. معجم قبائل العرب ، لعمر رضا كحالة ، دار العلم ، ط٢ ، ١٩٦٨م. ج١.
١٦٧. معجم المؤلفين ، لعمر رضا كحالة ، طبع بيروت ، مؤسسة الرسالة، ط١ ، ١٤١٤هـ=١٩٩٣م.
١٦٨. مقدمة ابن خلدون ، "عبد الرحمن بن خلدون" ، طبع دار الكتاب اللبناني، ١٩٥٨م ، ج٤.

١٦٩. من قضايا الأدب الإسلامي، للدكتور صالح آدم بيلو ، دار المنارة ، السعودية ، جدة، ١٤٠٣هـ.
١٧٠. مناهج التأليف عند العلماء العرب " قسم الأدب" لمصطفى الشكعة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان، ط٤، ١٩٨٢م.
١٧١. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي ، ط١، ١٩٣٠م، ج٧.
١٧٢. موسوعة شعراء العصر العباسي ، لعبد عون الروضان ، دار أسامة للنشر ، ج١ .
١٧٣. موسيقى الشعر لإبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٦، ١٩٨٨م.
- حرف النون**
١٧٤. النثر الفني في القرن الرابع ، للدكتور زكي مبارك ، دار الكتب المصرية.
١٧٥. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، لابن تغري ، بردي نسخة مصورة من طبعة دار الكتب ، مصر.
١٧٦. نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، لأبي البركات كمال الدين عبد الرحمن محمد الأنباري ، تحقيق إبراهيم السامرائي ، دار المنار، ط٣ الأردن ، ١٤٠٥هـ=١٩٨٥م.
١٧٧. نصوص الفصول ، وعقود العقول، لابن سناء الملك ، ت، محمد محمد عبد الجواد ، طبع مؤسسة المختار ، القاهرة، ط١ ، ١٤٢٦هـ=٢٠٠٥م.
١٧٨. نصوص نحوية ، لفخر الدين قباوة، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، لبنان ، دار الفكر دمشق ، سوريا، ط٢، ١٤٢١هـ=٢٠٠٠م.
١٧٩. نظرية الفن ، لسوبر فيل ، ط٤ ، ١٩٥٧م.
١٨٠. نقد الشعر ، لقدامة بن جعفر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٢هـ=١٩٨٢م.

١٨١. نهاية الأدب في معرفة أنساب العرب، لأبي العباس أحمد القلقشندي،
تحقيق إبراهيم الأنباري ، دار الكتاب المصري القاهرة ، دار الكتاب
اللبناني ، بيروت .

١٨٢. نوابغ الفكر العربي، الفارابي، لسعيد زايد، دار المعارف، ط٤.

حرف الواو

١٨٣. الوافي بالوفيات ، لصلاح الدين بن أيبك الصفدي ، تحقيق أحمد
الأرناؤوط وزكي مصطفى ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت.
١٨٤. الوزراء والكتاب ، للجهشياري، تحقيق مصطفى السقا ، وآخرين ، مكتبة
عيسى البابي الحلبي ١٣٥٧هـ=١٩٣٧م.

١٨٥. وفيات الأعيان وأنباء الزمان ، لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد
بن أبي بكر بن خلكان ، تحقيق ، إحسان عباس ، دار الثقافة بيروت.

حرف الياء

١٨٦. ينيمة الدهر في محاسن أهل العصر، لأبي منصور عبد الملك الثعالبي،
شرح وتحقيق مفيد محمد قميحة ، دار الكتب ، بيروت ، ط ١ ،
١٤٠٣هـ=١٩٨٣م مجموعة أجزاء.

الفهرست

| الرقم | الصفحة |
|-------|---|
| | الإهداء |
| | الشكر والتقدير |
| | المقدمة |
| | الفصل الأول |
| | : صورة الحياة في العصر العباسي الثاني وفي دولة بني حمدان. |
| | : الحياة السياسية والاقتصادية. |
| | : الحياة الاجتماعية. |
| | : الحياة الثقافية. |
| | : الأسباب التي أدت إلى ازدهار العلوم والفكر وارتقاء الآداب والشعر في بلاط الأمير سيف الدولة. |
| | الفصل الثاني |
| | : أعلام الشعراء في ظل الأمير سيف الدولة |
| | : المتنبي وأبوفراس. |
| | : النامي والبيغاء . |
| | : السري الرفاء والخالديان. |
| | : الصنوبري وكشاجم. |
| | : ابن نباتة السعدي، الوأواء دمشقي. |
| | الفصل الثالث |
| | : أغراض الشعر وفنونه وخصائصه في ظل الأمير سيف الدولة |
| | : الإغراض التقليدية " المديح ، الفخر، الرثاء" |
| | : الأغراض التقليدية المتطورة : الهجاء ، الغزل، الخمر، الشكوى ، الإخوانيات ، التشيع ، الصيد والطرْد. |
| | : الأغراض المستحدثة: وصف الطبيعة، وصف مظاهر الحياة الاجتماعية، شعر الجهاد والحرب. |
| | : الخصائص الفنية" الموضوعية والأسلوبية" للشعر في ظل الأمير سيف الدولة |

| | | |
|--|---|--------------------------|
| | مفكرون حول سف الدولة | : الفصل الرابع |
| | الفارابي. | : المبحث الأول |
| | ابن جني ، وابن خالويه ، وأبو علي الفارسي. | : المبحث الثاني |
| | أبوبكر الخوارزمي ، وأبو الفرج الأصفهاني. | : المبحث الثالث |
| | ابن نباتة الفارقي. | : المبحث الرابع |
| | مفكرون آخرون "ابن كشكرايا، وأبو الطيب اللغوي، وكشاجم". | : المبحث الخامس |
| | ملامح الإنتاج الفكري والجهود العلمية عند العلماء في ظلال الأمير سيف الدولة وأهم خصائصه. | : الفصل الخامس |
| | ملامح الإنتاج الفكري والجهود العلمية في: فلسفة وفكر الفارابي. | : المبحث الأول |
| | ملامح الإنتاج الفكري والجهود العلمية عند: ابن جني، من خلال كتابيه: الخصائص والمكتسب. | : المبحث الثاني |
| | عند ابن خالويه من خلال كتابه إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم | |
| | عند أبي علي الفارسي من خلال كتابه: الإيضاح والتكملة | |
| | ملامح الكتابة عند عبد العزيز الخوارزمي من خلال ديوان رسائله. | : المبحث الثالث |
| | أبو الفرج الأصبهاني وكتابه "الأغاني" | |
| | ملامح الخطابة عند ابن نباتة الفارقي من خلال ديوان خطبه. | : المبحث الرابع |
| | الخصائص الفنية للنثر التأليفي ، والنثر الإنشائي في ظلال الأمير سيف الدولة. | : المبحث الخامس |
| | | : الخاتمة |
| | | : التوصيات |
| | | : قائمة المصادر والمراجع |
| | | : الفهرست |

بسم الله الرحمن الرحيم

السيرة الذاتية

البطاقة الشخصية:

- ١- الاسم: أمانويل أفرستو ليمي جمعة
- ٢- تاريخ الميلاد: ١٩٨٥/١/١ م
- ٣- مكان الميلاد: جوبا
- ٤- الجنسية: سوداني
- ٥- القبيلة: كاكوا
- ٦- الحالة الاجتماعية: عازب
- ٧- الموطن الأصلي: ياي
- ٨- الهواية: قراءة الصحف والمجلات - كرة القدم
- ٩- التليفون: ٠٩١٥٢٥٢٦٦٨
- ١٠- شخص يمكن الرجوع إليه: حكيم أرابا: هاتف: ٠٩١٨٢٨١٩٦٠

المراحل التعليمية:

| | | |
|---------------|------------------------------|--------------|
| ١٩٩٣ - ٢٠٠١ م | مدرسة صداقة لمرحلة الأساس | ١- الأساس: |
| ٢٠٠١ - ٢٠٠٤ م | مدرسة روكن الثانوية العامة | ٢- الثانوية: |
| ٢٠٠٤ - ٢٠٠٨ م | جامعة النيلين - كلية القانون | ٣- الجامعية: |

الخبرات العملية:

| مدة العمل | مكان العمل | المهنة |
|-----------|--|---------------------------------------|
| ٤ سنوات | مدرسة ميتا ديك الخاصة | معلم |
| ٣ سنوات | رابطة الاستوائية الكبرى بجامعة النيلين | نائب الأمين العام والسكرتير الأكاديمي |
| ١ سنة | شركة أواب للخدمات الأمنية | فرد أمن |

الدورات التدريبية:

- ١- دورة في الكمبيوتر ٤ شهور - معهد مار يوسف للتدريب المهني
- ٢- دورة في التدريس - ٤ سنوات - مدرسة ميتا ديك الخاصة لمرحلة الأساس
- ٣- دورة في النيابة العامة - ٤ أشهر

اللغات التي أجيدها:

- ١- اللغة العربية ٢- اللغة الإنجليزية